

التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

تأليف

عبد الحميد محمود طه

المجلد الثاني:

ويحتوي على تفسير هذه السور:

النساء - المائدة - الأنعام

دار القلم
دمشق



التفسير الموضوعي
لِسُورِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

أسَّسَهَا:
محمَّد بن عبد الله بن قيس
سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٢٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

ISBN 978-9933-29-024-5



9 789933 290245

تفسير سورة النساء حقوق الإنسان في سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَاتِلَةِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد: فإن من أبرز ما أفرزته الحضارة المادية الغربية المعاصرة كثرة العدوان على حقوق الناس ومصادرتها، وهو ما تؤكد الأصوات الكثيرة المرتفعة من كل مكان، الداعية إلى الدفاع عن المظلومين، وحماية حقوق المضطهدين، ومساعدة اللاجئين والنازحين عن بلادهم وأوطانهم، فراراً من الظلم والطغيان.

واهتمت الشريعة الإسلامية، التي أنزلها الله تعالى برحمته، لرعاية مصالح الناس وهدايتهم، بحقوق الإنسان اهتماماً كبيراً، حتى قرنت بينها وبين حقوقه تعالى على عباده، وقدّمته في كثير من الحالات عليها.

ولقد اهتمت سورة النساء بشكل خاص بحقوق الإنسان، ودارت معظم آياتها في فلكه، فقد قررت في أول آياتها وحدة الأصل الإنساني للبشر، ومساواتهم في دين الله تعالى وشرعه، وربطت بين حقوق الله تعالى وحقوق الإنسان، إذ هو تعالى خالق الإنسان ومالك أمره، وهو الذي شرع له هذه الحقوق، وأمر الناس أن يتقوه بالتزامها واحترامها.

وكلّما تشعبت أفكار السورة وموضوعاتها، عادت إلى التذكير بحقوق الإنسان وتعظيمها، ولعلّ هذا سبب تأخير إحدى آيات الميراث إلى ختامها. ولم تقرر السورة هذه الحقوق تقريراً جامداً جافاً، كما هو الحال في القوانين والتشريعات الوضعية، بل جاء تقريرها بأسلوب التربية والتهديب، فالقرآن الكريم كتاب هداية وتربية، يربّي ويشرّع في آن واحد، ومن خلال تهذيبه للنفوس وتربيتها شرع الكثير من الأحكام المتصلة بحقوق الناس على بعضهم. وركزت السورة في صدرها على حقوق الضعفاء في المجتمع، وخاصةً اليتامى والنساء، وهما الجانبان المستضعفان في المجتمعات الجاهلية، فاهتمت الآيات بهم اهتماماً كبيراً، وقرّرت لهم حقوقهم الإنسانية الكاملة، وأمرت الأولياء والأوصياء والقضاة وولاة الأمر بالمحافظة عليها، وأبرزت من خلال ذلك حقّ الإنسان في الملكية الفردية المشروعة، وحقه في سلامة عرضه وحياته وعقيدته وعبادته.

وغاصت الآيات إلى أعماق النفس البشرية، فكشفت الأمراض والآفات النفسية التي تدفع الناس إلى العدوان على حقوق بعضهم، كآفات الحسد والبخل والكبر والعجب والرياء، وعرضت شرائح من أبناء المجتمع المدني في عصر التنزيل، أصيبوا بهذه الآفات وابتلوا بها، تحذيراً لعامة الناس منها. واهتمت الآيات بتشريع الجهاد، وجعلت من مقاصده الدفاع عن حقوق المستضعفين من الناس، كما بيّنت حرص الشريعة الإسلامية على حياة الناس، فأمرت المجاهدين بالثبّت في أثناء القتال، فالجهاد ما شرعه الله تعالى للقتل وسفك الدماء، وإنما شرعه سبحانه لغايات سامية رفيعة، منها تأمين الحقوق والمحافظة عليها.

وحضّت الآيات الناس على أن يحرصوا على حقوقهم، ويتمسكوا بها، وأمرتهم أن يسعوا بأنفسهم لسلامتها، وشرعت لهم الوسائل التي تسلم بها حقوقهم، كالهجرة من البلد الذي لا تصان فيه الحقوق، وكالتشهير بالظالمين وفضحهم، وتحذير الناس من ظلمهم وبغيهم.

ووقفت الآيات عند حادثة بني الأبيرق، فأبرزت حقاً من أهم حقوق الإنسان،

وهو براءة ذمته حتى تثبت إدانته، وبينت أيضاً من خلال ذلك اهتمام الإسلام بمبدأ العدل، وأداء الأمانات، وإيصال الحقوق إلى أصحابها، وأداء الشهادة بالصدق والحق، وربطت كل ذلك بتقوى الله تعالى وعبادته وحده، فإن مراعاة حقوق العباد جزء لا يتجزأ من حقه تعالى عليهم بتوحيده وعبادته وحده سبحانه.

وردت الآيات على أهل الكتاب، الذين جحدوا نبوة النبي ﷺ، وطعنوا في صحة رسالته، فبينت بطلان عقائدهم، وعدوانهم على حقوق الناس، وأكلهم أموالهم بالباطل، وجرأتهم على الأنبياء ﷺ، بالافتراء على بعضهم، وقتل آخرين، ثم توجت كل ذلك بشهادته تعالى على صدق نبوة النبي ﷺ وصحة رسالته، وأنها الرسالة العامة التي ختم الله تعالى بها رسالاته إلى الناس، ورضيها لهم ديناً وشرعاً يحمي بها حقوقهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد جاء تفسير هذه السورة - بحمد الله تعالى - في فصوله السبعة، متفقاً تماماً مع موضوع السورة الأساس، ومنسجماً مع تسلسل آياتها:

- الفصل الأول: حقوق الضعفاء.
- الفصل الثاني: آفات نفسية.
- الفصل الثالث: الحكم بشريعة الله تعالى.
- الفصل الرابع: التكليف بالجهاد والحض عليه.
- الفصل الخامس: حادثة بني الأبيرق.
- الفصل السادس: الثبات على الإيمان والتزام التقوى والعدل.
- الفصل السابع: عقائد أهل الكتاب.

إن هذا التفسير دعوة إلى الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية، يبين المستوى الإنساني الرفيع الذي بلغته أحكام هذه الشريعة، من خلال مصدرها الأول كتاب الله تعالى.

أسأله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم. اللهم آمين.

اللهم صلّ على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الْفَضِيلَةُ الْأُولَى

حقوق الضعفاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدَلُوا الْحَقِيقَةَ بِالطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَثِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَىٰ وَرَبِحَ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَسَاءً فَاكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُوْثِقُوا الشَّهَاءَ أَمْوَالِكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَحْضِرَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً صَعْلًا حَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْتَقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا يُؤْتِيهِ لِلْكَلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَنْدَرُونَ أَيْهِمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَرْوَابُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّتُ بِهَا أَوْ ذِرْبٌ وَلَهُنَّ مِنَ الرَّبْعِ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوَصُّونَ بِهَا أَوْ ذِرْبٌ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَالَّذِي أَوْ أَمْرًا وَلَهُ أُنْثَى أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِمَّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّى بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرَ مُضَاكَّرٍ وَصِيَّتِهِ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢﴾

يَلَاكِ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِمٌ ﴿١٤﴾ وَالَّذِي يَأْتِيكَ مِنَ الْفَدْحِشَةِ مِنْ نِسَائِكَ فَاسْتَشِيرُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَازِفُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنِّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَدْحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتِّنَا وَإِنَّمَا مَثَبُنَا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُمْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢٠﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢١﴾

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَأُمَّهَاتُكُمْ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ

وَرَبِّبْتُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ
 بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ أَوْلَادِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا
 بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ
 النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَتَّبِعُوا بِأَمْوَالِكُمْ
 مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِهِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا
 تَرَاصَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَن
 يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْنَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ
 غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُنْجَذَبَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنَّ أَيْمَانَ بِنَحِيصَتِهِنَّ نِصْفٌ مَا عَلَى
 الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَمَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصِيرُوا خَيْرَ لَّكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ
 رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا
 مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَطْلِ إِلَّا أَن تَكُونَ بَحْكَرَةً عَنْ تَرَاصٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا
 أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهُ نَارًا
 وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَحْتَسِبُوا كِبَارًا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ
 سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

• الأصل الإنساني الواحد:

بدأت سورة النساء بتقرير وحدة الأصل الإنساني لجميع البشر، من خلال
 هذا النداء الإلهي العلوي الموجه إليهم جميعاً، سواءً في ذلك الموجودون في
 عصر التنزيل، وكل من يأتي بعدهم إلى قيام الساعة:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقُوا رَبَّكُمُ﴾ بخشيته وطاعته، والتزام أحكام شريعته، فهو سبحانه خالقكم ومربيكم ومالك أمركم شتم أم أبيتم .

وظهرت في هذا النداء المناسبة بين توحيد الحق سبحانه، ووحدة الأصل البشري، ودلت كلمة ﴿رَبِّكُمْ﴾ على صلة المخاطبين بالله تعالى، وأن عليهم أن يحافظوا على هذه الصلة، بعبادته سبحانه وحده، والتزام أحكام شريعته .

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ والمراد بها نفس آدم ﷺ .

وهذا دليل على كمال قدرته تعالى، وأنه حقيق أن يُتقى، فإن خلق الناس من نفس واحدة، مع ما بينهم من اختلاف في الأجناس والصفات والألوان والمواهب والمَلَكات، من أعظم الدلائل على وجوده تعالى، وكمال قدرته وحكمته، ولهذا قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ أَسْنِينَكُمْ وَالْوَنُكُرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] .

وفي الآية ردُّ على الماديين المنكرين لوجود الخالق ﷻ، قال الفخر الرازي رحمه الله: «فلو كان الأمر بالطبيعة والخاصية لكان المتولد من الإنسان الواحد لم يكن إلا أشياء متشاكلة في الصفة، متشابهة في الخلقة والطبيعة، فلما رأينا في أشخاص الناس: الأبيض والأسود، والأحمر والأسمر، والحسن والقبيح، والطويل والقصير، دل ذلك على أن مدبرها وخالقها فاعل مختار، لا طبيعة مؤثرة، ولا علة موجبة»^(١) .

وذكر سبحانه هذا المعنى أيضاً في قوله الكريم: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْفَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤] .

(١) التفسير الكبير: ١٦٥/٩ .

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: وخلق من نفس آدم زوجه، وهي المرأة الأولى، خلقها تعالى من جزء من أجزاء آدم ﷺ، وقد بين النبي ﷺ هذا الجزء الذي خُلِقَتْ منه حواءُ فقال: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عَوْجٌ، وَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسَرْتُهَا طَلَّقْتُهَا» [رواه مسلم (١٤٦٦)].

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً وهو يوصي بالنساء: «واستوصوا بالنساءِ خيراً، فإنهنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرْتُهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا» [رواه البخاري (٥١٨٦)].

قال ابن حجر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله: «فإنهنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلْعٍ» بكسر الضاد وفتح اللام، وقد تسكن، وكانَّ فيه إشارة إلى ما أخرجه ابن إسحاق في المبتدأ عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ حَوَاءَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ الْأَقْصَرِ الْأَيْسَرِ وَهُوَ نَائِمٌ» وكذا أخرجه ابن أبي حاتم وغيره من حديث مجاهد^(١).

فالمراد من ﴿زَوْجَهَا﴾ الأم الأولى للبشر، والزوج في لغة العرب يطلق على الرجل والمرأة، لأنَّ الرجل يكون منفرداً، فإذا اتخذ امرأةً فقد صار زوجاً، وأصبح كل واحد منهما زوجاً للآخر، وكلمة: زوجة، لغة رديئة، وشاعت عند الفقهاء ليميزوا بينها وبين الرجل، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

فالمرأةُ خُلِقَتْ من بعض أجزاء الرجل، وعندها لهذا السبب ميل ونزوع فطري وطبيعي إليه، وكذلك عند الرجل ميلٌ إلى المرأة وأنسٌ بها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

(١) فتح الباري: ٢٥٣/٩.

وهذا ينفي التصورات السخيفة التي كانت سائدة بين الناس، والتي ترى أنّ المرأة منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشر والبلاء^(١).

﴿وَبَتَّ مِنْهُمَا﴾ أي: نشر سبحانه منهما بالتوالد والتناسل.

﴿رَبَّالْأَكْثَرِ نِسَاءً﴾ أي: ونساء كثيرة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿سَرَّيْلَ

تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: وتقيكم البرد.

ورأى بعضهم في ذلك تنبيهاً على أنّ اللائق بحال الرجال الظهور

والاشتهار، وبحال النساء الاختفاء والخمول^(٢).

ودلت الآية على أنّ جميع البشر أسرة إنسانية واحدة.

• مبادئ في التواصل والتعاون:

ثم كررت الآية الأمر بالتقوى، إشعاراً بأهميتها، وخاصةً في مجال

الصلوات الاجتماعية بين الناس، ولهذا جاء في المرة الثانية مقروناً بذكر

الأرحام، التي هي أهم أسباب التواصل والتقارب بين الناس:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أي: اتقوا الله الذي يسأل بعضكم بعضاً

به، وذلك بطاعته، وترك معصيته، واتقوا الأرحام بصلتها وعَدَمِ قطعها.

وأصل ﴿تَسَاءَلُونَ﴾ تتساءلون، وقرئت: (تَسَاءَلُونَ) بإدغام التاء في السين،

وقرأ بعضهم: (الأرحام) بالخفض عطفاً على الضمير (به) أي: تتساءلون بالله

وبالأرحام، كقولك: سألتك بالله وبالرحم، وناشدتك بالله وبالرحم. وكان من

عادة العرب أن يقولوا ذلك.

والسؤال بالأرحام ضربٌ من الاستعطاف، وليس قَسَمًا بها، والمراد منها

الأقارب، فتشمل كل من يجمع بينك وبينه نسب وإن بعد^(٣).

وبهذا المعنى يكون في الآية تعريضٌ بعاداتهم في الجاهلية؛ إذ كانوا

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١/٥٧٤.

(٢) تفسير الخازن: ٣/٢.

(٣) روح المعاني: ٤/١٨٥.

يتساءلون بينهم بالرحم وأواصر القرابة، ثم يهملون حقوقها، ولا يصلونها، ويعتدون على الأيتام من إخوانهم وأبناء أعمامهم، فناقضت أفعالهم أقوالهم^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي: حافظاً عالماً لا يغيبُ عنه شيء من أمر خلقه، فهو مراقب لجميع أعمالكم وأحوالكم، كما جاء في الحديث الصحيح: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم (٨)].

ففي الآية تقريرٌ للمساواة بين الناس في الأصل الواحد، وحثٌّ لهم على التواصل والتعاون والتعارف، واحترام حقوق بعضهم، قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويتأكد الأمر بالتواصل والتعاون كلما ازدادت صلات القرابة بين الناس وقويت. قال القرطبي رحمته الله: «اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة وأن قطيعتها محرمة، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأسماء رضي الله عنها وقد سألته: أأصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك»، فأمرها بصلتها وهي كافرة، فلتأكيد هذا دخل الفضل في صلة الكافر»^(٢).

والناس في أشد الحاجة إلى هذه المبادئ مبادئ المساواة والتعارف والتعاون والتواصل، ولا يمكن للإنسان أن يتمتع بحقوقه الإنسانية إلا في ظلها، ولهذا قررها تعالى في أول آيات السورة، بكل هذه الصراحة والوضوح والحزم والإلزام.

● المحافظة على أموال اليتامى:

وبادرت الآيات بعد إعلان هذه المبادئ إلى تشريع الأحكام التي تضمن تطبيقها بين الناس، فالإسلام لا يكتفي بإعلان المبادئ البراقة، ويتركها خالية فارغة من مضمونها.

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٢١٨/٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٦/٥.

وبدأت الآيات بتشريع الأحكام، التي تكفل حماية حقوق الضعفاء في المجتمع، فالمجتمع الذي يتمتع الضعفاء فيه بحقوقهم كاملة، لا بد أن يكون مجتمعاً إنسانياً كريماً، يتمتع جميع أفرادَه بحقوقهم الإنسانية الكاملة. والمستضعفون من الأيتام والنساء في المجتمعات الجاهلية حقوقهم مهدورة وأموالهم مأكولة؛ ولهذا توجهت الآيات بالخطاب إلى أوصياء الأيتام وأوليائهم تأمرهم بالمحافظة على أموال الأيتام، وتحذّرهم من التفريط بها والعدوان عليها:

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْأَسْفَلِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَثِيرًا ۖ﴾

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: إذا بلغوا ورشدوا - كما سيأتي -.

واليتيم: الإنسان الصغير الذي مات أبوه، من اليتيم، وهو الانفراد، ومنه الدرّة اليتيمة لانفرادها، ويقع اسم اليتيم على الصغير والكبير لغة، لبقاء معنى الانفراد عن الآباء، لكن في العرف اختصّ اسم اليتيم بمن لم يبلغ مبلغ الرجال، فإذا بلغ الصبي وصار يستغني بنفسه عن غيره زال عنه اسمُ اليتيم^(١). وفي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا يُتَمَّ بعدَ احتلامٍ» [رواه أبو داود (٢٨٧٣)].

ويستدعي تسليمُ اليتامى أموالهم عند بلوغهم المحافظة عليها، فالمراد بإيتاء أموالهم، قطع المخاطبين أطماعهم الفارغة عنها، وكفّ أكفهم الخاطفة عن اختزالها، وتركها على حالها غير متعرّض لها بسوء، حتى تأتيهم وتصل إليهم سالمة^(٢).

ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

(١) تفسير الخازن: ٥/٢.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٣٩/٢.

﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أي: لا تستبدلوا أموال اليتامى المحرمة عليكم بأموالكم، فتركوا أموالكم الحلال، وتأكلوا الحرام من أموالهم، فالخبِيثُ والطَّيِّبُ: الحرام والحلال.

وقد يكون المراد من الخبيث والطيب: الرديء والجيد، وكان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم، ويجعلون مكانه الرديء، فيأخذ أحدهم الشاة السمينة، ويجعل مكانها الهزيلة، ويأخذ الدرهم الجيد، ويجعل مكانه الزائف، ويقول: شاة بشاة ودرهم بدرهم، فذلك تبديلهم، فهو عنه^(١).

ثم نهاهم سبحانه عن منكر آخر كانوا يتعاطونه، فقال:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: لا تأكلوها مضمومةً إلى أموالكم، ولا تسواها بينهما في الأكل، فهذا حلال وذاك حرام.

أو: لا تأكلوها مع أموالكم.

﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: إن أكل أموالهم ذنبٌ عظيم فاحذروا من الوقوع فيه.

• تحريم ظلم البنات اليتامى:

ثم نهاهم سبحانه عن منكرٍ آخر كان شائعاً بينهم في الجاهلية، يتعلّق بحقوق البنات اليتامى، فقال:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعًا فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ أي: إن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهن.

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن.

فالآية تحرصُ على دفع الظلم المتوقع عن اليتيمات، ولهذا بالغت في

(١) تفسير الخازن: ٥/٢.

صرفهم عنهنّ، وترغيبهم بغيرهنّ من النساء، ففيها مسارعة إلى دفع الشرّ قبل وقوعه، فربّ واقع لا يُرفع^(١).

وكانوا قبل نزول الآية يتزوّجون من تحلّ لهم من اليتامى، لا رغبةً فيهنّ، بل في مالهنّ، ويسئنون في صحبتهنّ ومعاشرتهنّ، أو لا يعطونهنّ مهوراً أمثالهن من النساء؛ بينت ذلك السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سألتها عروة بن الزبير عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ فقالت: يا ابن أخي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها، تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليّها أن يتزوّجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهنّ، إلا أن يقسطوا لهنّ، ويبلغوا لهنّ أعلى سنتهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

قال عروة: قالت عائشة: وإنّ الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وآله بعد هذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٧] وقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَتَرَعْبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] رغبةً أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال. قالت: فنهوا أن ينكحوا عمّن رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن إذا كن قليلات المال والجمال. [رواه البخاري (٤٥٧٤)].

ونبه ابن حجر رحمته الله إلى أن قول عائشة رضي الله عنها: وقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَتَرَعْبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾ كذا وقع في رواية صالح، وليس ذلك في آية أخرى، وإنما هو في الآية نفسها، وهي قوله تعالى: ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ...﴾ [النساء: ١٢٧]^(٢)، كما سيأتي إن شاء الله.

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ١٤٢/٢.

(٢) فتح الباري: ٢٤٠/٨.

• تشريع تعدد الزوجات:

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعًا﴾ أي: ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، لا يزداد على ذلك.

وبهذا تكون الآية قد أضافت بيان حكم شرعي آخر، إلى جانب تحريم ظلم اليتامى من النساء، وهو مشروعية تعدد الزوجات، فيجوز لكل رجل أن يختار لنفسه قسماً من هذه الأقسام بحسب حاله، فإن قدر على نكاح اثنتين فائتنان، وإن قدر على ثلاثٍ فثلاثٌ، وإن قدر على أربعٍ فأربعٌ. لا أنه يضم عدداً. وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع نسوة، وأن الزيادة على أربع من خصائص رسول الله ﷺ، التي لا يشارِكُه فيها أحد من الأمة^(١).

فالمقام مقام امتنان وإباحة، ولو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره، قال الشافعي رحمه الله: وقد دلَّت سنة رسول الله ﷺ، المبيِّنة عن الله، أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة. وهذا الذي قاله الشافعي مجمّع عليه بين العلماء^(٢).

روي: أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحتته عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعاً» [رواه أحمد (١٤/٣) والترمذي (١١٢٨) وابن ماجه (١٩٥٣)].
والجدير بالذكر أن تعدد الزوجات كان مشروعاً في الشرائع السابقة وشائعاً بين الأمم من دون حد، فالشريعة الإسلامية هي التي حددت التعدد، ومنعت الزيادة على أربع.

ولم يكتفِ الإسلام بالتحديد ويتركه لهوى الرجل، بل قيده بالعدل، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

(١) تفسير الخازن: ٧/٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٥٦/١.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ أي: إن خفتم ألا تعدلوا بين أربع زوجات، أو بين ثلاثٍ أو ثنتين، فاختراروا واحدة، أو: فحسبكم واحدة، واتركوا الجمع.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: أو ما ملكتم من الإماء السراري بالتملك المشروع، وقد قيدته الشريعة الإسلامية بشروط وقيود، بحيث يندر تحققه.

﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي: اختيار الزوجة الواحدة أقرب إلى ألا تميلوا عن الحق وتجوروا.

قال بعضهم: إن فيها إشارة إلى استحباب الزيادة على الواحدة لمن لم يخف عدم العدل، لأنه سبحانه قدّم الأمر بالزيادة، وعلّق أمر الواحدة بخوف عدم العدل، ويا ما أُحِيلَى الزيادة إن اتلفت الزوجات^(١).

وأما إن خاف الجور فيمنع من التعدد، ويحرم عليه، درءاً لمفسدة الظلم، فما يؤدي إلى الحرام فهو حرام في الشريعة الإسلامية، والعدل مطلبٌ أساس هام في التشريع الإسلامي، كما سيأتي.

والعدل الواجب على الزوج بين نسائه هو العدل الذي يقدر عليه، وذلك بالتسوية بينهم في النفقة والمبيت والصحة وحسن العشرة، ولا يكلف أن يعدل بينهم فيما لا قدرة له عليه، وهو الميل والمحبة، فذلك من أعمال القلب، ولا سلطان للإنسان على قلبه، وسيأتي قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «اللهم هذا قسمني فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» [رواه أبو داود (٢١٣٤) والنسائي (٦٤/٧) والترمذي (١١٤٠) وابن ماجه (١٩٧١) وابن حبان (٤١٩٤)] قال الترمذي: يعني به الحب والمودة، كذلك فسره أهل العلم.

ولتعدد الزوجات في الإسلام حكمٌ كثيرة، أفاض العلماء في الحديث

(١) روح المعاني: ١٩٦/٤.

عنها، وأفردها بعضهم بالتأليف^(١)، ويكفي أن نذكر أنّ الخلل الاجتماعي الذي تشهده كثير من المجتمعات البشرية المعاصرة، نتيجة زيادة عدد النساء على الرجال، بسبب كثرة القتل بين الرجال في الحروب المدمرة، الأمر الذي يجعل من تعدد الزوجات أمراً لازماً لحل هذه المشكلة، فضلاً عن كثير من العقبات التي تواجه كثيراً من الأزواج، كعقم الزوجة أو مرضها مرضاً يمنع زوجها من الاتصال بها، أو مسارعة الضعف والشيخوخة إليها، أو شدة الغريزة عند بعضهم، بحيث لا تكفيه امرأة واحدة لتحصينه وحمايته من شرور الزنى ومفاسده^(٢).

• حق الزوجة في المهر:

ثم قررت الآيات حق المرأة المنكوحه في المهر مطلقاً، اليتامى في ذلك وغيرهنّ سواء، فوجهت الخطاب إلى الأزواج، لأنهم المكلفون بذلك، وإلى الأولياء الذين يأخذون مهوراً بناتهم ونسائهم:

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٤﴾﴾

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أي: أعطوهنّ مهورهنّ عطيةً من الله تعالى للمرأة، أو: عطيةً عن طيب نفسٍ منكم.

والتعبير عن إيتاء المهور بالنحلة، مع كونها واجبةً على الأزواج، لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب خاطر^(٣).

﴿فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ أي: فإن طابت نفوسهنّ عن شيء من ذلك الصداق فوهبته لكم.

(١) انظر كتاب: هل نملك تحريم تعدد الزوجات؟، للأستاذ بسام عبد الوهاب الجابي، من منشورات دار ابن حزم في بيروت. (الناشر).

(٢) انظر: الزواج في الإسلام، للمؤلف، ص ٧٩.

(٣) تفسير أبي السعود: ١٤٣/٢.

﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ أي: فكلوه طيباً سائغاً لا إثم فيه ولا ملامة.

وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك، ووجوب الاحتياط؛ حيث بنى الشرط على طيب النفس فقال: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَنَسَا﴾ ولم يقل: فإن وهبن لكم^(١)، فلا يحلُّ أخذ ما تدفعه المرأة بسيف الحياء أو بالقهر والإكراه وسوء المعاملة.

ودلت الآية أيضاً على أنَّ المهر حقُّ المرأة، فلا يجوز لوليها أن يزوجهَا من دون مهر، فإن فعل ذلك فلها مهرٌ أمثالها من النساء.

ففي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الشُّغارِ. والشُّغارُ: أن يزوّج الرجلُ ابنته على أن يزوّجَهُ الآخرُ ابنته، ليسَ بينهما صداقٌ. [رواه البخاري (٥١١٢)].

وذكرُ البنتِ في تفسير الشُّغارِ مثلاً، وقد تقدّم في رواية أخرى ذكر الأخت، قال النووي: أجمعوا على أن غير البنات من الأخوات وبنات الأخ وغيرهن كالبنات في ذلك^(٢).

• الحجر على السفهاء:

وكما اهتمت الآيات بالمحافظة على الحقوق الخاصة بأبناء المجتمع، وخاصة الضعفاء، اهتمت أيضاً بالحقوق العامة للمجتمع، فالشريعة الإسلامية شريعة شاملةٌ كاملةٌ، تلبي جميع حاجات الناس التشريعية، الفردية والاجتماعية، وتقيم توازناً بين حقوق الفرد الخاصة وبين حقوق المجتمع العامة، ففي الوقت الذي تقرُّ حقوق الأفراد وتصونها لهم، تقرُّ أيضاً حقوق المجتمع وتصونها له.

وقد أبرزت الآيات هذه الحقيقة في سياق بيانها للحقوق الفردية الخاصة بالضعفاء في المجتمع، بقوله تعالى:

(١) تفسير النسفي: ٩/٢.

(٢) فتح الباري: ١٦٤/٩.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ .

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ أي: لا تعطوا السفهاء أموالهم.

والسفهاء: هم الذين لا يحسنون التصرف في المال، فيضيعونه بغير فائدة. وأصل السفه في اللغة: الخفة والحركة، يقال: تسفّهت الريح الشجر، أي: مالت به. وينسحب وصف السفهاء على ناقصي الأهلية من اليتامى والمجانين والصغار، وينسحب أيضاً على المبذرين من البالغين الأصحاء، والخطاب في الآية لكل من يصح خطابه من الأولياء والأوصياء في المجتمع. والمراد من الأموال أموال السفهاء، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾، وفي إضافتها إلى ضمير المخاطبين إشارة إلى حق المجتمع في حفظ هذه الأموال وصيانتها، ففي حفظها وعدم تضييعها منفعة للأمة بأسرها، لأن ما في أيدي بعض أفرادها من الثروة يعود بالصالح على الجميع، فمن تلك الأموال ينفق أربابها ويستأجرون ويشترون ويتصدقون، ثم تورث عنهم إذا ماتوا، وتتوزع بين ورثتهم من أبناء المجتمع، وبهذا تتداولها أي كثيرة، وهذه إشارة لا أحسب أنّ حكيماً من حكماء الاقتصاد سبق القرآن إلى بيانها، وقد أبعده جماعة جعلوا الإضافة لأدنى ملاسة، لأنّ الأموال في يد الأولياء... وجماعة جعلوا الإضافة للمخاطبين، لأنّ الأموال من نوع أموالهم، وإن لم تكن أموالهم حقيقة... وأبعده جماعة آخرون فجعلوا الإضافة حقيقية؛ أي: لا تؤتوا يا أصحاب الأموال أموالكم لمن يضيعها من أولادكم ونسائكم، وهذا أبعده الوجوه. وقارب ابن العربي إذ قال: لأنّ الأموال مشتركة بين الخلق تنتقل من يد إلى يد، وتخرج من ملك إلى ملك^(١).

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك في وصف هذه الأموال:

(١) التحرير والتنوير: ٢٣٥/٥.

﴿أَلَيْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ وفي قراءة: (قيماً) والمعنى واحد، كما جاء عوداً بمعنى عياداً، أي: تقومون بها وتتعشون^(١).

قال ابن كثير رحمته الله: «ينهى رحمته الله عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال، التي جعلها الله للناس قياماً، أي: تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها، ومن هنا يؤخذ الحَجْرُ على السفهاء»^(٢).

﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ أي: اجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم، بأن تتجروا وتربّحوا حتى تكون نفقاتهم من الأرباح لا من صلب المال^(٣).

هذا إن وجدت الأرباح، وإلا فلا بدّ من الإنفاق عليهم من أموالهم، ولهذا ذهب بعض المفسرين إلى أنّ قوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أي: منها^(٤).

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: قولاً جميلاً، لأنّ القول الجميل يؤثر في القلب، ويزيلُ السفه. أو: قولاً طيباً تطيبُ به أنفسهم، وترتفع معنوياتهم. فمما لا شك فيه أنّ منع الإنسان من التصرف في ماله يُدخلُ عليه الألم والحزن، ويخفف القول الطيب الجميل بعض ما يجده الإنسان في نفسه.

• تسليم الأموال إلى اليتامى:

ثم بيّنت الآيات كيف تسلّم أموال اليتامى لهم ووقته، بقول الله تعالى:

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ أي: اختبروا عقولهم، وتبينوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرف

(١) تفسير البيضاوي: ١٠/٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٥٨/١.

(٣) تفسير أبي السعود: ١٤٥/٢.

(٤) زاد المسير: ١٣/٢.

في المال قبل البلوغ، وذلك بأن يُدْفَعَ لليتم ما يتصرّف فيه، حتى تتبيّن حاله. وفيه دليل على جواز الإذن للصبي العاقل في التجارة^(١).

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أي: بلغوا مبلغ الرجال والنساء، لقوله تعالى في

سورة النور: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٩).

والبلوغ للذكور والإناث بالاحتلام والسنن، وتختص الإناث بالحيض والحبل، والسنن عند جمهور العلماء خمس عشرة سنة، للحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: عرضني رسول الله ﷺ يوم أحد في القتال، وأنا ابن أربع عشرة سنة، فلم يُجزني، وعرضني يوم الخندق، وأنا ابن خمس عشرة سنة، فأجازني. [رواه مسلم (١٨٦٨)].

والبلوغ عند الإمام مالك في رواية ابن القاسم: ثماني عشرة سنة للذكور والإناث، وعند الإمام أبي حنيفة: ثماني عشرة سنة للغلام، وسبع عشرة سنة للإناث.

وبلوغ ابن عمر ليس من الضروري أن يكون معيار بلوغ عامة الناس.

﴿فَإِنِ انْتَهَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ أي: أبصرتم وتبينتم منهم حسن تصرف في المال،

من غير ضعف ولا تبذير.

﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: سلّموا إليهم أموالهم.

فتسليم المال إلى اليتيم يكون بشرطين: إيناس الرشد، والبلوغ، فإن وُجد أحدهما دون الآخر لم يجز تسليم المال^(٢).

ودلت الآية على وجوب المبادرة إلى دفع المال عند تحقق الشرطين، وعدم التأخير عن ذلك؛ لأن الإيناس أول ما يتبادر من العلم.

ثم أكد تعالى وجوب تسليم المال إلى اليتيم والمحافظة عليه قبل ذلك فقال:

(١) تفسير النسفي: ١١/٢.

(٢) تفسير القرطبي: ٣٨/٥.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهُمَا إِمْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ أي: لا تسارعوا إلى أكل أموال اليتامى قبل أن يكبروا، وذلك بالإسراف في إنفاقها.

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي: ومن كان من الأولياء والأوصياء غنيًّا عن مال اليتيم، غير محتاج إليه، فليحترز عن أكله، ولا يأخذ منه شيئاً.

﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: فليأكل بقدر جهده الذي يبذله في حفظ مال اليتيم، وهذا يختلف باختلاف أحوال الناس ومكانهم وزمانهم.

وهو ما ذهبت إليه السيدة عائشة رضي الله عنها، فقد قالت في الآية: إنها نزلت في مال اليتيم، إذا كان فقيراً، أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف.

وفي رواية أخرى: أنزلت في ولي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلح ماله. [رواه البخاري (٤٥٧٥)].

وهذا يدل على أن الشريعة الإسلامية تحرص على حقوق جميع الناس، ولا تهمل حق أحدٍ مهما كان.

ثم أرشدت الآية الأوصياء والأولياء إلى الإشهاد على تسليم المال لليتيم، فإن ذلك يبعدهم عن تهمة الخيانة، ويدفع عنهم الخصومة:

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم قبضوها وتسلموها، وبرأت عنها ذممكم.

وهذا الإشهاد مستحب عند طائفة من العلماء، فإن القول قول الوصي لأنه أمين، وقالت طائفة: هو فرض، وهو ظاهر الآية، وإنما هو أمين للأب، ومن اتئمه الأب لا يقبل قوله على غيره^(١).

﴿وَكُفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: محاسباً، فهو سبحانه رقيب عليكم، كما مر في أول آيات السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، فحاسبوا أنفسكم قبل أن يحاسبكم ربكم جل وعلا، ولا تتجاوزوا حدوده التي حدّها لكم.

(١) تفسير القرطبي: ٤٥/٥.

• تقرير المزيد من حقوق الضعفاء:

انتعش الضعفاء، ورفعوا رؤوسهم، وأخذوا يتطلعون في ظل الشريعة الإسلامية الجديدة إلى مزيد من حقوقهم المهدورة في المجتمعات الجاهلية، وها هي أم كُجَّة زوجة أوس بن ثابت الأنصاري، الذي توفي عنها وعن ثلاث بنات، تأتي إلى رسول الله ﷺ، تشكو إليه ما صنعه رجلان من أبناء عم زوجها، أخذوا ماله، ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً، ويقولون: لا يُعطى إلا مَنْ قاتلَ على ظهور الخيل، وطاعنَ بالرمح، وضاربَ بالسيف، وحازَ الغنيمة. فذكرت أمُّ كُجَّة ذلك لرسول الله ﷺ، فدعاهما فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركبُ فرساً، ولا يحملُ كلاً، ولا ينكأُ عدوًّا، فقال عليه الصلاة والسلام: «انصرفا حتى أنظرَ ما يحدثُ الله لي فيهنَّ» فأنزل الله هذه الآية ردًّا عليهم وإبطالاً لقولهم^(١):

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ .

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي: من المال.

﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ أي: سواء كان المال

الذي تركه الميت قليلاً أم كثيراً.

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: مقطوعاً لا بدَّ لهم أن يحوزوه، فهو حقٌّ شرعيٌّ مقرَّرٌ

للوارث، بيَّن بعد ذلك آيات الميراث مقداره - كما سيأتي - .

قال القرطبي رحمه الله: «قال علماؤنا: في هذه الآية فوائد ثلاث:

إحداها: بيان علة الميراث، وهي القرابة.

الثانية: عموم القرابة كيفما تصرفت من قريب أو بعيد.

(١) تفسير القرطبي: ٤٦/٥.

الثالثة: إجمالُ النصيب المفروض، وذلك مبينٌ في آية المواريث، فكان في هذه الآية توطئة للحكم وإبطال لذلك الرأي الفاسد، حتى وقع البيان الشافي^(١).

ولما كانت الشريعة الإسلامية تجمعُ بين العدل اللازم المفروض، وبين الإحسان المستحب المندوب، توجهت الآياتُ إلى البالغين من الورثة، تحضهم على الإحسان للذين يحضرون قسمة الميراث من الأقارب واليتامى والمساكين، الذين لا نصيبَ لهم في الميراث:

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي: أعطوهم من الميراث شيئاً تطيباً لقلوبهم. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: وقولوا لهم قولاً حسناً لا أذى فيه ولا منة.

● الجزء من جنس العمل:

وانتقلت الآياتُ من خطاب الورثة، إلى خطاب الأولياء والأوصياء والقضاة وكل من له صلة بقسمة المواريث، تعظهم وتذكّرهم، وتوصيهم بالضعفاء من الورثة، وتستشير شفقتهم عليهم وعاطفتهم نحوهم، لكي يحفظوا لهم حقوقهم:

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا﴾ أي: أولاداً صغاراً.

(١) تفسير القرطبي: ٤٦/٥.

﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: خافوا عليهم من الفقر والضياع بعدهم، بسبب عدوان الأولياء والأوصياء عليهم.

﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فليتقوا الله بهؤلاء الصغار الضعفاء الذين أوْتُمِنُوا على حقوقهم، وليشفقوا عليهم كما يشفقون على أولادهم الصغار، فالجزاء من جنس العمل، فقد يتعرض أولادهم إلى مثل ما يتعرض له هؤلاء الأيتام، فكما يحبون أن يُعاملَ أولادهم من بعدهم، عليهم أن يعاملوا هؤلاء الأيتام.

روى ابن جرير الطبري بسنده: «عن الشيباني قال: كُنَّا بالقسطنطينية أيام مَسَلَمَةَ بن عبد الملك، وفينا ابن محيريز وابن الديلمي وهانئ بن كلثوم، فجعلنا نتذاكر ما يكون في آخر الزمان، فضِقتُ ذرعاً بما سمعتُ، فقلتُ لابن الديلمي: يا أبا بشرٍ بودي أنه لا يولدُ لي ولدٌ أبداً، فضربَ بيده على منكبي وقال: يا ابن أخي لا تفعل، فإنه ليست من نسمة كتبَ الله لها أن تخرجَ من صلبِ رجلٍ، إلا وهي خارجةٌ، إن شاء وإن أبى، ثم قال: ألا أدلكَ على أمرٍ إن أنتَ أدركتَهُ نجاك الله منه، وإن تركتَ ولدك من بعدك حفظهم الله فيك؟ قلت: بلى. فتلا عند ذلك هذه الآية»^(١).

﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: عدلاً وصواباً، يحفظون فيه الحق لأصحابه من غير حيفٍ أو جورٍ، فإنَّ حقوق اليتامى وأموالهم شأنها في الإسلام خطير، وأكلها ذنب كبير.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَبُّنَ سَعِيرًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ أي: على وجه الظلم بغير حق.
 ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي: إنما يأكلون في بطونهم ما يجرُّ إلى النار، ويؤوّل إليها يوم القيامة.

(١) جامع البيان: ٢٧٢/٤.

﴿وَسَبَّحُواكَ سَبِيحًا﴾ أي: وسيدخلون يومَ القيامةِ ناراً مسعرةً موقدةً.

• ميراث الآباء والأبناء:

مهد قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ...﴾ [النساء: ٧]

لنزول آيات الميراث الثلاث، التي جمع الله تعالى فيها بإعجاز باهر، بين الأحكام والتفصيل، وقد فصل فيها سبحانه تفصيلاً بديعاً دقيقاً أنصبة الورثة من تركة المتوفى، بإحكام وإتقان باهر.

وقد ذكروا في سبب نزول آيات الموارث، أن مستضعفين آخرين أتوا إلى النبي ﷺ، لكي ينصفهم، ويدفع عنهم ظلم الجاهلية وقسوتها.

فقد أخرج [أحمد (٣/٣٥٢) وأبو داود (٢٨٩١) والترمذي (٢٠٩٣) وابن ماجه

(٢٧٢٠)] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتِلَ أبوهما معك في أحد، وإنَّ عمَّهما أخذ مالهما. قال: «يَقْضِي اللهُ فِي ذَلِكَ» فنزلت آية الميراث، فأرسل إلى عمَّهما فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمَّهما الثمن، فما بقي فهو لك».

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٌ ؕ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمَ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ وما أجملها من وصية! فهو سبحانه أرحم بأولادنا

منا، أي: يأمركم الله بالعدل في أولادكم، فإنَّ أهلَ الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكر دون الإناث، فأمر تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث.

وقوله: ﴿أَوْلَادِكُمْ﴾ يشمل كل ولد موجود، ولو كان جنيناً في بطن أمه (١).

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ أي: إذا اجتمع الولد والبنتان كان له سهمان، وللبنتين سهمان.

وأما في حال الانفراد فالابن يأخذ المال كله. والبنتان تأخذان الثلثين، دل عليه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ أي: كانت الأولاد نساءً خُلصاً، بنات ليس معهن ابن.
﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي: زائدات على اثنتين.

﴿فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: ثلثا ما ترك الميت من المال.

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ أي: كان للميت بنت واحدة.

﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي: نصف ما ترك الميت، إن لم يكن معها ابن، فإن كان معها ابن فلها الثلث، وللابن الثلثان.

وإذا كان الثلث نصيب البنت الواحدة، فالثلثان نصيب البنتين، وسيأتي في آخر السورة - عند آية الميراث الثالثة - أن للأخت عند عدم الوالد والولد نصف الميراث، وللأختين الثلثين، والبنتان أمس رحماً بالميت من الأختين؛ ولهذا أوجب لهما أكثر العلماء الثلثين.

وجاء نصيب الولد ضعف نصيب أخته في الميراث، منسجماً مع عدالة الشريعة الإسلامية وواقعيتها؛ إذ كلفت الشريعة الإسلامية الذكر بمسؤوليات مادية أكثر من الأنثى، فالأنثى في الشريعة الإسلامية لا تكلف بالإنفاق على أحد، بل أوجب الإسلام نفقتها إذا لم يكن لها مال على أقرب الناس منها، ولم يكلفها بالعمل والاكْتِسَاب، فالبنت نفقتها على والدها، والزوجة على زوجها، والأم على أولادها، والأخت على إختها، وإذا ما تزوجت أخذت المهر، بينما إذا تزوج أخوها كُلف بدفع المهر والإنفاق على الأسرة.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٦٢/١.

﴿وَلِأَبْوَيْهِ لِكُلِّ وَاِجِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: لكل واحد من والدي المتوفى سدس ما ترك.

﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: إن كان للمتوفى ولد، ذكراً كان أو أنثى.

﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ أي: ثلث ما ترك المتوفى.

وسكتت الآية عن بيان نصيب الوالد في هذه الحالة؛ لأنه يأخذ الباقي من التركة؛ إذ هو داخل في حالته المقررة في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ فبيان نصيب أحدهما يدل على أن الباقي من التركة للثاني، وهو ما جاء مصرحاً به في الحديث النبوي الشريف: «أَلْحِقُوا الْفَرَايِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرَ» [رواه البخاري (٦٧٣٢)].

وينقص نصيب الأم من الثلث إلى السدس إذا كان للميت إخوة، اثنان من الإخوة والأخوات فأكثر، لقوله تعالى:

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ وليس للإخوة في هذه الحالة شيء، فالباقي يأخذه الأب، كرجل مات عن أبوين وأخوين، فإن للأم السدس، والباقي - وهو خمسة أسداس - للأب، سدس بالفريضة، والباقي بالتعصيب، قال قتادة: وإنما حجب الأخوة الأم من غير أن يرثوا مع الأب شيئاً، معونة للأب؛ لأنه يقوم بشأنهم وينفق عليهم، دون الأم^(١).

﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دِينٍ﴾ أي: هذه الفروض والسهام، تعطى لأصحابها بعد قضاء دين المتوفى، وإنفاذ وصيته التي أوصى بها من ثلث ما ترك.

وذكر الوصية مقدّم على الدين في اللفظ لا في الحكم؛ لأن كلمة (أو) لا تدل على الترتيب، والدين يُبدأ به قبل تنفيذ الوصية؛ لأنه حق سابق في مال الميت، فالمدين لا يملك من ماله إلا ما هو فاضل عن وفاء دينه.

(١) تفسير الخازن: ٢٦/٢.

قال ابن كثير رحمته الله: «أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر يُفهم من فحوى الآية الكريمة.

وروى [أحمد (٧٩/١) والترمذي (٢٠٩٦)]: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إنكم تقرأون: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّتِي يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ﴾ وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالدين قبل الوصية^(١).

﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا﴾ أي: الذين ذكر الله فروضهم في الآية، هم آباؤكم وأبناؤكم، فالتزموا بما فرض الله فيها، فإنكم لا تدرون أيهم أنفع لكم، فقد ينفع الله الوالد بدعاء ولده الصالح له بعد موته، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [رواه مسلم (١٦٣١)].

وقد ينفع الله الولد بصلاح والده يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: ما قُدِّر من الفرائض في الموارث فريضة واجبة أوجبها الله تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: في كل ما قُدِّر وشرع، فالتزموا بشرعه وتمسكوا بحكمه.

• ميراث الزوجين:

ثم بين سبحانه التوارث بسبب الزواج وعصمة النكاح، وما كانوا في الجاهلية يتوارثون به، فقال:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٦٣/١.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوْصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدْهُنَّ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوْصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَاعَفٍ وَصِيَّةَ مَنْ أَلَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي: إن لم يكن لهنَّ فرْعٌ وارث من بطونهن، ذكر أو أنثى، منكم أو من غيركم.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ أي: من المال.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوْصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾ أي: من بعد وفاء ما عليهنَّ من

دين، وتنفيذ وصاياهن، وهذا يدل على أن للمرأة في الإسلام حقاً في الإيضاء والتعامل بالدين كالرجل.

﴿وَلَهُنَّ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ أي: للزوجات ربع ما ترك

الزوج المتوفى إذا لم يكن له ولد، ذكر أو أنثى، منهن أو من غيرهن.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾ أي: من المال.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾ من بعد وفاء ما عليكم من دين،

وتنفيذ وصاياكم.

والجددير بالذكر أن الزوجة الواحدة لها الربع أو الثمن، ولو كنَّ أربع

زوجات يشتركن في الربع أو الثمن، وأنَّ اسمَ الولدِ يطلق على الذكر والأنثى،

ولا فرق بين الولد وولد الابن.

• ميراث الإخوة من الأم:

والإخوة من الأم لهم نصيبٌ في الميراث إذا لم يكن للمتوفى والد أو ولد،

قال تعالى:

﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً﴾ أي: تورث كلالَةً أيضاً.

والكلالة: اسم مصدرٍ من الكلال، وهو التعبُ والإعياءُ، والمرادُ به: الميتُ الذي يموتُ من غيرِ والدٍ ولا وليِّ.

﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي: وللمتوفى أخٌ من أم، أو أختٌ من أم، واكتفى ببيان حكم الرجل عن المرأة، لدلالة العطف على اشتراكهما فيه.

﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ لأنهم يستحقون الميراث بقربة الأم، وهي لا ترث بأكثر من الثلث؛ ولهذا لا يفضل الذكر منهم على الأنثى^(١).

﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وإنما تكرر ذكر الوصية والدَّيْنِ، لاختلاف الموصين والمدنين.

وهذا يدل على اهتمام الشريعة الإسلامية بحقوق الناس، وحرصها على وصول أصحاب الحقوق إلى حقوقهم، ولهذا شرط الله تعالى على الموصين ألا يدخلوا الضرر بوصاياهم على الورثة، فقال:

﴿عَيْرَ مُضَارٍّ﴾ أي: يوصي بها غير مُدْخِلِ الضرر على الورثة، كأن يوصي بأكثر من الثلث، أو يوصي بوفاء دين ليس عليه، أو يقر بماله أو أكثره لأجنبي ويترك الورثة^(٢)، أو يقر به لبعض الورثة ليحرم الآخرين، وكل ذلك إضرار محرّم، مخالف لشرع الله تعالى.

﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه الأحكام وصية من الله تعالى عهد بها إليكم، فالتزموا بها.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بمصالح عباده.

﴿حَلِيمٌ﴾ أي: ذو حلم وأناة، لا يعاجلهم بالعقوبة حتى يرجعوا ويتوبوا.

(١) تفسير النسفي: ٣٠/٢.

(٢) تفسير الخازن: ٣٠/٢.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٣).

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: هذه الأحكام التي سبق بيانها، شرع الله تعالى الذي شرعه لكم، فهي بمثابة الحدود المحددة للمكلفين لا يجوز لهم تجاوزها. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ومن التزم ما شرع الله تعالى وما سنَّ له رسول الله ﷺ، ورضي بذلك:

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وجاء بعد هذا الترغيب في التمسك بشريعة الله تعالى التهيب والوعيد لمن أعرض عنها:

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِيبٌ﴾ (١٤).

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ومن يخالف حكم الله تعالى وشرعه. ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ أي: ويتجاوز شرعه سبحانه إلى ما يشرعه البشر من الشرائع والقوانين الوضعية.

﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ أي: ماكثاً فيها أبداً.

﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِيبٌ﴾ لهوانه على الله تعالى.

ولعلّ أفراد اللفظ هنا في آية التهيب، وجمعه هناك في آية الترغيب، للإشعار بأنّ الخلود في دار الثواب بصيغة الاجتماع أجلبّ للأُنس، كما أنّ الخلود في دار العذاب بصيغة الانفراد أشدّ في استجلاب الوحشة^(١).

(١) تفسير أبي السعود: ١٥٤/٢.

• سلامة العِرض:

وكما حفظ الإسلام للإنسان حقوقه المادية، حفظ له أيضاً حقوقه المعنوية، وأهمُّها سلامة عِرضِهِ، وصيانته عن القدح والذم، ولهذا حرَّم الزنى، وحرَّم أيضاً قذف الإنسان بالزنى، واتهامه به. وشرط لثبوت جريمة الزنى شهادة أربعة شهودٍ عدولٍ. وشرع سبحانه في أول الأمر عقوبةً للزناة بقوله:

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاستَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ .

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ أي: يفعلن الفاحشة، وهي جريمة الزنى، سُميت بالفاحشة لزيادة قبحها.

﴿فَاستَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ أي: اطلبوا شهادة أربعة من المسلمين. والخطابُ للحكام والقضاة، فلا تثبت جريمة الزنى إلا بشهادة أربعة شهودٍ، أو بإقرار الزاني أربع مرَّاتٍ في أربعة مجالس.

﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ أي: شهدوا عليهن بالزنى.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ أي: احبسوهن في البيوت، فلا يخرجن منها.

﴿حَتَّى يَتَوَفَّهِنَّ الْمَوْتُ﴾ أي: حتى يستوفي الموت أرواحهنَّ.

ففي الآية تهويلٌ للموت، وتصويرٌ له في صورةٍ مَنْ يتولَّى قبض الأرواح.

فالمراة الزانية تُحبسُ في البيت، وتُحمَلُ على الإقامة الدائمة فيه، وتُمنَع من الخروج والتسكُّع في الشوارع والطرقات، فلا يتعرَّض لها أحد، ولا تتعرَّض لأحد. وقد شرع هذا الحكم أولاً قبل تشريع حدِّ الزنى، ولهذا قال تعالى يشير إلى أنه حكم مؤقت:

﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي: يشرع لهن حكماً خاصاً يبين فيه كيفية

معاملتهن.

وأما الرجال الزناة فشرع لهم سبحانه أولاً عقوبة الأذى:

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ .

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾ أي: واللذان يفعلان الفاحشة، والمراد بهما صنفا الرجال المتزوجين وغير المتزوجين، أو اللذان يفعلان فاحشة اللواط.

﴿فَأَذَوْهُمَا﴾ أي: بالشم والتعير، والضرب بالنعال.

﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ أي: تابا عن الفاحشة، وترك ما كانا عليه، وصلحت أعمالهما وحسنت.

﴿فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا﴾ أي: فتوقفوا عن إيذائهما.

أو: أعرضوا عنهما بالإغماض والستر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي: يقبل توبة التائب ويرحمه.

وهذا أيضاً قبل تشريع حد الزنى بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] وهذا إذا كانا غير متزوجين، أما إذا كانا متزوجين فعقوبتهما الرجْم كما ثبت في السنة الصحيحة من قوله وفعله ﷺ.

• المسارعة إلى التوبة:

ومن المعلوم أن تشريع العقوبات لا يكفي وحده لتطهير المجتمع من المجرمين، ولا بد أن ترافقه التربية والتوجيه والإرشاد، ولهذا اتجهت الآيات تخاطبُ العصاة والمجرمين تحثهم على التوبة، وترغبهم فيها:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ .

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إن قبول التوبة كالأمر المحتوم على الله تعالى بمقتضى وعده بقبول توبة التائبين.

﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي: متلبسين بجهالة، وهي السفه والطيش والجهل، فهي وصفٌ كاشفٌ، لأن ارتكاب القبح يدعو إليه السفه والجهل.
قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة، عمداً كان أو غيره^(١).

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ أي: يتركون الذنب، ويتوبون عنه بعد فعله بزمن قريب، ولا يصرون عليه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ويمتد زمن التوبة إلى وقت الاحتضار وانتهاء الحياة، ولكن الآية تحث على المبادرة إلى التوبة، وعدم الإصرار على الذنب، لأن الإنسان لا يدري متى ينزل به الموت وينتهي أجله، فقد تفوته التوبة، ويموت مصراً على المعصية، وقد تدمن النفس على المعصية، فلا تستطيع تركها والتخلص منها.
وفي الآية إشارة أيضاً إلى قصر الحياة وقرب الموت، فكل أت قريب، وعمر الإنسان مهما طال قليل، والموت منه قريب.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يقبل سبحانه توبتهم بفضلهم ورحمته فهي عِدَّةٌ وهبةٌ كريمة من الله ﷻ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالتائبين المخلصين في توبتهم.

﴿حَكِيمًا﴾ في العفو عنهم وقبول توبتهم.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: ولا توبة للذين يعملون السيئات ويصرون عليها.

(١) تفسير الخازن: ٣٥/٢.

﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُدِئْتُ مِنَ الْكُفْرِ﴾ فهي توبة اليأس، وهي غير مقبولة، كتوبة فرعون عندما أدركه الغرق: ﴿وَجَوْرَنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٩﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس].

﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَرَاءُ﴾ أي: ولا توبة أيضاً للذين يموتون على الكفر، فكما لا يقبل الله توبة الكافر يوم القيامة، فإنه لا يقبل أيضاً توبة المصرين حين ينزل بهم الموت.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المذكورون من الفريقين.

﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: هيأنا لهم عذاباً مؤلماً موجعاً.

• تحريم مظالم جاهلية:

وتابعت الآيات تقرّر الحقوق، وتدفع الظلم عن المظلومين والمستضعفين:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ أي: لا يحل لكم أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تؤخذ الموارث، وهن كارهات لذلك. وهي من صور الظلم التي كانت المرأة تعاني منه في الجاهلية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقّ بامرأته، إن شاء بعضهم تزوّجها، وإن شاؤوا زوّجوها، وإن شاؤوا لم يزوّجوها، وهم أحقّ بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك. [رواه البخاري (٤٥٧٩)].

ثم أضافت الآيات دفع مظلمة جاهلية أخرى كانت تصدر من الأزواج الذين يسيئون معاملة زوجاتهم، فوجهت الخطاب إليهم:

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: لا تضاروهن في العشرة

لتترك لك صداقها أو بعضه، أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك، على وجه القهر لها والإضرار^(١).

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن، كإيذاء الزوج وأهله، وقيل: الفاحشة هي الزنى، فالمراد إذا نشزت أو زنت حلّ للزوج أن يسألها الخلع بما أعطاها من المهر أو ببعضه.

وبعد أن نهاهم سبحانه عن ظلم المرأة والإضرار بها، أمرهم تعالى بالمعاشرة الحسنة والمعاملة الطيبة، فقال:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بحسب ما أمر الله تعالى، وسنّ رسول الله ﷺ، قال

تعالى: ﴿وَهَلْكَ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف

بهم، ويوسعهم نفقته، ويصاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين

ﷺ، يتودّد إليها بذلك، قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته قبل أن أحمل

اللحم، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني، فقال: «هذه بتلك» [رواه أبو داود

(٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)].

وكان يجمع نساءه كلّ ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل

معهنّ العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كلّ واحدة إلى منزلها. [رواه أبو داود

(٢١٣٥)]^(٢).

ومن حسن العشرة أيضاً: الصبرُ عليهنّ، واحتمالُ ضعفهنّ وتقصيرهنّ.

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ أي: سئمتن صحبتهن فلا تفارقوهنّ، واصبروا على

معاشرتهنّ، فالإسلام حريص على بقاء الأسرة، ولا يشجع الطلاق.

﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فقد تكره النفوس ما في

عاقبته خير كثير.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٦٨/١.

(٢) المرجع السابق: ٣٦٩/١.

ففي الآية إرشادٌ إلى التأنِّي والترؤي وعدم الاغترار بالمظاهر الخادعة، قال رسول الله ﷺ: « لا يَفْرُكُ مؤمنٌ مؤمنةً - أي: لا يبغض - إن كرهَ منها خُلُقاً رضيَ منها آخرَ » [رواه مسلم (٩٦٤١)].

ومرَّ معنا وصيته ﷺ بالنساءِ وقوله: «استوصوا بالنساءِ، فإنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضِلَعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضلعِ أعلاه، إن ذهبَ تُقِيمُهُ كَسْرَتُهُ...» [رواه البخاري (٥١٨٦)].

وحرّم الله أيضاً على الأزواجِ استرداد شيءٍ من مهر المرأة، إذا أرادوا طلاقها، فقال:

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾ أي: إن أردتم تطليق امرأةٍ وتزوّجَ أخرى:

﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ أي: ما لا كثيراً.

﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لا تأخذوا من القنطار شيئاً.

﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ وهو استفهامٌ إنكارٍ وتوبيخ.

والبهتان: اتهام البريء، وكان أحدهم إذا أراد امرأةً جديدةً رمى زوجته بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها، ويتمكّن بذلك من الزواج بغيرها.

وتابعت الآيات تستعظم هذا الذنب وتوبيخ فاعليه:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُمْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: كيف تأخذون المهر! وقد

تمَّ اجتماع بعضكم إلى بعض، وخلا بعضكم إلى بعض؟ فإنَّ حسن العهد من الإيمان، والله يُسألُ عن صحبةِ ساعةٍ، أبعدَ أن صحبتهَا وعاشرتَهَا تأخذُ مهرَهَا، وتظلمُهَا حقَّهَا؟! .

وكلمة ﴿أَفْضَى﴾ تدلُّ على عمق الصلة بين الزوجين، وتذكير للزوج بما كان بينه وبين زوجته قبل أن تسوء العلاقة بينهما، فهي ترسمُ عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمَّتْهُمَا فترةً من الزمن، وفي كلِّ اختلاجةٍ حُبِّ إفضاءٍ، وفي كلِّ نظرةٍ ودِّ إفضاءٍ، وفي كلِّ لمسةٍ جسمٍ إفضاءٍ، وفي كلِّ اشتراكٍ في ألمٍ وأملٍ إفضاءٍ^(١).

﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهداً مؤكداً شديداً عند عقد النكاح، فللصحبة السالفة حرمة أكيدة، فراعوها، وأوفوا بموجب ميثاقها.

أخرج الحاكم والبيهقي في «الشَّعْب»: عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت عجوزٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟» قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله، فلما خرجت قلتُ: يا رسولَ الله تُقبلُ على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: «يا عائشةُ إنَّها كانت تأتينا زمانَ خديجةَ، وإنَّ حُسْنَ العهدِ من الإيمانِ»^(٢).

• تحريم الزواج من زوجات الآباء:

مرَّ معنا في أول آية في السورة أنَّ المرأةَ خُلقت من جزء من أجزاء الرجل، وأنَّ هذا أصل الميل الفطري عند الرجل والمرأة إلى بعضهما، فكلُّ واحدٍ منهما زوج للآخر، ولهذا فإنَّ الزواج حقٌّ من الحقوق الطبيعية لكلِّ من الرجل والمرأة، ومطلب ضروري لهما.

وقد شرعه الله تعالى في الإسلام، وحثَّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً، واهتمَّت الآيات الكريمة به، فبيَّنت كثيراً من أحكامه، ومن الأحكام التي بيَّنتها

(١) في ظلال القرآن: ٦٠٦/١.

(٢) فتح الباري: ٤٣٦/١٠.

آيات سورة النساء بيان المحرمات في النكاح، وبدأت الآيات أولاً بتحريم الزواج من أزواج الآباء، الذي كان سائداً في الجاهلية، وكان مظهراً من مظاهر الظلم الذي كانت المرأة تعاني منه كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ [النساء: ١٩]، وكثيراً ما كان الولد الكبير للمتوفى يتزوج بزوجة أبيه، حتى أنزل الله تعالى قوله الكريم:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٢).

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من النساء، فإنهن محرمات عليكم.

وفسر بعضهم النكاح بالوطء، وعليه تكون موطوءة الأب بزواج أو بزنى محرمة على الابن.

وتشمل كلمة (الآباء) الأجداد مهما علوا، فنساؤهم محرمات على أحفادهم.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: لكن لا تؤاخذون على ما قد سلف ومضى قبل نزول التحريم، مما يدل على أنه كان سائداً في الجاهلية.

قال ابن كثير رحمته الله: «حرم الله تعالى زوجات الآباء تكريماً لهم، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده - أي: من قبل ولده - حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه»^(١).

وروى ابن جرير الطبري بسنده إلى عكرمة: «أنه قال: نزلت في أبي قيس بن الأسلت، خلف على أم عبيد بنت ضمرة، كانت تحت الأسلت أبيه، وفي الأسود بن خلف، وكان خلف على بنت أبي طلحة بن عبد العزى، وكانت عند أبيه خلف، وفي فاختة بنت الأسود، وكانت عند أمية بن خلف، فخلف عليها

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٣٧٠.

صفوان بن أمية، وفي منظور بن رباب، وكان خلف على مليكة بنت خارجة، وكانت عند أبيه رباب بن سيّار»^(١).

﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ أي: إن نكاح زوجة الأب فاحشة؛ لأن زوجة الأب بمنزلة الأم، ونكاح الأمهات حرام، ولهذا سماه فاحشة لأنه من أقبح المعاصي. ﴿وَمَقْتًا﴾ أي: وكان مقتاً، والمقت: أشدُّ الغضب، فهو يورث المقت من الله تعالى، ويورث أيضاً مقت الولد لأبيه بعد أن يتزوج امرأته.

﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: وطريقاً سيئاً لقضاء الشهوة، كما قال في الزنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

فمن تعاطاه بعد هذا البيان، فقد ارتدَّ عن دينه، ويعاملُ معاملة المرتد.

فقد روي عن البراء بن عازب رضي الله عنه: عن خاله أبي بردة: أنه بعثه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى رجلٍ تزوج امرأة أبيه من بعده، أن يقتله، ويأخذ ماله. [رواه أحمد (٤/ ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٧) وأبو داود (٤٤٥٧) والترمذي (١٣٦٢) والنسائي (١٠٩/٦) وابن ماجه (٢٦٠٧)].

• المحرّمات في الزواج:

ثم أضافت الآيات بيان المحرمات في النكاح بقوله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ يَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي: اللاتي ولدنكم مهما علونَ كأم الأب وأم

الأم.

(١) تفسير الطبري: ٣١٨/٤.

﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ أي: اللاتي من فروعكم مهما نزلت كبنت الابن وبنت البنت.
 ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ جمعُ أختٍ، وهي كلُّ امرأةٍ شاركتك في أصلك. فيشمل
 التحريمُ الأخواتِ الشقيقاتِ من الأب والأم، والأخواتِ من الأب، والأخواتِ
 من الأم.

﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ جمعُ عمّة، وهي كلُّ امرأةٍ شاركت أباك في أصله، وهنَّ
 جميع أخواتِ الأب وأخواتِ آبائه وإن علون، وقد تكون العمّة من جهة الأم
 كأخت أب الأم.

﴿وَحَالَاتُكُمْ﴾ جمع خالة، وهي كل امرأة شاركتِ الأم في أصلها كما في
 العمّات.

﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ﴾ أي: مهما نزلن.

فهذه الأصناف السبعة محرّمة بالنسب، وحرمتهن مؤبدة، لا تحلُّ بوجه من
 الوجوه.

وأما المحرّمات بالسبب فهن:

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ فكل امرأة أرضعتك
 فهي محرّمة عليك، وهي أمك من الرضاعة، وبناتها محرّمات عليك، وهنَّ
 أخواتك من الرضاعة.

والجدير بالذكر: أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب.

وذكر سبحانه الأم والأخت ليدل على تحريم جميع الأصول والفروع.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل للنبي صلى الله عليه وآله: ألا تتزوج
 ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخي من الرضاعة» [رواه البخاري (٥١٠٠)].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة»

[رواه البخاري (٥٠٩٩)].

فكلُّ مَنْ حُرِّمَتْ بسبب الولادة والنسب حُرِّمَ نظيرها بسبب الرضاعة، وإنّما
 سمّى الله المرضعات أمهاتٍ لأجل الحرمة، فيحرم عليه نكاحها، ويحلُّ له النظر

إليها، والخلوة بها، والسفر معها، ولا يترتب عليه جميع أحكام الأمومة من كل وجه، فلا يتوارثان، ولا تجب على كل واحد منهما نفقة الآخر^(١).

ولا يتعدى التحريم إلى أحدٍ من قرابة الرضيع، فليست أخته من الرضاعة اختاً لأخيه، ولا بنتاً لأبيه، إذ لا رضاع بينهم^(٢).

والرضاع المحرّم هو الذي يقع في السنتين الأوليين من عمر الرضيع، وعند أبي حنيفة يمتدُّ إلى انتهاء سنتين ونصف.

﴿وَأُمَّهَتْ نِسَائِكُمْ﴾ فمن تزوّج امرأة حرّمت عليه أمّها وجميع جداتها من قبل الأب والأم، ويثبت التحريم بمجرد العقد عليها؛ دخل بها أو لم يدخل.
﴿وَرَبِّبِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ أي: ويحرم عليكم بنات نساءكم اللاتي ربيّن في بيوتكم.

وهذا بيان لعلة التحريم، وليس شرطاً له، فبنتُ الزوجة تحرم على الزوج مطلقاً سواء نشأت في حجره أم لا.

﴿مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أي: بشرط أن يتم الدخول بأمرها.

وأما إذا طلقها قبل الدخول بها أو ماتت، فتحل له بنتها لقوله تعالى:

﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا حرج عليكم أن

تتزوجوا بناتهن إذا فارقتموهن بطلاق أو موت.

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ أي: ويحرم عليكم أزواج أبنائكم، جمع حليلة،

والرجل حليل، لأن كل واحد منهما يحل للآخر، أو يحل فراش الآخر؛ من الحل أو من الحلول.

﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ أي: الذين ولدوا منكم فعلاً، وهم أولادكم في

النسب، وخرج بذلك الذين كانوا يتبنونهم.

(١) تفسير الخازن: ٤٢/١.

(٢) فتح الباري: ١٤١/٩.

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتزوّج السيدة زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه، وكان ﷺ قد تبّأه، وأنزل سبحانه في ذلك قوله الكريم: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ودلّت الآية على أنه يحرم على الرجل أزواج أبنائه وأبناء أبنائه مهما نزلوا من النسب والرضاع بنفس العقد، ولا يشترط الدخول.

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ أي: وحرّم عليكم الجمع بين الأختين في النكاح، فالجمع بين الأختين في التزويج حرام بالإجماع، سواء كانتا شقيقتين، أم من أب، أم من أم، وسواء النسب والرضاع^(١).

وأضاف النبي ﷺ تحريم الجمع بين المرأة وعمّتها أو خالتها؛ فعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن تُنكح المرأة على عمّتها أو خالتها. [رواه البخاري (٥١٠٨)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُجمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَلَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا» [رواه البخاري (٥١٠٩)].

وورد في رواية علّة التحريم، فعند ابن حبان: عن ابن عباس رضي الله عنهما: نهى أن تزوّج المرأة على العمّة والخالة، وقال: «إِن كُنَّ إِذَا فَعَلْتَنَّ ذَلِكَ قَطَعْتَنَّ أَرْحَامَكُنَّ» إذ يحدث بينهما ما يحدث عادة بين الضرائر من الكراهية والقطيعة.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: إلا ما مضى قبل التحريم، فهو مغفور لكم.

ولهذا قال تعالى بعده:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

(١) فتح الباري: ١٦٠/٩.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: وحرّم عليكم المتزوجات من النساء.

وحرمتهن مؤقتة ما دام النكاح قائماً، فإذا انفسخ بطلاق أو موت، وانقضت عدتهن، حلّ الزواج منهن، فالإسلام يبيح تعدد الزوجات، ويحرّم تعدد الأزواج حرصاً على سلامة الأنساب.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: إلا ما ملكتم من الأسيرات المتزوجات.

فإذا أذن وليُّ الأمر في استرقاقهن، فيجوز لمن يملكها بعد القسمة أن يطأها بملك اليمين بعد أن يستبرئها بحيضة، ليتأكد من خلوّ رحمها عن حملٍ سابق، فإذا ما حملت وولدت أصبحت أمّ ولدٍ يحرم بيعها، وتصبح حرة بعد موت سيدها. فالتسرّي بملك اليمين من الأسباب المشروعة للوصول إلى الحرية، وهو أيضاً من أسباب منع الزنى وانتشار الفواحش في المجتمع كما سيأتي معنا.

﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: كتب الله عليكم تحريم هذه الأصناف من النساء كتاباً. وقرئ بالرفع، ومعناه: هذه فرائض الله عليكم فالتزموا بها.

• تحريم نكاح المتعة:

﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي: أحل الله لكم ما سوى المحرمات المذكورات.

﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ﴾ أي: أحل الله لكم أن تطلبوا بأموالكم غير ما ذكر من النساء متزوجين:

﴿عَيْرٌ مُسْفِحِينَ﴾ أي: غير زانين. والسفاح: الزنى، من السفح وهو الصبُّ، وسُمِّي الزنى سفاحاً، لأنَّ الزاني لا غرض له سوى صب النطفة^(١).

ثم بيَّن سبحانه أنَّ الزوجة تستحقُّ المهرَ كلَّه إذا استمتع زوجها بها، فقال:

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: فما انتفعتن وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح فآتوهنَّ مهورهنَّ، فإذا جامعها مرَّةً واحدةً فقد وجب المهرُ كاملاً إن كان مسمًى، أو مهر مثلها إن لم يسمَّ^(٢).

ولا يجوز أن تُحمَلَ الآيةُ على جواز نكاح المتعة، لأنَّ رسول الله ﷺ نهى عن نكاح المتعة وحرمه^(٣).

ونكاحُ المتعة: هو أن ينكح الرجلُ المرأةَ بمالٍ معلومٍ إلى أجلٍ معيَّن، ليلةً أو ليلتين أو أسبوعاً، بثبوتٍ أو غيرِ ثبوتٍ، ويقضي منها وطراً، ثم يتركها. والإشهاد على العقدِ مستحبٌّ، وإذن الولي غيرُ معتبرٍ، ولا ميراثٌ بينهما في هذا النكاح، وعلى المرأة الاعتداد بعد انتهائه بحيضتين كاملتين، فإن كانت لا تحيضُ فعدتها خمسة وأربعون يوماً، والفراق يكون بانتهاء المدَّة، أو أن يهب المتمتعُ المرأةَ ما بقي منها، والنسب فيه ثابتٌ، لأنَّه - بزعمهم - عقدٌ مشروع غيرُ منسوخ^(٤).

وأبيح نكاح المتعة في أول الأمر بالسُّنة في الغزو البعيد والسفر الطويل، إذ يشتدَّ الشَّبَقُ، ويقلُّ الصبر، وتُخشى الفتنة، وهم حديثو عهد بإباحة وكفر، ثم حُرِّمَ بالسُّنة أيضاً، فلا علاقة للآية بنكاح المتعة البتَّة، إنَّما هو نكاحٌ أبيحَ بالسُّنة أولاً، ثم نُسِخَ حكمُ الإباحة وحُرِّمَ بالسُّنة أيضاً، وهو ما ذهبَ إليه جمهور المفسرين.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وقد تكلف قومٌ من مفسري القراء، فقالوا: المراد

(١) تفسير الخازن: ٥٠/٢.

(٢) تفسير القرطبي: ١١٩/٥.

(٣) المرجع السابق: ١٣٠/٥.

(٤) انظر: نكاح المتعة في الإسلام حرام، للشيخ محمد الحامد.

بهذه الآية نكاح المتعة، ثم نُسِخَتْ بما روي عن النبي ﷺ: أنه نهى عن متعة النساء، وهذا تكلف لا يحتاج إليه، لأن النبي ﷺ أجاز المتعة، ثم منع منها، فكان قوله منسوخاً بقوله، وأما الآية فإنها لم تتضمن جواز المتعة، لأنه تعالى قال فيها: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ فدل ذلك على النكاح الصحيح، قال الزجاج: ومعنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فما نكحتموهن على الشريطة التي جرت، وهو قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ أي: عاقلين التزويج ﴿فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، ومن ذهب في الآية إلى غير هذا، فقد أخطأ، وجعل اللغة^(١).

وقال الشيخ الألوسي رحمه الله: «هذه الآية لا تدل على الحل، والقول بأنها نزلت في المتعة غلط، وتفسير البعض لها بذلك غير مقبول، لأن نظم القرآن الكريم يأباه، حيث بين سبحانه أولاً المحرمات، ثم قال عز شأنه: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ وفيه شرط بحسب المعنى، فيبطل تحليل الفرج وإعارته، ثم قال جل وعلا: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ وفيه إشارة إلى النهي عن كون القصد مجرد قضاء الشهوة وصب الماء واستفراغ أوعية المنى، فبطلت المتعة بهذا القيد، لأن مقصود المتمتع ليس إلا ذلك^(٢).

وفي الحديث الشريف: عن سبرة الجهني رضي الله عنه: أنه كان مع رسول الله ﷺ - وفي رواية: عام الفتح -، فقال ﷺ: «يا أيها الناس إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيموهن شيئاً» [رواه مسلم (١٤٠٦)].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمير الإنسية. [رواه مسلم (١٤٠٧)].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ أي: لا حرج عليكم

(١) زاد المسير: ٥٤/٢.

(٢) روح المعاني: ٦/٥.

فيما يتم عليه الاتفاق والتراضي بين الزوجين بعد تسمية المهر، كأن تحطَّ عنه بعضه، أو تهبَّ له كله، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤] أو يزيد لها على مقداره، أو فيما تراضيا به من مقام أو فراق.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

• حقوق الزوجات المملوكات:

ولمَّا كان الزواج حقًّا من حقوق الإنسان مهما كان لونه أو جنسه أو مستواه المادي، أرشدت الآيات الرجال الفقراء - الذين لا قدرة لهم على مهور النساء الحرائر والإنفاق عليهن - إلى الزواج من النساء المملوكات، فالزواج منهنَّ أقلُّ كلفةً، وأخفُّ مؤونةً من الزواج بالحرائر.

ويحقق هذا فوائد اجتماعية كثيرة، إذ يؤدي إلى إحصان كثير من الشباب والفتيات في المجتمع، ويحول دون انحذارهم إلى دركات الانحلال الأخلاقي وممارسة الفواحش، كما يؤدي إلى قيام كثير من الأسر، وإزالة العوائق المادية التي تعوق قيامها، فهو من محاسن نظام الرق الإسلامي، إذا التزم الناس بضوابطه وقيوده الشرعية. قال تعالى:

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَيَتَيْكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَنْتُمْ فَإِنْ أُتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٥).

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ أي: فضلاً وسعة، وهو الغنى الذي يتمكن

صاحبه من المهر والنفقة، وسُمِّيَ الغنى طولاً، لأنه ينال به من المراء ما لا ينال مع الفقر^(١).

﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: أن يتزوج الحرائر المسلمات.
﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: فليتزوج من الإماء المؤمنات، والفتيات: الجواري المملوكات، جمع فتاة، أطلق عليهن الفتيات تكريماً لهن.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نساءكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامي وجاريتي، وفتاتي وفتاتي» [رواه مسلم (٢٢٤٩)].

والتقييد بالمؤمنة للاستحباب؛ بدليل أن الإيمان ليس شرطاً في الحرائر اتفاقاً، إذ يجوز نكاح الحرة الكتابية، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ومما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة اليهودية والنصرانية وإن كان موسراً^(٢).

وذهب بعضهم إلى أن التقييد بالمؤمنة شرط، فلا يجوز الزواج بالأمة الكتابية.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ أي: فاكتفوا بظاهر الإيمان، فإنه سبحانه العالم بالسرائر، ورب أمة مؤمنة تفضل حرة.

﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: كلكم من نفس واحدة، كما مر معنا في أول آيات السورة [١] فالأحرار والأرقاء من أصل واحد.

(١) تفسير الخازن: ٥٢/٢.

(٢) تفسير النسفي: ٥٣/٢.

ولا يخفى ما في الآية من تشجيع على نكاح الإماء عند الضرورة، فقد كانوا يستنكفون عن ذلك، ويفتخرون بالأحساب والأنساب، ولا التفات إلى شيء من ذلك في الإسلام، لأن التقوى أساسُ التفاضل فيه.

والإسلام يحفظ حقوق جميع الناس، ولا يهدر حقَّ أحدٍ على حساب غيره، ولهذا شُرِّطَ لصحة نكاح المملوكات إذن سادتهنَّ، قال تعالى:

﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي: اخطبوهن إلى ساداتهن.

واتفق العلماء على أن نكاح الأمة بغير إذن سيدها باطل، لأن الله تعالى جعل إذن السيد شرطاً في جواز نكاح الأمة^(١).

وتأمل جمال التعبير القرآني ﴿أَهْلِهِنَّ﴾ وما فيه من تكريم للإنسان، وتقدير لمشاعره مهما كان.

ثم بيّنت الآياتُ الشروط الأخرى الواجب مراعاتها في الزواج من المملوكات، التي تحفظ لهنَّ حقوقهنَّ كاملةً، فلا فرق في هذا بينهن وبين الحرائر: ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: أدوا إليهن مهورهنَّ بإذن أهلهن، وحذف ذلك لتقدم ذكره، قال مالك رضي الله عنه: المهر للأمة ذهاباً إلى الظاهر^(٢). أي: الظاهر المتبادر من الآية.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: من غير مُظْلٍ وإضرار ونقصان.

﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخَذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: بشرط أن يكنَّ عفيفات غير زانيات، وغير ذواتِ أخدان.

والأخدان: جمع خدن، وهو الصاحب، وأكثر ما يستعمل فيمن يُصاحبُ بشهوة، يقال: خدن المرأة، وخدينها، يعني حبُّها الذي يزني بها في السرِّ. فالمسافحة: الزانية مع غير شخص معيّن، تتبع كلَّ من يدعوها.

(١) تفسير الخازن: ٥٤/٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٤/٢.

وذات الخِذْنِ: هي التي تتخذُ خليلاً تختصُّ به، فلا تزني بغيره حتى تملَّه، وهو أمرٌ شائعٌ كثيراً في المجتمعات الغربية.

﴿فَإِذَا أَحْصِنَ﴾ أي: بالزواج، فهو حصن ووقاية من الفواحش.

كما قال رسول الله ﷺ: «يا معشرَ الشبابِ من استطاعَ مِنكُمُ الباءةَ فليتزوّجْ، فإنه أغضُّ للبصرِ، وأحصنُ للفرجِ، ومن لم يستطعْ فعليه بالصومِ فإنه له وجاءٌ» [رواه مسلم (١٤٠٠)].

• تخفيف العقوبة عن الضعفاء:

﴿فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحِشَةٍ﴾ أي: إن قارفتَ الزنى وفعلته.

﴿فَعَلَيْتَنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصِنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي: فعليهنَّ نصف ما على الحرائر إذا زنين، والمرادُ به الجلدُ، أمّا الرجمُ فلا ينتصفُ؛ فيجلدن خمسين جلدة.

وهذا يدل على أنّ الشريعة الإسلامية تقدّر ظروف الإنسان، وتخفّف عنه بعض ما عليه بسببها، والرقُّ من أسباب التخفيف، لأنّه ضعفٌ، والشريعة الإسلامية تراعي الضعفاء، بخلاف ما كان سائداً في أعراف وقوانين المجتمعات الجاهلية، كانوا يشدّدون على الضعفاء، ويخفّفون على الأقوياء.

كما جاء في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: أن قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم رسول الله ﷺ، ومن يجترئ عليه إلاّ أسامة حب رسول الله ﷺ، فكلم رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «أتشفعُ في حدٍّ من حدودِ الله؟!» ثم قامَ فخطبَ فقال: «يا أيُّها الناسُ إنّما ضلّ - وفي رواية: هلك - من كان قبلكم أنّهم كانوا إذا سرقَ الشّريفُ تركوه، وإذا سرقَ الضعيفُ فيهم أقاموا عليه الحدَّ، وإيمُ الله لو أنّ فاطمة بنتَ محمّدٍ سرقَتْ لقطعَ محمّدٌ يدها» [رواه البخاري (٦٧٨٨)].

وكان المعمول به في القانون الروماني الشهير أن تشدّد العقوبة كلما انحطت الطبقة، فكان يقول: ومن يستهو أرملةً مستقيمةً أو عذراءً فعقوبته إن كان

من بيئة كريمة مصادرة نصف ماله، وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفي من الأرض.

وكان المعمول به في القانون الهندي الذي وضعه منو، وهو القانون المعروف باسم منوشاستر: أن البرهمي إن استحقَّ القتل، فلا يجوز للحاكم إلا أن يخلق رأسه، أما غيره فيقتل^(١).

وما تزال الجاهلية الحديثة في أمريكا وفي جنوب إفريقية وفي غيرها تزاوُل هذه التفرقة العنصرية، وتغفرُ للأشرف البيض ما لا تغفره للضعاف الملونين، والجاهلية هي الجاهلية حيث كانت^(٢).

ولا فرق في الشريعة الإسلامية في عقوبة الأرقاء بين المتزوج وغيره، فالآية شرَّعت هنا عقوبة الأمة الزانية المتزوجة، والسنة شرعتها لغير المتزوجة، قال الزهري: فالمتزوجة محدودة بالقرآن، والمسلمة غير المتزوجة محدودة بالحديث^(٣).

فعن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن، قال: «إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فاجلدوها، ثم يبعوها ولو بضمير» [رواه البخاري (٦٨٣٧)].

«ذَلِكَ لِمَنْ حَسَى أَلَمَتْ مِنْكُمْ» أي: إن تشريع نكاح الإماء للذي خاف الإثم الذي تؤدي إليه غلبة الشهوة وشدتها، وهو الزنى.

ومعنى العنت في اللغة: المشقة، واستعير للزنى لما فيه من الإثم والضرر في الدين والبدن والعرض.

«وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ» أي: إن تصبروا عن نكاح الإماء حتى ييسر الله لكم الحرائر خير لكم، وذلك حتى لا يكون الولد رقيقاً يتبع أمه في الحرية

(١) في ظلال القرآن: ٦٢٩/٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) تفسير القرطبي: ١٤٣/٥.

والعبودية، وقد لا تستطيع المملوكة القيام بواجباتها الزوجية كالحره لانشغالها بخدمة سيدها.

﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

• تذكير وتحذير:

وقد عوّدنا الحق سبحانه أنه كلما ذكر بعض آيات الأحكام ذكر بعدها ما يؤكدها ويشجع على التمسك بها، ولهذا قال سبحانه هنا:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: يريد سبحانه أن يبين لكم الأحكام التي فيها صلاحكم وسعادتكم.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: ويدلّكم أيضاً على مناهج الأنبياء والصالحين من قبلكم.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ويقبل توبتكم إذا قصرتم وأخطأتم، أو يريد أن يجعل طاعتكم له فيما شرع لكم كفارة عما سلف من ذنوبكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمصالح عباده، حكيم في كل ما شرع لهم.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمَيَّلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يريد أن يقبل توبتكم فتمسكوا بشرعه، والتزموا بأحكامه، فهي لسعادتكم.

كرر سبحانه هذا المعنى تأكيداً بأسلوب الجملة الاسمية إظهاراً لفضله

تعالى على عباده فيما شرع لهم، وحثاً لهم على الانقياد لأحكامه والتسليم لها، ولهذا قال في مقابل ذلك:

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ أي: ويريدُ الذين غلبت عليهم شهواتهم فصاروا عبيداً لها، وأطاعوها من دون الله تعالى، كما في قوله سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٢٤) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان].

﴿أَنْ مَيَّلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي: أن تميلوا عن الحق الذي شرعه سبحانه لكم، فتهجروا إلى شرائعكم الوضعية الناقصة، التي تميلُ مع مصالح واضعيها الشخصية أو الحزبية أو الطبقية أو القبلية، كما هو معروفٌ من حال القوانين الوضعية التي يضعها الناس لأنفسهم.

وتبيِّنُ الآيةُ حرصَ المنحرفين عن الحق من عبيد الأهواء والشهوات على نشر فسادهم بين الناس.

ويا سبحان الله ما أصدقَ كلام الله تعالى! إنه يفسرُ لنا ما نشاهده في المجتمعات المعاصرة من النشاط الدؤوب المتواصل لرؤساء الضلال والفساد في نشر فسادهم وضلالهم، وكيف يحشدون له كل ما يستطيعون من وسائل الإعلام والتزوير والتحسين، فالزناة يسعون بجِدِّ ونشاط إلى إشاعة الفواحش بين الناس، وكذلك المدمنون على الخمر والمخدرات... إلخ.

ولا يدلُّ قوله سبحانه: ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ على جواز الميل القليل - في مفهومه المخالف - عن أحكام شريعة الله، إنما الآيةُ جاءت تصفُ واقعَ المفسدين، وأنهم يبذلون جهودهم لكي يبعدونا إبعاداً كاملاً عن ديننا وشريعة ربنا جلَّ وعلا، فلنحذرهم على ديننا، فخطرهم كبيرٌ وعظيمٌ، ففي الآيات تذكيرٌ لنا بفضل سبحانه علينا فيما شرع لنا، وفيها أيضاً تحذيرٌ لنا من مخالطة المفسدين وبيان خطرهم علينا وعلى ديننا.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: يريد سبحانه في هذه الشريعة السمحة الميسرة أن يخفف عنكم الأثقال التشريعية، التي في الشرائع السابقة، وهذا من فضله تعالى الكبير على هذه الأمة، أنه جعل شريعتها شريعة رحمة وسماحة ويسر كما مر معنا في سورة البقرة [١٨٥].

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ أي: خلق الإنسان خلقاً محدوداً عاجزاً، ولهذا خفف سبحانه التكاليف فيما شرع له في هذه الشريعة السمحة، وجعل مناط التكليف فيها ما تتسع له إمكاناته الضعيفة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الآية [البقرة: ٢٨٦].

وقد يكون المعنى: وخلق الإنسان ضعيفاً أمام ميوله وشهواته الفطرية، ولهذا أحل له تعالى ما يؤدي إلى الاستجابة لهذه الشهوات دون إفراط ولا تفريط، كما في قوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلْالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقوله أيضاً: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

فالشريعة الإسلامية شريعة التوسط والاعتدال، تلبي كل الحاجات والطلبات دون إفراط ولا تفريط.

ففي الآية إشارة إلى ميزات الشريعة الإسلامية على غيرها من الشرائع.

• حرمة الأموال والأنفس:

وَحْتَمَتِ الْآيَاتُ حَدِيثَهَا عَنْ حَقُوقِ الضَّعْفَاءِ بِتَقْرِيرِ حَقِّينِ مِنْ أَهَمِّ حَقُوقِ الْإِنْسَانِ؛ وَهَمَا: حَقُّهُ فِي التَّمَلُّكِ الْمَشْرُوعِ لِلْمَالِ، وَحَقُّهُ فِي الْحَيَاةِ؛ مِنْ خِلَالِ نِدَاءِ وَجْهَتِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً
عَنْ رَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: لا يأخذ بعضكم مال بعض بطريق الكسب المحرم .

فللأموال في الشريعة الإسلامية حُرمتها، وللإنسان حق في ملكية المال، الذي يصل إليه بطريق مشروع، ولا يجوزُ الاعتداء على هذا المال، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨] .

والباطل: الحرام، ويشمل طرق الكسب المحرمة في الإسلام كلها، كالربا والقمار، والغصب، والسرقة، والغش، والاحتيال، والرشوة... إلخ. ومنها أكلُ أموال اليتامى ظلماً، ومهور النساء بغير حق، كما مرّ معنا .

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ رَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ أي: لكن أخذ المال واكتسابه بوسيلة من وسائل الكسب المشروعة جائزٌ، كالتجارة القائمة على رضا العاقدين، فهي مثال للكسب المشروع في الإسلام .

وخصّصَت التجارة بالذكر لأنَّ أكثر المبادلات المالية بين الناس تتم بها، فهي البيع والشراء، واشتهرت قريشٌ بالتجارة، وكان للعرب في مكة وحولها أسواق معروفة مشهورة كعكاظ ومجنة وذبي مجاز .

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، فللحياة البشرية حرمتها في الإسلام، ومن قتل غيره عامداً تسبّب في قتل نفسه قصاصاً .

أو: ولا تقتلوا أنفسكم فإنكم كنفس واحدة، فمن قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢] .

أو: لا يقتل أحدكم نفسه بالانتحار، فكما حرّم الإسلام على الإنسان أن يقتل غيره، حرّم عليه أيضاً أن يقتل نفسه، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ فِيهَا (يطعن) فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلِّداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ شَرِبَ سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلِّداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلِّداً فِيهَا أَبَداً» [رواه مسلم (١٠٩، ١١٠)].

وقال ﷺ أيضاً: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَاذِباً فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ عَلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فِي شَيْءٍ لَا يَمْلِكُهُ» [رواه مسلم (١١٠)].

وينسحبُ هذا المعنى أيضاً على من يقتل نفسه بتعريضها لأسباب الهلاك في غير مواطن القتال والجهاد.

أخرج [الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٣/٤، ٢٠٤) وأبو داود في «سننه» (٣٣٤)]:
عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: احتلمتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقتُ أن أغتسل فأهلك، فتيّمتُ، ثم صليتُ بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «يا عَمْرُو صليتُ بأصحابك وأنتَ جُنُبٌ؟!» فأخبرته بالذي منعتني من الاغتسال وقلتُ: إنِّي سمعتُ الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ومن رحمته سبحانه بكم: أنه شرع لكم ما يصونُ أموالكم، ويحفظ حياتكم، فالجؤوا إليه تعالى في الأزمات والشدائد، وأحسنوا الظنَّ به، فإنه يجيبُ المضطر، ويكشفُ السوء: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

(١) بذل المجهود: ٥٩/٣.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ .

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: يأخذ مالا، أو يقتل نفساً، أو يفعل كل ما نهى عنه سبحانه فيما تقدم من الآيات .

﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ أي: معتدياً فيه ظالماً في فعله، كأن يكون عالماً بتحريمه، متجاسراً على انتهاكه .

﴿فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا﴾ أي: فسوف ندخله يوم القيامة ناراً شديدة هي نار جهنم .

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لأنه تعالى قادرٌ على كل شيء، فعالٌ لما يريد .

ودلّ هذا الوعيد الشديد على أنّ العدوان على حرّيات النفوس والأموال من كبائر الذنوب، وأنّ الشريعة الإسلامية تهتم بحقوق الإنسان، وتعظّم حرّيتها .

ولمّا خطب النبي ﷺ في مكة المكرمة يوم النحر قال: «يا أيّها الناس أيّ يوم هذا؟» قالوا: يومٌ حرامٌ، قال: «فأيّ بلدٍ هذا؟» قالوا: بلدٌ حرامٌ، قال: «فأيّ شهرٍ هذا؟» قالوا: شهرٌ حرامٌ، قال: «فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا» فأعادها مراراً، ثم رفع رأسه فقال: «اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟» قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته: «فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» [رواه البخاري (١٧٣٩)] .

وأتبع سبحانه هذا الوعيد الشديد على انتهاك حرّيات الإنسان ترغيباً في اجتناب هذه الكبائر، والمحافظة على حقوق الناس، فقال:

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا

كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ .

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: كبائر الذنوب التي نهاكم الله تعالى

عنها، ونهى عنها أيضاً رسوله ﷺ، ولا شكَّ أنَّ منها: قتل النفس، وأكل المال ظلماً وعدواناً.

وفي الحديث الشريف: عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في الكبائر، قال: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَقَوْلُ الزُّورِ» [رواه مسلم (٨٨، ٨٩)].
وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُؤْبَقَاتِ» - أي: المهلكات - قيل: يا رسولَ الله وما هنَّ؟ قال: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ» [رواه مسلم (٢٣٣)].

﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: نغفرها لكم، ونمحوها عنكم.

فصغائر الذنوب تكفَّرُ باجتنابِ الكبائرِ وفعل الطاعات، أمَّا الكبائر فلا بدَّ لها من التوبة والاستغفار بعد الإقلاع عنها، والندم على فعلها، قال رسول الله ﷺ: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضانَ مكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجْتُنِبَتِ الْكِبَائِرُ» [رواه مسلم (٢٣٣)].

﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي: حسناً شريفاً تكرمون فيه، هو الجنة.



الْفِطْرَانِ الثَّانِي

آفَاتُ نَفْسِيَّةٍ

﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمًا ﴿٣٦﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَعَاثُوهُمْ فَصِيَّتَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٧﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْبُهُمْ كَافَّةً وَهُمْ فِي مَا كَفَرُوا بِهَا سَوَاءٌ ﴿٣٨﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٩﴾ وَأَعْتَدُوا لِلْقُرْآنِ وَالْحَرَامِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِمًا ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٤٢﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٤٣﴾ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا ذَرَفًا وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤٥﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ سَوَّيْتُمْ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٦﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا

وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَّوْا أَنفُسَهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَنُنظِرُ لَكَ خَيْرًا لَّهْمُمْ وَأَقُومَ وَلَكِنَّ لَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدَّهَا عَلَىٰ آدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ وَكَانَ اللَّهُ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرَكَّبُونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّبُ مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَلْبُ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَرِيفًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ .

• تربية وتشريع:

يقرن الله ﷻ في القرآن الكريم بين بيان الأحكام وتشريعها؛ وتربية النفوس وتهذيبها، لكي تنقاد لهذه الأحكام، وتتمسك بها، فالقرآن الكريم كتاب هداية وتشريع، وتربية وتهذيب.

هذه الحقيقة القرآنية الكريمة تبدو في سورة النساء واضحة أكثر من غيرها

من السور، وهاهي الآياتُ في هذه السورة بعدما شرعت من الأحكام ما شرعت تتجه إلى تربية النفوس وتهذيبها، وتخليصها من الآفات النفسية الخطيرة التي تُبتلى بها.

والحسد أعظم الآفات النفسية خطراً، وأكثرها أثراً على سلوك الإنسان، وترجع إليه أكثر أسباب الخلاف والنزاع القائمة بين الناس، وهو الباعث الأول على الظلم والعدوان وانتهاك حرمة الحقوق الإنسانية.

ويتولد الحسد في نفوس الناس بسبب التفاوت الذي قدره الحكيم العليم بين الناس في المواهب والملكات والأرزاق، هذا التفاوت الذي جعله سبحانه سبباً لقيام التعاون والتعارف بين الناس، كما قال جل وعلا: ﴿أَمْهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ لَنْ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

كان أيضاً سبب ابتلاء بعضهم ببعض، إذ الحياة الدنيا دار للابتلاء والاختبار، والناجحون بهذا الابتلاء هم الذين يستجيبون لنداء الحق سبحانه وقوله:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: لا يحسد بعضكم بعضاً.

فالحسد: أن يتمنى الحاسدُ زوال النعمة عن أخيه، وتحوُّل إليه، فعلى الإنسان أن يرضى بما قسم الله تعالى له، ولا يحسد أخاه على ما أعطاه ربه سبحانه.

روي: أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [رواه أحمد (٣٢٢/٦) والترمذي (٣٠٣٢)].

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ﴾ أي: لكل من الرجال والنساء الحق أن يملك ناتج جهده وكسبه، والرازق هو الله تعالى، فعلى المقلِّ ألا يتمنى نصيبَ غيره، وعليه أن يتوجَّه إلى الله تعالى يسأله المزيد من فضله: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإنَّ خزائنه سبحانه لا تنقص ولا تنفذ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو تعالى يَعْلَمُ ما يصلح لعباده، فارضوا بما قسم الله سبحانه لكم، ولا تعترضوا على قسمته وحكمته.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَإِنَّ أَفْضَلَ الْعِبَادَةِ أَنْتَظَارُ الْفَرَجِ» [رواه الترمذي (٣٥٧١)].

• نسخ التوارث بالتحالف:

وأقربُ مثال على التفاوت في الأرزاق تفاوت سهام الورثة وحظوظهم من التركة، وعلى كلِّ وارث أن يرضى بنصيبه وحظه الذي قدره المشرِّع الحكيم سبحانه دون أدنى اعتراض:

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣﴾.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ﴾ أي: جعل الله لكل تركة وراثاً يتولون تقاسمها كما شرع سبحانه، فالتزموا بشرعه.

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ﴾ أي: والذين بينكم وبينهم تحالف وتعاقد على التوارث، فآتوهم نصيبهم من الميراث بحسب التحالف الذي تمَّ بينكم، وهذا كان في ابتداء الإسلام، يتوارثون بالحلْفِ ثم نُسخ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾ قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة، يرثُ المهاجريُّ الأنصاريُّ دون ذوي رحمه

بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ نسخت. [رواه البخاري (٢٢٩٢ و ٦٧٤٧)]^(١).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: قبل نزول هذه الآية. ﴿فَتَأْتُوهُمْ نَفْسِهِمْ﴾ أي: من الميراث، فأیما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له^(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، وهو أبلغ وعد ووعد؛ وعد للطائعين، ووعد للمخالفين.

• تنظيم الأسرة:

ثم ساقَت الآيات مثلاً آخرَ على التفاوت في المواهب والملكات، بينت معه نظام الأسرة، قال تعالى:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقَتْ لِقِينَتُكَ حَافِظَتْ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ وَاصْرَبُوهُمْ فَإِنِ اطَّعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾^(٣٤).

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي: يقومون عليهن قيام الولاية على الرعية، فإدارة الأسرة ورعايتها منوطَةٌ بالرجل، وتنتقل في غيابه إلى المرأة.

﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: بسبب ما جعل الله بين الرجال والنساء من تفاوت في المواهب والملكات، فالرجال أقوى على تحمُّل المسؤوليات من النساء في الأعم الأغلب.

﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: وبسبب آخر، وهو تكليف الرجال بالإنفاق

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٨٤/١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

على الأسرة، فالغُنىمُ بالغُرم، فما دام الرجلُ هو المكلَّفُ بنفقة المرأة، فينبغي أن تكون له القوامة عليها.

والمرأة الصالحة هي التي ترضى بشرع الله تعالى، فتطيع زوجها، وتجعل من طاعتها له طاعة لله تعالى فيما أمر وشرع.

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ﴾ أي: مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج.

﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾ أي: يحفظن في غيبة أزواجهن ما كلفهن الله بحفظه من العرض والمال، فهن الراعيات في غيبة أزواجهن، ومسؤولات عما استرعاهن الله تعالى.

﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي: في مقابل حفظ الله تعالى لهن حين أوصى الأزواج بهن، وأمرهم بحسن معاشرتهن وأداء حقوقهن كاملة كما مر معنا.

وقد ذكر الإمام البخاري في «صحيحه» باباً مستقلاً قال فيه: باب: المرأة راعية في بيت زوجها، ثم أورد فيه حديث ابن عمر رضي الله عنهما: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته، والأميرُ راعٍ، والرجلُ راعٍ على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته» [٥٢٠٠].

• معالجة نشوز المرأة:

والإسلام حريصٌ على سلامة الأسرة واستمرارها في أداء وظيفتها، ولهذا بين سبحانه للأزواج كيفية معالجة ما يطرأ على جو الأسرة من سوء تفاهم، يؤدّي إلى تعكير صفو الحياة الزوجية بسبب نشوز المرأة، فقال:

﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ﴾ أي: تخافون عواقبه السيئة.

والنشوز: العصيان، مأخوذٌ من النَّشَز، وهو ما ارتفع من الأرض، والمرأة الناشز: هي التي تتعالى على زوجها، وترفع نفسها عن طاعته.

﴿فَعِظُوهُمْ﴾ أي: خوفوهم عقوبة الله تعالى، لأنه سبحانه هو الذي كلفها بطاعة زوجها في غير معصية، وانصحوهم بالترغيب والترهيب، كتذكيرها بقول

النبي ﷺ: «إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع» [رواه البخاري (٥١٩٤)].

وقوله ﷺ أيضاً: «إذا صلّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي من أي أبواب الجنة شئت» [رواه أحمد (١٩١/١) والطبراني].

فإن لم تنتفع بالموعة لجأ إلى أسلوب هجرها في الفراش:

﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ أي: اهجروهن في الفراش، واعتزلوا النوم معهن، والمضجع موضع الإغراء والجادبية التي تبلغ فيه المرأة الناشز قوة سلطانها، فإذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجاه هذا الإغراء، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى أسلحتها التي تعتزُّ بها، وتصبح في الغالب أميل إلى التراجع والملاينة.

فإن لم تنجح، وأصرت المرأة على نشوزها وعنادها، واستبدت بها الهوى الجامح، فلا بد حينئذٍ - حتى لا يستفحل المرض، ويهدد الأسرة بالسقوط - من استعمال دواء أقوى وأشد، ولو كان مؤلماً مرّاً، إذ يُحْتَمَلُ أخفُّ الضررين لدفع أشدهما، وهو ضرب التأديب الذي تصاحبه شفقة المؤدّب والمربي:

﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾ أي: ضرباً غير مبرح ولا شائن، كما قال رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع: «اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح» [رواه مسلم (١٢١٨) وانظر تمام الحديث ثمة].

وقوله: «تكرهونه» أي: لا يأذن لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم.

والضرب المبرح: هو الضرب الشديد الشاق، ومعناه: اضربوهن ضرباً ليس بشديد ولا شاق، وهو الذي لا يكسر عظماً، ولا يترك أثراً.

ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام ما ضرب امرأة قط، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة له ولا خادماً قط، ولا ضرب

بِيَدِهِ شَيْئاً قَطُّ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ تُنْتَهَكَ حُرْمَاتُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ» [رواه مسلم (٢٣٢٨) والنسائي في الكبرى (٩١١٩) أحمد (٦/٢٨١)].

وكان ﷺ يحثُّ أصحابه على عدم الضرب، ويقول: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يُجامعها في آخر اليوم» [رواه البخاري (٥٢١٤)].

﴿فَإِنْ أَطَعْتُمْ﴾ أي: بترك النشوز والعودة إلى الطاعة والموافقة.

﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ أي: لا تطلبوا وتبحثوا عن طريقة تحتجون بها عليهن، وتؤذونهن بسببها، فعلى الأزواج أن يغضوا النظر عن عثرات نساءهم، ويحتملوا هفواتهن - كما مر معنا -.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ فاحذروا غضبه، فإنه تعالى أقدّر عليكم منكم على أزواجكم، ففيه تهديد للرجال الذين يبغون على نساءهم من غير سبب.

وقد يكون النشوز أحياناً من كلا الزوجين، فعلى أولياء الأمور في مثل هذه الحال، أن يعملوا على إزالة ما بين الزوجين من نزاع وخلاف، وإعادة الوفاق والتفاهم إليهما بواسطة التحكيم:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَبِيراً﴾ (٣٥).

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: إن علمتم حدوث خلاف بين الزوجين.

﴿فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾ أي: رجلاً يصلح للتحكيم من أهل الزوج.

﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: وابعثوا آخر من أهل المرأة.

فإن أقارب الزوجين يحرصون في العادة على الإصلاح، ويعرفون بواطن الأمور أكثر من غيرهم، فإن لم يوجد من أهلها من يصلح لذلك يرسل من غير أهلها.

﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي: إن قصد الحكمان الإصلاح أوقع

الله تعالى بحسن سعيهما الألفة والوفاق بين الزوجين. وقد يكون المعنى: يوفق الله بين الحكّمين، فيتفقا على رأي واحد يتم بواسطته التوفيق بين الزوجين.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَبِيرًا﴾ وفي ذلك تهديدٌ للزوجين والحكّمين ليسلكوا طريق الحق ويلتزموا به.

ودلت الآية على أنّ الإسلام يفضل أن تسوّى الخلافات الزوجية في نطاق الأسرة بين الزوجين، وإذا تعدّر عليهما ذلك بسبب عمق الخلاف، واستفحال النزاع يلجأ حينئذ إلى تحكيم الأقارب منهما.

• أسرة إنسانية واحدة:

ثم خرجت الآيات عن نطاق الأسرة الزوجية، إلى دائرة الأسرة الإنسانية الواحدة التي تضم جميع البشر، كما مرّ معنا في أول السورة، فبيّنت كيف يجب أن تكون الصّلات الاجتماعية بينهم بعد بيان صلّتهم مع الله تعالى:

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦).

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي: اعبدوا الله وحده، وأخلصوا في طاعته وعبادته، فلا تشركوا معه شيئاً، فالله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له عَلَّامًا.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» [رواه مسلم (٢٩٨٥)].

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا إلى الوالدين إحساناً، فهما أحق الناس بالشكر والإحسان، والبر والطاعة، بعد شكر الخالق وطاعته، ولهذا ذكرا في الآية قبل غيرهما من الناس، وقد قرن سبحانه شكرهما بشكره في سورة لقمان

فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿وَبِذَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ﴾ أي: أحسنوا إلى الأقارب واليتامى والمساكين، بالمحافظة على حقوقهم والاهتمام بشؤونهم، فالشريعة الإسلامية تهتم كثيراً بالضعفاء في المجتمع، وتسعى إلى تقوية الصلات الاجتماعية بين الناس وخاصة الأقارب والجيران، ولهذا أضافت الآية الوصية بالجيران:

﴿وَأَجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: أحسنوا إلى الجار القريب، فله حقوق القرابة وحقوق الجوار.

• حقوق الجيران:

فللجار في الإسلام حقوق أمر الله برعايتها، منها: تفقُّد أحواله، وطلاقة الوجه عند لقائه، ومعاونته فيما يحتاج إليه؛ وكفُّ أسباب الأذى عنه.

وفي الحديث الشريف: عن أبي شريح: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمنُ جاره بوائقه» [رواه البخاري (٦٠١٦)]، وزاد [أحمد (٣٨٥/٦)] في رواية: قالوا: وما بوائقه؟ قال: «شره».

وهذا يدل على تعظيم حق الجار، وأن الإضرار به من الكبائر.

وعن عائشة ؓ، عن النبي ﷺ قال: «ما زال جبريلُ يوصيني بالجارِ حتى ظننتُ أنه سيورثه» [رواه البخاري (٦٠١٤)].

﴿وَأَجَارِ الْجُنُبَ﴾ أي: وأحسنوا أيضاً إلى الجار الذي لا قرابة له، فله عليكم حقوق الجوار فقط.

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ أي: وإلى الجار المصاحب في مجلسٍ أو سفرٍ أو عملٍ، فمجاورته مؤقتة، وليست مستمرة، فله عليك حقُّ الصحبة في مؤانسته وملاطفته ودفع الأذى عنه.

قال ابن حجر رحمه الله: «اسم الجار يشملُ المسلمَ والكافرَ، والعابدَ والفاسقَ،

والصديق والعدو، والغريب والبلدي، والنافع والضار، والقريب والأجنبي، والأقرب داراً والأبعد، وله مراتب بعضها أعلى من بعض، فأعلاها من اجتمعت فيه الصفات الأول كلها، ثم أكثرها وهلم جرأً... فيُعطي كلُّ حقه بحسب حاله»^(١).

• حق الضيف والغريب:

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ أي: أحسنوا إلى ابن السبيل، وهو المسافر أو الضيف يمرُّ بك فتكرمه وتساعده، وتحسن إليه.

فللضيف في الإسلام حق، حتى إنَّ الإمام البخاري قال في «صحيحه»: باب حق الضيف. ثم روى الحديث الشريف بسنده: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «أَلَمْ أُخْبِرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ؟» قلتُ: بلى، قال: «فَلَا تَقْعَلْ، ثُمَّ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ، فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لِرِزْقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لِرِزْقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» [رواه البخاري (٦١٣٤)]. والزَّوْرُ: الزائرُ والضيْفُ.

وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسولَ الله إنَّك تبعثنا فننزِلُ بقوم فلا يُفْرُونَنَا، فما ترى؟ فقال: «إِنْ نَزَلَتْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَأَقْبَلُوا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ» [رواه البخاري (٦١٣٧)].

وكما جعل النبي ﷺ للضيف حقاً؛ أوصاه ألا يُثْقِلَ على أهل البيت، حتَّى لا يُخْرِجَهُمْ، فقال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتُهُ يَوْمَ وَلِيْلَةٍ، وَالضَّيْفَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُخْرِجَهُ» [رواه البخاري (٦١٣٥)].

والجدير بالذكر أنَّ الشريعة الإسلامية جعلت لابن السبيل - وهو المسافر المنقطع في الطريق - سهماً من مصارف الزكاة، فيجوز إن كان مسلماً مساعدته من أموال الزكاة.

(١) فتح الباري: ١٠/٤٤١.

• حقوق العبيد:

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: وأحسنوا إلى ما ملكت أيمانكم من العبيد والإماء، فإنهم من الضعفاء الذين اهتَمَّ الإسلامُ بحماية حقوقهم، وكثيراً ما أوصى النبي ﷺ بهم في حياته وعند وفاته عليه الصلاة والسلام، فعن علي رضي الله عنه قال: كَانَ آخِرُ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» [رواه أحمد (١١٧/٣) وابن ماجه (٢٦٩٧)].

وفصّل رسول الله ﷺ في حديثٍ آخَرَ كيف يجبُ أن تكونَ معاملتهم، فعن المعروف بن سويد قال: مررنا بأبي ذرٍّ بالرَبْدَةِ، وعليه بُرْدٌ، وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذرٍّ لو جمعتَ بينهما كانت حُلَّةً، فقال: إنّه كان بيني وبين رجُلٍ من إخواني كلامٌ، وكانت أمُّه أعجميةً، فغيرتهُ بأُمَّه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فقال: «يا أبا ذرٍّ إنك امرؤٌ فيك جاهليةٌ، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم ممّا تأكلون، وألبسوهم ممّا تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» [رواه مسلم (١٦٦١)].

وأمر رسول الله ﷺ مَنْ ضَرَبَ مملوكه أن يعتقه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أَوْ ضَرَبَهُ، فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ» [رواه مسلم (١٦٥٧)].

وعن سويد بن مقرن: أَنَّ جاريةً له لطمها إنسانٌ، فقال له سويدٌ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الصَّوْرَةَ مُحْرَمَةٌ؟ لقد رأيتني وإني لسابِعُ إِخْوَةٍ لِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وما لنا خادِمٌ غير واحدٍ، فعمدَ أحدنا فلطمه، فأمرنا رسولُ الله ﷺ أن نعتقه. [رواه مسلم (١٦٥٨)].

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: كنتُ أضربُ غلاماً لي، فسمعتُ مِنْ خَلْفِي صوتاً: «اعلم أبا مسعودٍ، اللهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ» فالتفتُ فإذا رسولُ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله هو حرٌّ لوجهِ الله، فقال: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلْفَحْتِكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ» [رواه مسلم (١٦٥٩)].

.. هكذا حمى الإسلام الضعفاء، وصان لهم حقوقهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ أي: متكبراً متعاضماً في نفسه، لا يحترم الناس، ولا يقوم بحقوقهم.

﴿فَخُورًا﴾ أي: يفتخر على الناس ويتناول عليهم.

ولا يخفى شدة الاتساق بين موضوع الآية وخاتمتها، فالمختال الفخور يأنف من أقاربه الفقراء، ومن جيرانه الضعفاء، فلا يحسن إليهم، ولا يلوي بنظره عليهم، ولأن المختال هو المتكبر، ومن كان متكبراً فلا يقوم بحقوق الناس^(١).

• التحذير من البخل:

وثمة آفة نفسية أخرى، قرينة للحسد، ولا تقل عنها قبحاً وخطراً، وهي آفة البخل، وهي كالحسد، لها آثار سلبية على علاقة الإنسان مع أبناء مجتمعه، تحمله على حب الذات والأثرة والمادية والجشع، وتورثه قسوة في طبعه، وغلظة في نفسه، وتدفعه إلى انتهاك حقوق الآخرين والعدوان عليهم. قال تعالى في المتصفين بها:

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٢).

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ وكأن الآية تعني المختالين الفخورين الذين لا يحبهم سبحانه، فهم الذين يبخلون، ويمتنعون عن أداء ما أوجب الله عليهم لأقاربهم وجيرانهم وسائر أبناء مجتمعهم، ويظلمونهم ويستحلون حقوقهم.

كما في الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلَمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ

(١) تفسير الخازن: ٧٢/٢.

مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» [رواه مسلم (٢٥٧٨)]. والشح: أشدُّ أنواع البخل.

﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي: ويشجعون على البخل، ويأمرون غيرهم به، لأنهم يكرهون السخاء، ويمقتون الجود والكرم، فهم لا يبخلون بما عندهم فقط، وإنما يبخلون بما عند غيرهم أيضاً.

﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: ويتظاهرون بالفقر، ويجحدون نعم الله عليهم، فالبخيل يجحدُ نعمة الله، فلا تظهرُ عليه آثارها، ولا تتبينُ في مأكله ولا في ملبسه ولا في عطائه وبذله.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: هيأنا للكافرين نعمة الله الجاحدين لها عذاباً مهيناً.

والكفر: هو السترُ والتغطية، والبخيلُ يسترُ نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدُها^(١).

والجدير بالذكر أنه سبحانه يحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخلُ الجنةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» قال رجلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يَحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً؟ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ» [رواه مسلم (٩١)].

ومعنى بطر الحق: إنكاره ودفعه. وغمط الناس: احتقارهم.

• التحذير من الرياء وحب الظهور:

ونَبَّهت الآياتُ إلى آفة نفسية أخرى، قد يظنُّها بعضُ الناسِ كرمًا وجودًا،

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٩٠/١.

وهي في حقيقتها مظهرٌ من مظاهرِ حُبِّ الذات والتكبر والافتخار؛ وهي آفة حب السمعة والرياء، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ .

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي: ينفقون أموالهم من أجل السمعة والشهرة بين الناس، لكي يمدحوا بالكرم والإحسان، حتى إنَّ بعضهم ينفق على المدّاحين من رجال الصحافة والإعلام أكثر مما ينفقُ على المحتاجين واليتامى والضعفاء.

ومرّ معنا [الآية: ٣٦] أنه سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له.

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ولا يؤمنون بالإيمان الصحيح بالله تعالى ولا باليوم الآخر.

فما بعثهم على الإنفاق إيمانهم بالله تعالى، وتصديقهم باليوم الآخر، إنّما الذي بعثهم على هذا الإنفاق الشيطانُ الذي زينَ لهم هذه الآفات الخطيرة: الحسد والبخل والكبر والرياء، قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقال أيضاً: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

وختم الله سبحانه الآية هنا بقوله:

﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي: ومن يكن الشيطان صاحباً له

فبئس صاحب، لأنه إلى الشر صاحب.

﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ .

﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أي شيءٍ على أولئك الذين يبخلون ويحسدون

ويراؤون؟ أي مسؤولية تلحقهم:

﴿لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾، فهو سؤالٌ فيه توبيخٌ لهم على الجهل بالمنفعة الحقيقية، فأىُّ مصلحةٍ لهم في ذلك؟ وهذا كما يقال للعاقب: ما ضرك لو كنت باراً؟! (١).

وفي السؤال مع التوبيخ تحريضٌ لهم على التفكير، لعلّه يؤدي بهم إلى إدراك ما هم عليه من خطأ، ومعرفة الحق والصواب.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ لا تخفى عليه سبحانه حقيقة أعمالهم ومقاصدهم.

• عدل وفضل:

ثم قال سبحانه يبيّن كمال عدله وعظيم فضله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَظْهَرِهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤٠).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: لا يكون منه ظلمٌ أبداً، ولا حتى مقدار ذرة فما دونها في الصغر، فلا ينقصُ أحداً ثوابَ عملٍ عمله مهما كان صغيراً، كما في قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

وقوله أيضاً: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

هذا عدل الله سبحانه، وأما فضله فيبيّنه بقوله:

﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَظْهَرِهَا﴾ أي: وإن كان مِثقال الذرة حسنة يضاعفها أضعافاً كثيرة، كما قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْرَىٰ إِلَّا يَمَثَلِهَا وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال أيضاً: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

(١) تفسير النسفي: ٧٢/٢.

﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي: ويعطى من عنده على سبيل التفضل.
 ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً عظيماً لا يحيط بمقداره إلا الله ﷻ.
 فلا ينبغي لأحد أن يتوجه إلا إليه سبحانه، ولا يعتمد إلا عليه.
 ويظهر سبحانه عدله وفضله يوم القيامة:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

﴿فَكَيْفَ﴾ أي: كيف يكون حالهم يوم القيامة وهم يحملون كبائر الذنوب كالحسد والبخل والكبر والرياء.

﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ أي: إذا جئنا يوم القيامة بنبي كل أمة ليشهد على أعمالهم وما فيها من قبح وفساد.
 ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ أي: يا محمد ﷺ.

﴿عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أي: لتشهد على هؤلاء الذين بلغتهم دعوتك، ووصلتهم رسالتك.

وقد بكى رسول الله ﷺ عندما سمع هذه الآية، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ» قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتي أن أسمع من غيري» فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال لي: «كفّ، أو أمسك» فرأيت عينه تذر فان. [رواه البخاري (٥٠٥٥)].

واختلفوا في سبب بكائه، فرأى بعضهم أنه رضي الله عنه بكى لأنه مثل نفسه أهوال يوم القيامة، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأتمه بالتصديق، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمرٌ يحقُّ له طول البكاء.

ورأى ابن حجر رضي الله عنه أنه بكى رحمة لأتمه، لأنه علم أنه لا بد أن يشهد

عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيماً، فقد يُفْضِي إِلَى تَعْذِيهِمْ^(١).

﴿يَوْمَئِذٍ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ شِئْنَا لَوَسَّوْنَا بِهِمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾^(٤٢).

﴿يَوْمَئِذٍ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا فضل الله تعالى عليهم.

﴿وَعَصُوا الرَّسُولَ﴾ أي: وخالفوا سنة الرسول ﷺ.

﴿لَوْ شِئْنَا لَوَسَّوْنَا بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ أي: لو يُدْفَنُونَ فِي تَرَابِ الْأَرْضِ، وَيَصْبِحُونَ جِزَاءً

منها، وذلك بسبب ما يرون من أهوال هذا اليوم، وما يلحقهم فيه من الخزي والفضيحة، كما قال سبحانه في سورة النبأ: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾^(٤٢).

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي: وحالهم أنهم لا يستطيعون أن يخفوا شيئاً من

قبائحهم وفضائحهم.

• الحرص على الطهارة:

وعندما وصلت الآيات إلى هذا الحدّ من الترهيب والتخويف، والتربية والتهذيب، التفتت إلى المؤمنين تخاطبهم، وتشرع لهم من الأحكام ما فيه نجاتهم من هول يوم القيامة وأفزاعه.

فالقرآن الكريم يقدّم التشريع تارة، ثم يعقّب عليه بتربية النفوس وتهذيبها لِتُقْبَلَ عَلَى هَذَا التَّشْرِيعِ وتعمل به، كما مرّ معنا في صدر السورة [الآية: ١٧]، وتارة أخرى يمهد للتشريع بتهذيب النفوس وتربيتها، وبذلك يرفعها إلى المستوى الذي تصبح فيه مستعدة لقبول التكليف والتزام الأحكام، كما هو الحال هنا.

والأمر المُعْجَبُ المُعْجِزُ أَنْ تَكُونُ الْأَفْكَارُ وتغير الأسلوب في الآيات الكريمة لا يؤثر على اتساق جرسها، وانسجام تسلسلها ووقعها على المسامع والقلوب، إنه كلام العزيز الحكيم.

(١) انظر: فتح الباري: ٩٩/٩.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾ أي: لا تصلوا وأنتم في حال السكر من نحو خمر أو نوم.

﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي: ما تقرؤون في الصلاة.

ففي الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَنْمِ حَتَّىٰ يَعْلَمَ مَا يَقْرَأُ» [رواه البخاري (٢٦٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يَصَلِّي فَلْيَرْقُدْ حَتَّىٰ يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسِبُ نَفْسَهُ» [رواه البخاري (٢١٢)].

هذه الآية نزلت قبل التحريم القطعي للخمر، وقد ذكروا في سبب نزولها [ما أخرجه أبو داود (٣٦٧١) والترمذي (٣٠٢٦) وحسنه، والنسائي، والحاكم (٣٠٧/٢) وصححه]: عن علي رضي الله عنه قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدموني، فقرأت: قل يا أيها الكافرون أعبدوا ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون. فنزلت. وفي رواية [ابن جرير (٩٥/٥) وابن المنذر]: إنَّ إمام القوم يومئذ هو عبد الرحمن، وكانت الصلاة صلاة المغرب، وكان ذلك لما كانت الخمر مباحة^(١).

ومن المعلوم أنَّ الخمر لم تحرم دفعة واحدة:

- فقد أنزل الله تعالى أولاً ما ينقروهم عنها في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

- ثم أنزل آية النساء هذه، فضيَّقَ فيها عليهم أوقات شربها .

- ثم أنزل تحريمها القطعي في قوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَهْوَاجُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المائدة].

وأكد هذا قولُ السيدة عائشة رضي الله عنها: إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمَفْصَلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لَا نَدْعُ الزَّنى أَبَدًا. [رواه البخاري (٤٩٩٣)].

﴿وَلَا جُنْبًا﴾ أَي: وَلَا تَصَلُّوا وَقَدْ أَجْنَبْتُمْ.

والجنب: هو غير الطاهر من إنزالٍ مني بشهوةٍ أو جماع، وأصلُ الجنبانة لغةً: البعد، وسُمِّي الذي أصابته الجنبانة جنباً، لأنَّه يتجنَّب الصلاة والمسجد، وقيل: لمجانبته الناس حتى يغتسل ^(١).

﴿إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ أَي: غَيْرَ مَسَافِرِينَ، أَوْ غَيْرَ مُجْتَازِينَ فِي الْمَسْجِدِ.

﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أَي: إِلَى أَنْ تَغْتَسِلُوا.

فالمعنى على الأول: لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ جُنْبٌ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا مَسَافِرِينَ وَلَمْ تَجِدُوا الْمَاءَ، فَتِيْمَمُوا.

وعلى الثاني: لَا تَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ وَأَنْتُمْ جُنْبٌ، إِلَّا مُجْتَازِينَ فِيهِ، كَأَنْ تَكُونَ طَرِيقَهُ عَلَيْهِ فَيَمْرٌ فِيهِ.

وقد ذكروا في سبب النزول ما يؤيِّدُ المعنى الثاني، قال ابن كثير رضي الله عنه: «يُرْوَى أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَتْ أَبْوَابُهُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَكَانَتْ تَصِيبُهُمْ

(١) تفسير الخازن: ٧٩/٢.

الجنابة، ولا ماء عندهم، فيردون الماء، ولا يجدون ممراً إلا في المسجد،
فأنزل الله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾^(١).

ويؤيده قول النبي ﷺ: «لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر» [رواه البخاري (٣٦٥٤) وانظره بتمامه ثمة].

وعن جصرة بنت دجاجة قالت: سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: جاء رسول الله ﷺ، ووجهه بيوت أصحابه شارعة في المسجد، فقال: «وَجَّهُوا هَذِهِ الْبُيُوتَ عَنِ الْمَسْجِدِ» ثم دخل النبي ﷺ ولم يصنع القوم شيئاً؛ رجاء أن تنزل فيهم رخصة، فخرج إليهم فقال: «وَجَّهُوا هَذِهِ الْبُيُوتَ عَنِ الْمَسْجِدِ، فَإِنِّي لَا أَحِلُّ الْمَسْجِدَ لِحَائِضٍ وَلَا جُنُبٍ» [رواه أبو داود (٢٣٢)].

ثم شرع تعالى التيمم بدل الغسل والوضوء للعاجز عن استعمال الماء، بسبب فقد الماء أو المرض، فقال:

﴿وَإِن كُنْتُمْ مَرَضَىٰ وَالْمَرَادُ مَرَضٌ يَضُرُّهُ اسْتِعْمَالُ الْمَاءِ، كزيادة ألم، أو تأخير بُرء.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: ولا ماء معكم.

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أي: أحدث بخروج شيء من أحد السيلين.

وأصل الغائط في اللغة: هو المكان المنخفض من الأرض، وكان العرب يقصدون الأماكن المنخفضة لقضاء الحاجة.

﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: جامعتموهن، أو (لامست بشرتكم بشرتهن)^(٢).

﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾ أي: فلم تقدرُوا على استعمال الماء، لعدمه أو بعده، أو

فقد آلة الوصول إليه، أو لوجود مانع يحول بينكم وبينه.

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي: فاقصدوا وجه الأرض الطاهر.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٩٤/١.

(٢) هذا قول الشافعية، ومذهب الجمهور أن ملامسة بشرة المرأة لا تنقض الوضوء أو التيمم إلا إذا كانت بشهوة.

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي: أوقعوا المسح بوجوهكم وأيديكم منه، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ولذلك يسر الأمر عليكم، ورخص لكم.

فالتيمم من خصائص الأمة المسلمة، وهو دليل على يسر أحكام الشريعة الإسلامية وسماحتها.

• الضالُّون المضلُّون:

ثم سلكت الآيات مسلماً جديداً، واتبعت أسلوباً مغايراً في تربية المؤمنين، وتنقية نفوسهم من الآفات الخطيرة التي سبق التحذير منها، فعرضت أصنافاً من الناس ابتلوا بهذه الآفات، وبيّنت كيف استولت على نفوسهم، وتمكنت من قلوبهم، ودفعتهم إلى الظلم والعدوان، وإلى الكذب والاحتيال، وأوصلتهم إلى تحريف كلام الله تعالى، والعدوان على أنبيائه ورسوله ﷺ.

اختارت الآيات صنفين من الناس، كانوا يعيشون مع المؤمنين في المدينة المنورة، ويشكلون قطاعاً كبيراً من مجتمعها، وهم اليهود والمنافقون، وبهذا المسلك الجديد، جمعت الآيات بين تربية المؤمنين، وتنقية نفوسهم من هذه الآفات، وبيّن تحذيرهم أيضاً من مكر وكيد اليهود والمنافقين.

اتبعت الآيات في عرضها أسلوب الاستفهام التقريري، الذي يُقصد به التعجيب وتنبيه المخاطب، ليتأمل أحوال هؤلاء الناس، ويراهم على حقيقتهم المزرية وصورتهم القبيحة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾؟ أي: ألم تنظر إلى الذين أعطوا جزءاً

يسيراً من علم الكتاب المنزل عليهم؟! والمراد بهم أحبار اليهود الذين أعطوا حظاً من التوراة فقط، فقد حُرِموا من بركة فهمه والعمل به.

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَلَةَ﴾ أي: يختارون الضلالة، ويستبدلون بها بالهدى، كما فعل المنافقون الذين قال تعالى فيهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت بِحَدْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي: ويريدون منكم - أيها المؤمنون - أن تضلُّوا سبيل الحق، وتتحرفوا عنه كما ضلُّوا، لأنهم لا يريدون لكم الهداية والخير، فهم ضالُّون مضلُّون، حالهم كحال الذين يتبعون الشهوات، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (٤٥)

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وهؤلاء من جملتهم، فكونوا على حذر من كيدهم ومكرهم.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: متولياً لأموالكم، فثقوا بولايته تعالى لكم، وتمسكوا بأحكام دينه وشرعه.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي: ينصركم ويؤيدكم.

ولا يخفى ما في ختام الآية من تثبيت للمؤمنين، وشحن لعزائمهم، ورفع لهمهم، وهم يواجهون أعداءهم.

ثم أماطت الآيات اللثام عن هؤلاء الضالين المضلين:

﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَدَعْنَا لِيَأْ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظَرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٤٦)

﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: هم من اليهود، و(من) هنا لبيان الجنس.

﴿يُحْرِفُونَ أَلْكَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: يزيلون كلام الله تعالى عن مواضعه التي وضعه سبحانه فيها، حسبما تقتضيه شهواتهم من إبدال غيره مكانه، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿يُحْرِفُونَ أَلْكَامَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤٠] أي: التي وضعه سبحانه فيها.

ثم بيّنت الآيات كيف تجرّوا على الرسول ﷺ، وحاولوا المكر به، وتوجيه الأذى إليه:

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: ويقولون للرسول ﷺ: سمعنا كلامك، ولا نطيعك فيه، وقد بلغوا في هذا الغاية في الكفر والعناد وسوء الأدب.

﴿وَأَسْمَعُ عَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وهو قول ذو وجهين: يحتمل الذم، أي: اسمع منا مدعواً عليك بلا سمعت، فلو أجيبت دعوتهم لم يسمع رسول الله ﷺ شيئاً، ويحتمل المدح، أي: اسمع غير مسمع مكروهاً. وهم لا يريدون بها المدح، إنّما يقولونها نفاقاً، ويضمرون الذم.

﴿وَرَاعِنَا﴾ أي: أرعنا سمعك، وهم يريدون نسبته عليه الصلاة والسلام إلى الرعونة.

﴿لَيَأْتِيَنَّ أَلْسِنَهُمْ﴾ أي: يقولون ذلك صرفاً للكلام إلى ما يضمرون من السبّ والتحقير.

﴿وَطَعْنَا فِي أَلْدِينِ﴾ أي: واتهاماً للنبي ﷺ، وطعننا في صحة نبوته، إذ كانوا يقولون فيما بينهم: لو كان نبياً حقاً لعرف ذلك، وأظهره الله عليه.

ويدلّ قولهم هذا على شدة غباثتهم، فقد كان النبي ﷺ يعرف ما يريدون من كلامهم، وما يضمرون في نفوسهم، ولكنه ﷺ ما كان يواجههم بما يكرهون، ولا ينزل إلى مستواهم، بسبب أخلاقه العالية الكريمة.

ففي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: وعليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، إنّ الله يحب الرفق في

الأمرِ كُلهُ» فقلتُ: يا رسولَ الله، أو لم تسمع ما قالوا؟! قال رسولُ الله ﷺ: «قد قلتُ: وَعَلَيْكُمْ» [رواه البخاري (٦٠٢٤)].

وقد فضحهم سبحانه هنا وكشف خبيثة نفوسهم، فقال:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا﴾ أي: بدل قولهم: ﴿وَأَسْمَعُ عَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أي: لكان قولهم هذا خيراً لهم عند الله تعالى وأعدل، وأبعد عن الريبة.

وهذا يدل أن على الإنسان أن يبتعد عن الكلمات المريبة، التي تحتمل معاني قبيحة سيئة.

﴿وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرِهِمْ﴾ أي: ولكنه سبحانه خذلهم، ولم يوفقهم إلى الهدى والصالح، وطردهم من ساحاته، بسبب كفرهم وعنادهم وجحودهم.

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: فلا ينجيهم ولا يقبل منهم؛ لأنهم آمنوا ببعض الرسل، وكفروا ببعضهم، فقلوبهم محرومة من الخير، مُبْعَدَةٌ عنه. أو: لا يستجيب للإيمان منهم إلا عددٌ قليل، كعبد الله بن سلام، وزيد بن سُعْنَةَ ﷺ.

• طمس الوجوه:

ثم توجّهت الآيات بالخطاب مباشرة إليهم، تدعوهم إلى الإيمان الكامل؛ إقامةً للحجة عليهم، وإلزاماً لهم بها، وتوعدهم بأشدّ أنواع الوعيد والعذاب، وتذكّرتهم ببعض أنواعه التي أنزلها الله تعالى على أسلافهم:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ أي: على محمد ﷺ.

ويلاحظ أنه تعالى وصفهم هنا بأنهم أوتوا الكتاب، ولم يفهمهم بأنهم أوتوا

نصيلاً من الكتاب؛ تأليفاً لهم، لكي يستجيبوا لدعوته، وتذكيراً لهم بأنّ عندهم الكتاب الذي يشهدُ بصدقِ دعوة النبي ﷺ، وصحة رسالته.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي: مصدقاً للتوراة، ومعنى تصديقه إيّاها: نزوله حسبما نُعتَ لهم فيها، أو كونه موافقاً لها في توحيد الله تعالى والإسلام له، والإذعان لدينه وشرعه، أو شاهداً على أنّ الله تعالى أنزلها على موسى ﷺ.

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَطْمَسَ وُجُوهًا فَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ أي: من قبل أن نمحو ملامحها، وصور ما فيها من عين وحاجب وأنف وفم، ونجعلها على هيئة أقفاؤها، أو نديرها فنجعل الوجوه إلى الخلف والأقفاء إلى الأمام.

وقد يكون المراد طمس القلب والبصيرة، وتغيير أحوالهم إلى الصغار والذلة بعد العز.

وفي تنكير (وجوه) المفيد للتكثير، تهويل للخطب، وفي إيهامها لطف بالمخاطبين، وحسن استدعاء لهم إلى الإيمان^(١).

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَمْحَبَ السَّبْتِ﴾ أي: أو نلعنهم ونطردهم من الرحمة، ونُنزل بهم العذاب، كما عذبنا أصحاب السبت من أسلافهم، وهم الذين ذكرهم تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ أَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة].

وفصل خبرهم أكثر في قوله أيضاً: ﴿وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّا رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْنَحًا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف].

وقد اختلف العلماء الذين حملوا طمس الوجوه على الحقيقة، في زمن

(١) تفسير أبي السعود: ١٨٥/٢.

وقوعه، هل يقع في الدنيا أم في الآخرة؟ بعضهم قال: في الآخرة، وبعضهم قال: إنه منتظر بعدد، ولا بد من طمس في اليهود ومسح قبل قيام الساعة، ورأى بعضهم أن الوعيد بوقوع أحد الأمرين، كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَهْلَكَبَ السَّبْتِ﴾ فإن لم يقع الأمر الأول، فلا نزاع في وقوع الأمر الثاني، فإن اليهود ملعونون بكل لسان، وفي كل زمان، فاللعن بمعناه الظاهر، والمراد من التشبيه بلعن أصحاب السبت، الإغراق في وصفه^(١)، أي: المبالغة في وصفه.

ورأى بعضهم أنه مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق، وردهم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء، إلى سبيل الضلالة يهرعون، ويمشون القهقري على أدبارهم^(٢). لكن هذا لا ينسجم مع قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: نافذاً أو كائناً، فهو واقع لا محالة إن لم يؤمنوا، فالأمر ليس مثلاً، إنما هو تهديد بعذاب واقع.

• الذنب الذي لا يُغفر:

وتابعت الآيات تهديدها، وقررت معه قاعدة هامة من قواعد العقيدة الإسلامية:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أي: إن مات عليه، فهو حُكْمٌ مُبْرَمٌ قَدَرَهُ اللهُ تعالى، فالكفر ذنب لا يُمحي أثره، وصاحبه مخلد في العذاب أبداً. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: يغفر ما دون الشرك ولو كان ذنباً كبيراً. ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: لمن تعلق مشيئته تعالى بمغفرة ذنوبه.

(١) روح المعاني: ٥٠/٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٠٠/١.

ففي الآية - بعدما تقدّم من الوعيد - ترغيبٌ بالتوبة، وحثٌّ عليها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وفيها أيضاً دليل على أنّ صاحب الكبيرة إذا مات من غير توبة، فإنّه في خطر المشيئة، إن شاء عفا الله تعالى عنه، وأدخله الجنة بمنته وكرمه، وإن شاء عذّبه بالنار، ثم أدخله الجنة برحمته وإحسانه^(١).

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي: ارتكب ما تُستَحَقَرُّ دونه الآثام، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب، والافتراء كما يُطلق على القول يُطلق على الفعل^(٢).

فالفرق بين الشرك وغيره من الذنوب والآثام أنه ذنبٌ لا يغفر.

وفي الحديث الشريف: عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أتاني جبريل عليه السلام فبشّرني أنه من مات من أمّتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق» [البخاري (٧٤٨٧) ومسلم (٩٤)].

• المادحون أنفسهم:

والتزمت الآيات أسلوبَ التقرير والتعجب، في عرضها لقبائح أهل الكتاب وبيان آفاتهم النفسية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٤٩).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: يمدحون أنفسهم، ويشنون عليها. وأصل التزكية لغةً: هي التطهير والتنزيه من القبيح قولاً، كما هو الظاهر

(١) تفسير الخازن: ٩٤/٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ٩٥/٢.

هنا، وفعلاً، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، وقوله أيضاً: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]^(١).

والمراد بهم اليهود الذين يقولون: نحنُ أبناءُ الله وأحباؤه، ويرون أن لهم تفوقاً وامتيازاً على الناس، وهو ما جعلهم يستحلُّون العدوان على حقوق الناس، ويسعون في نشر الفساد بينهم، كما أنَّ هذا القولَ أساسُ الفكرة الخبيثة العنصرية التي تنادي بتفوق بعض الأجناس البشرية، والتي كانت ولا تزال سبباً كثير من الحروب المدمرة.

﴿بَلِ اللَّهِ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي: يثني سبحانه على من يشاء، ويهدي إلى الأخلاق الفاضلة والخصال الرفيعة من يشاء؛ لأنَّه سبحانه العليم الحكيم، كما قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [التَّجْم: ٣٢].

وأفادت كلمة (بل) التي هي للإضراب، على أنَّ التزكية المعتمد بها هي تزكية الله تعالى، لا تزكية غيره، وأنَّ هؤلاء الذين يزكون أنفسهم لا حظَّ لهم من تزكية الله تعالى.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: إن الله تعالى يعاقب الذين يزكون أنفسهم، ولا يظلمهم شيئاً، ولا مقدار فتيل، وهو ما يحدثُ بقتل الأصابع من الوسخ، أو هو الخيط الرفيع في شقِّ نواة التمر، فالله تعالى حكَمَ عدلٌ منزَّهٌ عن الظلم مطلقاً.

ثم أوردت الآيات تعجيباً آخر، وهي تخاطب النبي ﷺ:

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَلْبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَلْبَ﴾ فإن تزكيتهم لأنفسهم بادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه تعالى لن يعذبهم على ذنوبهم، يتضمَّن ما هو أعظمُ جرماً،

(١) انظر: روح المعاني: ٥٤/٥.

وأكثر قبحاً من تزكيتهم أنفسهم؛ إذ ينسبون إلى الله تعالى ما يستحيل عليه سبحانه بالكلية، من قبول الكفر، ورضاه به، ومغفرة كفر الكافر^(١).

وهو سبحانه لا يرضى أبداً عن الكفر كما قال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، ولا يغفره أيضاً، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩].

فتزكيتهم أنفسهم كذب على الله تعالى؛ ولهذا جعل افتراءهم عين الكذب؛ لشدة قبحه وشناعته، كأنه أمر مرئي ينظر إليه، مع أنه مما يُقال ويُسمع.

﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ فافتراؤهم على الله تعالى فقط إثم كبير واضح يستحقون به أشد العقوبات وأعظمها.

• المؤمنون بالجبت والطاغوت:

وقد دفعتهم هذه الآفات النفسية الخطيرة - وخاصة آفة الحسد - إلى الكفر برسالة النبي ﷺ ووجودها، وإلى طمس ما في التوراة من صفاته ونعوته عليه الصلاة والسلام، ودفعتهم أيضاً إلى تفضيل عبادة الأصنام والأوثان على عبادة الله تعالى وطاعته وحده؛ ولهذا أنزل الله فيهم قوله الكريم:

﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أي: يؤمنون بالأوثان والأصنام، ويصدقون من يدعو إلى عبادتها.

فالجبت: الأصنام والأوثان. والطاغوت: المبالغ بالطغيان، وهي كلمة تنسحب على كل من يدعو إلى عبادة غير الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ

(١) تفسير أبي السعود: ١٨٩/٢.

يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ التُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥١﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقد نزلت هذه الآية في حُيَيِّ بن أخطب وكعب بن الأشرف، من زعماء يهود المدينة، عندما جاؤوا إلى مكة بعد غزوة بني النضير، يستنصرون المشركين على حرب رسول الله ﷺ والمسلمين، فأجابوهم، وخرجوا معهم، مما أدى إلى غزوة الخندق أو الأحزاب.

روى ابن أبي حاتم: عن عكرمة قال: جاء حُيَيِّ بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنّا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكؤماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العاني، ونسقي الحجيج، ومحمد صنوبر، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله هذه الآية^(١).

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يقولون لأجل الذين كفروا وفي حقهم:

﴿هَتُوْلَاءَ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيْلًا﴾ أي: هؤلاء الذين يعبدون الأصنام أقوم

ديناً وأرشد طريقة من محمد ﷺ ومن معه من المؤمنين.

وسارعت الآيات بعد أن فضحتهم، وحكت مقالتهم الشنيعة القبيحة، إلى

كشف مصيرهم وبيان مآلهم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيْرًا ﴿٥٢﴾﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته وطردهم من ساحات

فضله.

﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيْرًا﴾ أي: لن تجد من يدفع عنه وينصره في الدنيا

والآخرة.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٠٣/٩.

ولهذا لن ينتفع اليهود بجيوش الأحزاب التي قدمت لنصرتهم، وعاد الأحزاب خائبين خاسرين، كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

• الكافرون برسالات الأنبياء:

وانتقلت الآيات من ذمهم على تزكية أنفسهم، إلى ذمهم على بخلهم وشحهم:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ﴿٥٣﴾

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ أي: لو كان لهم نصيبٌ في السلطة والتصرف في توزيع الأرزاق على الناس.

﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: فعند ذلك يبخلون على الناس، ولا يعطون أحداً مقدار نقير. والنقير: النقرة في ظهر النواة، وهو مثلٌ في القلة كالفتيل. فالحمد لله الذي جعل تقسيم الأرزاق بيده، لا بيد أحدٍ من عباده، فمن شأن الناس البخل والشح، بله اليهود أكثر الناس شحاً، وأعظمهم حقداً وحسداً، وكيف يؤتون الناس شيئاً وهم البغاة الحسدة، الذين حسدوا النبي ﷺ على ما آتاه الله تعالى من النبوة والرسالة، وحسدوا المسلمين على التوفيق والهداية.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ ﴿٥٤﴾

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ والمراد بالناس محمد ﷺ وأصحابه، أو المراد محمد ﷺ وحده، وجاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد؛ لأنه عليه الصلاة والسلام اجتمعت فيه من خصال الخير والبركة ما لا تجتمع مثلها في جماعة، ومن هذا القبيل يقال: فلان أمة وحده، يعني أنه

يقوم مقام أمة^(١).

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ أي: فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل - وهم من ذرية إبراهيم - النبوة، وأنزلنا عليهم الكتاب، وأعطيناهم ملكاً كبيراً، حتى جمع الله لبعضهم النبوة والملك كداود وسليمان عليهما السلام.

﴿فَمَنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمَنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ ﴿٥٥﴾

﴿فَمَنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمَنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أي: ومع ذلك فمن اليهود من آمن بإبراهيم وما أنزل الله عليه وعلى الأنبياء والمرسلين من أولاده، ومنهم من أعرض عنه وكفر به، وسعى في صد الناس عن دعوته.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي: كفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وجحودهم. ولا شك أن الكفر برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كفر برسالة إبراهيم عليه السلام، فرسالته جميع الأنبياء واحدة، وهي الدعوة إلى الإسلام لله تعالى وتوحيده، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التحل: ١٢٣]. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

• من الحقائق العلمية في القرآن:

وإمعاناً في الوعيد والتهديد، وصفت الآيات صورةً من صور تسعير جهنم بهؤلاء المكذبين المعاندين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا نَصَبْتُمْ جُلُودَهُمْ بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿٥٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا﴾ أي: سوف ندخلهم ناراً نشويهم فيها.

﴿كَمَا نَجِبتْ جُلُودُهُمْ﴾ أي: كلما احترقت جلودهم.

﴿بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أي: أعدنا تلك الجلود غير محترقة، فالجلود تعاد في

كل مرة.

وإنما قال: ﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ لتبديل صفتها، كما تقول: بدلت الخاتم قرطاً^(١).

﴿يَدُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: ليدوم إحساسهم بالعذاب، فلا ينقطع بل يزيده، كما

قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ أي: غالباً على أمره، فعلاً لما يريد.

﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما قدر وحكم.

ومن المعلوم أنّ المراكز العصبية في الجلد هي التي تنقل الإحساس

والشعور بالألم إلى داخل النفس، فالآية تشير إلى حقيقة علمية كبيرة ما كانت

معروفة عند نزول القرآن الكريم.

وقال تعالى في مقابل هذه الصورة المرعبة:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: من كل نقص وعيب يكون في نساء الدنيا، كالحيض

والنفاس والأخلاق المذمومة.

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي: ظلاً ممتداً منبسطة، في غاية الاعتدال.

فما أعجب هذا التقابل! وما أحكمه! إن له وقعاً قوياً على القلوب، ففي

مقابل السعير المتأجج والجلود الناضجة المشوية، نرى الذين آمنوا وعملوا

الصالحات في جنات ندية، وظلال ممتدة رخية.



(١) انظر: تفاسير البيضاوي والخازن والنسفي: ٩٩/١.

الْفُضْلِ الثَّلَاثُ

الحُكْمُ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى

﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَرَّعْتُمُوهُمْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَسَّلُوا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ حَرَبًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَتَابُعًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَاتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفُضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

• أداء الأمانات وحفظ الحقوق:

بهذا تكون الآيات الكريمة عملت لتفتح مغاليق العقول، وتزيل صدأ القلوب، وتطهر النفوس من رواسب الحسد والكبر والرياء، حتى تهيئها لتقبل الأحكام العملية والمبادئ الأخلاقية، وهاهي تصب فيها الآن مبدأ أخلاقياً رفيعاً، في تواصل الناس وتعاملهم، وأصلاً كبيراً هاماً من أصول التشريع والحكم في الإسلام، قال القرطبي رحمته الله: «هذه الآية من أمهات الأحكام، تضمّنت جميع الدين والشرع»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٥٨)

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فالأمر هو الله جل جلاله، والمأمورون هم جميع المكلفين، والأمر صريح ملزم، وهو أداء الأمانات إلى أصحابها، وهو يتناول حقوق الله تعالى على عباده، وحقوق العباد بعضهم على بعض.

قال ابن كثير رحمته الله: «وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله جل جلاله على عباده من الصلاة، والزكاة، والصيام، والكفارات، والنذور، وغير ذلك. ممّا هو مؤتمن عليه، لا يطّلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك»^(٢).

وقسم بعضهم الأمانات التي أمر الناس بأدائها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: رعاية الأمانة في عبادة الله جل جلاله: وهو فعل المأمورات، وترك المنهيات، قال ابن مسعود: الأمانة لازمة في كل شيء، حتّى في الوضوء والغسل من الجنابة، والصلاة، والزكاة، والصوم، وسائر أنواع العبادات.

(١) تفسير القرطبي: ٢٥٥/٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٠٥/١.

الثاني: هو رعاية الأمانة مع نفسه: وهو ما أنعم الله به عليه من سائر أعضائه، فأمانة اللسان حفظه من الكذب والغيبة والنميمة ونحو ذلك، وأمانة العين غضبها عن المحارم، وأمانة السمع ألا يُشغله بسماع شيء من اللغو والفحش، ثم سائر الأعضاء على نحو ذلك.

الثالث: هو رعاية أمانة العبد مع سائر عباد الله تعالى^(١).

ويجب أداء الأمانات إلى أصحابها، ولو كانوا فجاراً فساقاً، فالإسلام يحفظ لجميع الناس حقوقهم، ومن الكلمات المأثورة عن علماء المسلمين: العقوق لا يمنع الحقوق.

وكان ميمون بن مهران من علماء السلف يقول: ثلاثٌ يؤدِّينَ إلى البرِّ والفاجرِ: الرحمُ توصلُ برّةً كانت أو فاجرّةً، والأمانةُ توذّي إلى البرِّ والفاجرِ، والعهدُ يوقّي به للبرِّ والفاجرِ^(٢).

ويؤكد هذا المعنى قول النبي ﷺ: «أدّ الأمانةَ إلى من ائتمنَكَ، ولا تحنْ منْ خانَكَ» [رواه أبو داود (٣٥٣٤ و ٣٥٣٥) والترمذي (١٢٦٤)].

وقد نزلت هذه الآية يوم الفتح على النبي ﷺ، وهو داخل الكعبة المعظمة، روى ابن جرير بسنده: عن ابن جريج قال: نزلت في عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فبص منه النبي ﷺ مفاتيح الكعبة، ودخل بها البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان، فدفع إليه المفتاح.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما خرج رسول الله ﷺ، وهو يتلو هذه الآية - فداؤه أبي وأمي - ما سمعته يتلوها قبل ذلك^(٣).

ولا شك أنّ الحكم بين الناس بالعدل من أعظم الأمانات، وأثقل التبعات، التي يحملها الحكّام والقضاة، فأداء الأمانات أساسُ التعامل الأول بين الناس

(١) انظر: تفسير الخازن: ١٠١/٢.

(٢) روح المعاني: ٦٤/٥.

(٣) تفسير الطبري: ١٤٥/٥.

في المجتمع، والحكم بالعدل أهم أسس نظام الحكم في الإسلام؛ ولهذا قرن تعالى بينهما فقال:

﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي: وإن الله تعالى يأمركم أن تحكموا بين الناس بالعدل، فعلى الحاكم أن يأخذ الحق ممن وجب عليه، لمن وجب له، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في أول خطبة له بعد أن بويع بالخلافة: «وإن أقوامك عندي الضعيف حتى أخذ له بحقه، وإن أضعفكم عندي القوي حتى أخذ منه الحق»^(١).

فولاية الناس في الإسلام مسؤولية جسيمة وكبيرة، وأمانة ثقيلة؛ ولهذا جاء الأمر بالعدل مقيداً بالحكم بين الناس، ولم يأت مطلقاً، كما هو الحال في أداء الأمانات، فهو كال تصريح أنه ليس لجميع الناس أن يشرعوا في الحكم، بل ذلك لبعضهم ممن يصلح له ويقدر عليه^(٢).

ففي الحديث الشريف: عن أبي ذر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا أبا ذر! إنني أراك ضعيفاً، وإنني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم».

وفي رواية أخرى قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر! إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها» [رواه مسلم (١٨٢٥)].
وفي مقابل ذلك، فإن للحاكم العادل - الذي يقدر على حمل أمانة الحكم، ويؤدي الحقوق كاملة إلى رعيته - مكانة كبيرة عالية يوم القيامة.

ففي الحديث الشريف: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن رضي الله عنه، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» [رواه مسلم (١٨٢٦)].

(١) حياة الصحابة: ٤٢٧/٣، طبعة دار القلم - دمشق.

(٢) انظر: تفسير الرازي: ١٠/١٤٦.

فالعدل حقٌّ من أهم حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية، مهما كان هذا الإنسان.

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يُعْطِكُمْ بِهِ﴾ أي: نعم الشيء الذي يعظكم الله به، أمراً ومذكراً

فكلمة ﴿يُعْطِكُمْ﴾ تفيد الأمر والتذكير والنصح، وهذا الشيء هو أداء الأمانات والعدل في الحكومات، فالأمر إذاً خطير وكبير.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فراقبوه في أعمالكم وأماناتكم، فهو سبحانه سميع لأقوالكم، بصير بجميع أعمالكم وأحوالكم.

• طاعة أولي الأمر وتحكيم شريعة الله:

ولا يقوم المجتمع العادل الذي يتمتع الناس فيه بحقوقهم كاملة، إلا في ظل شريعة الله تعالى، وطاعة المحكومين للحاكم الملتزم بهذه الشريعة، وهو ما بينه تعالى من خلال نداءه للمؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٖ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٥٩).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي: الزموا طاعته في كلِّ ما أمركم به ونهاكم عنه.

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي: أطيعوه أيضاً في كلِّ ما أمركم به، ونهاكم عنه؛ لأنه

ﷺ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

وأعاد الفعل (أطيعوا) وإن كانت طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله تعالى؛

اعتناءً بشأنه ﷺ، وقطعاً لتوهم أنه لا يجبُ امثال ما ليس في القرآن، وإيداناً بأن له استقلالاً بالطاعة لم يثبت لغيره، ومن ثمَّ لم يُعده في قوله سبحانه:

﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ إيداناً بأنهم لا استقلالَ لهم فيها استقلال الرسول ﷺ^(١).

وهم الحكّام والقادة، وأضاف بعضهم إليهم العلماء، فطاعتهم مقيدة بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

وأكد هذا المعنى سببُ نزول الآية، فعن علي رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سريةً، فاستعمل رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها. فهثموا، وجعل بعضهم يمسك بعضها ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف» [رواه البخاري (٤٣٤٠)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، إذ بعثه النبي ﷺ في سرية. [رواه البخاري (٤٥٨٤)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ» [رواه البخاري (٧١٤٤)].

وعن أم الحصين، قالت: حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فسمعتُه يقول: «إِنَّ أَمْرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدِّعٌ (أي: مقطوع الأطراف) - وحسبها قالت: أسودٌ - يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا» [رواه مسلم (١٨٣٨)].

وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ يدل على أن الحكّام يجب أن يكونوا من المسلمين، فلا تجوز ولاية الكافر على المسلم، قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] - كما سيأتي معنا..

فطاعة ولي الأمر واجبة على الرعية ما دام متمسكاً بالكتاب والسنة، فإذا زال عنهما فلا طاعة له، وإنما تجب طاعته فيما وافق الحق^(١).

(١) تفسير الخازن: ١٠٤/٢.

﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: اختلفتم في شيء.

وكلمة (شيء) نكرة تفيد العموم، فالشريعة الإسلامية تلبّي حاجاتكم التشريعية لكل شيء تتنازعون فيه.

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي: فراجعوا فيه كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: إن كنتم تؤمنون بالله تعالى حقاً، وأنكم مسؤولون أمامه يوم القيامة، فيجب عليكم طاعته، والاحتكام إلى دينه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

فالحاكمية والتشريع في نظام الإسلام لله تعالى وحده، فهو سبحانه الخالق والمالك، وله الحكم في خلقه وملكه، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ودلت الآية على أن الذي لا يرضى بتحكيم شريعة الله تعالى غير مؤمن، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: تحكيم شريعة الله تعالى بينكم خير لكم من تحكيم الشرائع التي يشرعها البشر؛ لأنها شرائع ناقصة وغير عادلة، تتأثر بأهواء ومصالح واضعها.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسن مرجعاً وعاقبة ومالاً.

فإن تحكيم شريعة الله يؤدي إلى إشاعة الأمن والعدل والسلام والتعاون بين أبناء المجتمع، كما يؤدي إلى الرخاء وسعة العيش، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ ءَامَنُوا وَأَتَقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنْحِيَالَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

• الإعراض عن تحكيم شريعة الله كفر ونفاق:

فالمُرَّضاً بأحكام الشريعة الإسلامية دليل على صحة الإيمان وصدقه، والإعراض عنها دليل على الكفر والنفاق، ولهذا قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ أي: يدعون.

﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: من الشرائع الإلهية السابقة.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ أي: إلى رأسٍ من رؤوس الضلال والكفر.

﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي: وقد أمرهم الله تعالى أن يكفروا بالطاغوت،

وبما يدعو إليه من شرك وضلال.

قال ابن كثير رحمته الله: «هذا إنكارٌ من الله تعالى، على من يدعي الإيمان بما أنزل

الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى الأنبياء الأقدمين صلوات الله عليهم وسلامه، وهو مع

ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم،

كما ذكر في سبب نزول هذه الآية، أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود

تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك

كعب بن الأشرف»^(١).

﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، ولهذا زَيَّنَ لهم الإعراض عن

شريعة الله، والتحاكم إلى ما يشرعه طواغيت الكفر والضلال، مما يدل على

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٠٩/١.

أنهم وقعوا في حبال الشيطان، فأسلموا أمرهم إليه، وأذعنوا لنزغاته ووساوسه.

وكلما دعوتهم إلى الانقياد والتحاكم لشرع الله تعالى، أعرضوا مستكبرين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنْفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (٦١).

أي: يعرضون عنك و عما تدعوهم إليه إعراضاً كاملاً، يدل على عنادهم وتكبرهم، ويدل على كذب ادعائهم بالإيمان، فهم كذّابون منافقون، أظهر إعراضهم عن تحكيم شريعة الله كفرهم ونفاقهم، ولهذا صرحت الآية بنفاقهم. وما أكثر الذين تنسحب عليهم هذه الآيات في المجتمعات الإسلامية، من الذين يعرضون عن شريعة الله تعالى، ويعارضون تحكيمها، ويسعون جاهدين إلى عزلها وحصرها في مجال العبادات الفردية الشخصية، مما يدل على أنّ النفاق قد استشرى كثيراً بين المسلمين.

• أَعذار واهية وإيمان كاذبة:

ويؤدّي الإعراض عن تحكيم شريعة الله تعالى، وتعطيل أحكامها، إلى البلاء والغلاء والفتن، وهو الواقع المشاهد في أكثر المجتمعات الإسلامية، وهو ما حذرنا سبحانه منه بقوله:

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (٦٢).

﴿فَكَيْفَ﴾ أي: كيف يكون حال هؤلاء المعرضين عن شريعة الله تعالى.

﴿إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: إذا نزلت بهم المصائب والنوازل بسبب إعراضهم عن شريعة الله، وتحكيمهم شرائع طواغيت الكفر والضلال.

﴿ثُمَّ جَاءَوكَ﴾ أي: ثم يأتون إليك، حين يصابون؛ معتذرين.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: يحلفون بالله تعالى أنهم

ما أرادوا بالتحاكم إلى غيرك الإساءة والمخالفة؛ بل أرادوا الإحسان والتوفيق.

وهي دائماً دعوى كل من يحمي عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته، إنها

حجة الذين يزعمون الإيمان، وهم غير مؤمنين، وحجة المنافقين الملتوين، هي

هي دائماً وفي كل حين، والله سبحانه يكشف عنهم هذا الرداء المستعار، ويخبر

رسوله ﷺ أنه يعلم حقيقة ما تنطوي عليه جوانحهم^(١).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي
أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن قبول

عذرهم، دون أن تفضحهم؛ ليظلوا على وجلٍ وحذرٍ.

أو: أعرض عنهم، ولا تهتم بهم؛ فإن الله مجازيهم.

﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي: ازجرهم عن النفاق والكفر والكذب، وخوفهم من عذاب

الله تعالى يوم القيامة، وأن ما أصابهم في الدنيا من المصائب شيءٌ يسيرٌ بالنسبة

لما ينتظرهم يوم القيامة إن أصرُّوا على الكفر والنفاق.

﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: خالياً بهم، فإن النصيحة في السرِّ أنجعُ

وأقربُ إلى القبول.

﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: قولاً مؤثراً.

فكانتها تقول للنبي ﷺ: ابسط لهم لسان الوعظ، بمقتضى الشفقة عليهم،

وانقبض بقلبك عن المبالاة بهم، والسكون إليهم.

فما أعظم هذه الشريعة، وما أرحم أحكامها! إنها تأمر النبي ﷺ أن يعامل

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٥/٦٩٥.

المعرضين عنها هذه المعاملة الرحيمة الحكيمة، تأمره أن يبذل جهده في وعظهم وإرشادهم، وإنقاذهم من وهدة النفاق وشقوته، وسوء عاقبته، مع أخذ الحذر منهم، وعدم الاطمئنان إليهم.

• طاعة رسول الله ﷺ وشفاعته:

ثم قررت الآيات وجوب طاعة كل رسول أرسله الله تعالى، فالرسول ليس مجرد واعظ يلقي كلمته ويمضي، لتذهب في الهواء بلا سلطان، كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين وطبيعة الرسل، فالرسول سلطان، ويجب أن يُطاع، لكي يحقق المنهج الذي أرسله الله تعالى به^(١):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ ﴿٦٤﴾ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمر من الله تعالى، فطاعته طاعة لله تعالى، ومعصيته معصية لله تعالى - كما سيأتي عند قوله سبحانه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وفي هذا التقرير تويخ للمعرضين عن طاعته عليه الصلاة والسلام. وفتحت الآية بعد هذا التقرير والتويخ للمعرضين سبيلاً للتوبة، كما هو شأن القرآن الكريم دائماً، فبعد أن يحذر وينذر وينبه إلى موضع الداء، ومكمن الخطر، يدعو إلى الاستغفار والتوبة، فلا يأس من رحمة الله تعالى، ومهما كانت الذنوب كبيرة، فإن رحمته تعالى ومغفرته أوسع منها:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: بالنفاق والتحاكم إلى شرائع الطواغيت.
 ﴿جَاءُوكَ﴾ أي: تائبين من النفاق، نادمين على ما سلف منهم.
 ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ أي: سألوا الله تعالى أن يغفر لهم.

(١) في ظلال القرآن: ٦٩٥/٥.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ الرَّسُولُ﴾ بالشفاعة لهم، وسأل الله أن يغفر لهم، ويقبل

توبتهم.

والقياس يقتضي أن يقول: واستغفرت لهم، وإنما عدل الخطاب عنه تفخيماً لشأنه عليه الصلاة والسلام، وتنبهاً على أن من حق الرسول ﷺ أن يقبل اعتذار التائب، وإن عظم جرمه، ويشفع له^(١).

فإذا جاؤوك فقد جاؤوا من خصه الله برسالته، وجعله سفيراً بينه وبين خلقه، ومن كان كذلك فإن الله تعالى لا يرد شفاعته، فلهذا السبب عدل إلى طريقة الالتفات، من لفظ الخطاب إلى لفظ الغيبة^(٢).

﴿لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي: لعلموا أن الله يقبل توبتهم ويرحمهم.

ثم أقسم الله تعالى بذاته المقدسة، وأضافها إلى ضمير الخطاب الموجه إلى النبي ﷺ تكريماً له وتشريفاً، على انتفاء إيمانهم حتى ينقادوا لحكمه عليه الصلاة والسلام انقياداً كاملاً، ويسلموا له تسليماً مطلقاً:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا فَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ (٦٥).

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فو ربك لا يؤمنون، وزيدت (لا) لتأكيد معنى

القسم.

﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فيما اختلفوا فيه من الأمور، ووقع

بينهم تنازع بشأنه، ومنه الشجر لتداخل أغصانه.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا فَضَيْتَ﴾ أي: لا يجدوا في أنفسهم أي

ضيق وانزعاج من حكمك، بل يرضوا بما حكمت.

﴿وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ أي: وينقادوا لك انقياداً ظاهراً وباطناً.

(١) تفسير البضاوي: ١٠٨/٢.

(٢) تفسير الخازن: ١٠٨/٢.

فلا يصح إيمان أحدٍ بالله تعالى إلا إذا آمن بالنبِيِّ ﷺ، وانقادَ لحكمه انقياداً كاملاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وذكروا في سبب نزول هذه الآية: أنّ رجلاً من الأنصار خاصم الزبير بن العوام رضي الله عنه عند النبي ﷺ في شراجِ الحرّة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاريُّ: سرح الماء يمر، فأبى عليه، فاختصما عند النبي ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ للزبير: «اسقِ يا زبيرُ، ثم أرسلِ الماءَ إلى جارك» فغضبَ الأنصاريُّ فقال: أن كان ابن عمّتيك. فتلّونَ وجهُ رسولِ الله ﷺ ثم قال: «اسقِ يا زبيرُ، ثم احبسِ الماءَ حتى يرجعَ إلى الجدرِ» فقال الزبيرُ: والله إنني لأحسبُ هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [رواه البخاري (٢٣٥٩)].

وشراج الحرّة: أماكن مسيل الماء في الحرّة. والجدر: هي الحواجز التي تحبس الماء.

ومن المعلوم أنّ خصوصَ السبب لا يمنعُ عمومَ الحكم، وحكم هذه الآية باقٍ إلى يوم القيامة، وليس مخصوصاً بالذين كانوا في عصر النبي ﷺ، فإنّ قضاء شريعته عليه الصلاة والسلام قضاؤه^(١).

• يُسْرَ الشريعة وسماحتها:

ثم بيّنت الآياتُ يُسْرَ الشريعة الإسلامية وسماحتها، وأنّه تعالى ما كلّفنا فيها التكاليف الشاقة، فما كلّفنا إلا طاعة الرسول ﷺ والتمسك بسنته ﷺ:

﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾.

﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي: لو أنه سبحانه فرض علينا التكاليف الشاقة الصعبة كقتل النفس والخروج من الديار.

(١) روح المعاني: ٧١/٥.

﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: ما فعل هذا التكليف إلا قليل من المؤمنين.

لقد علم تعالى ضعفنا فرحمننا، وأرسل إلينا هذا الرسول الكريم ﷺ الذي وصفه سبحانه بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

والذي وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: ما خَيْرَ رسولٍ اللهُ ﷺ بين أمرين إلا أخذَ أيسرَهُما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعدَ الناسِ مِنْهُ، وما انتقم رسولُ اللهُ ﷺ لنفسِهِ إلا أن تُتْهَكَ حرمَةُ اللهِ فَيَسْتَقِمُ اللهُ بها. [رواه البخاري (٣٥٦٠)].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: ما يؤمرون به من طاعة الرسول ﷺ والتمسك بشريعته.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَشَدَّ تَبِيئًا﴾ أي: ثباتًا على الإيمان وعلى التمسك بشريعة الإسلام، فإن يسر الشريعة، وسهولة تكاليفها يستدعي التمسك بها، والثبات عليها، فلا عذر لأحد في تركها وهجر أحكامها.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يوصي بالاعتدال في العبادة، وينهى عن التشدد والغلو فيها؛ ففي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ دخلَ عليها وعندها امرأةٌ قال: «مَنْ هذه؟» قالت: فلانة، تذكرُ مِنْ صَلَاتِهَا قال: «مَهْ عَلَيْكُمْ بما تُطِيقُونَ، فو الله لا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا» وكان أحبَّ الدِّينِ إليه ما دامَ عليه صَاحِبُهُ. [رواه البخاري (٤٣)].

وقولها: (تذكر من صلاتها) أي: يذكرون أن صلاتها كثيرة، وأنها لا تنام

في الليل.

﴿وَإِذَا لَا تَجِدُهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: وفي حال ثباتهم على الدين، وتمسكهم بشريعته، نعطيهم من عندنا أجرًا عظيمًا، لا يعلم مقدارَه إلا معطيه، وهو الله جل جلاله.

﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ .

أي: ونوفقهم أيضاً للسير على الصراط المستقيم، الذي يصلون به إلى أعلى المراتب التي تتلَّعُ إليها نفوسُ المؤمنين الصالحين والشهداء والصدّيقين .

• الرفيق الأعلى:

واستمرت الآياتُ ترعَّبُ المؤمنين في طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام والتمسك بشريعته وسنته، وتطمعهم بمرافقة أكرم الخلائق في أرفع المراتب وأعلاها يوم القيامة:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ
وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ .

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ أي: المبالغين في الصدق والإخلاص في أقوالهم وأفعالهم، وهم خواصُّ المقرَّبين من الأنبياء كأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ وهم الذين بذلوا أرواحهم في طاعته تعالى وإعلاء كلمته.

﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ أي: المتمسكين بشريعته وسنته، فلا صلاح للإنسان إلا إذا

التزم بشرع الله تعالى وتمسك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ أي: وما أحسنَ صحبة هؤلاء ومرافقتهم في الملاء

الأعلى في الجنة! فالرفيق: الصاحبُ، مأخوذ من الرفق، وهو لين الجانب واللطف في المعاشرة.

فطاعةُ الرسول صلى الله عليه وسلم مفتاحُ الوصولِ إلى المقامات العالية الرفيعة، مقامات

النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وكفاه عليه الصلاة والسلام بذلك شرفاً وتكريماً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ

غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: كنتُ أبيتُ مع رسولِ الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سَلْ» فقلتُ: أسألكَ مرافقتك في الجنة، قال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك، قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» [رواه مسلم (٤٨٩)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لِيَتْرَءُونَ أَهْلَ الْعَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتْرَءُونَ الْكُوكَبَ الدَّرِيِّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» [رواه مسلم (٢٨٣١)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء» [رواه الترمذي (١٢٠٩)].

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بلوغهم هذه المراتب الرفيعة في الجنة فضل تفضل الله تعالى به عليهم.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي: بعباده وأعمالهم، وما يتفضل به عليهم، فما نالوا هذه الدرجات العالية إلا بفضل سبحانه عليهم، فلا ينبغي لأحد أن يغتر بعمله، ويُعجب بعبادته، فالله سبحانه هو الذي وفقهم إلى هذه العبادات والطاعات، وأعانهم عليها، فالفضل منه سبحانه أولاً وآخرًا.

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة قالت: قال رسول الله ﷺ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشُرُوا، فَإِنَّ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قلَّ» [رواه مسلم (٢٨١٨)].





الْفَضْلُ الْبَارِعُ

التكليف بالجهاد والحض عليه

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُدُوا جَدْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧٦﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبْتَاطِنَ فَاِنَّ اَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةً قَالَ قَدْ اَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ اِذْ لَمْ اَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٧﴾ وَلَئِنْ اَصْبَحْتُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَاْنَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِغْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَاَفُورًا فَاَفُورًا عَظِيمًا ﴿٧٨﴾﴾
﴿فَيُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقتَلْ اَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ اَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٩﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِيْنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُوْنَ رَبَّنَا اَخْرِجْنَا مِنْ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ اَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا يُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيْلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوْا اَوْلِيَآءَ الشَّيْطٰنِ اِنَّ كَيْدَ الشَّيْطٰنِ كَانَ ضَعِيْفًا ﴿٨١﴾ اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِيْنَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوْا اَيْدِيَكُمْ وَاَقِمُوْا الصَّلٰوةَ وَاَتُوْا الزَّكٰوةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ اِذَا فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ يَمْحٰثُوْنَ النَّاسَ كَخَشِيَةِ اللهِ اَوْ اَسَدًا حَاشِيَةً وَقَالُوْا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا اَخْرَجْنَا اِلَىْ اَجَلٍ قَرِيْبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيْلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اَنْقَى وَلَا يُظْلَمُوْنَ فَبِيْلَا ﴿٨٢﴾ اَيْنَمَا تَكُوْنُوْا يُدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِيْ بُرُوجٍ مُّسَدَّدَةٍ وَاِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوْا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوْا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللهِ فَاَلْ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ حٰدِيْتًا ﴿٨٣﴾ مَا اَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا اَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَاَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُوْلًا وَكَفَى بِاللّٰهِ شَهِيدًا ﴿٨٤﴾ مَن يُطِيعِ الرَّسُوْلَ فَقَدْ اَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا اَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيْظًا ﴿٨٥﴾ وَيَقُولُوْا طَاعَةٌ اِذَا بَرَزُوْا مِنْ عِنْدِكَ بِيَّتٍ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُوْلُ وَاللّٰهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُوْنَ فَاَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللّٰهِ وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ اَفَلَا يَتَذَكَّرُوْنَ اَلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوْا فِيْهِ اخْتِلَافًا كَثِيْرًا ﴿٨٧﴾ وَاِذَا جَاءَهُمْ اَمْرٌ مِّنَ الْاٰمَنِ اَوْ اَلْخَوْفِ اذَاعُوْا بِهٖ وَلَوْ رَدُّوْهُ اِلَى الرَّسُوْلِ وَالِىَّتِ اُولَى الْاَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِيْنَ

يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٦﴾ فَقِنْدِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُفْ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِيصَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِفَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٧﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِمَّا وَدَّ مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا ﴿٨٨﴾ وَإِذَا حُيِّمْتُمْ بِنَجْيَتِهِ فاحْيُوا بِأَحْسَنَ مِمَّا آوَّوْا رُدُّوهُا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٩﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَركَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتْرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا نَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٩٢﴾ وَدُّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٩٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَتْكُمْ حَصْرَتْ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْبَلُواكُمْ أَوْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبَلْتُمُوهُمْ فَإِنْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ فَمَا جَعَلَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٤﴾ سَتَجِدُونَ عَٰرِبِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُواكُمْ وَيَأْمِنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُواكُمْ وَيُقْبَلُوا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُبِينًا ﴿٩٥﴾ وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِيبٌ عَلَيْهِ وَعَلَنَةٌ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٧﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيِّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ لَسَتْ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْكُمْ فَبَيِّنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٨﴾ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ
 وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا
 ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ مَلَائِكَةٌ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَوْ لَمْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا لَنْ
 نَكُنَّ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
 الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ
 وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمِجْ فِي الْأَرْضِ مُرْعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ
 مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾
 وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
 الْكُفْرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ
 مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ
 يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَفْلُوتَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ
 وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَىٰ مِنْ مَطَرٍ أَوْ
 كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَصْعَوْا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا
 قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَفَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ
 الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ
 فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ .

• تحذير ونصير:

وما دام الناس معرضين لهذه الآفات النفسية الخطيرة التي تدفعهم إلى الاختلاف والتنازع وإلى البغي والعدوان، فلا مناص من تكليف المؤمنين بالقتال، وحثهم على الجهاد، لكي يتمتعوا بحقوقهم، ويعيشوا بسلام واطمئنان، فما أكثر ما يُفرض السلام بالقوة، وهو ما يسمّى في عصرنا الحاضر عند رجال السياسة: التوازن الاستراتيجي، فإذا ما اختل هذا التوازن، وتفوّقت إحدى القوى على غيرها أصبح السلام في خطر، وتعرضت حقوق الناس للعدوان والظلم.

ولهذا توجَّهت الآيات الكريمة بخطابها إلى المؤمنين تناديهم محذرةً ومستنفةً:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ الحِذْرُ: الحَذَرُ، أي: الحَذَرُ الحَذَرُ؛ وهو لا يكون إلا من مَخُوفٍ وخطر، يقال: أخذ حِذْرَه، إذا تيقَّظ، واحترز من المخوف، كأنه جعل الحذر آله التي يقي بها نفسه، ويعصم بها روحه. والمعنى: احذروا واحترزوا من العدو^(١).

والحذر يكون بالانتباه والاستعداد والأخذ بأسباب القوة والوقاية والحيطه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ. عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وبعد بيان التحذير من العدو أمر سبحانه بالنفير:

﴿فَانْفِرُوا﴾ أي: اخرجوا للجهاد وقاتل الأعداء.

﴿ثَبَاتٍ﴾ أي: متفرقين، جماعةً بعد جماعة، وسريهً بعد سريه، وهذا عندما لا يكون الخطر كبيراً، فيكفي حينئذ أن يخرج للقتال بعض أفراد الأمة، وينصرف الآخرون إلى الاهتمام بمتطلبات الحياة الأخرى كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِينْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

﴿أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي: اخرجوا إلى الجهاد مجتمعين إذا كان النفير عاماً، وذلك عندما يكون الخطر كبيراً، ويحتاج إلى حشد كل طاقات الأمة القتالية، فحينئذ يكون الجهاد فرض عينٍ على كل قادر عليه، كما في قوله تعالى:

(١) تفسير النسفي: ١١٣/٢.

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

• المتقاعسون عن الجهاد:

ولا تخلو أمة أو مجتمع عن الجبناء المتقاعسين عن القتال، ولهذا اتجهت الآيات إلى الحديث عنهم، ووصف أحوالهم، وبيان مواقفهم، فهم ثغرة كبيرة في جسم الأمة يجب المبادرة إلى سدّها، وإحكام إغلاقها، وإلا تسرب العدو منها إلى مقاتل الأمة فأجهز عليها.

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (٧٢).

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: ليتثاقلنّ وليتخلفنّ عن الخروج إلى الجهاد، من بطأ بمعنى أبطأ، أو ليبطئن غيره ويشبطه، من بطأ منقولاً من بطؤ^(١)، كما قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِفِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨]، والواقع فإنّ التباطؤ والتقاعس عن الجهاد يؤدي إلى تشجيع الآخرين على التباطؤ والتقاعس.

﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أي: أصابتكم في الجهاد مصيبة كهزيمة أو قتل.

﴿قَالَ﴾ أي: المتباطئ المتخلف عن الجهاد.

﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ أي: بالعودة والتخلف، فإنه يرى التخلف عن الجهاد نعمة من الله، مع أنه معصية كبيرة.

﴿إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي: حاضراً مع المجاهدين في المعركة، فلو كنت معهم لأصابني مثل ما أصابهم.

وهكذا اختلّت نظرتّه إلى الأمور فرأى التخاذل والجبن نعمة من نعم الله تعالى عليه.

(١) انظر: تفسير أبو السعود: ٢/٢٠٠.

﴿وَلِينَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧٣).

﴿وَلِينَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: فانتصرتم وغنمتم.

﴿لِيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أي: كأنه غريبٌ عنكم، ولا صلة بينكم وبينه.

﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ أي: كنتُ مع المجاهدين في ميدان القتال.

﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: فأنال نصيباً وافراً من الغنيمة.

فهو يتحسّر على الكسب المادي الذي فاته بسبب تخلفه عن الجهاد، لا على ما فاته من ثواب الجهاد وشرفه، وكأن الآية تكشفُ سببَ جُبْنِهِ وتخلفه عن الجهاد، إنه الحرص على المنافع المادية، والتعلق بالشهوات الأرضية الفانية، وهذا ما صرحت به الآيات الكريمة في موضع آخر: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَالَهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٣٨].

وأعرضت الآيات عن المتخلفين، والتفتت إلى المجاهدين تحضُّمهم على الجهاد، وتبيّن لهم الثواب العظيم، الذي أعدّه الله لهم:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤).

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة.

فكلمة ﴿يَشْرُونَ﴾ من ألفاظ الأضداد، وقد جاءت بمعنى البيع أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَشَرَّوهُ بِمَنِّ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

فهم الذين تعلقت قلوبهم وأرواحهم بالآخرة فأثروها على الدنيا، فإن تقاعس المتقاعسون عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في سبيل الله طلباً لرضوانه وفسيح جناه .

﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: فللمجاهدين الأجر العظيم والثواب الجزيل في حال استشهادهم، أو في حال فوزهم على عدوهم وانتصارهم .

فليس أمام المجاهدين في أرض المعركة إلا إحدى الحُسنيين: الشهادة أو النصر، كما جاء في الحديث الشريف: «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصَدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجَعَهُ إِلَى مَسْكِنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ» [رواه مسلم (١٨٧٦)].

• وجوب مساعدة المستضعفين:

وتابعت الآيات حصص المسلمين على الجهاد والثبات مع بيان مقصد آخر من مقاصده، وهو نصره المستضعفين، وتخليصهم من المجتمعات الظالمة التي لا يتمتع الإنسان فيها بحقوقه الإنسانية وكرامته .

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥) .

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي: وفي سبيل مساعدة المستضعفين، فإن مساعدة المستضعفين وتخليصهم من أيدي الظالمين جهاد في سبيل الله، فهو من قبيل عطف الخاص على العام .

والمراد بهم الذين يعيشون تحت قهر الظلمة وفي سلطانهم، كالذين لم يتمكنوا من الهجرة من الضعفاء المسلمين، وقد كان الرسول ﷺ كثير الاهتمام بهم حتى كان يدعو لهم في صلاته .

ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي العشاء إذ قال: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» ثم قال قبل أن يسجد: «اللهم نجِّ عيَّاشَ بنِ أبي ربيعة، اللهم نجِّ سلمةَ بنِ هشام، اللهم نجِّ الوليدَ بنَ الوليد، اللهم نجِّ المستضعفينَ مِنَ المؤمنينَ، اللهم اشُدُّ وطأتك على مُضَر، اللهم اجعلها سنينَ كسني يوسفَ» [رواه البخاري (٤٥٩٨)].

وتدلُّ الآية أنَّ على المسلمين أن يساعدوا الجاليات المسلمة المستضعفة التي تعيشُ في بلاد الكفر، حتى يتمتعوا بحقوقهم كاملةً، ويؤدُّوا العبادات المفروضة عليهم بحرية، فإن كثيراً من الجاليات المسلمة لا تتمتع بأبسط الحقوق الإنسانية، ففي البلاد الغربية التي يرفعُ أهلها شعارات المحافظة على حقوق الإنسان يُمنع المسلمون من رفع أصواتهم في الأذان، ويضيقون على المرأة المسلمة التي تلبس الملابس الإسلامية الساترة، كما يضيقون عليهم في أسباب كسبهم ومعاشهم.

﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ وهو بيان للمستضعفين وأصنافهم.

وذكرت الآية الولدان تكميلاً للإثارة، والحضُّ على دفع الظلم عنهم، وتنبهاً على شدة الظلم الواقع عليهم حتى وصل إلى أطفالهم. وفيه إشارة إلى أنَّ الإسلام يحفظ حقوق جميع الناس صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ أي: الذين ظلم أهلها بالكفر والشرك والعدوان على حقوق المستضعفين.

ودلَّ دعاؤهم هذا على أنهم كانوا متبرِّمين من الإقامة فيها، ويتمنَّون مغادرتها، بسبب ما يلقون فيها من ظلم وعدوان.

﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ أي: اجعل لنا ولياً يتولَّى أمرنا، ويستنقذنا من

أعدائنا.

﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ أي: ينصرنا عليهم.

كانوا يدعونه بالخلاص ويستنصرونه، فيسرَّ الله لبعضهم الخروج إلى

المدينة، وبقي بعضهم إلى الفتح، حتى جعل الله لهم من لدنه خيرَ وليٍّ وناصر، وهو محمد عليه الصلاة والسلام، فتولاهم أحسنَ التولي، ونصرهم أقوى النصر^(١).

• بين غايتين:

ثم عقدت الآيات مقارنةً بين الغاية الأساس للقتال عند المسلمين، وبين غاية القتال عند المشركين؛ إبرازاً لنبل وسمو غاية القتال عند المسلمين، وهو أسلوبٌ جديدٌ اتبعته الآيات لحث المسلمين على القتال، بتعريفهم بغايته النبيلة، إذ الأشياء تُعرفُ بأضدادها:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ وشتان ما بين الغايتين والمقصدتين، بين الذين يقاتلون لرفع كلمة الله في الأرض، ونشر دين الحق وشريعة العدل والسماحة، وبين الذين يقاتلون من أجل رؤوس الشرك والكفر والظلم ودعاة الضلال والفساد.

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: فقاتلوا يا جندَ الرحمن أتباعَ الشيطانِ وأنصاره وجنوده، ولا تخافوا منهم ومن مكرهم وكيدهم واحتيالهم.

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ وهو رأس الطواغيت.

﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ لأنه تعالى يؤيدكم وينصركم.

ولا يعني هذا الاستهانة بمكر الأعداء، فمكرهم في حدِّ ذاته كبيرٌ وخطيرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، فعليتنا واجب الحذر منه، والعمل على كشفه وإبطاله.

(١) تفسير النسفي: ١١٦/٢.

وعادت الآيات إلى أسلوب التعجيب، التعجيب من أحوال هؤلاء الجبناء المتقاعسين عن القتال، والذين كان بعضهم قبل التكليف به ونزول آياته يطلبونه ويتشوقون إليه، فلما كُلفوا به جنوا وتقاعسوا عنه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فِرَاقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلٌ قَرِيبٌ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ أَنْفَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَنِيلاً ﴿٧٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: عن القتال.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: اشتغلوا بما أمرتم به من الطاعات كالصلاة

والزكاة.

فلا ينبغي للمؤمن أن يتعرض للبلاء ويتمناه، فقد يجزع ويضعف عند لقاءه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «أيُّها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قال: «اللهم منزّل الكتاب، ومُجرّي السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم» [رواه البخاري (٢٩٦٦)].

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فِرَاقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي: يخافون من قتال الكفار كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسه، لا شكاً في الدين، ولا رغبةً عنه، ولكن نفوراً عن الأخطار بالأرواح، وهذه خشيّة طبع، لا أن ذلك منهم كراهة لحكم الله وأمره اعتقاداً، فالمرء مجبوراً على كراهة ما فيه هلاكه غالباً^(١).

ويمكن صدور مثل هذا الشعور عن أي إنسان بحكم جبلته وأصل فطرته، قال تعالى يصف حال بعض المؤمنين عندما توجه النبي ﷺ إلى بدر: ﴿كَمَا

(١) تفسير النسفي: ١١٨/٢.

أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّا كَانَمَا يَسْأَفُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿﴾ [الأنفال].

وقد تكون هذه الآيات في المنافقين، فإن التكليف بالقتال يمحص المؤمنين، ويميز بينهم وبين المنافقين، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَعْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ ﴿﴾ [محمد: ٢٠].

ويؤكد هذا المعنى ما حكاه سبحانه بعد ذلك من أقوالهم:

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾، فمثل هذا القول لا يصدر عن المؤمنين؛ إذ فيه اعتراض على حكم شرع الله تعالى، وإن كان بعض المفسرين رأى أنه سؤال عن وجه الحكمة في فرض القتال عليهم، لا اعتراض لحكمه^(١).

لكن يضعف هذا الرأي سؤالهم تأخير تكليفهم بالقتال:

﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: هلا تركتنا ولم تفرض علينا القتال، حتى نموت بأجالنا. والقائلون لهذا القول هم المنافقون، لأن هذا القول لا يليق بالمؤمنين^(٢).

﴿قُلْ مَنَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي: تمتعكم بالدنيا قصير؛ لأنها فانية زائلة، وهذا يدل على أن تعلقهم بالدنيا هو الذي حملهم على التثاقل عن القتال والخشية منه. ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: اتقى الله تعالى بطاعته، وبأدب إلى تنفيذ أمره، مجاهدًا في سبيله.

﴿وَلَا تَظْلُمُونَ فَنِيلاً﴾ أي: ولا تنقصون من أجوركم شيئًا قليلاً، ولو قدر فتيل، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكَنَّ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿﴾ [محمد: ٣٥]. ودلت الآيات على أن أحكام الشريعة الإسلامية لا تتأثر بعواطف الناس،

(١) تفسير النسفي: ١١٨/٢.

(٢) تفسير الخازن: ١١٨/٢.

ولا تستجيبُ لموجات الحماس الآنية التي تطرأ عليهم، إنها تشريع العليم الحكيم الخبير.

• تطيّر ونفاق:

ثم ذكّرتهم الآيات بحقيقة يعرفونها، لكنهم يغفلون عنها في غمرة انشغالهم بالدنيا وتعلقهم بما فيها:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: ينزل بكم الموت، فلا نجاة لكم منه، فالأجل مقدّر، والتباطؤ عن الخروج إلى الجهاد لا يمنع منه.

والتعبير بـ ﴿يُدْرِكُكُمُ﴾ يدل على شدة تباعدهم عن أسباب الموت، وهو قريب جداً منهم، فهم مجذّون في الهرب منه، وهو مجدّد في طلبهم، لا يفتر نفساً واحداً في التوجه إليهم^(١).

فحال الموت معهم طالب ومطلوب، والمطلوب لا يفوت الطالب مهما أمعن بالهرب والفرار.

﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أي: ولو كنتم في حصون مرفوعة عالية.

فالله سبحانه قدّر لكلّ نفسٍ موعداً مع الموت فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

[آل عمران: ١٨٥]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ومن عادة الجبناء المتقاعسين عن القتال، كثرة التشاؤم والتطيّر، وتوقّع المكروه، وهو أمر مذموم، حكاه الله تعالى عن المعارضين لدعوة الأنبياء كقوم

(١) روح المعاني: ٨٧/٥.

فرعون، قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ تَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَّا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وذكره أيضاً سبحانه من قول أصحاب القرية التي جاءها المرسلون: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨].

وذكره الله سبحانه هنا من أقوال أعداء النبي ﷺ من يهود المدينة والمنافقين

فيها:

﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي: ما تحسن أحوالهم به في الدنيا، كالنصر والسعة في العيش والرخاء.

﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: ينسبونها إلى الله تعالى.

﴿وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: ما تسوء بها أحوالهم كالهزيمة والقحط وغلاء الأسعار.

﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: ينسبونها إلى النبي ﷺ، ويضيفونها إليه، قائلين: ما حصلت إلا بشؤمك.

﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: كل من الخير والشر بقضاء الله تعالى وقدره، فهو سبحانه خالق كل شيء، كما قال: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

﴿فَالْهُوَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يكادون يفهمون حديثاً.

وهو تقييح لحالهم، وتعجيب من شدة غباوتهم.

ولما كان الموضوع يتصل بأمر هام من أمور الاعتقاد، فصله سبحانه بعدما أجمله، حتى لا يبقى فيه أدنى لبس أو غموض، فقال:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي: فمنه سبحانه خلقاً وإحساناً وتفضلاً.

﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أي: منك أيها الإنسان تسبباً واستجاباً، فهو كقوله في موضع آخر: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فالمصائب والبلايا منا تسبباً، ومن الله تعالى خلقاً وإيجاداً وتقديراً، كما قرر فيما سبق: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ أي: إن الله تعالى أرسلك رسولا للناس، تبين لهم دين الله وشرعه، ولا علاقة لك في الحوادث، ولا تأثير لك عليها.

فهو ردُّ على قولهم عندما تصيبهم السيئة: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

وفيه دليل أيضاً على عموم رسالته عليه الصلاة والسلام، فهو رسول إلى كل الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على صدق نبوتك وعموم رسالتك.

وأوجب الله تعالى طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، وجعلها طاعة له سبحانه؛ تأكيداً لصدق رسالته وصحة نبوته، فقال:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (٨٠).

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام المبلغ عن الله تعالى.

﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: تحفظ أعمالهم وتحاسبهم عليها،

إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

ويجب الإخلاص في طاعة الرسول ﷺ، كالإخلاص في طاعته تعالى، في القول والعمل، والسر والعلن، ولا ينبغي أن تكون طاعته عليه الصلاة والسلام كطاعة المنافقين، الذين كانوا يتظاهرون أمامه بالانقياد والطاعة، ويضمرون في قلوبهم مخالفته ففضحهم الله تعالى بقوله:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ .

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي: يقولون إذا أمرتهم بأمر: أمرك طاعة.

﴿فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: خرجوا من عندك.

﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي: أضمر فريق منهم مخالفة أمرك.

فالتبييت: كلُّ أمرٍ يُفَعَلُ بالليل. أو من الإعداد والتزوير بالنفس، كما يفعل الشاعرُ عندما يبيِّتُ ما يقول شعراً في نفسه، والمراد أنهم يضمرون خلاف ما يظهرون.

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ لأنه تعالى عليم بذات الصدور، ويكتبه عليهم ليجازيهم عليه.

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تبال بهم، فإنهم لا يضررون بذلك إلا أنفسهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: كفى به سبحانه ولياً وناصراً وحافظاً

ومعيناً لمن توكل عليه.

• التحدي بمعاني القرآن الكريم:

ومن الطبيعي بعد أن وصفتهم الآيات بقلَّة الفهم، في قوله تعالى الذي مرَّ

معنا: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] أن تدعو الناس إلى

إعمال الفكر في آيات القرآن الكريم؛ لفهم معانيها، والاسترشاد بهديها:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ .

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي: يتأملون في معانيه، ويتبصرون في مبانيه.

والتدبر: التأمل والنظر في أدبار الأمر، وما يؤول إليه في عاقبته، ثمَّ

استعمل في كل تأمل وتفكر^(١).

(١) تفسير النسفي: ١٢٣/٢.

ولا يخفى ما في الآية من تحدُّ للمعاندين المخالفين، فهذه دعوة قرآنية تدعو المتشككين في صحته وصدقه إلى التأمل والتفكر في معانيه، فشواهد صدقه وصحته فيه، ومخالفتهم للقرآن وتشككهم في صحته نتيجة قصورهم عن فهم آياته، فالعيبُ فيهم، والقصورُ منهم؛ ولهذا قال سبحانه في موضع آخر: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَفْهَاتٍ أَمَرَ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفْقَالَهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فمعاني القرآن الكريم بارزة واضحة، وقلوبهم هي المقفلة دون فهمها وإدراكها.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: كما يزعم الكفار والجاحدون.

﴿لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: لوجدوا فيه تناقضاً وتفاوتاً كثيراً، كما هو حال كلام البشر.

فلا يوجد متكلم من البشر يتكلم كثيراً، إلا وقع في كلامه اختلافٌ كثيرٌ وتضارب، كالتفاوت في اللفظ، أو التناقض في المعنى، أو مخالفة الحقيقة والواقع، بينما القرآن الكريم كله في أعلى درجات البلاغة يشبه بعضه بعضاً، ويكمل بعضه بعضاً، ويُفسرُ بعضه بعضاً، كما قال تعالى في وصفه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَفَسَعَرُ مِنْهُ جُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَّيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

فلا يوجد فيه أدنى تناقض وتفاوت واضطراب، ودلَّ ذلك على أنه كلام الحكيم العليم: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَتَرَبَّلُ مِنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت].

• التحذير من نشر الإشاعات:

ومن عادة الجبناء المتقاعسين عن القتال، إشاعة الأكاذيب، ونشر الأراجيف، وهو أمر مذموم، يستفيد منه الأعداء كثيراً في أوقات الحروب والأزمات، وللإشاعات في العصر الحاضر تأثيرٌ كبيرٌ على سير القتال ونتائجه،

ويسمّون ذلك الحرب الإعلامية النفسية، وقد اهتمت بها الدول كثيراً، ورصدت لها الأموال الضخمة، وحشدت لأجلها كثيراً من المختصين بها، وبين ﷺ خطرها وأهميتها بقوله:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٣).

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ أي: إذا وصل إلى مسامعهم أي خبر يوجبُ أمناً أو خوفاً، بادروا إلى إذاعته بين الناس قبل التثبُّت من صحته.

وكثيراً ما يعتمد العدو إلى إشاعة أخبار كاذبة عن هزيمته وضعفه، فيأمن الناس، ويتركون أسباب الحذر والحيطه، فيباغثهم بهجومه، أو يشيع أخباراً عن هزيمة لحقت بسرية من سرايا المسلمين، تؤدِّي إلى انتشار الذعر والخوف والاضطراب في سائر صفوف المسلمين وجنودهم، فيستفيد العدو من ذلك أيضاً، والواجب في مثل هذه الأحوال السكوت، وعدم إذاعة وإشاعة ما تسمع. وقد جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» [رواه مسلم في المقدمة (٥)].

والواجبُ أيضاً التثبُّت من صحة الأخبار، وذلك بسؤال أهل الخبرة والاختصاص، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي: إلى أصحاب الاختصاص،

الذين يعرفون حقيقة ما يذاع ويشاع.

﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: لعلم حقيقة هذا الخبر أهل التدبير والفتنة

والتجربة، وهم المختصون بمعرفة مكايد العدو في الحروب.

والاستنباط: من النبط، وهو الماء الذي يخرج من البئر أول ما تحفر،

واستنباطه استخراجاً، فاستعير لما يخرج الرجل من المعاني بفضل ذكائه وصفاء ذهنه وفطنته^(١).

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: بما شرع لكم من أسباب السلامة والوقاية، ونبّهكم وحذركم من مكايد عدوكم.

﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ أي: لوقعتم في أشراك الشيطان وحبائل أعوانه من شياطين الإنس والجن.

﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي: إلا قليلاً من ذوي الفطنة والذكاء والمعرفة والتجربة، وهم أهل البصائر النافذة، والعزائم المتمكنة، والنيات الخالصة من أفاضل المؤمنين، الذين يعلمون أنه ليس من شرط كون الدين حقاً حصول الدولة في الدنيا، أو كونه باطلاً حصول الانكسار والانهازم، بل مدار الأمر في كونه حقاً وباطلاً على الدليل^(٢).

وفي الآية حثٌّ على الوقاية والحذر من مكايد العدو، وذلك برصد حركاته ووسائل إعلامه، ودراسة كل ما يصدر عنه من إذاعات وإشاعات، لمعرفة مقاصده وأهدافه القريبة والبعيدة، فالقرآن الكريم يربّي المسلمين، ويهيئهم لظروف الحرب والسلم.

وفيها إشارة أيضاً أن استنباط الحقائق والأحكام من مظانها، يتصدى له المختصون من العلماء، فهو فنٌّ من الفنون لا يحسنه إلا أصحاب الدراية والاختصاص، كما جاء في الحديث الشريف: أنه ﷺ قال في خطبة الوداع: «فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرامٌ حُرْمَةً يَوْمِكُمْ هَذَا، في شهرِكُمْ هَذَا، في بلدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ» [رواه البخاري (٦٧)].

وفي روايةٍ أخرى بلفظ: «رَبِّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ».

(١) تفسير الخازن: ١٢٤/٢.

(٢) روح المعاني: ٩٥/٥.

• التحريض على القتال:

ولمَّا فرغَتِ الآياتُ من وصفِ مواقف المتقاعسين عن القتال والجهاد، التفتت فجأةً إلى النبي ﷺ تأمره أن يقاتلَ في سبيلِ الله وحده، وبهذا تعود الآيات إلى ما سبق من التحريض على القتال بأسلوب جديد:

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِكَ بِأَسِّ الدِّينِ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (٨٤).

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ولو تخلف عن القتال معك الجبناء المتقاعسون. ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي: لا يضرك قعودهم وتقاعسهم، فتقدم إلى الجهاد، وإن لم يخرج معك أحد، فإن النصر من الله تعالى لا من الجنود. وما كان ﷺ ليأمره بشيء إلا وهو كفاء له، فهو ﷺ مليء بمقاتلة الكفار كلهم وحده، وإن كانوا أهل الأرض كلهم^(١).

والجدير بالذكر أن الصحابة ﷺ لم يتخلفوا عن الخروج إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ، بل كانوا يحرصون حرصاً شديداً على الخروج معه، حتى إن بعضهم كان يبكي أسفاً وحرناً إذا لم يتمكن من الخروج معه إلى الجهاد، وقد خلد الله تعالى في التنزيل الحكيم دموعهم بقوله سبحانه: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّأْتُمْ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتُمْ لَا أَحَدٌ مَّا أَجْلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَّا يُفْقَوْنَ﴾ [التوبة: ٤٢].

وكان رسول الله ﷺ يتخلف أحياناً عن الخروج إلى الجهاد مواساةً لهم، ويقول في ذلك: «والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني» [رواه مسلم (١٨٧٦)].

فما كان يتخلف عن الخروج إلى الجهاد معه عليه الصلاة والسلام إلا المنافقون وأصحاب الأعدار، وثلاثة فقط من غير المنافقين وأصحاب الأعدار تخلفوا عنه في غزوة تبوك، وهم الذين أنزل الله تعالى فيهم قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وقد شهد الله تعالى بجهاد الصحابة رضي الله عنهم مع رسوله عليه الصلاة والسلام بقوله الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي آتَىٰكَ بَصْرَهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِئِنَّ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال].

وأكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: رغبهم في القتال وشجعهم عليه، كما قال في سورة الأنفال: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ الآية [٦٥].

وفي هذا دليل على أن من واجب أمير الجند الاهتمام برفع معنويات جنوده، فإنه يؤدي إلى ثباتهم واستبسالهم، ويسمونه في العصر الحاضر التوجيه المعنوي، أو التعبئة النفسية.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك، ففي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال في ميدان المعركة في غزوة بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» فسمعه عمير بن الحمام الأنصاري فقال: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بخ بخ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما يحملك على قولك: بخ بخ؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قرنه (أي: جعبته) فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل. [رواه مسلم (١٩٠١)].

وكان قادة الجند من الصحابة يفعلون ذلك، فقد روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أنه قال لجنده وهم يواجهون العدو: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ

أَبْوَابِ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السِّيُوفِ» فقام رجلٌ رثَّ الهيئة، فقال: يا أبا موسى أنت سمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، فرجعَ إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام. ثم كسرَ جفنَ سيفه، فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضربَ به حتى قُتِلَ. [رواه مسلم (١٩٠٢)].

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لعلَّ الله أن يكفَّ قوة الكفار وشدتهم بثبات المؤمنين واستبسالهم.

وكلمة ﴿عَسَى﴾ تفيدُ بالنسبة لله تعالى تحقق الوقوع.

﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًّا﴾ أي: قوة، فهو القوي القادر القاهر.

﴿وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ أي: عقوبة وعذاباً.

فإنه تعالى قادرٌ على تدمير قوة الكافرين من غير تكليف المؤمنين بقتالهم، ولكنه تعالى جعل الحياة دارَ اختبارٍ وابتلاءٍ وتكليفٍ، ولهذا كلف المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال عز شأنه: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ فُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

• الدال على الخير كفاعله:

والداعي إلى الجهاد والمعرض عليه كالمجاهد في الأجر، بينَ سبحانه ذلك من خلال تقريره للقاعدة التالية:

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيمًا ﴿٨٥﴾﴾ .

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً﴾ أي: يشفع لغيره ليجلب له حقاً، أو يدفع عنه ضرراً، أو يحرضه على عمل مشروع مبرور، أو يصلح بين متخاصمين، بشرط أن يفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى.

﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ أي: من ثواب الشفاعة، أو من ثواب الخير الواقع

بها، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» [رواه مسلم (١٥٠٦)].

وقال أيضاً: «مَنْ دَعَا إِلَى هَدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامٍ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً» [رواه مسلم (٢٦٧٤)].

وكما أن الداعي إلى الخير له مثل أجور من تبعه، فالداعي إلى الشر عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً﴾ كأن يدعو إلى بدعة أو ضلالة، أو يعوق عن طاعة وعبادة، أو تؤدى شفاعته إلى ظلم الناس والعدوان على حقوقهم:

﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أي: نصيب من وزرها.

والكِفْلُ: هو المثل المساوي.

واختيار النصيب في الشفاعة الحسنة؛ لأن جزاء الحسنة يضاعف، والكِفْلُ في الشفاعة السيئة؛ لأن من جاء بالسيئة لا يُجزى إلى مثلها، ففي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده^(١).

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيمًا﴾ أي: مقتدرًا أو حفيظًا.

• السلام في الإسلام:

وتستدعي الشفاعة اللقاء والزيارة، ومن أهم آدابها التحية، وتحية المسلمين فيما بينهم السلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

فالإسلام دين السلام والمحبة، ودين التواصل والتعاون، وما شرع الله تعالى الجهاد، وحرّض على القتال إلا لدفع العدوان، ورد الظلم، وقمع الطغيان، ونشر دعوة الإسلام بين الناس، فكان من المناسب في سياق آيات

(١) روح المعاني: ٩٨/٥.

التحريض على القتال، إيراد آية التحية والسلام؛ إبرازاً لحرص الإسلام على نشر السلام والتعاون بين الناس.

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ .

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ﴾ أي: إذا قوبلتم بتحية، أو وُجِّهت لكم تحية، كأن يقال: حياك الله، أو حياكم الله، أي: جعل الله لك حياة، فهي دعاء. وكانت العرب تقول هذه اللفظة، فلما جاء الإسلام بدل بذلك السلام، وإنما اختير لفظ السلام على لفظ حياك الله؛ لأنه أتم وأحسن وأكمل، فمعنى السلام السلامة عن الآفات، فإذا دعا الإنسان بطول الحياة بغير سلامة، كانت حياته مذمومة منغصة^(١).

ومن عادة العرب أيضاً أنهم إذا تبادلوا التحية عند اللقاء، كان ذلك دليلاً على المسالمة والمودة وعدم الاعتداء، فكانوا يرون التحية عهداً والتزاماً بالمسالمة والمودة، ينبغي الوفاء به.

﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أي: قابلوا التحية بأحسن منها، فالإسلام يشجع كل فضيلة، ويحث على التنافس في الخيرات، والتسابق إلى الفضائل.

﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي: ردوا مثلها، فالزيادة على التحية مندوبة، والمماثلة مفروضة.

وفي الحديث الشريف: عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فردَّ عليه، فقال النبي ﷺ: «عشر» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردَّ فجلس، فقال: «عشرون» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ فجلس، فقال: «ثلاثون» [رواه أبو داود (٥١٩٥) والنسائي (في الكبرى) والترمذي (٢٦٨٩) وحسنه].

فالمماثلة في الردِّ مشروعة في الإسلام.

(١) انظر: تفسير الخازن: ١٢٧/٢.

قال القرطبي رحمته الله: «أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة مرعَّب فيها، ورده فريضة؛ لقوله تعالى: ﴿فَحْيُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾»^(١).

وإنما كان الرد واجباً لأن السلام معناه الأمان، فإذا ابتداء به المسلم أخاه فلم يجبه، فإنه يتوهم منه الشر، فيجب عليه دفع ذلك التوهم عنه^(٢).

واتفقوا على أن من سلم لم يجزئ في جوابه إلا السلام، ولا يجزئ في جوابه: صُبِّحْتَ بالخير، ونحو ذلك^(٣).

فالتحية في الإسلام السلام ابتداءً ورداً، وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على إفشائه بين المسلمين، للآثار الطيبة التي تترتب عليه، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [رواه مسلم (٥٤)].

فالسلام سنة لمن عرفت ومن لا تعرف.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي: محاسباً ومجازياً على كل شيء، ومنه التحية وردّها.

والحساب والجزاء يوم القيامة، دليل على كمال قدرته تعالى وتام حكمته وعدله، ولهذا أكده تعالى بقوله:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾^(٨٧).

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو الواحد الأحد، الذي لا معبود بحق سواه.

﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي: لا أحد أكثر صدقاً من الله تعالى.

(١) تفسير القرطبي: ٢٩٨/٥.

(٢) فتح الباري: ٧/١١.

(٣) المصدر السابق: ١٤/١١.

فإخباره تعالى عن يوم القيامة حقٌّ وصدقٌ لا خُلفَ فيها أبداً.

• توحيد المواقف من المنافقين:

وبعد التحذير والتنفير والحضُّ على القتال، وكشف مواقف الجبناء المتقاعسين عنه، انتقلت الآياتُ إلى الحديث عن المنافقين، فهم أكثرُ الناسِ تقاعساً عن الجهاد، وتعويقاً عنه، كما أنهم أنشط الناس في نشر الإشاعات الكاذبة، وإذاعة الأراجيف في أثناء القتال، إنهم الطابور الخامس المماليء للعدو، كما يسمُّون في هذا العصر، يعملون جاهدين لتفكيك المجتمع الإسلامي، وإشاعة الخلل والاضطراب فيه، فهم أخطر عليه من العدو الظاهر، الذي يقاتله المسلمون في ميادين القتال، فليس للمنافقين ميدان معيَّن يواجهون فيه، فهم مبعوثون ومنتشرون بين المسلمين في كل مكان، ويشكلون جزءاً من البنية الداخلية للمجتمع، ويعرفون جميع مداخله وعوراته وثغراته ونقاط ضعفه، فلا عجب أن تهتمَّ الآياتُ الكريمةُ بهم في سياق حديثها عن القتال والجهاد، ومواقف المتقاعسين والمعوقين، فخطرهم كبير، وضررهم عظيم، وعلى المسلمين واجب الحذر منهم، وأن يقفوا منهم موقفاً موحداً، لا تردد فيه، ولا اختلاف؛ فأوقاتُ الحروب والأزمات لا تحتمل مواقف الخلاف والنزاع والتردد؛ ولهذا قال سبحانه منكرًا على المسلمين اختلافهم في شأن المنافقين:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ أي: ما لكم تفرقتم في شأن المنافقين فرقتين،

ولم تتفقوا على كفرهم.

﴿وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: والله سبحانه ردَّهم إلى الكفر بسبب أعمالهم

الخبیثة. فأصل معنى الركب لغةً: ردُّ الشيء مقلوباً.

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: من أبعده الله عن الهدى بسبب سوء كسبه واختياره.

﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً إلى الهداية، فكل طرق الهداية مسدودة عليه؛ بسبب انطماس بصيرته، وإصراره على كفره وفجوره. وكيف ترجون هدايتهم، وهم يريدون الكفر لكم؟!:

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا نَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فُخِّدُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا نُنَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أي: متساوين معهم في الكفر.

﴿فَلَا نَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا توالوهم وتجعلوهم لكم أصحاباً وأنصاراً.

﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: حتى يؤمنوا ويبرهنوا على صدق إيمانهم

بهجرة خالصة في سبيل الله تعالى.

والهجرة إما أن تكون من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو بهجر الكفر والفجور، أو بالخروج للقتال والجهاد في سبيل الله.

ويبدو أن المراد منها هنا المعنى الأخير؛ إذ جاءت الآية في سياق ما سبق معنا من آيات التحذير والتنفير، وكان المنافقون يتخلّفون عن الخروج إلى القتال، فإذا ما خرجوا إليه وثبتوا فيه، دلّ ذلك على صحة إيمانهم وصدق إسلامهم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله تعالى.

﴿فُخِّدُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: في أي مكان ظفرتهم بهم وتمكنتم

منهم.

﴿وَلَا نُنَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا

تقبلوها منهم، فهم في الحقيقة لا يقدمون لكم إلا الخذلان والضعف.

ثم استثنت الآيات طوائف منهم بقوله تعالى :

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَسَلَّمَ فَأَجْعَلِ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَيِّئًا﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي: إلا الذين ينتسبون وينتمون إلى قوم بينكم وبينهم عهد ومسالمة.

وهذا الاستثناء يرجع إلى القتل لا إلى الموالاة؛ لأن موالاة الكفار والمنافقين لا تجوز بحال^(١).

﴿أَوْ جَاءَكُمْ﴾ أي: أو الذين جاؤوكم ممسكين عن القتال، لا معكم ولا عليكم، وهم طائفة ثانية غير الأولى، ينتسبون إلى قوم محاربين للمسلمين، جاؤوا إلى المسلمين، يعلنون بألسنتهم دخولهم في الإسلام.

﴿حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي: ضاقت صدورهم عن قتالكم؛ لأن ذلك يظهر نفاقهم، كما ضاقت عن قتال قومهم؛ لأنهم أقاربهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾ أي: من لطفه سبحانه بكم أن كفهم عنكم.

﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَسَلَّمَ﴾ أي: المسالمة والمصالحة.

﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَيِّئًا﴾ أي: فما أذن تعالى لكم في قتالهم.

وثمة طائفة ثالثة من المنافقين، لهم حكمٌ يختلف عن الطائفتين سالفتي

(١) تفسير الخازن: ١٣٣/٢.

الذكر، فهؤلاء لا همّ لهم إلا أنفسهم ومصالحهم، فهم يتظاهرون بالإسلام أمام المسلمين، ويتظاهرون بالكفر أمام قومهم:

﴿سَتَجِدُونَ ءٰخَرِيْنَ يُرِيْدُوْنَ اَنْ يَّامُنُوْكُمْ وَيَآمِنُوْا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوْا اِلَى الْفِتْنَةِ اُرْكَسُوْا فِيْهَا فَاِنْ لَّمْ يَعْزَلُوْكُمْ وَيَلْقَوْا اِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوْا اَيْدِيَهُمْ فَاْخُذُوْهُمْ وَاَقْلُوْهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوْهُمْ وَاُوْلٰئِكَ لَكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُّبِيْنًا ﴿٩١﴾﴾ .

﴿سَتَجِدُونَ ءٰخَرِيْنَ يُرِيْدُوْنَ اَنْ يَّامُنُوْكُمْ﴾ أي: يأمنوا منكم بالتظاهر بالإسلام.

﴿وَيَآمِنُوْا قَوْمَهُمْ﴾ أي: بالوفاق وإظهار الكفر.

﴿كُلٌّ مَا رَدُّوْا اِلَى الْفِتْنَةِ اُرْكَسُوْا فِيْهَا﴾ أي: كلما دُعا إلى الكفر رجعوا إليه

وانتكسوا فيه، فإذا ما دعتهم مصالحهم وأهواؤهم إلى الكفر والشرك، كفروا وأشركوا، فهم أسرى مصالحهم وأهوائهم.

﴿فَاِنْ لَّمْ يَعْزَلُوْكُمْ﴾ أي: إن لم يتركوا قتالكم.

﴿وَيَلْقَوْا اِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ أي: ولم ينفادوا لكم مسالين.

﴿وَيَكْفُرُوْا اَيْدِيَهُمْ﴾ أي: ولم يكفوا عن قتالكم سراً أو جهراً.

﴿فَاْخُذُوْهُمْ وَاَقْلُوْهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوْهُمْ﴾ أي: حيث ظفرتهم بهم وتمكنتم منهم.

﴿وَاُوْلٰئِكَ لَكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُّبِيْنًا﴾ أي: جعلنا لكم حجة واضحة في

قتالهم؛ وذلك لظهور حالهم من الغدر والكفر.

• حكم القتل خطأ:

ودلّ تقسيم المنافقين إلى هذه الطوائف الثلاث، والتمييز بينها في الحكم،

على حرص الإسلام على نشر السلم والعدل بين الناس، وأنه سبحانه عندما

شرع القتال ما جعله غايةً في حدّ ذاته، إنّما شرعه وسيلةً لنشر العدل والسلام،

ولهذا قال تعالى في بيان حكم القتل خطأ:

﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ .

﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ أي: ليس من شأن المؤمن ولا يليق به أن يقتل مؤمناً بغير حق، إلا على وجه الخطأ، كأن يرمي حيواناً أو عدواً محارباً فيصيب مسلماً .

فقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ﴾ ليست على النفي، وإنما هو على التحريم والنهي، كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣] (١) .

ولما كان إثم الخطأ مرفوعاً في الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥] بيّن تعالى أن الأمر في القتل الخطأ ليس كذلك؛ حفظاً للنفوس، فعلى الإنسان واجب الثبّت والتحرّي والتأني، عند أي فعل يمكن أن يؤدي إلى القتل . وعلى القاتل خطأً الكفارة حتى يغفر الله له إثم ترك الثبّت، وقد بينها سبحانه بقوله:

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: فعليه تحرير نفس مؤمنة من الرقّ وذلّ العبودية .

وفي الآية إشارة إلى أنّ الحرية حياة، وأنّ العبودية موت، فمن تسبّب في موت نفس حية، فعليه أن يسعى في إحياء نفس كالميتة، وهي النفس المستعبدة، وذلك بتحريرها وتخليصها من العبودية .

وتشريع كفارة القتل الخطأ، وسيلة من الوسائل الكثيرة التي شرعها الإسلام

(١) تفسير القرطبي: ٣١١/٥ .

لتحرير الأرقاء، وتخليصهم من ذلّ العبودية، وإلى جانب ذلك ضيق الإسلام طرق الاسترقاق، وأغلق منافذه الكثيرة التي كانت في الجاهلية، فقصرها على وسيلة واحدة، وهي الأسر في أثناء القتال، بعد أن يأذن وليّ أمر المسلمين في استرقاق الأسرى، إذا رأى المصلحة في ذلك.

﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أي: وعليه أيضاً دية تسلّم إلى أهل القتل، وهي ما يُعطى من المال عوضاً عن دم القتل إلى أهله الذين يرثونه.

﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أي: إلا أن يعفو أهل القتل عن القاتل، بترك أخذ الدية منه، وسُمّي العفو عنها صدقةً حثّاً عليه، وتنبهاً على فضله، وعن النبي ﷺ قال: «كلُّ معروفٍ صدقة» [رواه مسلم (١٠٠٥)]^(١).

وأما الكفارة التي هي حقّ الله تعالى فلا تسقط عن القاتل بعفوهم.

﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ أي: إن كان المقتول خطأً من قوم كفّار محاربين لكم.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: والمقتول خطأً مؤمناً.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: فعلى قاتله الكفارة فقط، ولا تُعطى لأهله الدية؛ لأنهم كفّار محاربون، فلا نعطيهم ما يستعينون به على قتالنا.

﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: إن كان المقتول خطأً من قوم كفّار معاهدين أو أهل ذمّة، فحكمه حكم المسلم في وجوب الكفارة والدية.

فالإسلام يحفظ الحقوق لجميع الناس، ولو كانوا غير مسلمين، ويشرّع الأحكام التي تحفظ الحياة، وتُشيع الأمن والسلام بين جميع الناس.

﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: النفس المؤمنة المملوكة؛ بسبب إفسار، أو تعذر الحصول عليها، كما هو الحال في هذا العصر.

(١) تفسير البيضاوي: ١٣٦/٢.

﴿فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين، بدلاً من إعتاق الرقبة المؤمنة.

﴿تُوبَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: شرع سبحانه الكفارة والدية، توبة منه سبحانه على القاتل خطأ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: فيما أمر وقدر وشرع.

• تحريم العدوان على حق الحياة:

ومهدت الآية السابقة في حكم القتل خطأ، للحكم المقصود تقريره، وهو تحريم قتل النفس، وتقبيح جريمة العدوان على حق الحياة، فقال تعالى بعد ذلك مباشرة:

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ أي: قاصداً قتله، كأن يرميه بآلة تقتل عادةً. ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وذلك بسبب ارتكابه جرماً كبيراً عظيماً، وهو القتل والعدوان على الحياة الإنسانية، وقد قرنه تعالى بالشرك، الذي هو أعظم الذنوب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٧﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان].

فقتل النفس جريمة كبيرة وورطة عظيمة، وفي الحديث الشريف: عن معاوية رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كلُّ ذنبٍ عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» [رواه النسائي (٨١/٧) والحاكم (٤/٣٥١) وصححه^(١)].

(١) انظر: الترغيب والترهيب: ٩٥/٣.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصَبْ دَمًا حَرَامًا» [رواه البخاري (٦٨٦٢)].

والجدير بالذكر أن مثل هذا الوعيد الشديد، الذي ذكرته الآية في قتل المؤمن عمداً، قد أوردت السنة مثله في قتل الكافر المعاهد، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مَعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» [رواه البخاري (٦٩١٤)].

ودلت الآية الكريمة والأحاديث الشريفة على خلود القاتل المتعمد في النار، وأنه لا توبة له، وشاع هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأجاب بعض العلماء بأن ذلك جاء على سبيل التخليط في الزجر؛ لما مر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ولتظاهر النصوص الدالة على أن عصاة المؤمنين لا يخلدون في النار، ويجوز في حق الله تعالى أن يخلف الوعيد، ويمتنع في حقه أن يخلف الوعد، ومن أدعية الصالحين: يا مَنْ إِذَا وَعَدَ وَفَى، وَإِذَا تَوَعَّدَ عَفَا.

وحمل الآخرون الآية على أنها في القاتل المستحل، وكفره مما لا شك فيه، فليس ذلك محلاً للنزاع، واستدلوا بما ورد في سبب نزولها، فقد أخرج ابن أبي حاتم: عن ابن جبير: أنها نزلت في مقيس بن ضبابة الكناني، أنه أسلم هو وأخوه هشام، وكانا بالمدينة، فوجد مقيس أخاه هشاماً ذات يوم قتيلاً في الأنصار، في بني النجار، الذين قالوا: ما نعلم له قاتلاً، ولكن نوذي الدية، فدفعوا إلى مقيس مئة من الإبل دية أخيه، فلما انصرف مقيس، ومعه رجل من بني فهر، أرسله النبي ﷺ معه إلى بني النجار، عمد مقيس إلى الفهري فقتله، وارتد عن الإسلام، وركب جملًا من الدية، وساق معه البقية، ولحق بمكة، وهو الذي أهدر النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة، وقتل وهو متعلق بأستار الكعبة^(١).

ومهما قيل في الآية، فإن فيها دليلاً على حرص الشريعة الإسلامية على

(١) انظر: روح المعاني: ٥/١١٥.

حماية حق الإنسان في الحياة، فالعدوان على حياة إنسان واحد في نظر الإسلام، عدوان على حياة جميع الناس، قال تعالى: ﴿مَنْ أَجَلٌ ذَلِكَ كِتَابًا عَلَىٰ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

• الأمر بالتثبُّت في أثناء الجهاد:

ولهذا اتجهت الآيات، تخاطبُ المؤمنين أمرًا لهم بالتثبُّت، في أثناء خروجهم إلى الجهاد، لكي لا يقتلوا نفساً معصومة، ولا يعتدوا على حياة بريئة، فالجهاد في الإسلام ما شرع للقتل وسفك الدماء، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنْ جَاءَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إذا خرجتم إلى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: فتثبتوا وتحققوا، حتى تميزوا بين العدو المحارب المستحق للقتل، وبين غيره.

وقد نزلت هذه الآية عندما كانت الأسلحة بسيطةً فرديةً، لا تزيد عن سيف ورمح، وأما في العصر الحاضر، وبعد أن صنع الإنسان أسلحة الفتك والدمار الجماعي الشامل، فيتأكد الأمر بالتثبُّت أكثر من ذي قبل، فلا يجوزُ القصف العشوائي الشامل المدمر، الذي يقتل المقاتلين وغيرهم ممن لا يجوزُ قتلهم.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ أي: لمن حيَّاكم بتحية الإسلام.

وفي قراءة: (السَّلَم) أي: ألقى إليكم الاستسلام والانقياد.

﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ أي: لست من أهل الإيمان، وإنما قلت ذلك متعمداً من القتل، فقتلوه.

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: تطلبون غنيمة ماله الذي هو حطام سريع.

وفي الحديث الشريف: عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرقة من جُهينة، فصَبَّحْنَا القومَ فهزمناهم، قال: ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصارِ رجلاً منهم، فلما غشيناها، قال: لا إله إلا الله، فكفَّ عنه الأنصاريُّ، فطعنته برمحي حتى قتلتُهُ، فلما قَدِمْنَا بَلَغَ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال لي: «يا أسامةُ أقتلتَهُ بعدما قال: لا إله إلا الله؟» قلتُ: يا رسولَ الله إنه إنما كان متعمداً، قال: «قتلتَهُ بعدما قال: لا إله إلا الله؟» فما زال يكرِّرها عليَّ حتى تمنيتُ أني لم أكنُ أسلمتُ قبل ذلك اليوم. [رواه البخاري (٦٨٧٢)].

قوله: (حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) أي: إن إسلامه كان ذلك اليوم، لأنَّ الإسلامَ يجبُ ما قبله، فتمنى أن يكون ذلك الوقت أول دخوله في الإسلام؛ ليأمن من جريرة تلك الفعل.

وفي رواية عند الطبراني في «الكبير»، والبزار في «مسنده»: إن رسول الله ﷺ بعثَ سريةً فيها المقدادُ، فلما أتوهم وجدوهم تفرَّقوا، وفيهم رجلٌ له مالٌ كثيرٌ، لم يبرح، فقال: أشهدُ أن لا إله إلا الله، فأهوى إليه المقدادُ فقتله، فذكروا ذلك لرسولِ الله ﷺ، فقال: «يا مقدادُ، قتلتَ رجلاً قال: لا إله إلا الله؟!» فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾.

ولا مانع أن تنزل الآية في الأمرين معاً^(١).

﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَاذٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي: عند الله لكم غنائم كثيرة تغنيكم عن قتل أمثاله.

﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أول دخولكم في الإسلام، عندما نطقتم

(١) انظر: فتح الباري: ٢٥٩/٨، ١٢/١٩٠.

بلفظ الشهادة، فحصنتم بها أنفسكم وأموالكم، قبل التأكد من صدق إيمانكم، ومن مواطأة قلوبكم لألستكم.

﴿فَمَنْبَأُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالهداية وصدق الإيمان، والثبات على

الإسلام، وكأن الآية تقول لهم: عاملوا من ينطق بكلمة الإسلام كما عوملتم.

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: ولا تعجلوا بقتل إنسانٍ معصومٍ الدم، وكرر هذا الأمر

تأكيداً لتعظيمه، وبيانا لخطورته.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فلا تسرعوا إلى القتل وسفك الدماء،

وخذوا بأسباب الحَيطة والحذر، فإنه تعالى مَطَّلِعٌ على أعمالكم، وسائلُكم عنها.

• درجات المجاهدين في الجنة:

وحتى لا يحتجَّ المتشاقلون عن الجهاد بما سبق من الأمر بالتثبُّت، فيحتجوا

بها على قعودهم، عادتِ الآياتُ تحضُّ على الجهاد والقتال، بأسلوبٍ جديدٍ

تبيِّنُ من خلاله درجات المجاهدين وفضلهم:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ أي: عن الجهاد.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ أي: غير أصحاب الأعذار، كالمرضى

والضعفاء، بسبب الشيخوخة والعجز، فإنهم كالمجاهدين، لأنَّ العذرَ أَعَدَّهُم عن الجهاد.

وفي الحديث الشريف: عن جابر رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي غَزَاةٍ

فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ رِجَالًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وادِيًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ،

حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ» [رواه مسلم (١٩١١)].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَمَلَى عَلَيْهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ فجاءه ابنُ أمِّ مكتوم، وهو يُملئها عليّ، قال: يا رسولَ الله، والله لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ - وكان أعمى - فأَنْزَلَ اللهُ على رسوله ﷺ وَفَخِذُهُ عَلَى فَخْذِي، فَثَقُلْتُ عَلَيَّ، حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرْضَ فَخْذِي، ثُمَّ سُرِّي عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿عَبْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾. [رواه البخاري (٤٥٩٢)].

﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: لا مساواة بين المجاهدين وبين القاعدين عن الجهاد من غير عذر.

ونفى التساوي بين المجاهد والقاعد بغير عذر، وإن كان معلوماً، توبيخاً للقاعد عن الجهاد، وتحريكاً له عليه، ونحوه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يِعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يِعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فهو تحريك لطلب العلم، وتوبيخ على الرضا بالجهل^(١).
﴿فَضَلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ أي: في الآخرة، فالمراد درجة من درجات الجنة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أرادَ بالقاعدين هنا أولي الضرر، فضَّلَ اللهُ المجاهدين على أولي الضرر درجة؛ لأنَّ المجاهدَ باشرَ الجهادَ بنفسه وماله مع النية، وأولو الضرر، كانت لهم نية، ولم يباشروا الجهاد، فزلوا عن المجاهدين درجة^(٢).

﴿وَكُلًّا وَعَدَّ اللهُ الْحَسَنَى﴾ أي: كلاً من المجاهدين والقاعدين وعد الله المثوبة الحسنى، وهي الجنة، بحسن عقيدتهم وإخلاصهم في نيتهم.

﴿وَفَضَلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ أي: الذين لا عذر لهم ولا ضرر فيهم.

﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً، بيَّنه سبحانه بقوله بعد ذلك:

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٩٦).

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾، ففي الجنة درجات خاصة للمجاهدين، ذكرها النبي ﷺ في قوله: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ

(١) تفسير النسفي: ١٤٤/٢.

(٢) تفسير الخازن: ١٤٥/٢.

حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ قَالَ: وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ - وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» [رواه البخاري (٢٧٩٠)].

قال ابن حجر رحمته الله: «وليس في هذا السياق ما ينفي أن يكون في الجنة درجات أخرى، أعدت لغير المجاهدين، دون درجة المجاهدين»^(١).

ويؤكد قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: يغفر لهم ويرحمهم.

• الهجرة من بلاد الكفر والظلم:

وكما قرَّرَ الإسلام للإنسان حقوقه كاملةً، أوجبَ عليه أن يسعى بنفسه لتحصيل هذه الحقوق، بأن يجاهد لتحصيلها - كما مرَّ - فإن غلبَ وعجزَ عن تحصيلها بنفسه، فعليه أن ينأى عن الإقامة في البلد الذي تُهدرُ فيه حقوقه، ولا تصان كرامته، ويفتن فيه عن دينه، فسلامةُ الدينِ هي أوَّلُ المهمات في نظر الإسلام، ولهذا أنزل الله في المتقاعسين والمتشاقلين عن الهجرة، فراراً بدينهم وحقوقهم، قوله الكريم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَنُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٤٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: إن الذين تقبض الملائكة أرواحهم عند حلول

آجالهم.

(١) فتح الباري: ١٢/٦.

﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: وهم في حال ظلمهم أنفسهم، بسبب إقامتهم في بلد يُفْتَنون فيه عن دينهم، وتصادر حقوقهم، ولا تصان كرامتهم.
ويبدو أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل مكة، أسلموا، ولم يهاجروا، وأجبروا على الخروج مع جيش المشركين إلى بدر، فقتل بعضهم في صفوف المشركين.

وهو ما فعله في العصر الحاضر كثير من دول الكفر، إذ تجنّد رعاياها من المسلمين، وتسوقهم إلى قتال الشعوب المسلمة، والعدوان على بلادهم.
قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرّون سواد المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله، يأتي السهم يُرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾. لرواه البخاري (٤٥٩٦).

قال ابن حجر: «هكذا جاء في سبب نزولها، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، عند ابن المنذر والطبري: كان قوم من أهل مكة قد أسلموا، وكانوا يخفون الإسلام، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت، فكتبوا بها إلى من بقي بمكة منهم، وأنهم لا عذر لهم»^(١).

﴿قَالُوا فِيْمَ كُنْتُمْ﴾ أي: قالت لهم الملائكة: في أي الفريقين كنتم؟ أي فريق المسلمين أم في فريق المشركين؟ وهو سؤال توبيخٍ وتقريع.
﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كنا مقهورين ذليلين في أرض الكفر، فأكرهنا الكفار على الخروج إلى القتال معهم، وقولهم هذا اعتذارٌ عمّا وبختهم الملائكة به، لكنّ الملائكة لم تقبل اعتذارهم، وردوه عليهم مكذّبين موبخين:
﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ أي: كنتم قادرين على الهجرة، وأرضه سبحانه واسعة، فلماذا لم تهاجروا فراراً بدينكم كما فعل غيركم؟.

(١) فتح الباري: ٢٦٣/٨.

﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم إلى أن تكون جهنم مسكنهم وموضع إقامتهم، بسبب ترك الهجرة الواجبة عليهم، حتى فتنوا عن دينهم، فساعدوا الكفار، وقاتلوا تحت رايتهم.

﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: وبئس المصير مصيرهم إلى جهنم.

ثم استثنى الله سبحانه أصحاب الأعدار من الضعفاء الذين لا يستطيعون الهجرة والتحول عن بلد الكفر والظلم، ممّا يدل على يسر الشريعة الإسلامية وسماحة أحكامها، فقال:

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَّا يَسْتَطِيعُونَ حِيَلًا وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَّا يَسْتَطِيعُونَ حِيَلًا﴾ أي: لا يستطيعون الحيلة، وهي تحصيل أسباب الهجرة وما تحتاج إليه.

﴿وَلَّا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: ولا يعرفون إذا خرجوا المسالك والطرق.

وأفاد ذكر ﴿الْوِلْدَانَ﴾ وهم الصغار، إلى أنّ عليهم الهجرة أيضاً، والواجب على أوليائهم أن يهاجروا بهم، فخطر الافتتان عن الإسلام في جانبهم أشدّ وأعظم، إذ ينشؤون في بلاد الكفر، في ظل أنظمتهم الكافرة، وتوجيهاته الفاجرة، في مدارسهم ومعاهدهم وتقاليدهم البعيدة عن أخلاق المسلمين وعاداتهم.

قال ابن العربي رحمته الله: قسّم العلماء الذهاب في الأرض قسامين: هرباً وطلباً، فالأول ينقسم إلى:

١ - الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام: وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فإن بقي في دار الحرب عصى.

٢ - الخروج من أرض البدعة: قال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول:

لا يحلُّ لأحدٍ أن يقيمَ في أرضٍ يُسبُّ فيها السلف.

٣ - الخروج من أرض غلب عليها الحرام: فَإِنَّ طَلَبَ الْحَلَالِ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ .

٤ - الفرار من الأذية في البدن: فإذا خشى على نفسه، فقد أذن الله في الخروج عنه والفرار بنفسه، ليخلصها من ذلك المحذور .

٥ - الفرار خوف الأذية في المال: فَإِنَّ حُرْمَةَ مَالِ الْمُسْلِمِ كحُرْمَةِ دَمِهِ، والأهل مثله^(١) .

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (٩٩)

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أي: المستضعفون الذين لا يستطيعون الهجرة .

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي: يتجاوز عنهم بفضلته تعالى . و﴿عَسَىٰ﴾ من الله تعالى واجب؛ لأنه إطماع وترجّح، والله سبحانه إذا أطمع عبداً وصله^(٢) .

وفي تعليق العفو بكلمة الإطماع والترجّح إشارة إلى أنّ ترك الهجرة الواجبة أمر خطير، حتى إنّ أصحاب الأعداء غير مستيقنين بالعفو والنجاة من المسؤولية .

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي: يعفو عن عباده بفضلته ويغفر لهم .

ثم قال تعالى يحثُّ على الهجرة في سبيله ويشجع عليها :

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٠)

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا﴾ أي: يجد مكاناً يؤويه، أو يجد طريقاً يراغم بسلوكة الظالمين، أي: يفارقهم على رغم أنوفهم .

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٥٠/٥ .

(٢) تفسير الخازن: ١٤٨/٢ .

والرغم: الذل والهوان، وأصله في اللغة: لصوق الأنف بالرغام، وهو التراب^(١).

﴿ وَسَعَةً ﴾ أي: ويجد أيضاً سعةً وخلاصاً من الهمّ والضيق الذي كان فيه، إما سعة في الرزق، أو في حرية العبادة وإظهار الدين، أو الأمن بعد الخوف، كما في قوله تعالى: ﴿ يَجَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسَعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].
﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ ﴾ أي: يموت في الطريق قبل وصوله إلى مقصده.

﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي: ثبت أجره عند الله تعالى، ثبوت الأمر الواجب بحكم الوعد السابق، الذي لا خُلْفَ فيه.

ويدخل في حكم الآية، من قَصَدَ فعلَ طاعةٍ من الطاعات، ثم عجز عن إتمامها، كتب الله له ثواب تلك الطاعة كاملاً^(٢)، لقوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» [رواه مسلم (١٩٠٧)].

وقال ﷺ أيضاً: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصَدْقٍ، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فَرَاشِهِ» [رواه مسلم (١٩٠٩)].

وذكروا في سبب نزول الآية، ما رواه ابن أبي حاتم: عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية^(٣).

﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أي: يغفر للفارّين بدينهم ويرحمهم، ويسرّ لهم سبل الأمن والسلام.

(١) تفسير النسفي: ١٤٩/٢.

(٢) تفسير الخازن: ١٤٩/٢.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٢٨/١.

• قصر الصلاة في السفر:

وبمناسبة ذكر الهجرة والسفر في سبيل الله تعالى، ذكر سبحانه رخصة قصر الصلاة في السفر، وكأنه تعالى أراد بيان هذه الرخصة، في هذا الموضع، التشجيع أيضاً على الضرب في الأرض والسفر في سبيله:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ .

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم في نواحي الأرض، في برّها وبحرّها وجوّها.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: لا حرج عليكم أن تخففوا من الصلاة، فتصلوا الصلاة الرباعية المفروضة ثنائية.

فالمسافر يصلي الظهر والعصر والعشاء، ركعتين ركعتين، حتى يقيم، فحينئذ يعود إلى صلاتها أربعاً أربعاً.

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: إن خفتم أن يتعرّضوا لكم بقتال أو غيره من العدوان.

وقد نزلت هذه الآية قبل أن يمتد سلطان الإسلام وأمنه إلى البوادي والمناطق البعيدة عن المدينة، وبقي حكمها مشروعاً بعد أن زال الخوف، وأعزّ الله الإسلام، وانتشر الأمن والسلام في أطراف الأرض.

وفي الحديث الشريف: عن أنس رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة، فكان يصلي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة. [رواه البخاري (١٠٨١)].

وعن حارث بن وهب قال: صلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم، آمن ما كان، بمنى ركعتين. [رواه البخاري (١٠٨٣)].

وعن يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد أمن الناس! فقال: عجبتُ منه، فسألتُ

رسول الله ﷺ عن ذلك قال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» [رواه مسلم (٦٨٦)].

﴿إِنَّ الْكٰفِرِيْنَ كَانُوْا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِيْنًا﴾ أي: فاحذروهم، ولا تثقوا بهم.

• صلاة الخوف:

أما صلاة الخوف في حال المواجهة وتوقع الخطر، فلها أحكام خاصة، شرعها سبحانه بقوله:

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَآئِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي: إذا كنت يا محمد - ﷺ - في أصحابك، وأردت أن تقيم الصلاة بهم جماعة.

﴿فَلَنْتُمْ طَآئِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ أي: فلتقف فرقة منهم معك، فتصلي بهم.

وفي الآية إيجاز، فقد دللت على أن الإمام يقسم الجنود فرقتين: فرقة تصلي أولاً مع الإمام، بينما تكون الأخرى في مواجهة العدو.

﴿وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: وليحملوا أسلحتهم وهم في الصلاة، حيطةً وحزمًا، والمراد الأسلحة الخفيفة التي يمكن حملها.

﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي: أتموا الركعة وسجدوا لها، أو أتموا صلاتهم، وفرغوا منها. فقد ذكرت الأحاديث الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام، صلى صلاة الخوف بأصحابه أكثر من مرة، وبهيات مختلفة.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف في بعض أيامه، فقام طائفة معه، وطائفة بإزاء العدو، فصلى بالذين معه ركعة، ثم ذهبوا، وجاء

الآخرون فصلّى بهم ركعةً، ثم قضت الطائفتان ركعةً ركعةً. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: فإذا كان خوفٌ أكثر من ذلك، فصلّ ركباً أو قائماً، توميئ إيماءً. [رواه مسلم (٨٣٩)].

وعن سهل بن أبي حثمة: أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم صلّى بأصحابه في الخوف، فصفّهم خلفه صفين، فصلّى بالذين يلونه ركعةً، ثم قام، فلم يزل قائماً حتى صلّى الذين خلفهم ركعةً، ثم تقدّموا، وتأخر الذين كانوا قدّامهم، فصلّى بهم ركعةً، ثم قعد حتى صلى الذين تخلّفوا ركعةً، ثم سلّم. [رواه مسلم (٨٤١)].

وثمة هيئةٌ أخرى لصلاة الخوف، رُويت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويرجع اختلاف هيئات الصلاة، لاختلاف ظروف المواجهة مع العدو، ومدى تحقق الخطر.

ثم أكملت الآية وصفها لصلاة الخوف، بقوله تعالى:

﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ زُرَّائِكُمْ﴾ أي: فليرجع الذين صلوا معك أول الصلاة،

ليقفوا في مواجهة العدو.

﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ أي: الركعة الثانية التي بقيت

عليك ثم يتمون بقية صلاتهم.

﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، كرر تعالى الأمر بحمل السلاح، وأضاف

إليه الأمر بالحذر من العدو؛ لأنه قد لا ينتبه إلى انشغال المسلمين بالصلاة في أول الأمر، ويحاول عندما يشعر بانشغالهم بالصلاة انتهاز الفرصة، ويفوت عليه ذلك التيقظ والحذر مع أخذ الأسلحة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أي: يتمنى الكفار أن

ينالوا منكم غرة وغفلة عن أسلحتكم وعددكم.

﴿فَيَسِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: فيهجمون عليكم هجمة واحدة مباغطة.

فللمفاجأة في الحرب أثر كبير في إضعاف العدو وتحطيم قوته.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِّنْ مطرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَنْ تَضَعُوا

أَسْلِحَتَكُمْ﴾ أي: ولا إثم ولا حرج عليكم في حال المطر أو المرض أن تضعوا

أسلحتكم بجانبكم، لصعوبة حمل السلاح في مثل هذه الأحوال، بشرط أن تكونوا في أقصى درجات الانتباه والحذر.

﴿وَحَذُّوا حُدْرَكُمْ﴾ أي: من مباغته العدو ومفاجأته.

﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: أعد لهم عذاباً فيه إذلال وإهانة.

وهذا وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد أمرهم بالحزم والحذر، وفيه رفع لهم المسلمين، وتقوية لعزائمهم، فالأمر بالحذر وأخذ أسباب الحيطة لا يعني ضعف المسلمين، وقوة عدوهم، إنما هي أحكام كلّفنا الله تعالى بها، مع توكلنا عليه، واعتقادنا أن النصر بيده جل وعلا.

وقد دلّت هذه الأحكام على أنّ الشريعة الإسلامية حريصة على سلامة قوة المسلمين وعزتهم، وأن ذلك في نظرها أهم الواجبات، فهو مقدّم حتى على الصلاة، التي هي أهم أركان الإسلام بعد النطق بالشهادتين، فإذا كانت أحوال المواجهة شديدة، ولم يتمكنوا معها من الصلاة جماعة، أو كانت الصلاة جماعة تعرضهم لخطر التدمير والقتل، كما هو الحال في هذا العصر، بعد أن صنع الناس أسلحة الدمار الجماعي الشامل، يصلّون فرادى، قائمين أو جالسين، إذا كان القيام يعرضهم للخطر، وعند تعذّر أداء الصلاة في وقتها بسبب شدة القتال، يأخرونها كما فعل النبي ﷺ عندما اشتد على المسلمين الحصار في معركة الخندق.

فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: جاء عمرُ يومَ الخندقِ، فجعلَ يسبُّ كفَّارَ قريشٍ ويقول: يا رسولَ الله ما صلَّيتُ العصرَ حتى كادتِ الشمسُ أن تغيبَ، فقال النبي ﷺ: «وأنا والله ما صلَّيتها بعدُ» قال: فنزل إلى بطحان، فتوضّأ، وصلّى العصر بعدما غابتِ الشمسُ، ثم صلّى المغربَ بعدها. [رواه البخاري (٩٤٥)].

ويجوزُ أيضاً تأخيرُ الصلاة لتفويت فرصة الفرار على العدو، وتعجيل النصر للمسلمين، كما فعل الصحابة في معركة السوس، التي تمّ بها فتح حصن تُسْتُر، في بلاد فارس.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: حضرت عند مناهضة حصن تُسْتُر عند إضاءة الفجر، واشتدَّ اشتعال القتال، فلم يقدرُوا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبي موسى - الأشعري - ففتح لنا. وقال أنس: وما يسرُّني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها. [رواه البخاري في كتاب صلاة الخوف، باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو].

ودلت مشروعية صلاة الخوف على أهمية صلاة الجماعة، كما دلت على حرص الشريعة الإسلامية على سلامة المسلمين، فشرعت لهم صلاة الخوف في حال الخطر ومواجهة العدو، لكي لا يستفيد العدو من انشغال المسلمين بالصلاة.

وقد تعلق بظاهر الخطاب بعض الفقهاء، فرأوا أن صلاة الخوف شرعت على وجه الخصوص معه عليه الصلاة والسلام فقط، ولكن جمهور العلماء يقولون بمشروعيتها أبداً، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ليقندي به غيره، وقد فعلها الصحابة بعده عليه الصلاة والسلام.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُ الصَّلَاةُ﴾ أي: إذا أدبتم الصلاة وفرغتم منها.

﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ أي: أكثروا من ذكر الله في جميع

الأحوال.

فذكره تعالى مطلوب من المسلم في جميع تقلباته، وخاصة في ميادين القتال عند مواجهة العدو، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَتْهُ فَكَاةً فَاتَّبَتُوا وَأَدْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ أي: فإذا أمنتُم وزالت أسباب الخوف.

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوها تامة بجميع شروطها وفروضها.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أي: فرضاً مفروضاً في أوقات محدودة، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة].

وتابعت الآيات شدَّ عزائم المسلمين، ورفع هممهم، لكي يستمروا على طريق الجهاد:

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا ولا تتوانوا.

﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: في ملاحقة الكفار وقتالهم، حتى لا تبقى لهم قوة تهددكم.

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ أي: فإن آلام القتال مشتركة بينكم وبينهم، فكما تكابدون من آلام القتال والجراح فإنهم يكابدون مثلها، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: وتمتازون عليهم بإيمانكم بالله تعالى، ورغبتكم بثوابه ونصره، فينبغي أن تكونوا أصبرَ منهم على مشقات القتال وآلامه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليمًا بأحوالكم، حكيمًا فيما شرع لكم وكلفكم.



الْفُضْلُ الْخَامِسُ

حادثة بني أبيرق

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٢٥﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِيَّاكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٢٧﴾ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٢٨﴾ هَاتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٣١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١٣٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١٣٣﴾ ۞ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَحْوِهِمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٣٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٣٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ شَيْءٌ وَيَعْلَمُ مَا تُدْوِنُ وَتُعْزِئُ مِنْهُ وَيَعْلَمُ مَا تُنْزِلُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١٣٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٣٨﴾ وَلَا ضَلَّيْتُمْ وَلَا مَنِيتُمْ وَلَا مَرَنْتُمْ فَلْيَبْتَكَنْ ءَاذَاكَ الْآنَعَمِ وَلَا مَرَنْتُمْ فَلْيَعْرِضْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١٣٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٤٠﴾

أُولَئِكَ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ وَلَا يُجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٣٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَكُنْهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ
فِيَلَا ﴿١٣٧﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُحْزِبْ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٣٨﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٣٩﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ
مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٤٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطًا ﴿١٤١﴾

• الحادثة وحقوق الإنسان:

اهتمت الآيات في سورة النساء بهذه الحادثة اهتماماً كبيراً؛ لصلتها بالعدوان على حقٍّ من أهم حقوق الإنسان، وهو براءة ذمته عن أيِّ مسؤولية حتى تثبت بالأدلة القطعية، واتهام الإنسان البريء والعدوان عليه وسيلة شائعة، كثيراً ما تلجأ إليها أنظمة الحكم الاستبدادية، لتتخلص من مناوئها ومعارضها.

ولما كان الإسلام دين العدل والمساواة - كما مرّ في آيات السورة - وتحرصُ الشريعة الإسلامية على حماية الحقوق لجميع الناس، مسلمين أو غير مسلمين، ودفع الظلم عنهم، أنزل الله تعالى الآيات التالية على النبي ﷺ، ليحمي حقَّ إنسانٍ واحد، ويدفع عنه الظلم، ويبرئته مما اتُّهم به كذباً وبهتاناً، وقد ذكرت بعض الروايات أنه يهودي، من يهود المدينة المنورة.

وملخصُ الحادثة: أنَّ أهل بيتٍ من بني ظَفَرٍ من بيوت الأنصار، يقال لهم: بنو أبيرق، ثلاثة إخوة، بشر وبشير ومبشّر، نقبوا مشربةً لرفاعة بن زيد في الليل، وسرقوا منها أدرعاً له وطعاماً، وقيل: إنَّ السارق بشيرٌ وحده، وكان منافقاً، وقيل: إن اسمه طعمة بن أبيرق، فشكاهم ابن أخي رفاعة، قتادة بن النعمان، إلى رسول الله ﷺ، فجاء ابن عمِّ لهم يدعى أسير بن عروة مع رجال من بني

ظَفَر، يدافعون عن بني أبيرق، فقال أسير: يا رسول الله، إنَّ هؤلاء عمدوا إلى أهل بيت، هم أهل صلاح ودين، فأنبوهم بالسرقة، ورموهم بها من غير بيّنة.

وجعل يجادل عنهم، ويتهم بالسرقة لبيد بن سهل، وقيل: زيد بن السمين، يهوديين، وقيل: رجل من الأنصار، حتى قال النبي ﷺ لقتادة: «عمدت إلى أهل بيتٍ ذُكِرَ فيهم إسلامٌ وصلاحٌ، ترميهم بالسرقة، على غير ثبوتٍ ولا بينةٍ» فرجع قتادة إلى عمه، فأخبره بما قال رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان، فأنزل الله الآيات التالية. [رواه الترمذي (٩٣/٤) والحاكم (٣٨٥/٤) وابن جرير (١٨١/٩)]^(١):

• اجتهاد النبي ﷺ:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أي: بما عرفك الله، وأوحى به إليك، إما بوحى ونص، أو بنظر واجتهاد، على قواعد الوحي وأصوله.

ففي الآية دليلٌ على أنَّ للنبي ﷺ أن يجتهدَ فيما لم ينزل عليه فيه شيء، وربّما أذاه اجتهادهُ إلى أمر فيحكم به، ويكون في الباطن بخلاف ذلك، لكنّ مثل ذلك لو وقع لم يُقرَّ عليه ﷺ لثبوتِ عصمته.

ويؤكد ذلك حديث أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ سمع خصومةً بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «إنما أنا بشرٌ، وإنه يأتيني الخضمُّ، فلعلَّ بعضكم أن يكونَ أبلغَ من بعضٍ، فأحسبُ أنه صادقٌ، فأقضي له بذلك، فمَنْ قضيتُ له بحقٍّ مسلمٍ فإنما هي قطعةٌ من النار، فليأخذها أو ليتركها» [رواه البخاري (٧١٨١)].

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٧٦/٥؛ مختصر تفسير ابن كثير: ٤٣٤/١.

قال ابن حجر: «والحكمة في ذلك، مع أنه كان يمكن إطلاعه بالوحي على كل حكومة، أنه لما كان مشرعاً كان يحكم بما شرع للمكلفين، ويعتمده الحكام بعده... ولا يسمّى ذلك خطأ في الاجتهاد، قال الشافعي: الحكم بين الناس يقع على ما يسمع من الخصمين، بما لفظوا به، وإن كان يمكن أن يكون في قلوبهم غير ذلك، وأنه لا يقضي على أحد بغير ما لفظ به، فمن فعل ذلك فقد خالف كتاب الله وسنة نبيه ﷺ»^(١).

وسكوته ﷺ عن بعض المسائل التي عرضت له، حتى نزل عليه الوحي بحكمها، كانت من المسائل التي ليس لها أصول في الشريعة.

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ أي: لا تكن لأجل الخائنين مخاصماً للبراء.

وفي هذا دليل على أنّ النياية عن المبطل والمتهم في الخصومة لا تجوز، فلا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد، إلا بعد أن يعلم أنه محق.

ومشى الكلام في السورة على حفظ أموال اليتامى والنساء، فبيّن أنّ مال الكافر محفوظ عليه كمال المسلم، إلا في الموضع الذي أباحه الله تعالى^(٢).

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنْ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ﴾ أي: استغفر الله للمذنبين من أمتك والمتخاصمين بالباطل، وقد مرّ معنا من قريب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وذهب الطبري إلى أنّ المعنى: استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين. وردّه ابن عطية فقال: «وهذا ليس بذنب؛ لأنّ النبي ﷺ إنما دافع عن الظاهر، وهو يعتقد براءتهم»^(٣).

(١) انظر: فتح الباري: ١٣/١٧٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٥/٣٧٧.

(٣) المحرر الوجيز: ٤/٢١٩.

فالحاكمُ يحكم - كما مرَّ معنا - بما يسمع، ولا يُعَدُّ النبي ﷺ مذنباً إذا حكم بحسب ما سمع وأخطأ، ولكن لا يُقرَّ عليه الصلاة والسلام على الخطأ، لثبوت عصمة النبوة له.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: يغفر للتائبين ويرحمهم.

• تحريم الدفاع عن المجرمين:

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (١٠٧).

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعصية.

جعلت الآية معصية العصاة خيانةً منهم لأنفسهم؛ لأنَّ وبال المعصية راجع إليهم. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به غيره، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿هَآئِنْتُمْ هَآؤُلَآءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ١٠٩].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ أي: مبالغاً في الخيانة والإثم، مفرطاً فيهما، ومصراً عليهما.

وبذلك أخرجت الآية من وقع في الخيانة والمعصية مرة، وبادر إلى التوبة والاستغفار، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (١٠٨).

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: يستترون من الناس حياءً وخوفاً من ضررهم. ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا يستحيون منه سبحانه، وهو أحقُّ أن يُستحيا منه، ويُخشى عقابه، وإنَّما فُسر الاستخفاء منه تعالى بالاستحياء؛ لأنَّ الاستتار

منه عز شأنه محال، فلا فائدة في نفيه، ولا معنى للذم في عدمه (١).

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: على الوجه اللائق به سبحانه، أو هو معهم بعلمه وسمعه وقدرته عَلَمًا، لا يخفى عليه خافٍ من سرهم، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا حَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: إذ يدبرون ويزورون سرًّا قولاً لا يرضى سبحانه عنه، لأن فيه دفاعاً عن المجرم؛ واتهاماً للبريء.

وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم: نرفع الأمر إلى النبي ﷺ، فإنه يسمع قول طعمة، ويقبل يمينه، لأنه مسلم، ولا يسمع قول اليهودي لأنه كافر (٢).

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي: عالماً بكل أعمالهم علم إحاطة، لا يخفى عليه شيء منها.

﴿هَتَانَتْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾ (١٠٩).

﴿هَتَانَتْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: يا هؤلاء المجادلون عن المجرمين في الحياة الدنيا، وهو خطاب مشافهة للتوبيخ والتقريع.

﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لا أحد يجادل الله عنهم يوم القيامة؛ إذ كلُّ إنسان مشغول بنفسه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٢٤) وَأُخِيهِ (٢٥) وَصَلْبِيهِ وَبَنِيهِ (٢٦) لِكُلِّ أُمَّرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾ أي: ولا أحد يكون عليهم حافظاً ومحامياً من بأس الله تعالى وعقابه.

(١) روح المعاني: ١٤١/٥.

(٢) تفسير الخازن: ١٦٢/٢.

• اتهام البريء بُهتان:

هكذا كشفت الآيات الحقيقة، وأظهرت براءة البريء، وأشارت إلى المجرم الحقيقي، ووبّخت المدافعين عنه، ثم دعتهم إلى التوبة والاستغفار، وشجعتهم عليها، بأسلوب الخبر، وتقرير الحكم العام، الذي ينسجُبُ عليهم وعلى غيرهم. وهو أسلوب تربوي حكيم من أساليب القرآن الكريم المهدّبة، والتي تأتي في مواضعها المناسبة المؤثرة، حيث تكون النفوس مستعدة للاستجابة والتوبة، بعد أن وُجِهُتْ بخطئها، وعرفت شناعة وفداحة جرمها.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ أي: يسيء به إلى غيره، كأن يتهم بريئاً.

﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ أي: بفعل معصية يعود ضررها على نفسه فقط.

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: يغفر سبحانه له ذنوبه، إن تاب

عنها ويرحمه.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ لأنّ وباله يعودُ على نفسه،

فالمسؤولية شخصية، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فلا يعاقبُ بذنبٍ غيرِ فاعله.

وبعد أن قررت الآيات مسؤولية الإنسان الشخصية عن ذنوبه، توعدت

الذين يتهمون غيرهم بجرائمهم ومعاصيهم، ويحاولون التملُّص من المسؤولية

عنها، بأشد أنواع الوعيد والتهديد:

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بِيَدٍ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ أي: ومن يفعل ذنباً صغيراً كان أو كبيراً.

﴿ثُمَّ يَوْمَ يَدْعُ بِرَبِّكَ﴾ أي: ثم يتهم به إنساناً بريئاً.

وفي هذا إشارة إلى أن الأصل في الإنسان براءته، وأن محاولة إسقاط هذه البراءة عدوانٌ على حقٍّ من أعظم حقوقه.

﴿فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا﴾ أي: كذباً عظيماً، سُمِّيَ بهتاناً من البهت، وهو الكذب الذي يُتَحَيَّرُ في عظمه وشناعته وقبحه.

﴿وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ أي: واحتمل أيضاً مع البهتان ذنباً ظاهراً.

إذ ارتكب في الحقيقة ذنبين، واتصف بصفتين قبيحتين، فهو بفعل الذنب آثم، وبرمي البريء باهت.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أُتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذُكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُهُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ» [رواه مسلم (٢٥٨٩)].

• عصمة النبوة:

ودلّ ما حدث على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته ونبوته، كما دلّ على فضل الله تعالى عليه، وعنايته به، وعصمته له، فالنبي ﷺ لا يُقْرَأُ على خطأ؛ لأنّه محفوظٌ بحفظ الله تعالى، ومعصوم بعصمته، ولهذا توجّهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ، تبين له فضل الله تعالى عليه، بقوله الكريم:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ﴾ أي: لولا فضله سبحانه ورحمته عليك، لتمكّن فريقٌ من الناس، وهم قوم طعمة بن الأبيرق، أن يبعدوك عن القضاء بالحق والعدل، مع علمهم بحقيقة الحال.

﴿وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: والحقيقة أنهم ما تمكنوا من ذلك، وعاد وباله عليهم.

﴿وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: فإنهم وإن سَعَوْا في إضلالك، فإنك ما وقعت فيه، وما أصابك منه ضرر؛ لأنك اتبعت أصول القضاء الصحيحة، وبيّنت حكمك على ظاهر الحال.

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: أنزل عليك القرآن الكريم والسنة المطهرة.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ أي: علّمك من أحكام الشرع وأمور الدين، ومن علوم الغيب وخفيات الأمور، التي لا يعلمها إلا هو سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ أي: كان فضل الله تعالى عظيماً فيما علّمك وأنعم عليك من النعم الجليلة والخصائص العظيمة.

ولهذا كان ﷺ يقوم من الليل حتى ترمّ قدماه، فيقال له، فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً» [رواه البخاري (١١٣٠)].

ومن فوائد ما حدث أيضاً: بيان كمال علمه تعالى، وأنه مطلع على مكنونات الضمائر والسرائر، فما يدبره المؤتمرون فيما بينهم سراً، للاحتيال على الناس والإضرار بهم، والعدوان على حقوقهم، لا يخفى على الله تعالى، الذي يعلم سرهم ونجواهم، ولهذا قال تعالى:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ أي: لا خير في كثير ممّا يدبرونه سراً؛ ويتناجون به.

والنجوى: المسارّة، والناسُ عادةً إذا أرادوا المكر والشر يخفونه ويتحدثون به سرّاً، كما فعل بنو الأبيرق.

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: إلا نجوى من أراد أن يخفي صدقته، فإنَّ إخفاء الصدقة أفضل من إظهارها، قال تعالى: ﴿إِنْ بُدُوا أَلْصَدَقَاتِ فَعِمَا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: أمر بعمل من أعمال البر المعروفة المشروعة.

فالتناجي في عمل الخير جائزٌ، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْنَجُوا بِالْإِنَّمِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجُوا بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

﴿أَوْ إِصْلَاحِ بَيْنِ النَّاسِ﴾ أي: سعى في إصلاح ذات البين، وإزالة أسباب الخصام بين المتخاصمين، فله أن يتحدث سرّاً مع كل جانب، ولو كان في حديثه كاذباً، إذا قصد الإصلاح.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الكذاب الذي يضلح بين الناس، ويقولُ خيراً وينمي خيراً» [رواه مسلم (٢٦٠٥)].

وإصلاح ذات البين من أعظم القُرْبَات والعبادات، فهو يؤدّي إلى إشاعة الألفة والمحبة بين أبناء المجتمع، ويخلصهم من الاختلاف والنزاع، قال عليه الصلاة والسلام: «ألا أخبرُكم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، فإنَّ فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقولُ تحلِقُ الشَّعْرَ، ولكن أقولُ: تحلِقُ الدِّينَ» [رواه أبو داود (٤٩١٩) والترمذي (٢٥٠٩)].

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: خالصاً لوجه الله تعالى.

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم قدره إلا الله ﷻ.

• حجية الإجماع:

ومن فوائد ما حدث أيضاً: بيان خطر مخالفة الرسول ﷺ ومعاداته، ومحاولة تلبيس الأمر عليه، حتى يخطئ في قضائه وحكمه، كما فعل بنو الأبيرق، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ .

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أي: ومن يخالف الرسول ﷺ، من بعد وضوح الأدلة الدالة على صدقه، وصحة رسالته ونبوته، فمخالفته حينئذ مخالفة عنادٍ وجحودٍ.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويسير في غير طريق المؤمنين، الذين يطيعون الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ويعظمونه ويتمسكون بسنته.

﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: ندعه ونخلي بينه وبين طريق الضلال الذي اختاره، فيزداد ضلالاً وإثمًا، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَقْسَدَهُمْ وَابْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال أيضاً: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

﴿وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ﴾ أي: ندخله فيها ونشويه بناورها.

﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ .

دلَّت الآية على أنّ الله تعالى حفظ المؤمنين من الاجتماع على الخطأ والضلال، فلا تجتمع آراؤهم على ضلالة.

وجاء في الأثر: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» [رواه أحمد (٣٦٠٠) والبزار (١٣٠) والطيالسي (٢٤٦) والطبراني في الكبير (١٨/٩) رقم (٨٥٨٣، ٨٥٩٣) وأبو نعيم في الحلية (١/٣٧٧ - ٣٧٨)، وهو موقوف حسن].

وهذه الآية دليلٌ في رأي كثير من العلماء على حجية الإجماع، وهو اتفاق آراء العلماء على حكم قضية حادثة لا نص فيها.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما عُلِمَ اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضُمَّنَتْ لهم العصمة من الخطأ في اجتماعهم، تشریفاً لهم، وتعظيماً لنبيهم ﷺ. وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك، ومن العلماء من ادَّعى تواتر معناها، والذي عوّل عليه الشافعي بعد التروي والفكر الطويل في الاحتجاج على كون الإجماع حجةً تحرم مخالفته، [هو] هذه الآية الكريمة وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها»^(١).

وقد عودنا الله في كتابه الكريم، أنه كلما توعّد ببعض آيات الوعيد، أتبعها ببعض آيات الترغيب، وها هي الآيات تفتحُ لبني الأبيرق وأمثالهم باب التوبة وترغبهم فيها، فلا يأسَ من رحمة الله تعالى، ومهما كانت ذنوبُ الإنسان كبيرة، فإنَّ الله تعالى يغفرها، إلا ذنب الشرك به سبحانه، ولهذا كرر تعالى قوله الكريم للمرة الثانية في السورة:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(١١٦).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وكأنه تعالى ذكر قوله الكريم هذا في سياق قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] لكي يبيّن خطر مخالفة الرسول ﷺ، وخطر مخالفة إجماع المسلمين، إذ يؤدي ذلك إلى الذنب الكبير العظيم الذي لا يغفر، وهو الإشراك به جل وعلا.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٣٧/١.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: ابتعد كثيراً عن طريق الحق، الذي هو طريق الرسول ﷺ، وسنته من بعده، وما تُجْمَعُ عليه أمته من بعده أيضاً. ويلاحظ أنه تعالى ختم الآية في المرّة الأولى بقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ أَفْرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]؛ لأنها جاءت هناك في سياق الخطاب الموجه لأهل الكتاب، فنبهوا بهذا إلى أن الشرك افتراءٌ كبيرٌ على الله تعالى الواحد الأحد. وأما هنا فالكلام موجه إلى المسلمين، فنبهوا على أن الشرك من الضلال البعيد؛ تحذيراً لهم من مخالفة الرسول ﷺ، فالمغايرة في ختام الآية جاء حسبما يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه^(١).

• حقيقة الشرك ومصدره:

ثم بيّنت الآيات حقيقة الشرك ومصدره الأصلي، وبعض مظاهره العملية؛ تأكيداً لما قرره تعالى في قوله السابق: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١١٧﴾ وتحذيراً للمؤمنين من مقارفته ومقاربتة:

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ ﴿١١٧﴾.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا﴾ أي: هؤلاء المشركون ما يعبدون من دون الله تعالى إلا إناثاً.

وهو تصويرٌ للشرك في أقبح صورته، فقد كان العرب يستضعفون الأنثى ويظلمونها، ويحرمونها من أكثر حقوقها - كما مرّ في صدر السورة - وكانوا أيضاً يعبدون أصناماً يسمونها بأسماء الأنثى، كالكالات والعزى ومناة وإساف ونائلة، فأئىُّ ضلال أبعد من هذا الضلال، يشركون بالله تعالى غيره، ويزعمون أن شركاءه تعالى إناث؟! .

ثم كشفت الآيات عن مصدر هذا الضلال البعيد ومنبعه، بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أي: وعبادتهم لهذه الأصنام هي في

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/٢٣٣.

الحقيقة طاعةً للشيطان المتمرد على الله تعالى، العريق في العصيان، فهو مصدر كل كفر وشرك؛ إذ هو الذي دعاهم إليه، وزينه لهم، وهم في حقيقة الأمر عبادة للشيطان، وكثيراً ما حذر الله تعالى الإنسان من طاعة الشيطان وعبادته، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ [يسر].

﴿لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَ لَا تَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٧٣﴾﴾

﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي: أبعده تعالى من رحمته، بسبب تكبره وجراءته على مخالفة أمره، كما في قوله سبحانه: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٥﴾ [الحجر].

فالشيطان هو العدو الأول للإنسان، يعمل دائماً لإضلال الناس وإبعادهم عن طاعة ربهم سبحانه، ومن وقاحته أنه أعلن ذلك:

﴿وَقَالَ لَا تَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي: قال للحق سبحانه بعد أن تكبر عن أمره، ورفض سجود التكريم والتحية لآدم: لا تتخذن من عبادك جزءاً كبيراً معلوماً، قدر لي أن أغويهم وأضلهم.

ودلّ قول الخبيث هذا على ثقته الكبيرة في قدرته على إضلال الناس وإغوائهم، ولعل ذلك يرجع إلى دراسته لطبيعة تكوين الإنسان، وإطلاعه على نقاط الضعف فيه، ففي الحديث الشريف: عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يَطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتِمَّالِكُ» [رواه مسلم (٢٦١١)]: أي: لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات.

وقد تمكّن الخبيث فعلاً عن طريق الشهوات من إضلال أكثر الناس، كما أخبر عنه تعالى في قوله: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ [الأعراف].

وقال أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ﴾ [الحجر].

والعجيبُ أنَّ أحدَ الكتابِ المعاصرين، الذين كتبوا في التفسير، غفل عن هذه الآيات وأمثالها في التنزيل الحكيم، وعن الواقع الأليم الذي انحدر إليه أكثر الناس في الماضي والحاضر، فزعمَ أنَّ الصلاح غلبَ على جماعةِ البشر في كلِّ عصر، وبقي معها من الشرور حظُّ يسير، ينزع فيه الشيطان منازعه، وكَلَّ الله أمرَ الذيادِ عنها إلى إرادةِ البشر، بعد تزويدهم بالنصح والإرشاد بواسطة الشرائع والحكمة^(١).

وكانَ صاحبَ هذا الكلام لم يقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله أيضاً: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]، كما غفل عن دركات الشرور والفتن والظلم والطغيان في المجتمعات البشرية ماضياً وحاضراً.

• صرعى الأمانى الباطلة:

﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مُنِيْنَهُمْ وَلَا أَمْرَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مِرْيَةَ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ﴾ أي: بدعوتهم إلى الضلال وتزيينه لهم.

﴿وَلَا مُنِيْنَهُمْ﴾ أي: ولألقين في نفوسهم الأمانى الباطلة، والمواعيد الكاذبة؛

لأشغلهم بها عن عبادتك وطاعتك.

يقال: مناه، إذا وعده المواعيد الباطلة التي يحبُّها، وما أكثر الذين أوقعهم الشيطان في شراكه بالأمانى الباطلة التي منَّاهم بها، كما حكى الله عنه فيما يقوله لأهل النار يوم القيامة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٢٠٤/٥.

وَوَعَدْتُهُمْ فَاخْلَفْتُمُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿إبراهيم: ٢٢﴾.

﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنَّ إِذَا نَكَرَ الْأَنْعَامُ﴾ أي: فليقطعن آذان الأنعام استجابةً لأمري.

وكان العرب في الجاهلية يفعلونه بالبحائر والسواحب، وهي الحيوانات التي كانوا يسيبونها لألهتهم، ويتركونها دون أن ينتفعوا بها، وقد أبطل ذلك سبحانه فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ أي: ولأمرنهم بتغيير صورة الأعضاء السوية، إلى ما يظنون أنها أحسن من الصورة التي كانت عليها، كالوشم في الجلد، ووشر الأسنان، والنمص لإزالة الحواجب المستوية.

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله، ما لي لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ملعون في كتاب الله. [رواه البخاري (٥٣٤٣)].

قوله: (وهو ملعون في كتاب الله) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿وَمَا آتَانَاكَ الرَّسُولُ فَخُذْهُ وَمَا نَهَكَمْ عَنْهُ فَأْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ويُستثنى من ذلك إزالة الشاذ عن أصل الخلقة السوية، وإزالة ما يحصل به ضرر، كإصبع زائدة، أو سن زائدة، أو طويلة تعيق عن الأكل والاستعمال، أو إزالة ما نبت لامرأة من لحية أو شارب أو عنفقة، كما يجوز للزوجة التحمير والنقش والتطريف^(١) إذا كان بإذن الزوج، لأنه من الزينة^(٢).

(١) هو عملية قص الأظافر وتزيين اليد.

(٢) انظر: فتح الباري: ١٠/٣٧٨.

ومن تغيير خلق الله تعالى: العلاقات الجنسية الشاذة عن أصل الفطرة السوية، كاللواطه والسحاق، ويلتحقُ بهما ما استحدثه الناس ممّا يسمّى التلقيح الاصطناعي وأطفال الأنايب^(١).

وكل ذلك مظاهر على طاعة للشيطان وموالاته، وقد توعد الله تعالى من يفعل ذلك بقوله:

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي: ظاهراً.

فطاعة الشيطان تودي بالإنسان إلى التعب والعناء في الدنيا، وإلى الشقاء والعذاب في نار جهنم يوم القيامة، وتلويث البيئته وإفسادها أكبر شاهد واقعي على التعب والعناء الذي يترتب على تغيير خلق الله المحكم. والسبب في ذلك أن مواعيده خداع وغرور:

﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ﴾ أي: يعدهم الشيطان بالمواعيد الكاذبة، ويمنيهم بالأمانى الخادعة الفارغة، فيتعبون في تحصيلها، ويظلون طول أعمارهم راكضين لاهثين وراءها، فلا يقبضون إلا على الريح، ولا يجنون إلا الحسرة والألم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْنَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

﴿وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: إلا باطلاً وضلالاً وكذباً واحتيالاً، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذِبٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر].

وهو ما قرره سبحانه هنا في قوله:

(١) انظر: الأنساب والأولاد، للمؤلف.

﴿أُولَئِكَ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ ﴿١٢١﴾ .

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين غرهم الشيطان فأطاعوه واتبعوه.
 ﴿مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: مفرّاً أو ملجأً يمتنعون به من النار، فلا بدّ لهم من ورودها، ولا يعدلون عنها إلى غيرها.
 وفي المقابل، بيّنت الآيات مصيرَ الذين أطاعوا الرحمن، وعصوا الشيطان بقوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدَّخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ﴿١٢٢﴾ .

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدَّخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: وعده سبحانه وعد حق وصدق لا يتخلف، فهو ليس كوعد الشيطان.
 ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أي: لا أحد أصدق من الله تعالى، وهو توكيد لقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾، وهذه التوكيدات أتت في مقابل مواعيد الشيطان الكاذبة لأتباعه وأوليائه.

• ميزان العقاب والثواب:

فحياة الإنسان وموته لا يقومان على أساس الأمانى الفارغة، والمواعيد الخادعة، التي يلقها الشيطان في نفوس كثير من الناس:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٢٣﴾ .

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: ليس الأمر منوطاً بأمانى الكافرين المنكرين للمسؤولية والحساب بعد الموت، ولا بأمانى أهل الكتاب،

الذين أطمعهم الشيطان بالمغفرة والجنة، حتى قالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَعَرَّهُمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْرُوتُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا تِلْكَ آمَانِيهِمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

إنما الأمر منوطٌ بتشريع شرعه العليم الحكيم، أساسه التكليف والمسؤولية، والجزاء القائم على المبدأ التالي:

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ أي: يعاقب بسببه، إذا أصرّ عليه، ولم يتب عنه، والسوء يشمل كل مخالفة لدين الله وشرعه.

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ولا يجد له يوم القيامة غير الله تعالى وليًّا يمنعه، ولا نصيرًا ينصره. هذا هو ميزان الحساب والعقاب. وفي مقابله بينت الآيات ميزان الفضل والثواب بقوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالنساء يُثَبَّنَ على أعمالهن الصالحات كالرجال، وينبغي أن يتمتعن بحقوقهن الإنسانية الكاملة في الدنيا.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي: ولا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم مهما كان قليلاً، ومرّ معنا أن النقيير النقرة الصغيرة في النواة، وهو مثلٌ في القلة كالفتيل، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة].

• أحسن الناس ديناً:

ثم أثنى سبحانه على المستسلمين المنقادين لأحكام دينه وشرعه، وسنة نبيه

عليه الصلاة والسلام، وجاء هذا الثناء في مقابل ما مرَّ معنا من قوله سبحانه في المعاندين الجاحدين: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَّأَهُ الْهُدَىٰ﴾ [النساء: ١١٥]:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي: أسلم نفسه لله تعالى إسلاماً كاملاً، وجعلها سالمة له جل وعلا، منقادة له وحده، ونبه في هذا الاستفهام على أن ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية^(١).

فأحسنُ الناس ديناً مَنْ يسلمُ نفسه لله تعالى إسلاماً كاملاً.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله وعبادته وسلوكه وأخلاقه، وذلك باتِّباعِ شرعِ الله تعالى، والتمسك بسنة النبي ﷺ.

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن سائر ما يخالفها من العقائد والنحل، فهي ملة التوحيد، التي أمرنا بالتمسك بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَانَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٥) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة].

فأساسُ ملة التوحيد الإسلام الكامل لرب العالمين.

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: بوأه الله تبارك وتعالى هذه المكانة الرفيعة، ونفضّل عليه بها لكمال إسلامه واستسلامه له جل وعلا.

والخلة: صفاء المودة، وقيل: الخلة: الافتقار والانقطاع، فخليلُ الله:

المنقطع إليه، وسمي إبراهيم خليلاً لأنه انقطع إلى الله في كلِّ حالٍ، وقيل:

(١) تفسير البضاوي: ١٧٤/٢.

الخلَّة: الاختصاص والاصطفاء، وسُمِّي إبراهيمُ خليلاً لأنه والى في الله وعادى في الله^(١).

وفائدة الإخبار عن هذه المرتبة الرفيعة، التي تفضل الله سبحانه بها على إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ تأكيدٌ وجوب اتباع ملته وطريقته؛ لأنَّ مَنْ بَلَغَ مِنَ الزلْفَى عند الله أَنْ اتَّخَذَهُ خَلِيلاً، كَانَ جَدِيداً بِأَنْ تَتَّبِعَ مَلَّتَهُ وَطَرِيقَتَهُ^(٢).

وقد أمر الله نبينا ﷺ بذلك بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وله سبحانه أن يتفضل على مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ؛ لأنه المالك الخالق:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾^(١).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وتدبيراً.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾ إحاطة علم وقدرة، جلّ وعلا.

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد بيّنت لنا حقيقة التوحيد وملته، ووجوب التمسك به، بعد أن بيّنت حقيقة الشرك ومصدره.



(١) انظر: تفسير الخازن: ١٧٤/٢. وقيل: الخلَّة: تخلل الحب كل ذرة في القلب، قال الشاعر:

قد تخللت موضع الروح مني ولذا سُمِّي الخليل خليلاً

(٢) تفسير النسفي: ١٧٤/٢.

الْفَضِيلُ السَّلَاسِينُ

الثبات على الإيمان والتزام التقوى والعدل

﴿وَسْتَغْفِرُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُغْفِرُكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَىٰ النِّسَاءِ
الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَزَعُونَ أَن تَكْحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا
لِلْبَيْتِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا
ثُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ
الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ نَسْطِيعُوا أَنْ
تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَعْلُوقَةِ وَإِن تَصْصِحُوا
وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَنْفَرَا بِعَيْنِ اللَّهِ كَلًا مِنْ سَعْتِهِ وَكَانَ اللَّهُ
وَأَسْعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ
قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ تَكْفُرًا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا
حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا
النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ
لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا
الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّوا أَوْ نَعَرْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ
كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرْ

الْمُتَّقِينَ يَا نَّ لَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ
 عِنْدَهُمُ الْغُرَّةَ فَإِنَّ الْغُرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ
 بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْكَ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ
 الْمُتَّقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِّنَ اللَّهِ فَسَالُوا
 أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ
 يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ
 يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ
 إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُدْبِئِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ
 سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا
 لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا
 ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ
 وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ
 سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا حَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

• تعظيم حقوق الضعفاء:

وعادت الآيات إلى الموضوع الأصلي، الذي أبرزته في صدر السورة، وهو تقرير حقوق الضعفاء في المجتمع وحمايتهم، ويبدو أن تشريع ميراث النساء والصغار أثار نوعاً من الدهشة والاستغراب عند بعضهم؛ إذ رآه تشريعاً جديداً عليهم لم يألوه، ولم يكن له سابقة في مجتمعهم الجاهلي، فقد كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار، فلما نزلت آيات الميراث قالوا: يا رسول الله، كيف ترث المرأة والصغير؟ فأجابهم بهذه الآية.

وذكر بعض المفسرين أن عيينة بن حصن أتى النبي ﷺ فقال: أخبرنا أنك

تعطي الابنة النصف والأخت النصف، وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويحوزُ الغنيمة، فقال عليه الصلاة والسلام: «بذلك أمرت»^(١). وأنزل الله تعالى:

﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوَالِدَيْنِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ أي: ويستخبرونك في شأن النساء وحالهن. والاستفتاء: طلب الفتوى، وهو إظهار ما أشكل من الأحكام الشرعية وكشفه وتبينه.

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ أي: قل: الله تعالى يبين لكم حكمه فيهن. فهذه الأحكام شرعها الله تعالى، وما عليكم إلا الإذعان لها والرضا بها، وهذا هو المظهر العملي للاستسلام لله تعالى، الذي مر في الآية السابقة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥].

وأفاد تقديم لفظ الجلالة (الله) تعظيم شأن هذه الأحكام، وزاد في تعظيمها قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي: وهذه الأحكام التي تتلى عليكم موجودة في الكتاب العلوي، وهو اللوح المحفوظ.

فهي أحكام إلهية علوية، تفيد أن العدل والإنصاف في حقوق النساء واليتامى من أعظم الأمور عند الله تعالى، فعليكم مراعاتها وعدم الإخلال بها. وقد يكون المراد من الكتاب: القرآن الكريم، والمعنى: إن الله يفتيكم في النساء بما أنزل في كتابه عليكم.

﴿فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي: ما فرض لهن من الميراث

(١) تفسير البيضاوي: ١٧٦/٢.

والمهور، وكان الرجل منهم - كما سبق - يضمُّ اليتيمة ومالها إلى نفسه، فإن كانت جميلةً تزوجها، وأكلَ مالها، وإن كانت دميمةً منعها من الزواج وعضلها، حتى لا يشاركه أحد في مالها.

﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكُحُوهُنَّ﴾ أي: في أن تنكحوهنَّ لجمالهنَّ، أو: عن أن تنكحوهنَّ لدمامتهنَّ، فَحَذَفُ حرف الجرِّ بعد (ترغبون) أفاد كلا المعنيين.

﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان، وهم الصغار، لكي تورثوهم كما شرع الله في آيات الميراث.

﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ أي: ويأمركم أن تقوموا برعاية حقوق اليتامى والمحافظة عليها بالعدل، كما بيَّنه سبحانه في صدر السورة.

﴿وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وهو حثُّ لهم على الاستكثار من فعل الخير، وخاصَّة في مجال رعاية اليتامى والضعفاء، وحفظ حقوقهم وأموالهم.

• اختيار أخفِّ الضررين:

ولا يعني تعظيم حقوق الضعفاء، التمسك بها كاملة في جميع الظروف والأحوال، فقد تطرأ أحوالٌ تحتاجُ المرأةُ فيها للتنازل عن بعض حقوقها، لحماية ما هو أهم لها منها، وهو ما يسمَّى في الشريعة الإسلامية: اختيار أخفِّ الضررين لدفع أعظمهما، وهو ما شرعه تعالى في قوله:

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ أي: خافت من زوجها ترفعاً عليها أو تجافياً عنها.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أي: لا حرج ولا إثم على الرجل

والمرأة أن يتصالحا بينهما، ويتفقا على أن تتنازل له الزوجة عن شيء من حقوقها، لكي تحافظ على الأسرة، وتبقى الصلة الزوجية قائمة بينهما، كأن تنزل له عن حقها في القسمة، أو عن شيء من مهرها أو نفقتها.

عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: الرجلُ تكونُ عنده المرأة، ليس بمستكثرٍ منها، يريدُ أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حلٍّ. فنزلت هذه الآية في ذلك. [رواه البخاري (٤٦١٠)].

ومعنى قولها: (ليس بمستكثر منها) أي: في المحبة والمعاشرة والملازمة.

وقولها: (أجعلك من شأني في حل) أي: وتركني من غير طلاقٍ^(١).

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي: الاتفاق خيرٌ من الفراق، فالإسلام حريص على سلامة الأسرة واستمرارها.

قال ابن كثير رحمته الله: «ولما كان الوفاق أحبَّ إلى الله من الفراق قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ بل الطلاقُ بغيضٌ إليه رحمته الله؛ ولهذا جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أبغضُ الحلالِ إلى الله الطلاقُ» [رواه أبو داود (١٢٧٨) وابن ماجه (٢٠١٨)]^(٢).

﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّعْءَ﴾ أي: جُبلتْ الأنفُسُ على الشح، وهو أشدُّ البخل، فهو حاضر معها، لا يغيب عنها، فكل واحد من الزوجين يشح بحقه، ولا يتنازل عن شيء منه للآخر لمصلحة الأسرة.

ثم حثَّ سبحانه على مقاومة الطبع ومتابعة الشرع فقال:

﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا﴾ أي: تحسنوا معاشرة أزواجكم، وتصبروا عليهنَّ، وإن كرهتموهنَّ، مراعاة لحق الصعبة، وبقاء الأسرة.

﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: وتتقوا الله في حق المرأة، فلا تظلموها، ولا تجوروا عليها.

(١) فتح الباري: ٢٦٦/٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٤٥/١.

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فيجازيكم بأعمالكم ويشيكم على

إحسانكم.

• العدل بين الزوجات:

ثم واجهت الآيات الرجال المتزوجين بأكثر من امرأة، بحقيقة الضعف البشري عن إقامة العدل الكامل، الشامل للأمر المادية والمعنوية بين نساءهم، بقوله تعالى:

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي: مهما حرصتم على العدل والتسوية بينهن، فلن تستطيعوا ذلك؛ لأن الإنسان لا يستطيع التحكم بعواطفه ومحبه، فيميل إلى واحدة أكثر من الأخرى دون إرادته.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني القلب. [رواه أبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) والنسائي (٦٤/٧) وابن ماجه (١٩٧١)].

وبما أن التكليف في الشريعة الإسلامية منوط بالوسع والقدرة بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فلا يكلف الرجل أن يعدل بين نسائه في الأمور العاطفية، كالمحبة والميل، ومع ذلك لا يجوز له أن يميل إلى المرأة التي يحبها ميلاً كاملاً، بحيث يعرض عن الأخرى:

﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ أي: فلا تبالغوا بالميل إلى واحدة منهن.

﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: حتى تصبح الأخرى كالمعلقة، لا هي ذات

زوج، ولا مطلقة، فهذا ظلم محظور في الإسلام.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ

كَانَ عِنْدَهُ امْرَأَتَانِ، فَلَمْ يَعِدْهُمَا بَيْنَهُمَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ سَاقِطٌ» أَي: مائلٌ.
[رواه أبو داود (٢١٣٣) والترمذي (١١٤١) والنسائي (٦٣/٧) وابن ماجه (١٩٦٩) والحاكم (١٨٦/٢) وصححه].

ثم شجعت الآية الأزواج الذين يسيئون معاشره نساءهم على الإصلاح، وترك سوء المعاشرة، بقوله تعالى:

﴿وَإِنْ تَصَلِحُوا﴾ أَي: ما مضى من سوء المعاشرة لنسائكم.

﴿وَتَتَّقُوا﴾ أَي: تتقوا الله تعالى في ذلك، فقبلوا عليه تائبين مستغفرين.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أَي: يغفر لكم ما مضى من سوء المعاشرة ويرحمكم.

وقد مر معنا أن النبي ﷺ بين فضيلة التزام الحق والعدل في جميع شؤون الحياة، وخاصة مع الأهل في داخل الأسرة، وفي كل من كانت له عليه ولاية، فقال: «إِنَّ الْمَقْسُطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنْابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وَكُنَّا بِيَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدُلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُلُّوا» [رواه مسلم (١٨٢٧)].

وإن لم يتمكن الزوجان من الصلح، واستمر الخلاف قائماً بينهما، وتعدرت إزالتها، فيمكنهما في هذه الحالة أن يفترقا، لقوله تعالى:

﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ﴾ أَي: من فضله وغناه سبحانه.

وفي هذا تسلية لكل واحد من الزوجين بعد الطلاق ووقوع الفراق.

﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ أَي: في فضله ورحمته وغناه.

﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما يشرع من أحكام.

وتشريع الطلاق في مثل هذه الحالة، عندما تتعدر إزالة الخلاف بين الزوجين، تشريع حكيم، فيه درة لمفاسد كثيرة وخطيرة، تترتب على إجبار

الزوجين المتنازعين أن يعيشا مع بعضهما، وهما في تنافر وخصام مستمرين، فإنَّ هذا يؤثر على الأولاد، ويمتد فسادُه إلى المجتمع المحيط بالأسرة.

وبعد أن كانت كثير من الدول النصرانية تنكِرُ على المسلمين تشريع الطلاق، تراجعوا عن إنكارهم، وأقروه في مجالسهم التشريعية، بعد أن تفاقمت الأضرار والمفاسد الاجتماعية المترتبة على منعه.

• الوصية الخالدة:

يتوقف الالتزامُ بأحكام الشريعة الإسلامية وتطبيقها على مدى شعور كلِّ من الزوجين بمراقبة الله تعالى وخشيته، وهو ما دأبت آيات السورة من أولها على تقويته في النفوس وتمكينه في القلوب، فلقد رأينا في أول آية كيف تكرر الأمر بالتقوى، وكيف ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، واستمرت الآيات على ذلك، وخاصة في خواتيمها.

وها هي بعد أن تُقرَّرَ أنه تعالى له ملك السماوات والأرض، تبيِّنُ أنَّ التقوى هي وصيته الخالدة لجميع الناس، في كل كتاب أنزل، وعلى لسان كل نبي أرسل:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۗ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: بخشيته وطاعته والتزام شرائعه.

فالتقوى وصيةٌ قديمةٌ ما يزال سبحانه يوصي عباده بها.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ أي: إن تجحدوا وصيته وتعرضوا عنها.

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فاعلموا أن له تعالى ما في

السماوات وما في الأرض، فهو غنيٌّ عنكم وعن عبادتكم وطاعتكم وتقواكم،

كما قال تعالى إخباراً عما قاله موسى ﷺ لقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَيُّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وكذلك قال هنا أيضاً:

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ أي: كان سبحانه ولا يزال غنياً عن عباده، محموداً في كل ما يقدره ويشرعه.

ثم أكد تعالى هذا المعنى، مبيناً كمال رقابته على خلقه وكمال قدرته عليهم، فقال:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

أي: شهيداً على كل شيء وحافظاً له.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ فهو غني عنكم، ووجودكم ليس أمراً لازماً، فهو منوط بمحض مشيئته تعالى وقدرته.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ ولا يخفى ما في الآية من تحدُّ للناس، وبيان شدة افتقارهم جميعاً لله تعالى في إيجادهم وإمدادهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا لم يطيعوا أمره، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٣٤﴾ [إبراهيم: (١)]. فالخير كل الخير في طاعته تعالى وتقواه، ففي ذلك خير الدنيا والآخرة:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: فاعلم يا مَنْ همُّه

في الدنيا، أن عند الله تعالى خيرى الدنيا والآخرة، فإذا ما أقبلت على عبادته وطاعته، وتمسكت بشريعته، أعطاك وأغناك في الدنيا والآخرة، فالعطاء فيهما منوط بمشيئته وحده، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

فلا يقتصرنَّ قاصرُ الهمة على السعي للدنيا فقط، ولتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

فما لطلاب الدنيا يطلبون أحسهما، ويحرمون أنفسهم من خير الآخرة الباقي، الذي لا يفنى ولا يبديد، ويعرضون أنفسهم لعذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود].

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

وقد جمعت الآية بين الوعد والوعيد، فضلاً عن رفعها لهمم الناس عن حصر اهتمامهم بالدنيا، وقصر نشاطهم عليها.

• التزام العدل والثبات عليه:

ومن المظاهر العملية لتقوى الله تعالى: التمسك بمبدأ العدل في مختلف الشؤون، في الحكم والشهادة والتعامل مع الآخرين، وعدم الانحراف عنه مراعاة لمصالح شخصية وصلات اجتماعية، قال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ
إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ
اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: كونوا مواظبين على العدل،

مجتهدين في إقامته.

فالقَوَامُ بالقسط: المبالغُ في القيام بالعدل في جميع الأحوال.

﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ أي: تقيمون شهادتكم بحقٍ وصدقٍ لوجه الله تعالى.

﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: ولو كانت الشهادة على أنفسكم، كالإقرار بالحق.

﴿أَوْ أَوْلَادِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي: أو كانت على الوالدين والأقربين، فعليكم أن

تتمسكوا بالعدل وتقولوا الحق، ولو على أنفسكم أو على الوالدين والأقربين، فأقيموا الشهادة عليهم لله تعالى.

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: إن يكن المشهودُ عليه غنياً أو

فقيراً، فالله أولى بهما منكم، فكلُّوا أمرهم إلى الله تعالى، فهو أعلمٌ بحالهم منكم، فلا تحابوا غنياً لغناه، ولا ترحموا فقيراً لفقره، واشهدوا بالحق والصدق.

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا هَوَىًٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أي: فلا تتأثروا بهوى أنفسكم فتعدلوا عن الحق

في أداء الشهادة.

﴿وَإِنْ تَلَّوْا﴾ أي: تلووا ألسنتكم إلى غير الحق. فاللِّيُّ: هو التحريف

وتعمد الكذب.

﴿أَوْ تُعْرَضُوا﴾ أي: تعرضوا عن أداء الشهادة بكتمانها، وقد نهى سبحانه

عن كتمانها فقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وختم سبحانه الآية بتهديد الفريقين المحرفين للشهادة والكاتمين لها فقال:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وسيجازيكم عليه.

ففي الآية تربيةٌ وتهذيبٌ للمسلمين، وتعويد لهم على التزام الحق والصدق

في الحكم والشهادة، مهما كانت الأحوال والظروف، ولا يخفى ما فيها أيضاً من صلة بحادثة بني الأبيرق، وتأديب قومهم الذين جادلوا عنهم، وحاولوا دفع التهمة عنهم إلى غيرهم.

• الدوام على الإيمان والثبات عليه:

وكما أمر تعالى المؤمنين بالدوام على مبدأ العدل وقول الحق، في جميع

الأحوال والظروف، أمرهم أيضاً بالثبات على الإيمان، والتمسك بأركانه؛ لأنه الأصل الذي يقوم عليه العدل والحق:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رُسُلِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: اثبتوا على الإيمان بالله، وداوموا عليه.
 ﴿وَرُسُولِهِ﴾ أي: وآمنوا بصدق رسوله محمد عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته .

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رُسُولِهِ﴾ أي: وآمنوا بالقرآن الكريم.
 ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: وآمنوا بكل كتاب أنزله تعالى من قبله كالتوراة والإنجيل .

وأشار قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَى رُسُولِهِ﴾ وقوله: ﴿أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ إلى أن القرآن الكريم نزل مفرقاً منجماً بخلاف الكتب قبله .
 ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهي أركان الإيمان الأساسية، فمن يكفر بواحدة منها:
 ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: ابتعد كثيراً عن الإيمان، فالكفر بواحدة منها كفر بها كلها .

وبعد دعوة المؤمنين للثبات على الإيمان، والتمسك بجميع أركانه، توعدت الآيات المترددين بين الإيمان والكفر بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا ثُمَّ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا﴾ أي: بالإصرار عليه حتى الموت .

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لأنه تعالى لا يغفرُ الكفرَ والشركَ، كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦].

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أي: ولا يهديهم إلى طريق النجاة من العذاب، بسبب تمسكهم بالكفر وإصرارهم عليه.

• تحريم الجلوس في مجالس الكفر والمعاصي:

ولما كان التردد بين الإيمان والكفر شأن المنافقين، أمر الله النبي ﷺ أن يخبرهم بالعذاب الأليم الذي ينتظرهم، بأسلوب التهكم:

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨).

أي: أخبرهم يا محمد، بأن لهم عند الله عذاباً أليماً. ووضع ﴿بَشِّرِ﴾ مكان: أخبر؛ تهكماً بهم.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبِنَعُوهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣٩).

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أنصاراً وأحباباً، ويعرضون عن المؤمنين، مع أنه سبحانه حرّم ذلك في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿يَتَّأَيُّبُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَّوَلَّهُمْ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى أيضاً: ﴿يَتَّأَيُّبُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا أَوْلِيَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ الَّذِينَ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَّوَلَّهُمْ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

﴿أَيْبِنَعُوهُمْ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ﴾ أي: أطلبون العزة والمنعة بموالاتة الكفار؟! وهو سؤال إنكار وتوبيخ.

﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: فإن العزة بمشيئته وقدرته تعالى، يُعزُّ من يشاء،

ويذل من يشاء، صرّح بذلك في آيات كثيرة:

منها قوله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].
وقال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].
وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ إِذًا مَثَلُهُمْ ۗ إِذًا مَثَلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ﴾ فقد كان المشركون يخوضون في ذكر القرآن الكريم في مجالسهم، مستهزئين به، فنهى المؤمنون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه، وأنزل الله في ذلك قوله الكريم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ثم إن اليهود في المدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين، وكان المنافقون يجلسون إليهم، ويخوضون معهم في الاستهزاء بالقرآن الكريم.

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مَثَلُهُمْ﴾ أي: إنكم في الوزر مثلهم؛ لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو إنكم مثلهم في الكفر إن رضيتم بذلك.

قال العلماء: وهذا يدل على أن مَنْ رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكرٍ أو خالط أهله كان بالإثم بمنزلتهم إذا رضي به، وإن لم يباشره^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ لأنهم كانوا يجتمعون على الكفر بآيات الله تعالى والاستهزاء بها.

(١) تفسير الخازن: ١٨٨/٢.

● من صفات المنافقين ومواقفهم:

واستطردت الآيات إلى بيان بعض صفات المنافقين، وبيان مواقفهم من المسلمين، بقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١)

﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ﴾ أي: ينتظرون ما ينزل بكم من خير أو شر. ويدلُّ سياق كلمات الآية على أن المنافقين يترَبَّصون في أثناء الجهاد، وقد تخلَّفوا عنه، منتظرين ما يسفرُّ عنه من نصر المسلمين أو هزيمتهم. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: تحقق لكم نصر من الله تعالى. ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي: ادَّعى المنافقون أنهم كانوا معكم؛ ليشاركوكم في الغنيمة.

﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي: وإن كان للكافرين ظهور على المسلمين. ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قال المنافقون: ألم نتمكن من قتالكم وقتلكم، فأبقينا عليكم ولم نفعل ذلك. والاستحواذ: الاستيلاء والغلبة والتمكُّن.

﴿وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك بتخذيْلهم عن قتالكم، وإفشاء أسرارهم لكم، فأعطونا نصيباً مما غنمتم.

فغاية المنافقين تحقيق المنافع المادية، لا يهتمون بدينٍ أو مبدأ، فهم عبيد الدرهم والدينار، يقفون معه حيث يكون.

وسمى الله ظفر المسلمين فتحاً تعظيماً لشأنهم، بينما سمى ظفر الكافرين نصيباً تخسيساً لحظهم؛ لأنه لحظة من الدنيا يصيبونها^(١).

(١) تفسير النسفي: ١٨٨/٢.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: فالله سبحانه يفصل بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، عندما تُبلى السرائر، وتتكشفت الضمائر، فلا ينتفع المنافقون بما كانوا يتظاهرون به في الدنيا.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: في يوم القيامة، أو في الدنيا بتسليط الكافرين على المؤمنين تسليطاً كاملاً يؤدي إلى استئصالهم، يمكن أن يحصل للكافرين ظهور على المؤمنين في بعض الأحيان، ابتلاءً للمؤمنين وتمحيصاً، ولكن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة.

ويمكن أن ينصرف المعنى إلى الظهور بالحجة والبرهان، والمؤمنون دائماً أعلى حجة وأقوى برهاناً.

وقد يكون المراد: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ما دام المؤمنون متمسكين بدينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فما غلب المسلمون إلا بسبب تفرقهم وتخاذلهم وبعدهم عن أحكام دينهم وشريعتهم.

ويكون قوله تعالى على هذا رداً على المنافقين فيما أمّلوه ورجوه من زوال دولة المؤمنين، وظهور الكافرين عليهم.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤٢).

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أي: بزعمهم وظنهم، ممّا يدل على غباثتهم وجهلهم، فالله سبحانه لا يُخدع؛ لأنه العالم بالسرائر والضمائر.

والخديعة: الحيلة والمكر، وأصل معناها في اللغة: الإخفاء، والمخادع: يُظهرُ ضدَّ ما يُضمر، قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

﴿وَهُوَ خَدِّعُهُمْ﴾ أي: وهو سبحانه يعاملهم معاملة المخادع لهم؛ لأنه يعلم سرائرهم وضمائرهم فيملي لهم استدراجاً وزيادة في ضلالهم وطغيانهم، ثم يخذلهم ويحرمهم من المنافع الدنيوية، التي تعلقت بها نفوسهم، فلا يجدون إلا الحسرة والألم، ويحشرهم يوم القيامة مع المؤمنين في أول الأمر، ثم يعزلهم عنهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُمْ بَاطِنَةٌ فِيهَا الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وبعد أن كشفت الآيات سرائر المنافقين وصفت ظواهرهم وبيّنت مواقفهم: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا﴾ أي: قاموا إليها متثاقلين كارهين؛ لأنهم لا يتذوقون حلاوتها، ولا يشعرون بلذة مناجاة الله تعالى فيها؛ بسبب ظلمة الكفر التي تملأ قلوبهم. ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أي: لا يقومون إلى الصلاة إيماناً واحتساباً، وإنما يقومون إليها رياءً وسمعة.

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يذكرون الله في صلاتهم إلا ذكراً قليلاً بألسنتهم؛ لأنهم في صلاتهم ساهون لاهون. وفي الحديث الشريف: عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ وصف الذي يوحّر الصلاة عن وقتها فقال: «تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» [رواه مسلم (٦٢٢)].

﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿١٤٣﴾.

﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: متحيرين مترددين بين الإيمان والكفر. ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: لا يُعَدُّون من المؤمنين ولا من الكافرين. فالقوم لا هوية لهم ولا مبدأ، مبدؤهم - كما مر - مصالحهم المادية،

يدورون معها حيث تدور، وهذا شأن كثير من الناس في هذا العصر، بسبب حياتهم في ظل الحضارة المادية الغربية، مما يدل على كثرة النفاق وذيوعه بين الناس.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً إلى الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ثم التفتت الآيات إلى المؤمنين، تنهاهم عن التشبه بالمنافقين وموالاته الكافرين:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

أي: أتريدون بموالاته الكفار أن تجعلوا لله عليكم حجة ظاهرة تستحقون بموجبها العذاب، فالله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه باستحقاقه العذاب.

﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي: في أسفل طبقات النار، فهم أشد الناس عذاباً، فاحذروا أن تكونوا مثلهم وتشبهوا بهم.

﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخرجهم من العذاب أو يدفعه عنهم.

ثم فتحت الآيات للمنافقين باب التوبة؛ حثاً لهم على ترك النفاق:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: عن النفاق.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أي: ما أفسدوا من نياتهم وأعمالهم في أثناء نفاقهم.

﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: تمسكوا بدينه تعالى، ووثقوا به جَلَّ جَلَالُهُ وحده.

﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي: جعلوا طاعتهم وعبادتهم لله تعالى وحده، خالصة عن كل رياء وشرك.

﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في عداد المؤمنين في الدنيا والآخرة.
 ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعثهم جميعاً، المؤمنين في الأصل والتائبين عن النفاق.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١٤٧).

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ أي: الله سبحانه غني عن تعذيبكم، فعذابكم منوط بكفركم وجوداً وعدمياً، فإذا ما زال عنكم الكفر، وحلَّ محله الإيمان والشكر، انتفى عنكم العذاب.

﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ أي: يرضى بالقليل من أعمال عباده، ويجزي عليها الثواب الجزيل.

﴿عَلِيمًا﴾ بأحوالهم وحقائق أعمالهم.

• التشهير بالظالمين وفضحهم:

ومن الوسائل التي شرعها الله تعالى للمظلومين، لدفع الظلم عنهم، وتحصيل حقوقهم: التشهير بالظالمين، وفضحهم بين الناس، وقد أثبتت الوقائع جدوى هذه الوسيلة في ردع الظالمين عن ظلمهم، وخاصةً في العصر الحاضر، بعد أن أصبح لوسائل الإعلام تأثيرٌ قوي على الناس؛ ولهذا نرى الطغاة المستبدين، عندما يتسلّمون مراكز السلطة، يبادرون إلى تسخير رجال الإعلام ووسائله لخدمة أغراضهم، والتستر على طغيانهم وظلمهم وفسادهم.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨).

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: لا يحب الله سبحانه إعلان السوء والقول القبيح.

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: إلا جهر من ظلم. وقد يكون الاستثناء منقطعاً، ويكون المعنى: لكنَّ المظلومَ يجوزُ أن يجهر بظلم الظالم.

قال العلماء: لا يجوزُ إظهار أحوال الناس المستورة المكتومة؛ لأنَّ ذلك يصير سبباً لوقوع الناس في الغيبة، ووقوع ذلك الشخص في الريبة، لكن مَنْ ظلمَ يجوز له إظهار ظلمه فيقول: سُرِقَ مني، أو غُصِبَ مني، ونحو ذلك، وإن شتمَ جاز له أن يشتم بمثله، ولا يزيد شيئاً على ذلك^(١).

ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «المستبَّان ما قالا فعلى البادئ، ما لم يعتد المظلوم» [رواه مسلم (٢٥٨٧)].

فالتشهير بالظالمين وفضحهم أمر مشروع في الإسلام، وهو من قبيل الانتصار للمظلومين عليهم، ودفع ظلمهم عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤١) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ (٤٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿[الشورى].

وللمظلوم أيضاً أن يدعوَ على ظالمه، وهو من قبيل الانتصار للمظلوم على الظالم، وذكره بعضهم في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾.

وفي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن: «واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» [رواه البخاري (١٤٩٦)].

وقوله: «حجاب» أي: ليس لها صارف يصرفها ولا مانع. والمراد: أنها مقبولة وإن كان عاصياً.

كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً فنجورُهُ على نفسه» [رواه أحمد (٣٦٧/٢) وإسناده حسن]^(٢).

(١) تفسير الخازن: ١٩٥/٢.

(٢) فتح الباري: ٣/٣٦٠.

ومما يدلُّ على أنَّ التشهير بالظالمين وسيلةٌ ناجعةٌ لكفِّهم عن ظلمهم، الحديث النبوي الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جاره، فقال له: «أذهب فاصبر» فأتاه مرتين أو ثلاثاً، فقال: «أذهب فاطرح متاعك في الطريق» ففعل، فجعل الناسُ يمرُّون ويسألونه، فيخبرهم خبرَ جاره، فجعلوا يلعنونه: فعل الله به وفعل، وبعضهم يدعو عليه، فجاء إليه جاره فقال: ارجع فإنك لن ترى مني شيئاً تكرهه. [رواه أبو داود (٥١٥٣)].

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ أي: يسمع دعاء المظلومين، ويعلم ظلم الظالمين. ومع أنَّه تعالى أعطى المظلومين حقَّ الانتصار من الظالمين، حتَّى المظلومين على العفو عمَّن ظلمهم عند التمكن منهم، فقال:

﴿إِنْ يُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا﴾.

﴿إِنْ يُبَدُّوا خَيْرًا﴾ أي: مكان الجهر بالسوء.

﴿أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ أي: تخفوا الخير فتعملوه سرّاً.

﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: تعفوا عن مَظْلَمَةٍ، وتتركوا التشهير بالظالم

والانتقام منه بعد القدرة عليه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا﴾ أي: إنه تعالى كان ولم يزل ذا عفوٍ عن أصحاب

المعاصي والآثام، مع قدرته على عقابهم، فاعفوا أنتم عمَّن ظلمكم إذا تاب عن ظلمه وكف عنه.

فالانتقام من الظالم عدلٌ، والعفو عنه عند المقدرة عليه فضلٌ وإحسانٌ،

شجَّع عليه تعالى في عدد من الآيات، منها: قوله الكريم: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [التحل: ١٢٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].



الْفَصْلُ السَّابِعُ

عقائد أهل الكتاب

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٨﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ۖ وَأَيْنَمَا مُوسَىٰ سَطَّانًا مُبِينًا ﴿١٥٩﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٦٠﴾ فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِعَائِدَةِ اللَّهِ وَقَلْبِهِمُ الْأُنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦١﴾ وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظُّلَمِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٦٣﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ﴿١٦٤﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۗ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٦٥﴾ فَيُظَلِّمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٦﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْأِطْلَاقِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٧﴾ لَٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ۗ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٨﴾ ﴿١٦٩﴾ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَاللَّيثِيْنَ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ

وَسَلِّينَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١١٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١١٥﴾ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۚ وَالْمَلَكُوتُ لِلَّهِ ۚ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١١٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١١٩﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢٠﴾ يَأْتِيهِمُ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَكَلَّمَتْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ نَلَّهْتُمْ خَيْرًا لَكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ ۚ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٢١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٢٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٢٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ ۖ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٢٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنْ أَمْرُهُمْ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ ۚ وَلَدٌ ۚ وَلَهُ أُخْتٌ ۚ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا ۚ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا ۚ وَلَدٌ ۚ فَإِنْ كَانَتَا أَثْتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ۚ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾ ﴿

• كُفْرُ الْجَاهِلِينَ لِرِسَالَةِ الْإِسْلَامِ:

بعد أن تحدّثت الآيات فيما سلف، عن مواقف أهل الكتاب من النبي ﷺ، ومعارضتهم لدعوته، وبعد أن بيّنت الآفات النفسية الخطيرة التي ابتلوا بها، والتي دفعتهم إلى العدوان على الناس، وانتهاك حرمة حقوقهم، كان من

الضروري أن تكشف عن زيغهم عن الحق، وانحرافهم عن عقيدة التوحيد، التي دعا إليها جميع الأنبياء والمرسلين.

ولعلَّ سببَ تأخير هذا الحديث المتعلق بعقائد أهل الكتاب إلى ختام السورة تقريباً، ليأتي في مقابل ما سبق من الحديث عن الإيمان وحقيقته وأركانه، وعن الإسلام لله تعالى والانقياد لأحكام دينه وشرعه، وعن الطاعة الكاملة لرسول الله ﷺ، والتمسك بسنته، وعن وصية الله الخالدة لجميع الأنبياء والمرسلين، بالتمسك بالتقوى، والتمسك بمبدأ العدل واحترام حقوق الناس.

فإذا ما أتى بعد ذلك الحديث عن عقائد أهل الكتاب، تمَّ التقابل وظهرت معالم الطريق الحقيقي الذي يجب على جميع الناس أن يسيروا عليه، والذي تُصان لهم به كرامتهم وحقوقهم.

أبرزت الآيات في مستهل عرضها لعقائد أهل الكتاب، تفريقهم للإيمان بين الرسل، فهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، مع أن الرسل جميعاً قد دعوا إلى توحيد الحق سبحانه وعبادته وحده، والاستسلام لأحكام شرعه، والكفر ببعض الرسل كفر بهم جميعاً، والإيمان بهم جميعاً ركنٌ أساسٌ من أركان الإيمان كما تقدّم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: بحسب ما تقتضيه آراؤهم، وتؤدّي إليه مذاهبهم.

﴿وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ أي: نؤمن ببعض الأنبياء والرسل ونكفر ببعضهم، وهذا هو سبب كفرهم بالله تعالى ورسوله.

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: يريدون أن يتخذوا طريقاً وسطاً

بين الإيمان والكفر، ولا توسط في ذلك، والحقُّ كلُّ لا يتجزأ، والإيمان بالله تعالى لا يتم إلا بالإيمان بجميع رسله .

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ .

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أي: أولئك المفرقون بين الله ورسله في الإيمان، هم الكافرون كفرةً محققاً، وهو ما فعله أهل الكتاب من اليهود والنصارى، صدق اليهود بموسى والأنبياء، وكفروا بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وصدق النصارى بعيسى والأنبياء، وكفروا بمحمد ﷺ .

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: يُهانون فيه ويُذلون .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَكَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَكَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لم يفرقوا في الإيمان بينهم، بل آمنوا بهم جميعاً، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ أَحَدٌ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ففي الآية ترغيبٌ لأهل الكتاب بالإيمان برسالة محمد ﷺ، خاتمة الرسالات، فإذا آمنوا بها غفر الله لهم ما سلف منهم في حال كفرهم، وأعطاهم أجوراً مضاعفة .

● جحود وعناد:

ثم شرعت الآيات تعدد بإيجاز مواقف الجحود والعناد التي وقفها أهل الكتاب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فبدأت بموقف لهم من خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ .

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: يسألك يا محمد أهل الكتاب، وهم أحرار اليهود، جاؤوا إلى الرسول ﷺ، وطلبوا منه أن ينزل الله عليهم كتاباً مكتوباً من السماء، كما نزل التوراة على موسى .

فردَّ الله تعالى عليهم، مبيناً أن سؤالهم هذا سؤال تعنتٍ وجحودٍ وعنادٍ، لا سؤال إيمان وتصديق، فقال:

﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: فقد سأل أسلافهم موسى سؤالاً أكبر عناداً وجحوداً وتعنتاً .

﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً .

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: بسبب ظلمهم، وهو تعنتهم، وسؤالهم أمراً في غير موضعه، فقد اختارهم موسى ليذهبوا معه إلى موضع مناجاته ربه، لكي يستغفروا الله عن عبادة العجل، كما مرَّ تفصيل قصتهم في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة].

﴿ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: وأعظم من ذلك شناعة وقبحاً، عبادتهم العجل الذهبي، بعد المعجزات الكثيرة التي أجراها الله تعالى لهم على يد موسى ﷺ .

﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ أي: تجاوزنا عن كل ذلك تفضلاً منا وإحساناً .

﴿وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حجة ظاهرة على من خالفه .

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ
وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمُ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ .

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ أي: ورفعنا فوقهم جبل الطور؛ تهديداً لهم
عندما رفضوا إعطاء العهد والميثاق على العمل بأحكام التوراة والتمسك بها .

وقد ذكر الله تعالى ذلك في عدد من الآيات الكريمة:

كقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣] .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَقَّانَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١] .

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوا باب القرية التي أذن الله لهم
بدخولها دخول الخاضعين له تعالى .

فخالفوا أمره، كما أخبر سبحانه عنهم في قوله الكريم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ
الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَارِعُوا إِلَى الدُّعْوَىٰ فَادْخُلُوا مِنْ أَلْيَسِ الْأَبْوَابِ فَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨] .

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي: لا تتجاوزوا أمره تعالى في يوم السبت .

فخالف بعضهم أمره، واحتالوا على شرعه، وأخبر سبحانه عن ذلك في
قوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آعَدْنَا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قَوَدَةً حَسِبِينَ ﴿٣٥﴾
فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمُ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي: أخذ سبحانه منهم عهداً مؤكداً شديداً لكي

يلتزموا أمره وشرعه. فكانت نتيجة ذلك كله:

● كفر متوارث:

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بَيَّانَتْ اللَّهُ وَقَلِيلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥).

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ﴾ أي: غضبنا عليهم ولعنناهم وفعلنا بهم ما فعلنا بسبب نقضهم ميثاقهم.

﴿وَكُفْرِهِمْ بَيَّانَتْ اللَّهُ﴾ أي: وبسبب كفرهم بآيات الله تعالى التي أنزلها عليهم في التوراة.

﴿وَقَلِيلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بَغَيْرِ حَقٍّ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام.

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: قلوبنا محجوبة عن دعوتك ورسالتك؛ وهو ما قالوه لخاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، عندما دعاهم إلى الإسلام، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

وقال تعالى هنا في معرض الرد عليهم:

﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بل ختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم وعنادهم.

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: فلا يؤمن منهم إلا عددٌ قليل، استجابوا لدعوة الإسلام، كعبد الله بن سلام، وزيد بن سُعنة.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦).

﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي: وبسبب كفرهم في أمر عيسى عليه السلام.

وتأمل كم مرة وُصِفوا بالكفر، فكفرهم متوالٍ عليهم، ومتعاقبٌ تعاقبَ أجيالهم، فهو كفر عريق متوارث فيهم، ينتقل من السلف إلى الخلف.

﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ أي: وافترائهم على مريم فرية عظيمة، فقد

اتهموها زوراً وكذباً بالزنى، عندما قالوا لها: ﴿يَتَّخَذَتْ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨].

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [١٥٧].

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: وبسبب ادّعاءهم الكاذب أنهم قتلوا عيسى ابن مريم رسول الله، وجاء وصفهم له بالرسالة على سبيل الاستهزاء واللعنات.

ونفى سبحانه ادّعاءهم الكاذب هذا نفياً قاطعاً، بعد أن حكاه عنهم مباشرة، فقال:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: اشتبه عليهم أمره ﷺ، فأخذوا غيره، فقتلوه، أما عيسى ﷺ فرفعه تعالى إلى السماء، كما ذكر تعالى في قوله الكريم: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ خُذْ إِلَيْنَا مَا تُخَبِّرُ كَرِيمًا الَّذِي اتَّبَعَتْكُمْ فَوْقَ السَّمَاءِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [١٥٥].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: اختلفوا في شأن عيسى ﷺ.

﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي: لفي تردد وحيرة.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعُ الظَّنِّ﴾ أي: ليس لهم علمٌ بحقيقة ما حدث لعيسى ﷺ، لكنهم يتبعون الظن.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: وما قتلوه قتلاً يقيناً كما زعموا بقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [١٥٨].

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: بل الحقيقة أن الله تعالى رفعه إليه، ونجّاه من

مكرهم وكيدهم، فهو حيٌّ في السماء، وسينزل قُبيل قيام الساعة، فيقتلُ الدجالَ، ويكسرُ الصليبَ، كما سيأتي في الحديث الشريف الصحيح.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: وكان الله ولا يزال قوياً لا يُغلبُ، حكيماً في كلِّ ما قدَّر وشرع^(١).

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: وما من أحد من أهل الكتاب.

﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام الإيمان الصحيح بأنه

عبد الله ورسوله قبل موت عيسى عليه السلام، بعد نزوله إلى الأرض.

فالمراد: أهل الكتاب الموجودون في زمن نزول عيسى إلى الأرض.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد: عموم أهل الكتاب، وردوا الضمير

إلى الكتابي عندما يموت، وهذا الإيمان لا ينفعه، لأنَّه جاء متأخراً عند اليأس من الحياة.

لكنَّ الأحاديث الشريفة الصحيحة، التي بلغت مبلغ التواتر، والتي تحدّثت

عن نزول عيسى قُبيلَ قيام الساعة إلى الأرض، تقوّي الرأي الأول:

منها: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده

ليوشكنَّ أن ينزلَ فيكم ابنُ مريمَ حكماً عدلاً، فيكسرُ الصليبَ، ويقتلُ الخنزيرَ،

ويضعُ الحربَ - وفي رواية: الجزية - ويفيضُ المالَ حتى لا يقبله أحدٌ، حتى

تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن

شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

[رواه البخاري (٣٤٤٨)].

وهذا مصيرٌ من أبي هريرة رضي الله عنه إلى أن الضمير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

بِهِ ﴿ وَكَذًا فِي قَوْلِهِ: ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يَعُودُ عَلَى عَيْسَى، أَي: إِلا لِيُؤْمَنَنَّ بِعَيْسَى قَبْلَ مَوْتِ عَيْسَى، وَبِهَذَا جَزَمَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ عَنْهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، وَمِنْ طَرِيقِ أَبِي رَجَاءٍ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَبْلَ مَوْتِ عَيْسَى، وَاللَّهُ إِنَّهُ الْآنَ لِحَيٍّ، وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ آمَنُوا بِهِ أَجْمَعُونَ، وَنَقَلَهُ عَنْ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَرَجَّحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ (١).

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أَي: شَهِيدًا عَلَى أَنَّهُ بَلَّغَهُمْ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَأَقْرَبَ بِالْعِبُودِيَّةِ عَلَى نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة].

• عدوان أهل الكتاب على حقوق الناس:

وكما اعتدى اليهود من أهل الكتاب على الأنبياء، فقتلوا بعضهم، وافتروا على بعضهم، فاتهموهم بتهمة كاذبة باطلة، كذلك اعتدوا على كثير من الناس، فبعغوا عليهم، وظلموهم، وأكلوا حقوقهم، وهو ما أخبر عنه تعالى بقوله:

﴿ فَيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيبَاتٍ أُحْلَتْ لَهُمْ وَبِصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ .

﴿ فَيُظَلِّمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيبَاتٍ أُحْلَتْ لَهُمْ ﴾ أَي: بِسَبَبِ الظُّلْمِ الَّذِي فَعَلَهُ الْيَهُودُ حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَعْضَ الطَّبِيبَاتِ الَّتِي كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَةِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ سُحُومَهُمَا إِلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْضِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿ وَبِصَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ أَي: وَبِسَبَبِ مَنَعِهِمْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنِ

الإيمان بالله تعالى، والاستجابة لدعوة رسله، وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه، ووقائع التاريخ شواهد عليها.

﴿وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: وبسبب أكلهم الربا مستحلين له، وقد حرّمه تعالى عليهم، فهم الذين ابتدعوا هذه النظم الاقتصادية القائمة على الربا، والتي يتمكنون بها من امتصاص خيرات الأمم والشعوب في جنات الأرض.

﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: وبسبب عدوانهم على أموال الناس، وأكلهم لها بالطرق المحرّمة، كالرشوة والغش والقمار والغصب.

لهذه الأسباب كلّها شدّد الله تعالى عليهم في الدنيا، وحرّم عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالاً لهم.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

ثم استثنى تعالى المؤمنين منهم، كعبد الله بن سلام وأصحابه، فقال:

﴿لٰكِنَ الرّٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلٰوةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿لٰكِنَ الرّٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أي: الثابتون في العلم المتمكّنون فيه، أو الذين يعملون بعلمهم، ولما علموا من صفات النبي ﷺ ما أوصلهم إلى الإيمان به، والتصديق برسالته، آمنوا وصدقوا.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وعامة المؤمنين من المهاجرين والأنصار.

﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فلا يفرّقون في الإيمان بين نبي ونبي،

ولا بين كتاب وكتاب.

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ أي: وأمدح المقيمين الصلاة، ونُصِبَتْ على الاختصاص والمدح؛ إبرازاً لفضيلة إقامة الصلاة.

﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي: المؤدُّون الزكاة المفروضة عليهم.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: المؤمنون بالإيمان الصحيح بأن الله هو الواحد الأحد، المنزه عن الشريك والصاحبة والولد، ويصدقون باليوم الآخر وما فيه من مسؤولية وجزاء.

﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم قدره إلا الله تعالى المتفضل به، ويلاحظ كيف أنّ الآية الكريمة أبرزت حقيقة الإسلام الكامل بوجهيه اللذين لا ينفصلان عن بعضهما، وهما: التصديق القلبي، والانقياد العملي.

• الوحي والنبوة:

وردّاً على أهل الكتاب المنكرين لصحة رسالة نبينا ﷺ وصدق نبوته قال تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ كهود وصالح وشعيب ﷺ، فظاهرة الوحي إلى جميع الأنبياء واحدة، لا خلاف فيها، تقوم بين ذاتين، ذات علوية أمرة ملقية، وذات ضعيفة مأمورة متلقية.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ وهم الأنبياء الذين أوحى الله إليهم من قبائل بني إسرائيل.

﴿وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وهو الكتاب المنزل على داود ﷺ.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٦٤).

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: سميناهم لك، وأخبرناك بخبرهم من قبل نزول هذه الآيات، كآدم وزكريا ويحيى وإدريس وإلياس ولوط واليسع وذو الكفل، عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي: لم نذكرهم لك، ولم نقص عليك شيئاً من أخبارهم، فلا يعلمهم إلا الله تعالى، لكنه سبحانه نوه بذكرهم، وأخبر في عدة آيات أن أنبياءه ورسله إلى جميع الأمم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقوله أيضاً: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

فالنبوات والرسالات تتابعت على البشر منذ فجر وجودهم، وأولهم آدم ﷺ، وآخرهم وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ، وتوقف الوحي وفتر بينه وبين عيسى ﷺ تمهيداً لبعثته، كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

وانقطع الوحي، وختمت النبوة بوفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلا نبي بعده أبداً، كما أخبر عليه الصلاة والسلام في عدد من الأحاديث الشريفة الصحيحة، وأكد ذلك الله سبحانه بصريح قوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

﴿وَكََلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أي: خاطبه تعالى من وراء حجاب وأسمعه كلامه بلا واسطة.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٦٥).

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي: أرسل

الله تعالى الرسل يبشرون الناسَ بفضله ورحمته، وينذرونهم من عقابه وأليم عذابه؛ إزاحة لعذرهم، لثلا يقولوا يوم القيامة: لولا أرسلت إلينا رسولاً بيِّن لنا شريعتك وعبادتك وطاعتك، فلقد تمَّت حجةُ الله على المكلفين من خلقه ببعثة الرسل وإنزال الكتب، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فما أرسلَ الرسلَ، وأنزَلَ الكتبَ إلاَّ بمحض إرادته ومشيئته وحكمته جل وعلا.

● الشهادة الأزلية الخالدة:

إنكار أهل الكتاب لنبوة خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ، وجحودهم لرسالته: عدوان كبير على أعظم وأقدس حقوقه عليه الصلاة والسلام، فهو اتهام له بالكذب على الله تعالى، وهو أقبح أنواع البهتان، ولهذا ردَّ الله جل وعلا عليهم أبلغ رد، فأعلن شهادته الأزلية الخالدة بصدق رسالته عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته، فقال:

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١٦٦).

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي: من القرآن الكريم المعجز.

﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي: أنزله وهو سبحانه عالم بمن ينزله عليه، فهو العليم الحكيم المحيط بأحوال خلقه، يعلم أين يجعلُ رسالته، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ أي: والملائكة يشهدون أيضاً بصدق رسالتك وصحة

نبوتك.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: وحسبك يا محمد شهادة الله تعالى، وإن لم يشهد معه غيره، فشهادته أعلى وأعظم من كل شهادة، وتغنيك عن غيرها.

فسيدنا محمد ﷺ خيرته سبحانه من خلقه، وصفوته من عباده، اختاره بعلمه وحكمته، ليحمل للناس أعظم رسالة وأكملها وأتمها، ويختتم به وحيه المنزل على خلقه. فالويل كل الويل لمن ينكر نبوته عليه الصلاة والسلام ولا يؤمن برسالته، بعد أن شهد الله تعالى له هذه الشهادة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا﴾ ﴿١٦٧﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: كفروا برسالته ﷺ وجحدوا نبوته.

﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ومنعوا الناس عن سبيل الحق، وهو الإسلام، رسالة خاتم الأنبياء ﷺ.

﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا﴾ فهم الضالون المضلون، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿لَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿١٦٨﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ أي: ظلموا سيدنا محمداً ﷺ، بإنكار رسالته وجحد نبوته.

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: إن أصروا على كفرهم وظلمهم، إذ ينطبق عليهم قوله تعالى المتقدم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وذلك بسبب عنادهم وجحودهم وإصرارهم على ظلمهم.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: خلودهم أبداً في النار يسير عليه تعالى غير عسير.

وبعد أن بيّنت الآيات الشهادة الربّانية الخالدة، على صحة رسالة النبي ﷺ وصدق نبوته، وجّهت الدعوة إلى كلّ الناس للإيمان به:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧).

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: جاءكم الرسول الخاتم ﷺ بالدين الحق الثابت، الذي لا يقبل الله سبحانه غيره.

﴿فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي: فآمنوا برسالته، وأذعنوا لدعوته، خيراً لكم في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ أي: تصروا على الكفر وتعرضوا عن قبول دعوته.

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: فإنه سبحانه غني عنكم، لأنه مالك السموات والأرض. ونظيره قوله تعالى الذي مرّ: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

فما أرسل الله لكم هذا الرسول، وأنزل عليكم هذا الكتاب إلا رحمةً بكم، إذ هو عليمٌ بأحوالكم، وبما يصلح لكم، ويسعدكم في الدنيا والآخرة:

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

• حقيقة عيسى ﷺ:

ثم وجه سبحانه دعوة خاصة إلى النصارى من أهل الكتاب، بين لهم فيها حقيقة عيسى ﷺ وعبوديته لله ﷻ، كما بين لهم ضلالهم عن الحق، وكشف لهم سبب هذا الضلال، ثم دعاهم إلى الإيمان برسالة النبي الخاتم ﷺ، رسالة الإسلام، فقال:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ .

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: لا تتجاوزوا الحد في أمر عيسى فترفعوه فوق عبوديته لله تعالى .

والغلو: مجاوزة الحد، وهو سبب انحراف النصارى عن الحق .

﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: لا تفتروا على الله تعالى وتصفوه بصفات لا تليق بكماله ووحدانيته، فهو سبحانه منزّه عن صاحبة والولد والشريك .

ولهذا كان النبي ﷺ يقول لأصحابه: « لا تُظَرُونِي كما أَظَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » [رواه البخاري (٣٤٤٥)] .

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: إنّما هو عبد الله تعالى ورسول، شأنه كشأن بقية الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] .

﴿وَكَالِمَتُهُ﴾ أي: وهو أيضاً كلمة الله تعالى، لأنّه تعالى خلقه بالكلمة التكوينية (كن) فكان، كما مرّ آنفاً، وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] .

﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي: خلقها في مريم، وأوصلها إليها، كما قال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦] .

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي: وهو أيضاً روح من أمر الله تعالى ومن خلقه ومن عنده .

ف (من) ليست للتبعض، بل هي بيانية، كما في قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] (١).

وأضيفت الروح إلى الله تعالى على وجه الاختصاص، لأنها مما استأثر تعالى بعلمها، كما قال سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

أو أضيفت على وجه التشريف، كنافقة الله وبيت الله، وقد أضاف سبحانه روح آدم إليه أيضاً في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: فصدقوا بأن الله واحدٌ أحدٌ، لا شريك له ولا ولد، وآمنوا برسله، وكلهم دعوا إلى عبادته تعالى وحده، وكلهم عبيد له، اختارهم تعالى لحمل رسالته إلى خلقه.

﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أي: لا تقولوا بالثلاث، فتجعلوا عيسى وأمه شريكين لله تعالى في صفات الألوهية، فهي عقيدة باطلة مكفرة، حكم سبحانه على قائلها بالكفر فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَمَنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ وَجِدُّ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

ووصف سبحانه المسيح وأمه بقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمَّهُ مَرْيَمُ وَكَانَا نَاصِرِينَ﴾ [المائدة: ٧٥].

﴿أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي: اتركوا هذه الأقوال الفاسدة الباطلة يكن خيراً لكم. ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَجِدُّ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: تعالى وتقدس عن ذلك وتنزه.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خلقاً وملكاً وتدبيراً، فهو سبحانه غني عن الولد والشريك.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٦٨/١.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ومدبراً، فهو سبحانه قائم على جميع مخلوقاته، فلا يحتاج إلى غيره، وكلهم محتاجون إليه جل وعلا.

• اعتزاز عيسى بعبوديته لله تعالى:

ثُمَّ بَيَّنَّتِ الْآيَاتُ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْتَزُّ بِعَبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ عَلَّامٌ، وَيَتَمَسَّكُ بِهَا وَلَا يَأْبَاهَا:

﴿لَنْ يَسْتَنْكَفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكَفْ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَسَتَكِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)﴾.

﴿لَنْ يَسْتَنْكَفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ أي: لن يأنف عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن عبوديته لله تعالى، ولن يتركها ويتخلى عنها أو يتنحى عنها.
وأصل معنى يستنكف: من نكفت الشيء إذا نحيت، ونكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك عن خدك.

﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: وكذلك الملائكة المقربون، فإنهم مع علو منزلتهم وكرامتهم، لن يستنكفوا عن عبوديتهم لله تعالى وخضوعهم له عَلَّامٌ.
﴿وَمَنْ يَسْتَنْكَفْ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَسَتَكِرْ﴾ أي: ومن يمتنع عن عبادته تعالى، ويستكبر من جميع خلقه.

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي: سيجمعهم يوم القيامة، فيحاسبهم ويجازيهم.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهم الذين عبدوه سبحانه وحده، وأذعنوا لأمره ومشيتته، وتمسكوا بشرعه واتبعوا رسله.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بما أعد لهم في الجنة من النعيم المقيم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: وأما الذين لم يذعنوا لأمره، ولم ينقادوا لدينه وشرعه.

﴿فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

• برهان ونور:

بهذا البيان الواضح ظهرت معالم الحق، وأشرقت أنواره، وتميّزت تميّزاً ظاهراً عن الضلال، من دون أدنى غموض أو لبس، وأنّ للآيات الكريمة أن توجه نداءها مرّة ثانية إلى جميع الناس، كما فعلت في أول السورة ومطلعها:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (١٧٤).

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: قد جاءكم في هذه السورة وفي غيرها من سور القرآن الكريم، برهان واضح جلي من ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ورباكم، فدلّكم على العقيدة الصحيحة والمنهج القويم.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ أي: وأنزلنا إليكم أيضاً نوراً موضحاً.

وهي الأحكام التي شرعها الحق لكم، والتي تبيّن لكل إنسان حقوقه وواجباته، فإذا ما التزمتم بهذه الأحكام وتمسّكتم بها في جميع شؤون حياتكم، حفظت لكل إنسان حقوقه كاملة، فلا يعتدي أحدٌ على أحدٍ، ولا يظلم أحدٌ غيره، فالنور قوي واضح، يميز بين الحقوق، ويعرف بالواجبات.

ودين الله وشريعته هو النور، والإعراض عنه ظلّمة وحيّرة وعدوان وخذلان:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُخِّدْ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنَّةٍ وَفَضْلِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ

صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (١٧٥).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: تمسّكوا بدينه وشرعه.

﴿فَسُدِّدْ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنَّةٍ وَفَضْلِ﴾ أي: ببركة تمسكهم بدينه وشرعه ينزل عليهم الرحمات، ويبارك لهم في الخيرات، فيعيشون في سعة ورخاء وسلام.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ أي: ويدلّهم على الطريق الذي يوصلهم إلى رحمته وجنته ورضوانه، وهو الصراط المستقيم، طريق الإسلام لله تعالى وحده، والاستسلام لأمره وشرعه، الطريق الذي يتوجه المؤمنون إلى الله تعالى في كل صلاة، يسألونه بضراعة أن يثبتهم عليه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

• حقوق الله تعالى وحقوق الإنسان:

فحقُّ الله على عباده أن يعبدوه وحده، ويتمسكوا بدينه وشرعه، وحقُّ العباد على الله تعالى أن يتفضّل عليهم برحمته وهدايته وجنته.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «هل تدري ما حقُّ الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حقَّ الله على العباد: أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئاً»، ثم قال: «هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أن لا يُعذّبهم» [رواه مسلم (٣٠)].

وتبرز من خلال طاعة الناس لله تعالى وعبادتهم له وحده حقوق الإنسان على أخيه الإنسان، فهي في الحقيقة حقوق لله تعالى، لأنه هو الذي قررها للإنسان وشرعها له، وقد أخرج تعالى الآية الثالثة من آيات المواريث، التي يقرُّ فيها حق الإخوة الأشقاء في الميراث إلى آخر سورة النساء، فختم بها السورة، بعد أن قرر في سباقها حقوقه تعالى على عباده، وحق عباده الذي تفضّل به عليهم، وأفاد بذلك أن حقوق الإنسان في الإسلام من حقوق الله تعالى على عباده، فالالتزام بها والمحافظة عليها عبادة وطاعة لله تعالى.

وفي الحديث الشريف: عن جابر رضي الله عنه: دخل عليّ النبي ﷺ وأنا مريض، فدعا بوضوء، فتوضّأ، ثم نضح عليّ من وضوئه، فأفقت فقلت: يا رسول الله، إنّما لي أخوات. فنزلت آية الفرائض. [رواه البخاري (٦٧٤٣)].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ .

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يسألونك أن تفتيهم.

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وهو من لا ولد له ولا والد.

﴿إِنْ أَمْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: وليس له والد.

فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر، لأن السؤال في الفتيا كان عن الكلاله، والمراد من الولد الذكر والأنثى.

﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ أي: له أخت شقيقة من أبيه وأمه، أو من أبيه.

﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: لها نصف ما ترك الميت من المال.

﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أي: والأخ يرث الأخت، ويأخذ جميع مالها، إن قُدِّرَ الأمرُ على العكس، بأن ماتت هي، وبقي أخوها بعدها، وليس لها ولد ذكراً كان أو أنثى.

﴿إِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: فإن كانت الأختان اثنتين، فلهما الثلثان مما ترك الميت.

﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: فللذكر منهم نصيب ثنتين من أخواته.

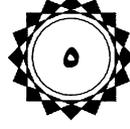
﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي: يبين الله لكم هذه الأحكام، لئلا تضلوا، فهي بمثابة النور الكاشف، الذي يبين لكم الصراط المستقيم الذي يحفظكم من الضلال.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو سبحانه يعلم ما يصلحكم ويحفظ لكم حقوقكم

ويسعدكم في الدنيا والآخرة، فالتزموا بأحكام شرعه، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين، وسلم تسليماً كثيراً.





تفسير سورة المائدة الحلال والحرام في سورة المائدة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَاتِلَةِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن معرفة ما أحلَّ الله تعالى للناس وما حرَّم عليهم في الشريعة الإسلامية؛ التي هي خاتمة الشرائع الإلهية من أوجب الواجبات، وأهم الضرورات، فلا تستقيم حياة الإنسان إلا إذا أقامها على هدي الدين الحنيف، المستمد من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ.

وإن لتشريع الحلال والحرام في الإسلام التصاقاً قوياً بحياة الإنسان العملية، في عبادته، وطعامه، وشرابه، وملبسه، ونكاحه، ومعاملاته، وأخلاقه، وسلوكه، وسائر شؤونه.

وموضوع سورة المائدة يظهر للمتأمل في أول آياتها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾.

ومن المعلوم أنه ما من آية في القرآن الكريم ابتدأت بثناء الله سبحانه عباده

المؤمنين بصفة الإيمان ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلا بين الله تعالى فيها بعض أحكام دينه ومعالم شريعته .

قرر هذه الحقيقة الصحابيُّ الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عندما جاءه رجلٌ فقال: اعهدْ إليَّ (أي: أوصني) فقال له: إذا سمعتَ الله يقولُ: ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَرْعَهَا سَمْعَكَ، فإنه خيرٌ يأمرُ به، أو شرٌّ ينهى عنه ^(١).

وفي القرآن الكريم ثمانٍ وثمانون آية صُدِّرت بهذا النداء: ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا﴾، منها ستُّ عشرة آية في سورة المائدة؛ وهي:

- ١ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [١].
- ٢ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [٢].
- ٣ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ [٦].
- ٤ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ [٨].
- ٥ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [١١].
- ٦ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [٣٥].
- ٧ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [٥١].
- ٨ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ [٥٤].
- ٩ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا﴾ [٥٧].
- ١٠ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [٨٧].
- ١١ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [٩٠].
- ١٢ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيْسَلَوْكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ [٩٤].
- ١٣ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [٩٥].
- ١٤ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّلَ لَكُمْ نَسُوكُمْ﴾ [١٠١].
- ١٥ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [١٠٥].
- ١٦ - ﴿يَتَّأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ﴾ [١٠٦].

والجدير بالذكر أن الله تعالى لم يذكر في أي سورة من سور القرآن الكريم مثل هذا العدد من الآيات الكريمة المصدّرة بهذا النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ فسورة البقرة - وهي أطول سور القرآن الكريم - فيها عشر آيات فقط مفتحة بهذا النداء.

فافتتاح سورة المائدة بقوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾ وتضمّن السورة هذا العدد الكبير من الآيات الكريمة المصدّرة بهذا النداء الإلهي العُلويّ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يدلُّ على موضوع السورة الأساس، وهو التشريعُ المتعلّق بالحلال والحرام، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها في سورة المائدة: «إنّها من آخر ما أنزل الله، فما وجدتم فيها من حلالٍ فأجلّوه، وما وجدتم فيها من حرامٍ فحرّموه»^(١).

ولو تدبّرنا هذه الآيات الكريمة المصدّرة بهذا النداء، وموقع كل آية منها بين آيات سورة المائدة الأخرى، لرأينا أنّ جميع آيات سورة المائدة تدور في فلك هذه الآيات الستّ عشرة التي تبين وتشرّع أحكاماً كثيرة، أبرزها يتصل بموضوع الحلال والحرام في الطعام والشراب والصيد والذبائح، وهذا يتناسب تماماً مع اسم السورة «المائدة»، وبعضها يتعلّق بالنكاح والأسرة، وبعضها يتصلّ بالعبادات كالصلاة والحج، وبعضها بالأيمان والكفّارات، وبعضها بالعقوبات كالقصاص والحدود، وبعضها يتصل بموضوع الحُكم والقضاء والشهادات وإقامة العدل بين أفراد المجتمع من جهة، وبين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الإنسانية الأخرى من جهة ثانية، كما تبين كيف ينبغي أن تكون علاقة المسلمين بغيرهم من أصحاب الملل والنحل وخاصة اليهود والنصارى.

وتركز آيات سورة المائدة من خلال هذا الحشد الكبير من الأحكام على بيان أنّ الله تعالى هو وحده الإله المستحق للعبادة والطاعة، فهو سبحانه وحده الخالق والمالك والمدبّر لأمر خلقه، فالتشريعُ عموماً، والتحليل والتحريم

(١) الجامع لأحكام القرآن (المشهور بتفسير القرطبي): ٢١/٦.

خصوصاً، له سبحانه وحده، قال ﷺ في ختام الآية الأولى في سورة المائدة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

وبما أن المسلمين هم وحدهم الملتزمون بتطبيق شرع الله تعالى، والوقوف عند حدود ما أحلَّ الله تعالى لهم، وما حرَّم عليهم، لأنهم آمنوا بالله الواحد الأحد، وصدّقوا برسالاته، التي كلّفهم بها، اتجهت آيات سورة المائدة تناديهم بهذا النداء العُلوي الكريم بكلِّ ما فيه من تكريم لهم وتشريف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

فلنلقِ أسمعنا وأبصارنا لهذا النداء الإلهي الكريم، ولنفتح له قلوبنا وعقولنا حتّى يفيضَ الله تبارك وتعالى علينا من أنوار التنزيل الحكيم، ويمنَّ علينا بفهم بعض معاني آياته، والوقوف على بعض ما فيها من حكَم وأحكام. سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وقد قسّمت هذا البحث في تفسير هذه السورة إلى ستّة عشر جزءاً، بعدد النداءات الستّ عشرة التي وردت في السورة من الله تعالى للمؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ورأيت أن هذه النداءات الإلهية للمؤمنين هي المحور الأساس لآيات السورة كلّها. ولهذا جعلت بحثي في موضوع سورة المائدة تبعاً لهذه الآيات الكريمة.

وعنونتُ هذه النداءات بالعناوين التالية:

- ١ - الأمر بالوفاء بالعقود.
- ٢ - الأمر بأكل الطيّبات واجتناب الخبائث.
- ٣ - الأمر بالطهارة.
- ٤ - الأمر بالعدل.
- ٥ - التحذير من نقض الميثاق وذكر نعمة الله.
- ٦ - الأمر بالتقوى والتحذير من اتباع الهوى.
- ٧ - التحذير من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء.
- ٨ - التحذير من الرّدة وعاقبتها.

- ٩ - التحذير من قبائح أهل الكتاب والكفار.
 - ١٠ - النهي عن تحريم الطيبات.
 - ١١ - الأمر باجتنب الخمر والميسر نهائياً.
 - ١٢ - الأمر بالانقياد لأمر الله في شرعه.
 - ١٣ - التحذير من قتل الصيد عند الإحرام وفي الحرم.
 - ١٤ - التحذير من كثرة السؤال.
 - ١٥ - الأمر بإصلاح النفس والتحذير من المفسدين.
 - ١٦ - الأمر بصيانة مال المسلم وتنفيذ وصيته.
- فإن وقَّفت في توضيح موضوع السورة وتمكَّنت من إبراز الوحدة الموضوعية لها فبفضل من الله سبحانه ومعونته، فله الحمد أولاً وآخراً، وإن أخطأت فبسبب قصوري وضعفي، وأستغفر الله العظيم، وأسأله سبحانه أن يغفر لي ذنوبي ويستر عيوبي، ويقبل هذا الكتاب ويجعله نبراس خير ورشاد للمسلمين.
- وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.





النجاء الأول

الأمر بالوفاء بالعقود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي

الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ مُّؤْتَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

افتتح الله تعالى سورة المائدة بهذه الآية الكريمة، وذكر فيها الموضوعات الأساس التالية: الوفاء بالعقود، تحليل بهيمة الأنعام، استثناء ما يحرم منها بسبب بعض العوارض، إباحة الصيد لغير المحرم، وخارج أرض الحرم، التشريع والحاكمة لله سبحانه وحده.

ولا يخفى على المتدبر ما في الآية الكريمة من بلاغة رفيعة معجزة، قال القرطبي رحمته الله في تفسيره: «هذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذي بصيرة بالكلام»^(١).

وقال الشيخ الشوكاني رحمته الله: «فيها من البلاغة ما تتقاصر عنه البشرية مع شمولها لأحكام عدة»^(٢).

ثم حكى الشوكاني في تفسيره عن النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن؛ فقال: نعم أعمل مثل بعضه. فاحتجب أياماً كثيرة، ثم خرج فقال: والله ما أقدروا ولا يطيق هذا أحد، إني

(١) تفسير القرطبي: ٣١/٦.

(٢) فتح القدير: ٤/٢.

فتحتُ المصحفَ فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النُّكث، وحلَّ تحليلاً عاماً، ثم استثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحدٌ أن يأتي بهذا^(١).

• الوفاء بالعقود:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَتُ الْأَعْتَمِرِ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ عِدَّ مِحْلَى
الْصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ واحد العقود عقْدٌ.

وأصل العقد في اللغة: الربط المُحكَّم، وهو يستعمل في الأجسام والمعاني، فيقال: عقدتُ الحبلَ والعهدَ.

والمرادُ من العقود: العقود التي عقدها الله على عباده، وألزمهم بها من الأحكام، والعقود التي يعقدونها فيما بينهم من عقود المعاملات، فالآية تشملُ الأمرين جميعاً^(٢).

وفي الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ لعمر بن حزم حين بعثه إلى نجران: هذا بيانٌ من الله ورسوله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(٣).
والوفاء: حفظ ما يقتضيه العقدُ، والقيامُ بموجبه^(٤).

والعقدُ الذي يجبُ الوفاءُ به ما وافق كتابَ الله تعالى، وسُنَّةَ رسولِ الله ﷺ، فإن خالفهما فهو ردٌّ، لا يجبُ الوفاءُ به ولا يحلُّ^(٥)، لأنَّ سبحانه وحده الذي يحكمُ ويشرِّعُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، فكلُّ ما يخالفُ حكمَ الله تعالى وشرعه ردٌّ على صاحبه، كائناً مَنْ كان.

(١) فتح القدير: ٤/٢.

(٢) المرجع السابق: ٥/٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/٢.

(٤) روح المعاني المشهور بتفسير الألوسي: ٤٨/٦.

(٥) فتح القدير: ٥/٢.

وهذا يبيّن لنا بطلانَ القولِ الذي يردّه بعضُ الناس: العقدُ شريعةُ المتعاقدين، فالعقدُ الذي يكونُ شريعةَ المتعاقدين، هو الموافقُ لشريعةِ الله تعالى، وإلا كان باطلاً وإثماً وضلالاً.

قال رسول الله ﷺ: «ما بألِّ رجالٍ يشترطونَ شروطاً ليستُ في كتابِ الله، فأَيُّما شرطٍ ليس في كتابِ الله فهو باطلٌ، وإن كان مئةَ شُرطٍ، ففضاءُ الله أحقُّ، وشُرطُ الله أوثقُ» [رواه البخاري (٢٥٦٣) ومسلم (١٥٠٤)].

• الوفاء بالعقود وتحليل بهيمة الأنعام:

شرع الله تعالى بيان الأحكام التي أمرَ بالوفاءِ بها بمقتضى عَقْدِ الإِيمان، فقال سبحانه:

﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةَ الْأَنْعَامِ﴾ فبدأ بتشريع ما يتعلّق بضرورات حياة الإنسان، والطعام من أهمّ هذه الضرورات، وهو ينسجُم مع اسم السورة «المائدة».

والمتدبّرُ للآيةِ الكريمةِ يلاحظُ أنّ بيانَ حلِّ الانتفاعِ ببهيمة الأنعام، جاء بصيغة الإخبار: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةَ الْأَنْعَامِ﴾ بعد ما سبقه من الأمرِ الملزمِ بالوفاءِ بالعقود، فكانَ إحلالَ بهيمة الأنعام يستدعي من المؤمنين الوفاءَ بالعقود، فإنَّ عدمَ الوفاءِ بالعقود ونقضِها يؤدّي إلى تضيق دائرة الحلال، والتشديد في التشريع، كما حدث مع اليهود، فإنهم لما نقضوا الميثاقَ الذي أخذهُ الله تعالى عليهم، حرّمَ اللهُ سبحانه عليهم كثيراً من الطيبات، وشدّدَ عليهم في شريعة التوراة التي كلّفهم بها.

ذكر هذا الشيخُ البقاعيُّ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره المسمّى: «نظم الدرر في تناسُب الآيات والسُور»، وقد أصاب رَحِمَهُ اللهُ وأفاد، فقد ذكر اللهُ سبحانه هذا في آيات كثيرة في سورة المائدة، تحدّثت عن اليهود، ونقضهم للميثاق، وما ترتب على ذلك. وسيأتي الحديث عنها في موضعه من هذا الكتاب إن شاء اللهُ. وبهذا كشف الشيخُ البقاعيُّ رَحِمَهُ اللهُ سرَّ ارتباطِ الآيات الكريمة التي تحدّثت عن كثيرٍ من أفعال بني إسرائيل وصفاتهم بموضوع سورة المائدة وما أحلَّ اللهُ تعالى فيها وما حرّم.

• الانقياد لله تعالى والتشريع:

إن ارتباط التشريع عامة، والتحليل والتحریم خاصة، بمدى انقياد الأمة، واستسلامها لله سبحانه، ووفائها بعهدته وميثاقه، من الموضوعات الأساسية الكبيرة التي عالجها القرآن الكريم، وركز عليها في عدد من سورته الكريمة كسور: البقرة والنساء والأنعام والمائدة.

ويكفينا في هذا أن نقرأ خواتيم سورة البقرة، ونقف على سبب نزولها، ونتدبر كلمات الحق سبحانه، وهو يثني على أصحاب رسول الله ﷺ، بسبب انقيادهم ﷺ لأمره جلّ وعلا: ﴿ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، مما أدى إلى أن يرفع الله تعالى الحرج عنهم، ويجعل التكليف منوطاً بالوسع، تيسيراً على هذه الأمة، ورحمةً بها، فأنزل قوله الكريم: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لَمَّا أُنزِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، قال: فأتوا رسول الله ﷺ، ثم برَكُوا على الرُّكْبِ، فقالوا: أي رسول الله! كلّفنا من الأعمال ما نُطِيقُ: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير» قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلَمَّا اقترأها القوم، وذلت بها ألسنتهم^(١)، أنزل الله ﷻ في إثرها: ﴿ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

(١) أي: بالاستسلام لذلك، أو تواضعت. (الناشر).

رُسُلِهِمْ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُرْفَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلَمَّا فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ . . . الآية [البقرة: ٢٨٦]. [رواه مسلم (١٢٥) وأحمد (٤١٢/٢)]^(١).

وإنَّ ما ذكره الله تعالى في قصة بني إسرائيل عندما أمرهم أن يذبحوا بقرةً، يبيِّن سبب تشديد الله تعالى عليهم فيما كلَّفهم به، وما حرَّم عليهم من طيباتٍ كانت حلالاً لهم، قال تعالى: ﴿فِيظَلِمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

وحتى تعلمَ فضلَ الله سبحانه على الأمة المسلمة بما يسرَّ لها في الشريعة الإسلامية السمحة، اقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَنِيمٍ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام].

إنك تجدُ في الآية الأولى الرحمة والسماحة واللفظ واليسير في كل كلمة من كلماتها، لأنها تتحدَّث عن الشريعة الإسلامية، بينما تستشعر التشديد والتهديد والتعنيف في الآية الثانية التي تتحدَّث عن شريعة التوراة، فاعرف لأصحاب رسول الله ﷺ فضلهم عندما أعلنوا إذعانهم وانقيادهم لله سبحانه وقالوا: سمعنا وأطعنا، وتقبَّل مثلهم أحكامَ دين الله تعالى وشرعه بإذعان وانقياد واستسلام، وأنتَ تعلمُ أنه سبحانه يحكم ما يريد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، يُحِلُّ ما يشاء ويحرِّم ما يشاء مطلقاً، أو في حال دون حال، وليس لأحد غير الله سبحانه أن يحلل أو يحرم، وما علينا إلا القبول والإذعان والرضا بكل ما شرعه

(١) انظر: تفسير سورة النمل (المعجزة والإعجاز في سورة النمل)، في تفسيرنا الموضوعي

الله تعالى لنا، وهو سبحانه العليم الحكيم والعزيز الرحيم، لا يُسأل عن تحريم أو تحليل أو تخصيص أو تفضيل ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

• بهيمة الأنعام:

البهيمة: اسم لكل ذي أربع من دواب البر والبحر، سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها، وبعضهم رأى أن البهيمة كل مخلوق ذي روح لا عقل له مطلقاً^(١).

والأنعام: اسم للإبل والبقر والغنم، سميت بذلك لما في مشيها من اللين والنعومة، وهي الأزواج الثمانية المذكورة تفصيلاً في سورة الأنعام، في قوله تعالى: ﴿ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَحْنُ نَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاهُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وذكرت أيضاً إجمالاً في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦].

والزوج: الصنف الواحد سواء كان ذكراً أو أنثى.

والمراد من قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾: أُحِلَّ لَكُمْ أَكْلُ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ وسائر وجوه الانتفاع الأخرى التي ذكرها الحق سبحانه في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِيُعَلِّمَنَّكُم مَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِمَّا وَّرَاءُ بَنَاتٍ خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَى حِينٍ﴾ [التحل: ٨٠].

(١) انظر: روح المعاني: ٤٩/٦.

إن نعمة الله تعالى على الإنسان بالأنعام عظيمةٌ وجليلةٌ، تمتدُّ من طعامه وشرابه إلى ثيابه وملابسه، إلى الاستعانة بها في حمله مع أثقاله في أسفاره، وفوق كل ذلك استمتاعه بجمالها وهي تغدو وتروح، فلا عجب أن يتكرَّر في القرآن الكريم تذكير الإنسان بفضل الله تعالى عليه بخلق الأنعام وتسخيرها له: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [التحل].

وقوله تعالى: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمُ الْأَنْعَمَ﴾ أبطل العادات والتقاليد الجاهلية التي كانت سائدةً بين العرب قبل الإسلام، والتي كانوا بسبب هذه العادات والتقاليد يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وسيأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى في تفسيرنا لهذه السورة، لأنه سبحانه ذكرها فيها.

قال القرطبي رحمته الله: «وكانت للعرب سنن في الأنعام من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي - سيأتي بيانها -، فنزلت هذه الآية رافعةً لتلك الأوهام الخيالية والآراء الفاسدة الباطلة»^(١).



(١) تفسير القرطبي: ٣٤/٦. ولقد أثبتت الياء في كلمة الحامي في تفسير ابن كثير والقرطبي.

النداء الثاني

الأمر بأكل الطيبات واجتناب الخبائث

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا سَعْيِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ
 الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن
 صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
 وَالْعُدْوَانِ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَحُمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ
 لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى
 النُّصَبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ بَيَّسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَحْسَبُوهُمْ
 وَآخِشُونِ الْيَوْمَ أَكَلَتْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي
 مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْتَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ
 الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَامُونَهُنَّ مَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ
 اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا
 ءَاتَيْنَهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِبْرَٰئِيمَ فَقَدْ حَبِطَ
 عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾

شرح الله تعالى في آية النداء الثاني بتفصيل ما أجمله في الآية الأولى، وبدأ بالتحذير من فعل المحرمات، إشارة إلى أن الحاضر مقدّم على المبيح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَيْمَانَ
الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَفُونَ فُضُلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن
صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ .

ومعنى قوله سبحانه: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ...﴾ أي: لا تحلوا
هذه الأمور، بأن يقع منكم الإخلال بشيء منها، أو بأن تحولوا بينها وبين من
أراد فعلها^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾: شعائر الله: معالم دين الله تعالى،
كالأوامر والنواهي، والواجبات والمستحبات، وأماكن العبادات والطاعات.

﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي: الأشهر الأربعة الحرم، التي ذكرها الحق سبحانه
في قوله الكريم: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَيْمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَتِلُوا
الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وبين النبي ﷺ هذه الأشهر في خطبة حجة الوداع فقال: «ألا إن الزمان قد
استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها
أربعة حرم... ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب» [رواه البخاري (٣١٩٧)
ومسلم (١٦٧٩)].

وقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [٣٦] يبين المراد
من النهي عن إحلال الشهر الحرام في آية المائدة، وظلم النفس - بحملها على
المعاصي والآثام في الأشهر الحرم - أبلغ في الإثم والقبح منه في غيرها، قال
قتادة رحمه الله: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما

(١) انظر: فتح القدير: ٦/٢ .

سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء^(١).

﴿وَلَا أَهْدَى﴾ وهو ما يهدي إلى بيت الله الحرام ليُذبح تقرباً إلى الله تعالى في أرض الحرم، ولا يكون إلا من الأنعام التي سبق ذكرها، فلا يجوز التعرض له بالغصب أو السرقة، أو منعه من الوصول إلى أرض الحرم.

﴿وَلَا أَلْقَيْدَ﴾ جمع قلادة، وهي ما يقلد به الهدى من قشر الشجر أو جلد الحيوان أو غيرهما، ليعلم الناس أنه هدي، فلا يتعرض له أحد.

وعطف القلائد على الهدى من قبيل عطف الخاص على العام.

﴿وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ أي: قاصدين بيت الله الحرام، فلا يجوز التعرض

لهم، أو صدّهم عن بيت الله الحرام، ما داموا:

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ وهذا يدل على أن الآية تعني المسلمين.

ثم رفع الله سبحانه حظر الصيد عن المحرم إذا تحلل من إحرامه فقال:

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ والأمر للإباحة، وقد عودنا الله تعالى في القرآن الكريم

على أن كل فعل أمر يأتي بعد حظرٍ ومنعٍ ينصرف إلى الإباحة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقوله أيضاً: ﴿فَالَّذِينَ بَشِرُوا هُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فإذا حلّ المحرم من إحرامه حلّ له الصيد خارج أرض الحرم لزوال المانع

وهو الإحرام بالحج أو العمرة.

• أخلاق ومبادئ:

ثم ختم الله سبحانه الآية الكريمة بتقرير المبادئ الإنسانية الرفيعة في تعامل

المسلمين مع أعدائهم أو حتى فيما بينهم، فقال:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ أي: لا يحملنكم

(١) تفسير ابن كثير: ٣٥٥/٢.

بُعْضُ قَوْمٍ لَصَدَّهُمْ إِيَّاكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَلَى الْإِعْتِدَاءِ عَلَيْهِمْ، وَإِنْتِقَامَكُمْ مِنْهُمْ لِلتَّشْفِي.

فعلى المسلم أن يعامل مَنْ عصى الله فيه، بأن يطيع الله تعالى فيه، كما جاء في الحديث الشريف: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» [أخرجه أبو داود (٣٥٣٥) والترمذي (١٢٦٤)].

هذا الخلق الكريم - كما قال سيد قطب رحمته الله - قمة في ضبط النفس، وفي سماحة القلب، وهي القمة التي لا بد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربها أن تقوم على البشرية لتهدئها، وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضيء^(١).

ومن هذه المبادئ والأخلاق الكريمة قوله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ إنها دعوة ربانية موجهة

إلى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ليتعاونوا فيما بينهم على القيام بكل ما أمر الله سبحانه، واجتناب كل ما نهى الله تعالى عنه، فيدخل في معنى البر والتقوى جميع ما سبق ذكره في الآية الكريمة من المحافظة على محارم الله وشعائر دينه، كما يدخل في معنى الإثم كل إخلال بها، وانتهاك لحرماتها، ويندرج في العدوان المنهية عنه كل أنواع الظلم والبغي والاعتداء، فالتعاون لمنع الظلم والبغي أمر مطلوب في الإسلام.

قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أرايت إن كان ظالماً؟ قال: «تحجره، أو تمنعه، من الظلم، فإن ذلك نصره» [رواه البخاري (٢٤٤٤) ومسلم (٢٥٨٤)].

• التعاون والتكافل:

والتعاون في الإسلام يقوم على أساس الأخوة الإسلامية، فلا يقف عند حدود تقديم المعونة المادية، بل يتعدى ذلك، ويتجاوزها إلى التكافل والتضامن في جميع جوانب الحياة الإنسانية حتى في المشاعر الوجدانية والعاطفية، كما

(١) في ظلال القرآن: ٢/٨٣٩.

قال رسولُ الله ﷺ: «مثلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمهم وتعاظِفهم مثلُ الجسدِ، إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سائرُ الجسدِ بالسهرِ والحُمى» [رواه مسلم (٢٥٨٦)].

فكلُّ مسلمٍ في ظلِّ مبادئِ التعاونِ الإسلاميةِ مسؤولٌ عن رعايةِ مصلحتهِ الخاصةِ ومصالحِ الآخرينِ العامةِ في حدودِ استطاعتهِ، ولهذا شرعَ الإسلامُ مبدأَ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، فجعلَ من كلِّ فردٍ من أفرادِ المجتمعِ الإسلاميِّ حارساً وراعياً للمصلحةِ العامةِ في المجتمعِ، كما جعلَ المجتمعَ مسؤولاً ومسؤوليةً قائمةً على التكافلِ والتضامنِ عن حمايةِ الضعفاءِ فيه، ورعايةِ مصالحهمِ، وتأمينِ كفايتهم للعيشِ حياةً كريمةً. ولهذا فرضَ الزكاةَ في أموالِ الأغنياءِ، وجعلها ركناً أساساً من أركانِ الإسلامِ الخمسةِ.

وإذا لم تكفِ الزكاةُ بسببِ طوارئِ ونكباتِ عامةٍ أخذَ من أموالِ القادرينِ مقداراً ما يسدُّ حاجةَ المحتاجينِ، ففي الحديثِ الشريفِ: عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال: بينما نحنُ في سفرٍ مع النبيِّ ﷺ، إذ جاءَ رجلٌ على راحلةٍ له، فجعلَ يصرفُ بصره يميناً وشمالاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ (زيادةٌ في ما يركبُ على ظهره من الدوابِّ) فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ زَادَ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ» قال: فذكرَ من أصنافِ المالِ ما ذكرَ حتى رأينا أنَّه لا حقَّ لأحدٍ منا في فضلٍ. [رواه مسلم (١٧٢٨)].

وهذا في وقتِ الحاجةِ والشدةِ حيثُ لا تكفي فريضةُ الزكاةِ والواجباتُ الإسلاميةِ الأخرى في النفقاتِ.

انظر كيف قرَّرَ رسولُ الله ﷺ مسؤوليةَ التعاونِ والتكافلِ بين أفرادِ المجتمعِ المسلمِ بقوله عليه الصلاة والسلام: «أَيُّمَا أَهْلِ عَرَصَةٍ بَاتَ فِيهِمْ امْرُؤٌ جَائِعاً فَقَدْ بَرَكْتَ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى» [رواه أحمد في «مسنده» (٤٨٨٠) وإسناده صحيح].

• التعاونِ والتأمينِ:

فلا خوفَ ولا قلقَ في ظلِّ مبادئِ التعاونِ والتكافلِ الإسلاميةِ، ولا حاجةَ

في ظلّ الإسلام إلى ما استحدثه الإنسان في العصور المتأخرة من نُظْم التأمين ضدّ الحوادث والأخطار، بسبب انتشار الخوف والقلق بين الناس، ولا حاجة للقائلين بحواز التأمين ضدّ المخاطر والحوادث بمفهوم التعاون في الإسلام، فالتعاون في الإسلام يختلف اختلافاً جذرياً عن مفهوم التأمين، والتعاون في الإسلام تضحيةٌ وبذلٌ وعطاءٌ، فهو تبرُّعٌ محض كالصلة والصدقة والهدية، بينما القصد من عقد التأمين الذي تُبرمه الشركة المؤمنة مع المستأمن الحصول على الكسب والربح، فهو عقدٌ معاوضةٍ لا تبرُّع، تتعهد بموجب هذا العقد أن تدفع شركة التأمين للمستأمن عند وقوع الخطر المؤمن منه مبلغاً معيناً من المال، في مقابل تعهّد المستأمن أن يدفع لشركة التأمين مبلغاً من المال يقسّط على دفعات يتفق عليها. فإذا وقع الخطر تحقّق الربح للمستأمن والخسارة لشركة التأمين، وإذا لم يقع ربحت شركة التأمين كلّ الأقساط المالية التي دفعها المستأمن، فعقد التأمين إنّ حقق ربحاً للمستأمن حقق خسارة للمؤمن والعكس بالعكس، فهو عقد معاوضة، لا دخل فيه للتعاون مطلقاً، فالتعاون وقصد التبرع لا وجود لهما في عقد التأمين مطلقاً من كلا الجانبين، وشركات التأمين لا تعمل إلا لحساب نفسها ولمصلحتها التي تتعارض مع مصالح المستأمن، فهي شركات مالية احتكارية، لها أضرارها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية^(١).

التأمين يصبح حلالاً جائزاً في الشريعة الإسلامية إذا كان تعاوناً محضاً، فإذا ما اتفق عددٌ من الأشخاص على التعاون فيما بينهم ضد الحوادث والأخطار بأن يدفع كل واحد منهم مبلغاً من المال إلى صندوقٍ يبقى ملكاً لهم، يُعطى من هذا المال كلّ من يصابُ منهم بمصيبة أو حادثة من حوادث الدهر خلال مدّة محدودة يتفقون عليها، وما يبقى من هذا المال بعد انتهاء هذه المدّة يوزعُ عليهم. صحّ مثلُ هذا التعاون والتأمين وحلٌّ، لقيامه على محض التبرع والتعاون، وتجرّده عن قصد الربح المعلق على حدوث الخطر.

(١) انظر كتاب: التأمين في الشريعة والقانون، للدكتور شوكت عليان، ط ٢، دار الرشيد في الرياض.

إنَّ عقود التأمين السائدة في العصر الحاضر تشبه القمار والميسر، لأنَّ غايتها تحقيق ربح معلق على خطرٍ يعتمد على مجرد المصادفة والحظ، ولهذا فهي غير جائزة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

• الميتة والخنزير:

وتفصيلاً للمحرّمات التي أشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾

[المائدة: ١] قال تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْوَاجِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ الميتة: كلُّ حيوانٍ مات حتفَ أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد، وأمّا الدم فالمحرّم منه المسفوح، الذي يخرج من الجسم، أمّا الدم الذي يبقى في العروق أو في الكبد والطحال بعد ذبح الحيوان فمباح، يجوز أكله تبعاً للحم، إذ يصعب فصله بعد الذبح عن اللحم، والدليل على ذلك تقييد الدم بالمسفوح في آية سورة الأنعام [١٤٥]: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾.

والمراد من قوله تعالى: ﴿وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ جميع أجزاء الخنزير.

وهنا ينبغي أن نتوقّف قليلاً عند قوله تعالى: ﴿وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ بسبب انتشار أكل لحم الخنزير عند كثير من الأمم الكافرة، بينما الإجماع منعقد بين

المسلمين على تحريم الخنزير بجميع أجزائه، وخصَّ الله تعالى ذكر لحم الخنزير للدلالة على تحريم عَيْنِهِ، ذُبْحُ أم لم يذبح، وليعمَّ التحريمُ جميعَ أجزائه^(١).

فإذا كان اللحمُ - وهو أهُمُّ ما يُقْصَدُ من الخنزير - محرَّماً، فغيرُ اللحم من الأجزاء الأخرى كالدهن والشحم أولى بالتحريم، وقد وصفه الله تعالى بصفة الرُّجْسِ - كما مرَّ معنا في آية الأنعام - وهو النجس والقذر.

ويكفي تحريم الله تعالى للخنزير، ووصفه بصفة الرجس: للدلالة على خبثه وضرره، وكلِّما تقدَّم الناسُ في العلوم يكتشفون ما يحمل الخنزير من آفات وأضرار لآكله، ففي لحم الخنزير تكثُرُ الديدان، وخاصةً الدودة الشريطية، التي يسبِّبُ وجودها في أمعاء الإنسان أعراضاً كثيرة من مغصٍ، وإسهال، وقىء، وآلام في الرأس، ودُّوار وإغماء، وقد تتنابه نوبات صرع، وتشنُّجات في بعض أعضائه، وتقاوم حويصلات هذه الدودة الحرارة ما دامت داخل لحم الخنزير، لأنه موصل رديء للحرارة، وإذا زيد في إنضاج لحمه للتأكد من قتلها أصبح هضمه عسيراً على الإنسان.

كما يوجد في لحم الخنزير أيضاً الديدان التي تسبِّبُ مرض التريخيما، الذي يسبب آلاماً شديدة في العضلات بسبب انتفاخ النسيج العضلي وصلابته.

ويوجد في لحم الخنزير أيضاً بعض الجراثيم العفنة والباراتيوفيد التي تسبِّبُ التهابات في الجهاز الهضمي، قد تؤدي إلى الوفاة خلال بضع ساعات.

ومن المعلوم أن الخنزير يحب أكل القاذورات والفضلات والفئران الميتة التي تحمل الدودة الحلزونية الشعرية، التي تتسلل إلى الإنسان، فتصيب عضلات جهاز التنفس والقلب، مما يتسبب بصعوبة التنفس المُفضي إلى الموت.

وفضلاً عن كلِّ ذلك فلحمُ الخنزير أعسر اللحوم هضمًا باتفاق، لأن أليافه

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢/٢٢٢.

العضلية محاطة بخلايا شحمية عديدة أكثر من لحوم الحيوانات الأخرى المباح أكلها^(١).

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فقد يكتشف الإنسان في المستقبل آفاتٍ أخرى في لحم الخنزير، فقد مرَّ على الناس زمنٌ طويل منذ أن أنزل الله تعالى في القرآن الكريم تحريم الخنزير قبل أن يكتشف الناس هذه الآفات، ولهذا علينا أن نترك أمر التحليل والتحريم إلى شريعة الله العليم الخبير، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون، ورحم الله سيد قطب الذي قال: «أفلا تستحق هذه الشريعة التي سبقت العلمَ البشريَّ بعشرات القرون أن نثق بها، وندع كلمة الفصل لها، فنحرم ما حرَّمت، ونحلُّ ما حلَّلت، وهي من لدن حكيم خبير»^(٢).

• تنبيه وتحذير:

والجدير بالذكر هنا أنَّ الأمم التي تأكل لحم الخنزير، أدخلت دهنه وشحمه وبقية أجزاء جسمه في كثير من الأطعمة المصنَّعة، فكثيرٌ من المعلَّبات يضعون فيها شيئاً من دهن الخنزير، كما أنَّهم يمزجونه بالشطائر والحلويات، فعلى المسلمين واجبُ الحيطة والحذر من مثل هذه المعلبات والأطعمة المستوردة حتى يتأكدوا من خلوها من دهن الخنزير ولحمه.

وإنَّ مادة الجيلاتين التي شاع استعمالها في كثير من صناعات الأطعمة والحلويات والمرطبات البوطة (الجيلاتي) تستخرج من جلود وأعصاب وأوتار عضلات الحيوانات وعظامها، وخاصَّةً الخنزير، كما تستخرج من الكولاجن المستمد من الخنزير^(٣).

ومن الثابت أنَّ أرخص الحيوانات في العالم أجمع هو الخنزير، ولهذا على المسلم أن يتوقَّع دائماً وجود مشتقات الخنزير في الأطعمة المصنَّعة في البلاد

(١) عن كتاب: أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية، بتصرف قليل واختصار.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٧٧/١.

(٣) انظر: أحكام الأطعمة، ص ٣٠٩.

الكافرة، في الخبز والحلويات والكاتو والبسكويت والمعلبات واللحوم والحساء والسلطة والجبن والجيلو وغير ذلك من الأطعمة، فعليك أيها المسلم أن تنتبه قبل كل شيء إلى الغلاف الخاص لهذه الأطعمة، وتتأكد من محتوياتها، فإذا وجدت بعض الكلمات الآتية فاعلم أن ضمن هذا الغلاف بعض مشتقات الخنزير:

(Pork, Ham, Bacon, Shorting, Lord, Galatin)^(١).

﴿وَمَا أَهْلَ لَعْنِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: ويحرمُ عليكم كلُّ حيوان ذُكِرَ عليه عند ذبحه غير اسم الله تعالى، فقد أوجب الله تعالى أن تُذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، ومتى عُدل عن ذلك، وذُكر عليها اسمٌ غيره من صنم أو وثن أو طاغوتٍ أو غير ذلك من سائر المخلوقات، فهي حرامٌ بالإجماع^(٢)؛ قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَخُونَ إِيَّاكُمْ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يُجْعَلُونَكُمْ إِذَا أَلْمَنْتُمْ بِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿وَالْمُنْخَفَةُ﴾ أي: ويحرمُ أيضاً أكلُ الحيوان الذي يموتُ بالخنق، إما قصداً بفعل فاعل، وإما اتفاقاً بأن يلتفت وثاقها حول عنقها فتموتُ به، وسواء خُنِقَتْ بفعلٍ مسلمٍ أو غير مسلم، قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: كان أهل الجاهلية يخنقون البهيمة ويأكلونها، فحُرِّمَ ذلك على المؤمنين^(٣).

﴿وَالْمَوْفُودَةُ﴾ أي: وحرَمَ عليكم أكل الموقودة، وهي التي تموت بالضرب بعضاً أو بحجر أو غير ذلك، وأصله: وقده أي ضربه، والوقد: شدة الضرب.

• حكم صيد البنادق:

جاء في «الصحيحين»: من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ

(١) أحكام الأطعمة، ص ٣٠٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٨/٢.

(٣) روح المعاني: ٥٧/٦.

الله، إِنِّي أرمي بالمعراضِ الصيدَ فأصيبُ، فقال: «إذا رميتَ بالمعراضِ فخرقَ فكلُّه، وإن أصابَ بَعْرَضِهِ، فَإِنَّمَا هو وقيدٌ فلا تأكلُهُ» [رواه البخاري (١٧٥) ومسلم (١٩٢٩)]. والمِعْرَاضُ: السهمُ الذي لا ريشَ فيه، أو العصا التي رأسُها محدَّدٌ.

قال الشوكاني رحمته الله: «فالحقُّ أنه لا يحلُّ إلا ما خرق لا ما صدم، فلا بدُّ من التذكية (الذبح) قبل الموت، وإلا كان وقيداً، وأمَّا البنادقُ المعروفةُ الآن، وهي بنادقُ الحديدِ التي يُجَعَلُ فيها البارودُ والرصاصُ، ويرمى بها، فلم يتكلَّم عليها أهلُ العلمِ لتأخُّرِ حدوثها، فإنَّها لم تصل إلى الديارِ اليمينيةِ إلا في المئةِ العاشرةِ من الهجرة، وقد سألتني جماعةٌ من أهل العلمِ عن الصيدِ إذا مات، ولم يتمكن الصائدُ من تذكيته حياً. والذي يظهرُ لي أنه حلالٌ، لأنها تخرقُ، وتدخُلُ في الغالبِ من جانبٍ، وتخرجُ من الجانبِ الآخر، وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا رميتَ بالمعراضِ فخرقَ فكلُّه» فاعتبر الخرقُ في تحليلِ الصيدِ»^(١).

لكنَّ المتأخرين من الفقهاء بحثوا في حكم صيد البنادق، ولم ينظروا كما فعل الشوكاني إلى تحقق الخرق فقط، فقد يحدث الخرق بالضرب أيضاً، ولهذا نظروا إلى سبب الخرق، فإن حدث الخرقُ في جسم الصيدِ بسبب حِدَّةِ آلة الصيدِ، ومات الصيدُ به كان حلالاً، أما إذا حدث الخرقُ بسبب ثقل آلة الصيدِ فلا يحلُّ أكله إلا إذا أدركه حياً وذبحه، إذ يكون في هذه الحالة وقيداً مات بقوة وثقل الآلة التي ضرب بها.

قال ابن كثير رحمته الله بعد ذكره حديث عدي بن حاتم السابق ذكَّره: «ففرَّق بين ما أصابه بالسهم أو بالمِرْزاق ونحوه بحدِّه فأحله، وما أصابَ بعرضه فجعله وقيداً لم يحلَّه، وهذا مجمع عليه عند الفقهاء»^(٢).

وقال الشيخ ابن عابدين رحمته الله، وهو أحد فقهاء المذهب الحنفي: «وفي

(١) فتح القدير: ٩/٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٨/٢.

التبيين (اسم كتاب) الأصلُ أنَّ الموتَ إذا حصل بالجرح بيقين حل، وإن [حصل] بالثقل، أو سُكِّ فيه، فلا يحلُّ حتماً أو احتياطاً، ولا يخفى أنَّ الجرح بالرصاص إنما هو بالإحراق والثقل بواسطة اندفاعه العنيف، إذ ليس له حدٌّ فلا يحلُّ، وبه أفتى ابن نُجيم^(١).

وهذا رأي وجيه ونظر سديد، فلو نظرنا إلى ماسورة البندقية من الداخل لوجدناها لولبية الشكل لتجعل حركة الرصاصة المندفعة منها في الهواء لولبية، وهذا يسبب لها مزيداً من الاحتكاك بالهواء مما يؤدي إلى رفع حرارتها إلى درجة عالية، كما أنَّ شدة الاندفاع وقوته تعطيها ثقلاً كبيراً، فدخولها إلى الجسم يتم بحرارتها العالية وقوة الثقل التي فيها، لا بحدّها إذ لا حدَّ لها.

• التذكية المجلّة:

﴿وَالْمُرْدِيَّةُ﴾ أي: وحرم عليكم أكل المتردية، وهي التي تقع من مكانٍ مرتفعٍ أو في بئر فتموت، ولا فرق بين أن تقع بنفسها أو تقع بفعل غيرها.

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ أي: المنطوحة التي ينطحها غيرها فتموت.

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي: ويحرم أكل ما افترسه أو أكل منه ذو ناب كالأسد والنمر والذئب، فمات بذلك، لا ما أكل كلّه، لأن ما أكل كلّه لا يتعلّق به حكم، ولا يلحقه الاستثناء في قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ أي: إلا ما أدركتموه، وفيه بقية حياة، وذكيتموه أي ذبحتموه. فالاستثناء راجع إلى جميع ما تقدّم ذكره من المحرّمات سوى ما لا يقبل التذكية كالميتة والخنزير^(٢).

وتذكية الحيوان بذبحه تطيب له، لأنّ التذكية في اللغة: معناها التطيب، يقال: رائحة ذكية، أي: طيبة، فالحيوان إذا أسيل دمه بالذبح فقد طيّب، لأنّ بقاء الدم فيه يجعل الفساد يتسارع إليه، فمن المعلوم أنّ الدم يحمل إلى الجسم

(١) حاشية ابن عابدين المسماة: رد المحتار على الدر المختار: ٣٠٤/٥.

(٢) انظر: روح المعاني: ٥٨/٦.

الغذاء، ويحمل منه أيضاً السموم والفضلات، فبقاء الدم في الجسم بعد موت الحيوان يعرّضه لسرعة الفساد، ويعرّض أكل لحم هذا الحيوان لكثير من الأمراض والأخطار، ولعلّ هذا من حِكم تحريم الله تعالى أكل الميتة والدم، فذبح الحيوان تطهير وتطيب له وإباحة لأكله.

• الأصل في أكل اللحوم الحظر:

والآية تدلّ على أن الأصل في أكل اللحم الحظر والمنع، إلا ما قام الدليل على حله، قال الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رحمته الله: «الأصل في الأضباع - وطء النساء - التحريم، فلا يحل البضْعُ إلا بعقد صحيح مستجمع لأركانه وشروطه، كما لا يباح أكل لحوم الحيوانات إلا بعد تحقق تذكيتها من أهل التذكية، فإن الله تعالى حرّم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به، وحرّم المنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وأكيلة السبع إلا ما ذكّي، فهذا يدل على أن الأصل في الحيوان التحريم إلا ما ذكّاه المسلمون أو أهل الكتاب، بقطع الحلقوم، وهو مجرى النَّفس، والمريء، وهو مجرى الطعام والماء، مع قطع الودجين في قول طائفة من أهل العلم»^(١).

• اللحوم المستوردة والمعلّبة:

واستناداً إلى هذه القاعدة - الأصل في اللحم الحظر - بين رحمته الله الحكم الشرعي في اللحوم المعلّبة والمستوردة فقال:

«فما يردّ من اللحوم المعلّبة، إن كان استيرادها من بلاد إسلامية، أو من بلاد أهل الكتاب، أو معظمهم وأكثرهم أهل كتاب، وعادتهم يذبحون بالطريقة الشرعية، فلا شكّ في حله.

وإن كانت تلك اللحوم المستوردة تستورد من بلاد جرت عادتهم، أو

(١) مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس، ص ١٣٠.

أكثرهم، أنهم يذبحون بالخنق، أو بضرب الرأس، أو بالصعق ونحو ذلك، فلا شك في تحريمها.

وكذلك ما يذبحه غير المسلمين وغير أهل الكتاب من وثني أو مجوسي أو قادياني أو شيعي ونحوهم، فلا يباح ما ذكَّوه، لأن التذكية المبيحة لأكل ما ذكِّي لا بد أن تكون من مسلم أو كتابي عاقل له قصد وإرادة، وغير هؤلاء لا تباح تذكيتهم.

أما إذا جهل الأمر في تلك اللحوم، ولم يعلم عن حال أهل البلد التي وردت منها تلك اللحوم، هل يذبحون بالطريقة الشرعية أم بغيرها؟ ولم يعلم حال المذكِّين وجهل الأمر، فلا شك في تحريم ما يرد من تلك البلاد المجهول أمر عادتهم في الذبح تغليباً لجانب الحظر، وهو أنه إذا اجتمع مبيح وحاضر، فيغلب جانب الحظر، سواء أكان في الذبائح أو الصيد، ومثله في النكاح، كما قرره أهل العلم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم، والحافظ ابن رجب، وغيرهم من الحنابلة، وكذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني، والإمام النووي، وغيرهم كثير، مستدلين بما في «الصحيحين» وغيرهما: أن النبي ﷺ قال: «إذا أرسلت كلبك المعلمَ وذكرت اسمَ الله عليه فكلْ، فإن وجدت معه كلباً آخر فلا تأكلْ» [رواه البخاري (٥٤٨٣) ومسلم (١٩٢٩)]^(١).

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ أي: وحُرِّمَ عليكم أكلُ الذبائح التي ذُبِحَتْ على النصب، وهي حجارةٌ كانت منصوبةً حول الكعبة، وكان العرب في الجاهلية يذبحون عندها، وينضحون بدماء تلك الذبائح البيت الحرام، ثم يشرحون اللحم، ويضعونه على هذه الحجارة المنصوبة، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله تعالى، لأن الذبح عند النصب من الشرك، فهو داخل فيما أهل به لغير الله،

(١) مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس، ص ١٣١.

وُحْصَّ بالذكر لتأكيد تحريمه، ولدفع ما كانوا يظنون أن ذلك لتشريف البيت الحرام وتعظيمه^(١).

• الذبح عند الأقدام:

ويدخل في هذا القسم أيضاً الذبح عند أقدام القادمين، نبّه على هذا سيدي الشيخ محمد الحامد رحمته الله، فقال: الذبح تحت الأقدام يمحصّ الذبائح للحرام، ويوقع في الآثام، وذكر اسم الله تعالى عليها لا يحلّها ما دام القصد بذبحها تعظيم القادم لا إكرامه، وقد اختلف الفقهاء في كفر الذابح لهذا القدوم، ونحن نأخذ بالقول بعدم تكفيره، لما في «الدر المختار» عن «المنية» - اسم كتاب -: إنا لا نسيء الظنّ بالمسلم أنه يتقرب إلى الآدمي بهذا النحر، وكتب عليها ابن عابدين: «أي على وجه العبادة، لأنه المكفر، وهذا بعيد عن حال المسلم، فالظاهر أنه قصد الدنيا، أو القبول عنده بإظهار المحبة، لكن لما كان في ذلك تعظيم له لم تكن التسمية مجردة لله تعالى حكماً... حرمت، ولا ملازمة بين الحرمة والكفر»^(٢).

• الاستقسام بالأزلام:

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ أي: وحُرِّمَ عليكم أن تستقسموا بالأزلام.

والاستقسام: طلب معرفة ما قُسم لهم في المستقبل، والأزلام: ثلاث قطع من الخشب، كُتِبَ على أحدها: أمرني ربي، وعلى الثاني: نهاني ربي، والثالث غفل لم يكتب عليه شيء، فإذا قصدوا فعل شيء أجالوا هذه الأزلام؛ فإن خرج الأمر مضوا في فعلهم، وإن خرج الناهي تجنبوا، وإن خرج العُقل أجالوها ثانياً.

• سؤال الكهّان والعرفّافين:

وإنما حرّم الله الاستقسام بالأزلام، لأنّه تعرّض لدعوة علم الغيب، ونوع

(١) تفسير ابن كثير: ١١/٢؛ وفتح القدير: ١٠/٢.

(٢) من: ردود على أباطيل، تحت مقولة: بدع تلبس قدوم الحجاج.

من الكهانة المحرّمة في الإسلام، قال ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» [رواه أبو داود (٣٩٠٤) والترمذي (١٣٥) والنسائي في الكبرى (٩٠١٧) وابن ماجه (٦٣٩)].

وقال المحقّق ابن عابدين ﷺ: «والكاهنُ - كما في «مختصر النهاية» للسيوطي - من يتعاطى الخبرَ عن الكائنات في المستقبل، ويدّعي معرفة الأسرار، والعرّاف: المنجّم الذي تعاطى معرفة مكان المسروق والضالّة (الضائعة)».

قال سيدي الشيخ محمد الحامد ﷺ: «والحاصلُ أنّ الكاهنَ هو من يدّعي معرفة الغيب بأسباب، وهي مختلفةٌ، فلذا انقسم إلى أنواع متعددة، كالعرّاف والرمّال والمنجّم، والذي يخبرُ عن المستقبل بطلوع النجم وغروبه، والذي يضرب بالحصى، والذي يدّعي أنّ صاحباً له من الجن يخبره عما سيكون، والكل مذموم شرعاً، محكوم عليهم وعلى من يصدّقهم بالكفر، وفي «الفتاوى البزازية» - اسم كتاب - : يَكْفُرُ بادّعاء علم الغيب، وبإتيان الكاهن وتصديقه، وفي «الترخانبة» - اسم كتاب - يكفر بقوله: أنا أعلم المسروقات أو أنا أخيرُ عن إخبارِ الجن إياي... قلتُ: وأمّا ما وقع لبعض الخواص كالأنبياء بالوحي، والأولياء بالإلهام، فهو بإعلام من الله تعالى فليس مما نحن فيه»^(١).

• علم الأرصاد الجوية:

وقد استثنى العلامة الألويسي ﷺ في تفسيره ما يقوله علماء الفلك عن أوقات حدوث الكسوف والخسوف، لأنهم يبنون أقوالهم على الحسابات لندرة خطّتهم^(٢).

كما يستثنى من ذلك تنبؤات علماء الأرصاد الجوية، لأنّ أقوالهم مبنية على ما يشاهدونه بآلات الرصد والتصوير من اتجاهات الرياح والسحب، وقياس

(١) انظر: ردود على أباطيل: ١/٣٦٩؛ وحاشية ابن عابدين.

(٢) انظر: روح المعاني: ٥٩/٦.

سرعتها، ودرجات حرارتها وكثافتها، وقد أخبر الحق سبحانه في كتابه الكريم أنه يرسل الرياح تبشّرُ بنزول المطر، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

• قِدَاحُ الميسر:

وللأزلام معنًى آخر، ذكره بعض علماء التفسير، وهو قِدَاحُ الميسر، وكانوا يلعبون بها مقامرةً ولهواً، يتعرّفون بوساطتها على صاحب القسم والحظ الذي يكون المال له، قال القرطبي في تفسيره: «وهي قِدَاحُ الميسر، وهي عشرة، سبعةٌ منها فيها خطوط، وثلاثةٌ أغفال، أي لا خطوط فيها، وكانوا يضربون بها مقامرةً ولهواً ولعباً، وكان عقلاؤهم يقصدون بها إطعام المساكين والمعدم زمن الشتاء، وقال مجاهد: الأزلام هي كعاب فارس والروم التي يتقامرّون بها»^(١).

وعلى هذا المعنى للأزلام فالآيةُ تدلُّ أيضاً على تحريم القمار، وتدل على أنّ كسبه حرام مهما كانت صورته وأغراضه، فاليانصيبُ الذي يخصّص ربحه لمساعدة الفقراء أو الأيتام أو المعوقين لا يجوز ولا يحلُّ.

ثم قال تعالى:

﴿ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾ أي: تعاطي الاستسقام بالأزلام فسق، وغي وضلالة وجهالة

وشرك.

• الاستخارة المشروعة:

وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخبروه، بأن يعبدوه ثم يسأله الخيرة في الأمر الذي يريدونه، كما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ويقول: «إذا هم أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخبرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٥٩/٦.

أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ - وَيَسْمِيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَأَجَلِهِ - فَأَقْدَرُهُ لِي، وَيَسِّرُهُ لِي، ثُمَّ بَارَكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَأَجَلِهِ - فَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَأَقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ» قَالَ: وَيَسْمِي حَاجَتَهُ. [رواه البخاري (٦٣٨٢)].

وقد يكون قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَسُقٌ﴾ يرجع إلى جميع ما ذكر من الاستحلال لجميع هذه المحرمات، وكلُّ شيءٍ منها فسقٌ وخروجٌ من الحلال إلى الحرام، والانكفاف عن هذه المحرمات من الوفاء بالعقود، إذ قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

• السِّمَةُ الْمُمَيِّزَةُ لِلْمُسْلِمِ عَنِ الْكَافِرِ:

﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ أَي: انْقَطَعَ رَجَاءُ الْكَفَّارِ مِنْ إِبْطَالِ دِينِكُمْ وَرَجُوعِكُمْ عَنْهُ بِاسْتِحْلَالِ هَذِهِ الْخَبَائِثِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكُمْ. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فَلَا تَخَافُوا مِنَ الْكَافِرِ.

﴿وَأَخْشَوْنَ﴾ أَنَّ أَجَلَ بَكْمِ عِقَابِي إِنْ خَالَفْتُمْ أَمْرِي وَارْتَكَبْتُمْ مَعْصِيَتِي^(١).

وذكر ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية معنى آخر يتفق مع موضوع الآية أكثر مما تقدم، فقال: «ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّ الْكَافِرَ يَتَّسِقُ مِنْ مِثَابَةِ الْمُسْلِمِينَ، لِمَا تَمَيَّزَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَخَالَفَةِ لِلشَّرِكِ وَأَهْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصْبِرُوا وَيَثْبِتُوا فِي مَخَالَفَةِ الْكَافِرِ، وَلَا يَخَافُوا أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ﴾»^(٢).

إِنَّ وَقُوفَ الْمُسْلِمِ عِنْدَ حُدُودِ مَا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، أَعْظَمُ مَا يَتَمَيَّزُ بِهِ الْمُسْلِمُ عَنِ الْكَافِرِ، فَشَأْنُ الْكَافِرِ الْإِنْسِيَاقُ وَرَاءَ أَهْوَاءِ نَفْسِهِ وَغَرَائِزِهِ، فَلَا يُجِلُّ حَلَالًا، وَلَا يَحْرِمُ حَرَامًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ، بَيْنَمَا يَظَلُّ

(١) روح المعاني: ٦٠/٦.

(٢) تفسير ابن كثير: ١٢/٢.

المسلمُ وقافاً عند حدود ما شرع الله تعالى له، فلا يستحلُّ إلا ما أحلَّ الله تعالى له، ولا يحرمُ إلا ما حرمَ الله عليه، ويظهر هذا الأمر جلياً واضحاً في شأن المطاعم والمشارب.

ففي أي مكان وزمانٍ يمكن أن تُميّز المسلم عن غيره من طعامه وشرابه، فالمسلمُ لا يأكل الميتةَ ولا لحمَ الخنزير ولا الدم ولا المنخقة، ولا يشربُ الخمرَ، فإذا خالف المسلمُ أمر ربه، وخاف من الكفار، ولم يخف من الله تعالى، فقد طمسَ أعظم العلامات التي تميّزه عن الكفار. ولهذا لا يُعذرُ المسلمُ في أي حالٍ من الأحوال، بتناول المحرمات من الطعام والشراب إلا في حالة واحدة فقط، هي حالة الاضطرار، التي بيّنها الله سبحانه في ختام هذه الآية الكريمة بقوله:

﴿أَيُّومَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّمْتُمْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُمْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطَرََّ فِي مَحْصَةِ عَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِيْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

• أهمية تشريع الحلال والحرام في الإسلام:

أكملَ الله سبحانه دينَ الإسلام يوم أنزلَ هذه الآية على النبي ﷺ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أهمية تشريع الحلال والحرام في الشريعة الإسلامية، فلا يكونُ دينُ المسلم كاملاً إلا إذا ألزمَ نفسه تشريع الحلال والحرام، فلا حلال إلا ما أحلَّه الله تعالى، ولا حرام إلا ما حرّمه سبحانه، ولا دين إلا ما شرعه ﷻ.

وقد نزلت هذه الآية في عرفة يوم حجة الوداع وكان يومَ جمعة أيضاً، قال عمر رضي الله عنه: والله إنني لأعلمُ اليومَ الذي نزلت فيه على رسولِ الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسولِ الله ﷺ عشيةَ عرفة في يومِ جمعة. [رواه البخاري (٤٤٠٧) ومسلم (٣٠١٧)].

وختم الله سبحانه بهذه الآية تشريع الحلال والحرام، ومات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بواحدٍ وثمانين يوماً^(١).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ١٣/٢.

• تمام النعمة:

ولمّا أكملَ اللهُ تعالى للأمة المسلمة دينها تَمَّتْ نعمتهُ سبحانه عليها: ﴿وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فتمامُ نعمة الله تعالى على الإنسان بالإسلام، فمن هداه الله سبحانه للإسلام، وشرح صدره للإيمان، ووفقه إلى الالتزام بما شرعه الحق سبحانه من الحلال والحرام، فقد أتمَّ اللهُ تعالى عليه النعمة، فكلُّ نعمةٍ من نعم الله تعالى من غير الإسلام ناقصةٌ غيرُ تامةٍ، ولا تكون النعمة تامة إلا في ظل الإسلام، وهو الدين الذي رضيه اللهُ تعالى لنا، فعلينا أن نرضاه لأنفسنا: ﴿وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ فأَيُّ رعايةٍ أفضلُ من رعاية الله سبحانه لهذه الأمة؛ حتى اختار لها دينها ورضيه لها، إنَّ ذلك يلقي على عاتق الأمة المسلمة مسؤوليةً ثقيلةً في مقابل هذه الرعاية، فما أحقَّ وما أكفرَ من يهملُ أو يرفضُ ما رضيه اللهُ له، فيختار غير ما رضيه اللهُ تعالى له!

• الاضطراب:

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِيْتِمَارٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه حالة الاضطراب التي يُعذر المسلم فيها بتناول المحرمات من الطعام والشراب. قال ابن كثير رحمته الله: «فمن احتاج إلى تناول شيءٍ من هذه المحرمات التي ذكرها اللهُ تعالى، لضرورةٍ ألجأته إلى ذلك، فله تناولها، والله غفور رحيم، لأنَّه تعالى يعلمُ حاجةَ عبده المضطر، وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له»^(١). والمخمصة: المجاعةُ التي تخمُّصُ فيها البطون، أي: تضمُر فيها البطون. ويشترط لمن يضطر إلى تناول المحرمات أن يكون ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِيْتِمَارٍ﴾ أي: غير مائلٍ ومنحرفٍ للإثم، ومختار له، ولهذا عليه ألا يأكل من الطعام المحرم إلا المقدار الذي يحفظ حياته. قال الفقيه الحنبلي ابن قدامة رحمته الله: «ويُباحُ أكلُ ما يسدُّ الرمق، ويأمنُ معه

(١) تفسير ابن كثير: ١٤/٢.

الموت بالإجماع، ويحرم ما زاد على الشبع بالإجماع أيضاً، وفي الشبع روايتان، أظهرهما لا يباح، فإذا اندفعت الضرورة لم يحل له الأكل كحالة الابتداء، ولأنه بعد سدّ الرمق غير مضطر، فلم يحل له الأكل للآية، والرواية الثانية: يباح له الشُّبْعُ، كما روى جابرُ بنُ سُمرة: أن رجلاً نزلَ الحرّةَ ومعه أهله وولده، فنفتت عنده ناقةً، فقالت له امرأته: اسلخها حتى نقدد شحمها ولحمها ونأكله، فقال: حتى أسأل رسولَ الله ﷺ، فسأله، فقال: «هل عندك غنى يغنيك؟» قال: لا، قال: «فكُلُوها» [رواه أبو داود (٣٨١٦) وأحمد (٢٠٨٠٠)].

ولأن ما جاز سدّ الرمق منه، جاز الشبع منه كالمباح، ويحتمل أن يفرّق بين ما إذا كانت الضرورة مستمرة، وبين ما إذا كانت مرجوة الزوال، فما كانت مستمرة، كحالة الأعرابي الذي سأل رسولَ الله ﷺ، جاز الشُّبْعُ، لأنه إذا اقتصر على سد الرمق عادت الضرورة إليه عن قرب، ولا يتمكن من البعد عن الميتة مخافة الضرورة المستقبلية، ويُفضي إلى ضعف بدنه، وربما أدى ذلك إلى تلفه^(١).

وهذا تحقيق سديد ومفيد، فإذا كانت الضرورة مؤقتة ويرجو زوالها اقتصر على ما يسدّ رمقه، ويحفظ حياته، وأما إذا كانت الضرورة مستمرة فله أن يأكل حتى يشبع. والله سبحانه أعلم.

وينبغي التنبيه إلى أن من يستطيع تحصيل الطعام الحلال كالسمك، والطعام المصنوع من الخضار ولحم الدجاج المذبوح ذبحاً شرعياً، لا يُعدّ مضطراً إذا عافت نفسه هذا الطعام، وتاقت إلى لحوم الأنعام من الإبل والغنم والبقر، فالضرورة تقدر بقدرها.

● الطيبات:

وبعد أن بين الله سبحانه ما حرّمه علينا من لحم الحيوانات، شرع سبحانه في بيان ما أحلّ لنا فقال:

(١) انظر: المغني: ٨/٥٩٥.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ .

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ وقد جاء هذا البيان جواباً لسؤال وجه للنبي ﷺ، كما هو ظاهر .

والطيِّبات والطيِّب، ضد الخبائث والخبِيث .

وقد وصف الله تعالى النبي ﷺ بأنه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فكل طيِّبٍ حلالٌ في شريعة الإسلام، وكلُّ خبيثٍ حرامٌ فيها أيضاً .

ومعنى الطيِّب: الذي يُستلذُّ ويُستطابُ لخلوه عن المكروه، طاب الشيء طيباً: لذٌّ وزكى، فالأرضُ الطيبة التي تصلح للنبات، وريحٌ طيبة إذا كانت ليّنة رخيّة، وطُعمَةٌ طيبة إذا كانت حلالاً، وامرأةٌ طيبةٌ إذا كانت حساناً عفيفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦]، وكلمة طيِّبة إذا لم يكن فيها مكروه، ونكهة طيبة إذا لم يكن فيها نتن، وطعام طيِّب الذي يستلذ الآكل طعمه^(١) .

وأصل الخُبْث في كلام العرب: المكروه، فإن كان من الكلام فهو الشتم، وإن كان من المِلَل فهو الكفر، وإن كان من الطعام فهو الحرام، وإن كان من الشراب فهو الضارُّ، ومنه قيل لما يُرمى من منفيِّ الحديد: الخَبْثُ، وخَبْثُ الحديد والفضة ما لا خيرَ فيه، وقوله ﷺ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ شَيْئاً، فَلَا يَقْرَبْنَا فِي الْمَسْجِدِ» [رواه البخاري (٨٥٣) ومسلم (٥٦٥)]، يريدُ الثوم والبصلَ والكُرَّاثَ، وخَبْثُها من جهة كراهة روائحها^(٢) .

(١) انظر: لسان العرب: ١/٥٦٣ .

(٢) لسان العرب: ٢/١٤٤ .

فالتَّيِّبُ من الطعام ما خلا عن المكروه في البدن والدين، فلا ضرر منه على البدن ولا على الدين، ولهذا ذهب أكثر المفسرين إلى القول بأن الطيبات هي الحلال.

قال سعيد بن جبير: ﴿قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم. وقال مقاتل: الطيبات: ما أحلَّ لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق^(١).

• صيد الجوارح:

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾ أي: وأحلَّ لكم صيد ما علَّمتُم من الجوارح؛ مثل: الكلاب والفهود والصقور وأشباهها، سُميت جوارح من الجرح وهو الكسب، تقول العرب: فلان جرح أهله خيراً، أي: كسبهم خيراً، ويقولون: فلان لا جارح له، أي: لا كاسب له، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي: ما كسبتم من خير أو شر^(٢).

ومعنى ﴿مُكَلِّينَ﴾ أي: معلموها فنَّ الصيد، لهذا قال سبحانه بعدها:

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾.

والصيد من أكبر مصادر الطعام للإنسان، أباحه الله تعالى خارج أرض الحرم وفي غير حال الإحرام، فللإنسان أن يصطادَ بوساطة آلات الصيد الجارحة، أو بوساطة الحيوان الجارح المدرب على الصيد، دلَّ على ذلك قوله تعالى:

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فمتى كان الجارح معلماً، وأمسك

على صاحبه، وكان صاحبه قد ذكر اسم الله عند إرساله حلَّ الصيد، ولو قتله الجارح.

ويشترط في حال قتل الجارح الصيد أن يكون قتله حدث بسبب ما أحدث

(١) تفسير ابن كثير: ١٥/٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

فيه من جرح، أما إذا قتله خنقاً فلا يحلُّ أكله، لأنه أصبح من المنخنقة التي حرّمها الله تعالى، قال القرطبي رحمته الله: «لو مات الصيد في أفواه الكلاب من غير بضع - أي جرح - لم يؤكل، لأنه مات خنقاً»^(١).

وهذا يدلُّ على أن الصيد بواسطة الشرك المفضّخة إذا مات الحيوان فيها خنقاً، لا يحلُّ أكله أيضاً، أما إذا أدركه الصياد حياً فذبحه فيحلُّ حينئذٍ أكله.

وجاءت السنّة الشريفة بمثل ما دلّت عليه الآية الكريمة، ففي «الصحيحين»: عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إنني أرسل الكلاب المعلمة، وأذكرُ اسمَ الله عليها، فقال صلى الله عليه وسلم: «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسمَ الله، فإن أمسك عليك فأدركته حياً فاذبحه، وإن أدركته قد قُتِلَ، ولم يأكل منه فكله، فإن أخذ الكلب ذكاته» [رواه البخاري (٥٤٨٣) ومسلم (٦/١٩٢٩)].

وفي روايةٍ لهما: «فإن أكل فلا تأكل فإنني أخاف أن يكون أمسك على نفسه» [البخاري (٥٤٨٧) ومسلم (٢/١٩٢٩)].

وليس قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ على إطلاقه، فهو مقيدٌ بالصيد من الحيوانات التي أحلَّ الله تعالى أكلها كالأرانب والغزلان والبط والحمام والعصافير وغيرها مما لم يرد فيها تحريمٌ.

أمّا الحيوانات التي ورد فيها تحريم فلا يحلُّ أكلها، يحلُّ فقط الانتفاع بالأجزاء الطاهرة منها، كريشها وشعرها وعظامها وعاجها، كما يحلُّ الانتفاع بجلودها إذا دُبغت، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَيُّمَا إهابٍ دُبِغَ فَقَدْ طُهِرَ» [رواه الترمذي (١٧٢٨) والنسائي (٤٢٤١)].

وقال أيضاً لما ماتت شاة لأم المؤمنين ميمونة: «هَلَّا انتفعتم بجلدها» قالوا: إنها ميتة، قال: «إِنَّمَا حَرَّمَ أَكْلُهَا» [رواه البخاري (٥٥٣١) ومسلم (٣٦٣)].

فكل جلود الحيوانات تطهرُ بالدباغ إلا جلد الخنزير لأن عينه نجسة.

(١) تفسير القرطبي: ٧١/٦.

• ما يحرم أكله من الحيوانات:

والحيوانات التي يحرم أكلها كلُّ حيوانٍ ذي نابٍ يصيدُ بناه، أو ذي مخلبٍ يصيدُ به، والمخلبُ الظفر، من السباع والطيور، ودليل تحريم أكلها أنه ﷺ نهى عن أكل كل ذي نابٍ من السباع، وكل ذي مخلبٍ من الطير. [رواه مسلم (١٩٣٢) وأبو داود (٣٨٠٢) ومالك في الموطأ (١٣) كتاب الصيد].

ولأن طبيعة هذه الحيوانات مذمومة شرعاً، فهي حيوانات جارحة قاتلة مؤذية، يُخشى أن يتولّد من لحمها شيءٌ من طباعها، فيحرم أكلها إكراماً لبني آدم^(١)، كما أنها تأكل الجيف، فقد تُسبّب لأكلها كثيراً من الأمراض.

وكذلك يحرمُ أكل هوامّ الأرض والحشرات كالفأرة والوزغ - وهو سام أبرص - والقنفذ والحية والعقرب والضفدع والزنبور والبرغوث والقمل والذباب والبعوض والقراد^(٢)؛ لأنها من الخبائث، قال رسول الله ﷺ: «خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ كُلُّهُنَّ فَاسِقٌ يُقْتَلَنَّ فِي الْحَرَمِ: الغرابُ، والحدأةُ، والعقربُ، والفأرةُ، والكلبُ العقورُ» [رواه البخاري (١٨٢٩)].

ويدلُّ جِلُّ قتلها في الحرم على تحريم أكلها، لأنّ المباح لا يقتل، بل يُصاد أو يُذبح^(٣).

ويحرم أيضاً أكلُ لحوم الحمر الأهلية، بخلاف الوحشية فإنها ولبنها حلال، لما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ الله ﷺ نهى عن متعة النساءِ يومَ خيبر وعن لحومِ الحُمُرِ الإنسية». [رواه البخاري (٤٢١٦) ومسلم (١٤٠٧)]. ومتعة النساء: أي الزواج بهن بعقد لوقت معين.

وعن جابر رضي الله عنه قال: «أكلنا زمنَ خيبر الخيلَ وحُمَرَ الوحش، ونهانا النبي ﷺ عن الحمار الأهلي». [رواه مسلم (١٩٤١)].

(١) انظر: حاشية ابن عابدين: ١٩٣/٥.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) انظر: أحكام الأطعمة، ص ٢٥٩.

﴿وَأَقْوَأُ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ .

• حكم ذبائح اليهود والنصارى:

وبعد أن ذكر تعالى ما حرّم من الخبائث وما أحلّ من الطيّبات قال:

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مَتَّحِدِينَ أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ .

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾، ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتاب فقال تعالى:

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني ذبائحهم، وهذا أمرٌ مجمعٌ عليه بين العلماء، أن ذبائحهم حلالٌ للمسلمين، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزّه عنه تعالى وتقدّس^(١).

وقال القرطبي رحمته الله: «لما كان القياسُ ألا تجوزَ ذبائحهم، كما نقول: إنّه لا صلاة لهم، ولا عبادة مقبولة، رخصَ الله تعالى في ذبائحهم على هذه الأمة، وأخرجها النصُّ عن القياس»^(٢).

وقوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ﴾ يدلُّ على أنّ ما كان محرّماً عليهم في شرائعهم وأحلّ في الشريعة الإسلامية أصبح حلالاً لهم، لأنّ الشريعة الإسلامية نسخت العمل بالشرائع السابقة، فقد أصبح التحليل والتحرّيم مرتبطاً بشريعتنا الإسلامية فقط، ولذلك لو أطعمونا خنزيراً أو نحوه وقالوا: هو حلال في شريعتنا، وقد أباح الله لكم طعامنا، كذبناهم، وقلنا: إن الطعام الذي يحلُّ لكم في شريعتنا هو الذي

(١) تفسير ابن كثير: ١٩/٢.

(٢) تفسير القرطبي: ٧٧/٦.

يحل لنا لا غيره، فحاصل المعنى: طعامهم حلُّ لكم إذا كان من الطعام الذي أحلته لكم^(١).

فقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ ليس على عمومه، بل هو مخصص بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ...﴾ الآية [المائدة: ٣]، فلو علمنا أن أهل الكتاب يذبحون ذبْحاً يجعل البهيمة في حكم الميتة حرمت، كما لو فعل ذلك المسلم، لأنهم ليسوا أعلى من المسلمين، بل هم في هذا الباب كالمسلمين، فكلُّ ذبِح من مسلم أو كتابي يجعل الذبيحة في حكم المنخنة أو الموقوذة أو المتردية أو النطيحة، ذبِحٌ يحرم أكل البهيمة، ويجعلها في عداد الميتات لما مرَّ معنا في الآية الكريمة التي يُخصَّص بها عموم قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ فالبهائم التي يذبحونها بوساطة الصعق الكهربائي أو الضرب على الرأس أو الخنق لا يحلُّ أكلها، لأنها في حكم الميتة والموقوذة والمنخنة.

● آراء شاذة:

هذا هو الحق الذي درج عليه علماء المسلمين وعامتهم، ولا عبرة برأي من شدَّ عن الحق، وزعم أنه يتمسك بعموم قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾. ذهب إلى هذا الرأي الشاذ الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه «الحلال والحرام في الإسلام»، وقد سبقه إليه محمد رشيد رضا وأستاذه محمد عبده، في الفتوى المشهورة عنه، والتي عُرفت بالفتوى الترنسفالية، لأنها صدرت ردّاً على سؤال جاء من بلاد الترنسفال في البلقان، كما ذهب إليه بعض المتأخرين من فقهاء المالكية.

ولا دليل لأصحاب هذا القول من علماء وفقهاء المذهب المالكي سوى جملة ذكرت على لسان القاضي أبي بكر ابن العربي في كتابه «أحكام القرآن»، وهي: «ولقد سئلت عن النصرانيِّ يفتلُّ عنق الدجاجة ثم يطبخها، هل تؤكل معه

(١) انظر: روح المعاني: ٦٥/٦.

أو تؤخذ منه طعاماً؟ فقلتُ: تؤكل، لأنّها طعامه، وطعام أحباره ورهبانه، وإن لم تكن هذه ذكاة عندنا».

وليس في هذا ما يصلح دليلاً علمياً، لأنّه ذكر بعد ذلك في الكتاب نفسه وفي الصفحة نفسها ما يناقضه ويسقطه، ففي [صفحة ٢٢٩/١ الطبعة الأولى]: «فإن قيل: فما أكلوه على غير وجه الذكاة كالخنق والحظم، فالجواب: إن هذا ميتة، وهي حرامٌ بالنص، وإن أكلوها فلا نأكلها نحن كالخنزير، فإنه حلال لهم ومن طعامهم، وهو حرامٌ علينا»^(١).

• أهل الكتاب:

المراد بأهل الكتاب في القرآن الكريم اليهود والنصارى، وهو قول عامة المفسرين^(٢)، قال تعالى: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ هَتَأْتُمْ هَتُوءًا حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران].

وسياّتي معنا قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَرَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ...﴾ الآية.

ولا شك أنّ اليهود والنصارى هم الذين أنزل الله عليهم التوراة والإنجيل؛ قال القرطبي رحمته الله: «وأما المجوس فالعلماء مجمعون، إلا من شدّ منهم، على أنّ ذبائحهم لا تؤكل، ولا يتزوَّج منهم، لأنهم ليسوا أهل كتاب»^(٣).

(١) انظر كتاب المؤلف: نظرات في كتاب «الحلال والحرام في الإسلام».

(٢) انظر: فتح القدير: ١٤/٢؛ وتفسير أبي السعود: ١٠/٢؛ و«نظرات في كتاب الحلال والحرام».

(٣) تفسير القرطبي: ٧٧/٦.

● المحصنات الكتابيات:

وكما أنّ في الطعام ما هو طيبٌ وخبيثٌ، فإن في النساء أيضاً طيبات وخبيثات، والنساء الطيبات هنّ النساء العفيفات، سواء كنّ من المسلمات أو الكتابيات، قال تعالى:

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال ذلك في سياق العطف على الطيبات، أي: وأحلّ لكم نكاح المحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، فدلّت الآية الكريمة على حلّ الزواج من اليهوديات والنصرانيات.

وخصّصت هذه الآية عموم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وشرط الله تعالى أن يعاملنّ كما تعامل النساء المسلمات من حيث تقديم المهر لهنّ فقال:

﴿إِذَا عَاتَبْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾.

وكذلك شرط سبحانه العفة في الرجال كما شرطها في النساء فقال:

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مَتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي: غير مجاهرين بالزنى،

ولا متخذي عشيقات.

ثم ختم سبحانه الآية محذراً من الكفر بعد الإيمان، ومبيّناً ما يترتب على ذلك من حبوط ثواب الأعمال الصالحة، وبطلانها في الدنيا، والخسارة الكبرى يوم القيامة، فقال:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْآيَاتِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾، وجاء هذا تذييلاً

لقوله في صدرها: ﴿أَيُّومٌ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّبَيِّتُ﴾ تعظيماً لشأن ما أحله الله تعالى وما حرّمه وتغليظاً على من خالف ذلك^(١).

(١) انظر: روح المعاني: ٦/٦٧.

النِّدَاءُ الثَّلَاثُ

الأمر بالطهارة

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ
وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُودًا فَأَطْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى
سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ
وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لِمَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي
وَأَنْفَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

• تمهيد:

اعتنى القرآن الكريم بإظهار السمات والخصائص التي يتميز بها الإسلام عن غيره من الشرائع والأديان، ومن هذه الخصائص أنه دين التوسط والاعتدال، ولهذا فإن في الشريعة الإسلامية مختلف الأحكام التي تلي كل حاجات الإنسان الجسدية والروحية، والعقلية والعاطفية، والدينية والدنيوية، وتراعي التوازن والتوسط فيما بينها بحيث تحقق للإنسان سعاده في الدنيا والآخرة.

هذا الاهتمام القرآني بخصائص الإسلام وميزاته، لا نراه في موضوعات الآيات والسور فحسب، إنما نراه أيضاً في ترتيب الآيات واتساقها فيما بينها وفي موقع كل آية بالنسبة لسبقها وسياقها.

انظر على سبيل المثال إلى أسلوب القرآن الكريم في تهذيب النفوس،

وتربيتها في الترغيب تارةً والترهيب أخرى، وكيف قرن بين آيات الترغيب وآيات الترهيب بحيث يبقى الإنسان بين الرغبة والرغبة، والرجاء والخوف.

وهكذا الحال في الموضوعات الأخرى، فثمة حِجْمٌ وأسرارٌ في مواقع الآيات من بعضها، وكذلك لموقع الكلمة القرآنية بين كلمات الآية الواحدة، وما أكثر ما استدل العلماء على المعنى المراد من الكلمة القرآنية من موقعها بين الكلمات المجاورة لها.

• طيبات الروح:

وقد جاء النداء الثالث يبين أحكاماً تتعلق بأهم العبادات، وهي عبادة الصلاة، بعد ما سبق بيانه من أحكام تتعلق بالطعام، وهو من مطالب الإنسان المادية الجسدية، للتوفيق والموازنة بين حاجات الإنسان الجسدية في الطعام والشراب، وتطلعاته الروحية إلى عبادة الله تعالى، ولعلّ العلامة الألوسي رحمته الله قصد هذا المعنى عندما قال في بداية النداء الثالث: «يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» شروع في بيان الشرائع المتعلقة بدينهم بعد بيان ما يتعلق بدينهم»^(١).

وجاء بعده سيد قطب رحمته الله فقال: «إنها لفتة إلى لونٍ آخر من الطيبات، طيبات الروح الخالصة، إلى جانب طيبات الطعام والنساء، لونٍ يجد فيه قلب المؤمن ما لا يجده في سائر المتاع، إنها لذة اللقاء مع الله تعالى في جوٍّ من الطهر والخشوع، فلما فرغ من الحديث عن متاع الطعام والزواج، ارتقى إلى لذة الروح والقلب في الطهارة والصلاة، التي بها تتكامل حياة الإنسان»^(٢).

• الوضوء والغسل والتيمم:

ولما كانت الطهارة من الحدّثين الأصغر والأكبر، بالوضوء والغسل أو بما

(١) روح المعاني: ٦٨/٦.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٨٤٩/٢.

يقوم مقامهما من التيمم، شرطاً أساسياً لصحة الصلاة، بين الله سبحانه أحكام الطهارة بقوله الكريم:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ وهذه هي الفروض الأساسية للوضوء التي لا يصح دونها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ بقراءة النصب، يدل على فرض غسل القدمين إلى الكعبين في الوضوء، وأما بقراءة الخفض فتدل على مشروعية المسح على الخفين، وأن ذلك يقوم مقام غسل القدمين بالشروط المذكورة في كتب الفقه، أو نقول: جاءت قراءة الخفض لتناسب الكلام والمجاورة، وهذا ذائع وشائع في كلام العرب كقولهم: «جحرُ ضبِّ حَرِبٍ»، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١] وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بد منه^(١).

ثم بين الله تعالى وجوب الغسل من الحدث الأكبر، وهو الجنابة، بقوله:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ .

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٦/٢.

ثم شرع سبحانه التيمم ليقوم مقام الوضوء والغسل عند فقد الماء، أو تعذر استعماله بسبب المرض، فقال:

﴿وَأِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ .

ويبين سبحانه كيفية التيمم، وأنه يكون بمسح الوجه واليدين بالصعيد الطاهر فقال:

﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ ^(١) .

ثم ختم الله سبحانه الآية الكريمة، كما ختم آية المحرمات من الطعام، ببيان سماحة الشريعة الإسلامية ويسر أحكامها، فقال تعالى:

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ . وهذا من فضله سبحانه ومنته العظمى على هذه الأمة المسلمة، فلا تتم نعمة الله على الإنسان إلا إذا تعلم هذه الأحكام وعمل بها، فيكون حينئذ حقاً من الشاكرين:

﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

• التذكير بالميثاق:

وناسب بعد بيان هذه النعم الجزئية، أن يذكرهم بنعمته الشاملة الكبرى، وهي نعمة الإسلام والإيمان:

﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَنَّوْا
اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ^(٥) .

﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ . فالله سبحانه يطالب المؤمنين بهذا التذكير أن يوفوا بعقدهم وميثاقهم معه سبحانه، ويحذّرهم عواقب نقض العهد والعقد معه كما فعل بنو إسرائيل من قبلهم، فالتذكير بالنعمة والميثاق يستدعي للوفاء به القيام بالتكاليف التي كلفنا الله بها .

(١) راجع تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء في تفسيرنا هذا .

والمراد بالميثاق: عهدهم الذي عاهدوا رسول الله ﷺ عليه عند دخولهم في الإسلام، أو هو ميثاق الفطرة الأول الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين استخرجهم من صُلب أبيهم آدم، وهم في عالم الذرِّ والنُّطفِ، والذي أخبرنا الله سبحانه به في قوله الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولا يؤدي حق هذا الميثاق ويفي به إلا من يتقي الله تعالى، ولهذا ختم الآية بقوله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.



النداء الرابع

الأمر بالعدل

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَحْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ءَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾

يَبْنِي اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا النِّدَاءِ الْكَيْفِيَّةَ الْعَمَلِيَّةَ لِلْمَحَافَظَةِ عَلَى مِيثَاقِهِمْ
مَعَ اللهُ تَعَالَى، فَقَالَ:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَحْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

إِنَّ الْمَحَافَظَةَ عَلَى عَهْدِ اللهِ وَمِيثَاقِهِ تَسْتَدْعِي الْقِيَامَ بِأَرْبَعَةِ أُمُورٍ؛ هِيَ:

١ - الْقِيَامُ لِلَّهِ .

٢ - الشَّهَادَةُ بِالْقِسْطِ .

٣ - التَّزَامُ الْعَدْلُ فِي مَعَامَلَةِ الْآخَرِينَ وَلَوْ كَانُوا أَعْدَاءً لَنَا .

٤ - التَّزَامُ التَّقْوَى .

وَلَا يَقُومُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةَ إِلَّا مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ، وَقَمَعَ هَوَاهُ، وَقَدَّمَ أَمْرَ

اللَّهِ وَشَرَعَهُ عَلَى أَمْرِ نَفْسِهِ وَمَصْلِحَتِهِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أَي: كُونُوا كَثِيرِي الْقِيَامِ بِحَقُوقِ اللهِ،

مداومين على ذلك، ونبه بلفظ ﴿قَوَّامِينَ﴾ إلى أن القيام بأمر الله لا يكفي مرة أو مرتين، بل يجب أن يكون ذلك أمراً دائماً ولازماً ومستمراً.

﴿شُهِدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ولا تكون الشهادة بالقسط، وهو العدل، حتى تخلو عن كل المؤثرات الخارجة عنها.

فكثيراً ما يخضع الشهود عند أداء الشهادة لضغوط مصالحهم الخاصة، أو لضغوط العلاقات الاجتماعية من قرابة أو صداقة أو جوار، فإذا تمكن الشاهد من تجريد شهادته عن كل هذه المؤثرات، كان بحق شاهداً بالقسط، وكانت شهادته لله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهِدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

فمن نجح في الوفاء بعهد الله وميثاقه فاز ونال ما وعد الله به في قوله الكريم:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٩)

ومن نقض عهد الله وميثاقه فكذب وكفر، استحقَّ وعيد الله في قوله:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١٠)



النداء الخامس

التحذير من نقض الميثاق، وذكر نعمة الله

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ اِذْ هُمْ قَوْمٌ اَنْ يَبْسُطُوا اِلَيْكُمْ اَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ اَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاَتَقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ فِيمَا نَقُضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيءُ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ يَأْهَلِ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ. قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ نَشْرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَعْرِفُ لِمَنْ يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يٰ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ
الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا
وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يُقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا
تُرْجِدُوا عَلَيْهَا أَدْبَارُكُمْ فَنَنْقَلِبُوكُمْ لِخُسْرَيْنِ ﴿٢١﴾ قَالُوا يٰ مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبْرِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ
يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً يَا مُوسَى اتَّخَذْتُمْ
عَلَيْهِمْ آدِلُوهُ فَادَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ عَدَاوَةٌ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يٰ مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا
هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ
يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَا أَقْنَلُكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لِيُنَاسِطَ إِلَيْكَ يَدَاكَ لِتُقْبَلَ
مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْنَلُكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي
وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ
فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَجَعَلَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ
قَالَ يُولِيغٌ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ هَذَا الْغُرَابَ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾
مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ
رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ
يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
وَأرجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ عَزْمُورٌ

وجاء النداء الخامس للمؤمنين يذكّرهم بنعمته سبحانه عليهم بكفّ شرّ الكفار عنهم، ويبين لهم أنّ التزام التقوى والتوكل على الله وحده أهمّ أسباب الوقاية والحفظ:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللّٰهَ عَيْكُمْ اِذْ هُمْ قَوْمٌ اَنْ يَّبْسُطُوْا اِيْكُمْ اَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ اَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاَتَّقُوا اللّٰهَ وَعَلَى اللّٰهِ فَاَيْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴿١١﴾﴾ .

والقوم الذين همّوا بأن يبسطوا بالمؤمنين هم مشركو قريش، أو يهود المدينة المنورة، وكلاهما همّ بذلك، إلا أنّ سياق الآيات تتحدّث عن اليهود ونقضهم للعهد والميثاق - كما سيأتي - وهذا يرجّح أنّ اليهود هم الذين تعينهم الآية الكريمة، وأنّ هذا النداء جاء توطئة للحديث عن أكثر الناس نقضاً لعهد الله وميثاقه .

• الناقضون الميثاق:

أخذ الله تعالى العهد والميثاق على بني إسرائيل، واختار من كل قبيلة من قبائلهم الاثنتي عشرة رجلاً من علمائهم وأشرفهم نقيباً عليهم، ومهمة هؤلاء النقباء أن يشرفوا على تنفيذ العهد ورعايته .

﴿وَلَقَدْ اَخَذَ اللّٰهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرٰٓءِيْلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيْبًا وَقَالَ اللّٰهُ اِنِّيْ مَعَكُمْ لَئِنْ اَقَمْتُمْ الصَّلٰوةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكٰوةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِيْ وَعَزَّرْتُمْهُمْ وَاَقْرَضْتُمُ اللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّا كُفْرٰنَ عَنْكُمْ سِعٰتِكُمْ وَاَلْدٰخِلٰنَكُمْ جَنَّتِ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهٰرُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيْلِ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ اَخَذَ اللّٰهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرٰٓءِيْلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيْبًا﴾ .

وأخبرهم سبحانه أنّه معهم يؤيدهم وينصرهم إذا أوفوا بالعهد، فأقاموا الصلاة، وأدّوا الزكاة، وآمنوا برسول الله تعالى، ودافعوا عنهم، وأنفقوا أموالهم في سبيل طاعة الله ومرصاته:

﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ .

وأخبرهم أيضاً أنّ لهم إن فعلوا هذا إلى جانب النصر والتأييد في الدنيا، أن يكفر الله عنهم سيئاتهم يوم القيامة، ويدخلهم الجنة:

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ .

ثم بين عاقبة العذر والكفر فقال:

﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ .

ويلاحظ في الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل أنه تضمن وجوب الإيمان بجميع رسل الله تعالى، فلم يفعل اليهود ذلك، بل قالوا: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وكذلك أخذ الله عليهم العهد أن يدافعوا عن الرسل وينصروهم، ولكن أيدي اليهود الآثمة امتدت إلى الرسل بالقتل، وهموا أكثر من مرة بقتل سيد الرسل وخاتمهم محمد ﷺ، وقد سجّل الله سبحانه جرائمهم هذه في آيات كثيرة؛ منها قوله ﷻ: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقًّا وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

ونتيجة نقضهم للميثاق لعنهم الله سبحانه وأبعدهم عن رحمته:

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ﴾ .

كما جعل قلوبهم غليظة يابسة لا تقبل الحق ولا تدعن له:

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً﴾ .

حتى تجرّوا على كتاب الله الذي أنزله عليهم فحرّفوه وغيروه:

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ .

وتركوا قسماً كبيراً مما كُفُوا به :

﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ .

وأصبحت الخيانة لازمة لهم :

﴿وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ

كعبد الله بن سلام رضي الله عنه .

والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله ﷺ تعبيرٌ

طريف : ﴿وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ الفعلة الخائنة والنية الخائنة والكلمة

الخائنة والنظرة الخائنة . . . يجملها النصُّ بحذف الموصوف وإثبات الصفة

(خائنة) لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجوَّ وتلقي ظلالها وحدها على

القوم، فهذا هو جوهر موقفهم مع رسول الله ﷺ^(١) .

ومع ذلك أمر رسول الله ﷺ أن يعفو عنهم ويصفح :

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولعلَّ الأمر محمول على الندب

والاستحباب، تأليفاً لهم، وصفحاً عن الإساءات التي صدرت منهم بحق

رسول الله ﷺ .

• نقض النصارى للميثاق:

وكما نقض اليهود الميثاق نقض النصارى الميثاق أيضاً:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّوْا أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾

فَأَغْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا

يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ .

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّوْا﴾ أي: قالوها دعوى دون أن يحققوها في

حياتهم، وذلك أنهم سمّوا أنفسهم بهذا الاسم ادعاءً لنصرة الله تعالى^(٢) .

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٨٥٩/٢ .

(٢) التفسير الكبير: ١٨٨/١١ .

﴿أَحَدَنَا مِيثَقُهُمْ﴾ وكان توحيدُ الله أساسَ الميثاق، ومنه كانت نقطة

انحرافهم ونقضهم للميثاق.

﴿فَسُوا حَظًا مِمَّا دُكِرُوا بِهِ﴾ فتركوا قسماً كبيراً من دين الله وشرعه الذي

كُلّفوا به، وتفرّقوا إلى فرقٍ وأحزابٍ متعادية ومتباغضة، فجعل الله سبحانه
العداوة والبغضاء لازمةً لهم، ولاصقةً بهم إلى يوم القيامة:

﴿فَاعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا

يَصْنَعُونَ﴾ وصدق الله تعالى؛ فالخلافات والعداوات القائمة بين الأمم النصرانية
كانت ولا تزال لازمةً لهم، ولاصقة بهم.

• حاجة أهل الكتاب إلى رسالة الإسلام:

أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ إلى أهل الأرض جميعهم؛ عربهم

وعجمهم، أميهم وكتابيهم، واتجهت الآيات الكريمة تخاطبُ أهل الكتاب من
اليهود والنصارى، لتؤكدَ عمومَ رسالة النبي ﷺ، وأنه أُرسِلَ إليهم وإلى غيرهم،
فكونهم أهل كتابٍ لا يعني أنهم غير مكلفين برسالة الإسلام، فهم في أشد الحاجة
إلى رسالة الرسول ﷺ، رسالة الإسلام الناصخة لكلِّ الشرائع والملل السابقة:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ

تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ

مُبِينٌ ﴿١٥﴾

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ

تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾. ومن خلال هذا الخطاب الموجه

إلى اليهود والنصارى، بيّن الله شدة حاجتهم إلى رسالة النبي ﷺ، وضرورة

الرسالة الإسلامية إليهم، التي جعلها الله رسالة التيسير والسماحة، ولهذا قال

الله بعدها: ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ لأنه ﷺ جاء بالتيسير، فأحلَّ لهم الطيبات،

وحرّم عليهم الخبائث، ووضع عنهم التكاليف الشرعية الثقيلة التي كانوا مكلفين

بها، كما جاء في آية سورة الأعراف [١٥٧]: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ وهو ﷺ نور الأنوار والنبى المختار، الذى نوره الله تعالى ونور به العالمين فجعله سراجاً منيراً.

﴿وَكُتِبَ مُبِينٌ﴾ وهو القرآن الكريم والتنزيل الحكيم.

• سبل السلام:

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦).

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ طرق السلامة من كل مخافة، وما أكثرها فيهم! المخافة من الحروب والنزاعات القائمة بينهم، ومن القلق والاضطراب الذى يملأ قلوبهم، ويسيطر على نفوسهم، حتى شاعت فيهم الأمراض النفسية والجسدية.

أو: هي السبل التي توصلهم إلى الله، والسلام اسم من أسمائه الحسنى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

أو: السبل التي توصلهم إلى جنة الله تعالى ورضوانه، والجنة دار السلام: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] فالجنة دار السلام، لأنها سالمة عن كل المنغصات، فلا هم فيها ولا حزن، ولا خوف ولا قلق.

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ظلمات الكفر والضلال، وظلمات المادية الملحدة الباغية، وظلمات الانحلال والشهوات الطاغية.
﴿يَاذِينِ﴾ بتوفيقه وهدايته.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين الإسلام دين الإنسان والسلام.

• من ضلالات أهل الكتاب:

ومما يؤكّد حاجة أهل الكتاب إلى رسالة الإسلام، الضلالات الكبرى في عقائدهم، والتي أصبحوا بها كافرين؛ قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

وردّ الله سبحانه عليهم بتبكيتهم، وبيان بطلان قولهم:

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

فعيسى عليه السلام شأنه شأن جميع المخلوقات داخل في ملكوته سبحانه وتحت

قهره ومشيئته:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ﴾.

ومن ضلالات أهل الكتاب التي انتشرت وشاعت بين اليهود والنصارى،

الدعوى الباطلة التي جعلتهم يرون لأنفسهم امتيازاً وتفوقاً على غيرهم من

البشر:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ۗ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝﴾

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ۗ﴾ وهي أصل أفكار التمييز العنصري واللوني المنتشرة بينهم، والتي دفعتهم إلى استعمار الأمم والشعوب، وسرقة خيراتها، ونهب ثرواتها.

وبين الله سبحانه بطلان هذه الضلالة الفاشية بينهم فقال:

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ۗ﴾ بالبلايا والمحن والمصائب في الدنيا، وفي النار يوم القيامة.

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۗ﴾ لا امتياز لكم عليهم.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ۗ﴾ وهم المؤمنون بالله تعالى وحده، وبرسله ﷺ دون تفریق بينهم.

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ﴾ وهم الذين كفروا به سبحانه وبرسله ﷺ.

﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝﴾.

• جاء البشير النذير ﷺ:

وكرر الله تعالى النداء لأهل الكتاب ليؤكد أن سيدنا محمداً ﷺ أرسل إليهم كما أرسل إلى غيرهم، وأنه عليه الصلاة والسلام جاء مبشراً لمن آمن برسالته برحمة الله ورضوانه وجنته، ومنذراً من أعرض عن رسالته بغضب الله وسخطه وعذابه، وأن بعثته عليه الصلاة والسلام جاءت بعد انقطاع رسالات الله تعالى لفترة امتدت من عهد عيسى ﷺ إلى عهده ﷺ على مدى ستة قرون متوالية تقريباً، وقد أصبح الناس عامةً، وأهل الكتاب خاصةً، في أمس الحاجة إلى رسالته عليه الصلاة والسلام، فلا حجة لأحد بعد أن بعث النبي البشير النذير

ﷺ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يقول: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاء البشير النذير وأقام الله بذلك حجته الكبرى على خلقه:

﴿يَتَأَهَّلَ الْكَاتِبِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَرَقٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ .

جاء في الحديث النبوي: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم، لأنه ليس بيني وبينه نبي» [رواه البخاري (٣٤٤٣)].

• جحود وخذلان:

بيّنت الآيات الكريمة التالية مواقف بني إسرائيل من نبيّ الله موسى عليه السلام توطئة وتمهيداً لبيان مواقفهم من سيدنا رسول الله ﷺ، فمن المعلوم أنّ اليهود كانوا يشكلون قسماً كبيراً من سكان المدينة المنورة عندما هاجر إليها رسول الله ﷺ، وكانوا قبل بعثته عليه الصلاة والسلام يتوقعون بعثته، ويستفتحون به، أي يسألون الله النصر به عليه الصلاة والسلام لما يجدون في التوراة من نعوته وصفاته، فلما بُعث ﷺ، وهاجر إلى المدينة، ورآه اليهود، وتأكدوا أنّه حقاً النبيّ المنتظر، كفروا به، وجحدوا نبوته، وأنكروا رسالته عليه الصلاة والسلام إلا قليلاً منهم، وسجّل الله موقفهم هذا بقوله الكريم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ [البقرة: ٨٩].

وأما مواقفهم من نبيّ الله موسى عليه السلام الذي أرسله الله إليهم، وخلصهم على يديه من ظلم فرعون وطغيانه، الذي كان يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وأنعم الله عليهم إكراماً لموسى عليه السلام نعماً جلييلة كتظليل الغمام، ونبع الماء من الحجر، وإنزال المن والسلوى، وفوق كل ذلك أنزل عليهم التوراة نوراً وهدايةً، ومع كلّ هذه النعم وقفوا من نبيّ الله موسى موقف الجحود والخذلان،

عندما طلب منهم موسى أن يجاهدوا في سبيل الله، ويدخلوا الأرض المقدسة، وقبل أن يطلب منهم ذلك ذكّرهم ببعض نعم الله عليهم:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ وهذا يدل على أن وجود الأنبياء في أي مجتمع من المجتمعات من أعظم وأجل النعم، فكلما هلك نبي في بني إسرائيل قام فيهم غيره من لدن موسى إلى زمن عيسى ﷺ.

﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ أي: تعيشون عيش الملوك لكثرة ما أفاض الله تعالى عليكم من رزقه وفضله.

﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ في ذلك الزمن^(١)، وإلا فإن الأمة المسلمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبياً ﷺ، وأكثر أرزاقاً وأموالاً، وأوسع ملكاً، وأدوم عزاً^(٢).

﴿يَنْقُورِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ آذَانِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿٢١﴾﴾

﴿يَنْقُورِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ وهي أرض فلسطين من بلاد الشام.

والمقدّسة: المطهرة، ولعل ذلك بسبب كثرة الأنبياء الذين عاشوا وماتوا فيها، أو لكون المسجد الأقصى فيها.

(١) ما ورد على لسان موسى ﷺ من ذكر الأنبياء والملوك إنما هو نبوءة منه ﷺ لما سيظهر في هذه الأمة من ملوك وأنبياء (م).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٧/٢.

﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: التي أمركم الله تعالى بدخولها، وفرضه عليكم، ولا يتم هذا إلا بقتال أعدائكم وجهادهم.

فالكِتْبُ هنا معناه الفرض، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وهو ما ذهب إليه السُّدِّيُّ من علماء التفسير^(١). ويرجح هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَا تَزِدُّوا عَلَىٰ آدَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: لا تنكثوا عن الجهاد.

• رجلا ن مؤمنان:

ولكن قوم موسى نكلوا عن الجهاد جبناً وخوفاً:

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ﴾ هكذا دون أن يصفوه بصفة النبوة أو الرسالة التي أكرمه الله تعالى بهما.

﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ وبهذا جمعوا إلى الجبن والخوف صفة العجز والكسل.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بصدق الإيمان والخوف من الله تعالى.

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي: اجمعوا على أعدائكم، واقصدوا الهدف الرئيس وهو باب مدينتهم، التي يتحصنون فيها.

(١) انظر: روح المعاني: ١٠٦/٦.

فإذا ظفرتم بهذا الهدف، وتمكّنتم منه، انتصرتم على عدوكم:
﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

وتوكلوا على الله مع بذل الجهد والتضحية إن كنتم حقاً مؤمنين به سبحانه:
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

رجلان فقط من أمة اليهود أظهرها صدق الإيمان وعزم اليقين، فنصحا وأخلصا لله في نصحهما، ولكنّ القلوب القاسية الغليظة التي ران عليها الخوف والجبن والعجز لم تنتفع بهذا النصح:

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا
قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾.

بل ضموا إلى كل ذلك الوقاحة وسوء الأدب مع الله تعالى، ثم مع نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام:

﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فما أقيح هذا الجواب!

وما أجمل ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين استشارهم في قتال المشركين، وقال لهم: «أشيروا عليّ أيها الناس» فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء، ولعلّ الله أن يرئكَ منا ما تقرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله.

وتكلم أيضاً المقداد بن عمرو الكندي رضي الله عنه فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾،

ولكننا نقاتلُ عن يمينِكَ، وعن يساركِ، ومن بين يديك، ومن خلفك لرواه البخاري [٣٩٥٢] (١).

وتهلّل وجهُ رسولِ الله ﷺ وأشرقَ، وسرّه ذلك، وحُقّ له عليه الصلاة والسلام أن يُسرَّ، ولعينه أن تقرَّ، بما أنعمَ الله تعالى عليه بأصحابه الأخيار الأطهار الصفوة الطيبة المختارة بعد الأنبياء (٢).

وحُقّ لموسى ﷺ أن يأسفَ ويحزنَ وهو يواجهُ من قومه كلَّ هذا الجحود والخذلان، مع الوقاحة وسوء الأدب، فلا يملكُ إلا أن يتوجّه إلى الله بكلماتٍ تقطرُ حزناً وأسى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٥) ﴿٢٥﴾

وحكّم الله تبارك وتعالى عليهم بالحرمان من خيرات الأرض المقدسة وبركاتها مدّة أربعين سنة، حتى انقضى جيلٌ هؤلاء المتخاذلين الجبناء:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦) ﴿٢٦﴾

• عاقبة الحسد (جريمة القتل الأولى):

وإذا كان الحرمان عاقبة الخذلان، تُرى ما عاقبة الحسد والبغي الذي جعل يهودَ المدينة المنورة يقفون من رسولِ الله ﷺ مواقفهم المشهورة التي أشرت إليها سابقاً؟ قال الله تعالى:

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٩/٢؛ وانظر: سيرة النبي ﷺ، للمؤلف، ص ٣٣٦.

(٢) انظر ما كتبه عن سورة النمل في هذا التفسير تحت عنوان: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىٰ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ
قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: اقرأ على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم^(١) .

﴿نَبَأَ ابْنَىٰ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ أي: قدّم كل واحدٍ منهما عبادةً يتقرب بها إلى الله .

﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ فقبل الله تعالى عبادة أحدهما .

﴿وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ وردّ عبادة الآخر، فحسد المردود أخاه المقبول، وقال له :

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ . فردّ عليه أخوه مبيناً سبب قبول الله لعبادته :

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فالتقوى سبب قبول العبادة .

ثم بيّن موقفه من أخيه الحاسد فقال :

﴿لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ .

إنّ الخوف من الله سبحانه هو السبب الذي حمله على أن يقف من أخيه هذا الموقف، ولهذا أردف قائلاً :

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: إني أريد أن ترجع إلى الله يوم القيامة وأنت تحمل إثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك .

أو: إني أريد أن تحمل إثمي وإثمك في قتلك إياي، وهذا يتفق مع ما ورد

(١) هكذا ابتدأ ابن كثير رحمته الله تفسير هذه الآيات: ٤١/٢ .

في بعض الأحاديث الشريفة الصحيحة بأنه يؤخذ يوم القيامة من حسنات القاتل فتعطى للمقتول، فإذا فنيت حسنات القاتل، ولم يستوفِ المقتول حقه، أخذ من خطايا المقتول فطُرحت على القاتل، ثم طُرِح في النار، ولهذا ختم كلامه بقوله:

﴿فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ﴾.

وقصد بهذا الكلام أن يخوفه من عذاب الله يوم القيامة لعله يرتدع وينزجر. ولكن النفس الحاقدة الحاسدة لم تنزجر ولم تتعظ بل زينت لصاحبها جريمة القتل وشجعت عليها:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾.

وهكذا أصبح القاتل من الخاسرين في الدنيا والآخرة، وتلك هي عاقبة البغي والحسد، فأى خسارة أعظم من هذه الخسارة!؟.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تُقْتَلُ نفسٌ ظلماً إلا كان على ابنِ آدمِ الأولِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لَأنَّه كان أوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتْلَ » إرواه البخاري (٣٣٣٥) ومسلم (١٦٧٧).

ولم يدِرِ القاتلُ ما يفعلُ بجسدِ أخيه المقتول حتى علّمه الله تعالى أن يدفنه بالتراب، بواسطة ما أراه من صنيع الحيوان:

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلتِي أَعَجَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

فأصبح من النادمين لا على القتل، بل على كونه لم يعرف في أول الأمر كيف يتصرف بجسد أخيه الميت، حتى تعلّم ذلك من الغراب.

وهكذا فإن أول ميت من بني آدم مات بالقتل، وتتابع بعد ذلك النكبات والمآسي وحمّامات الدماء والمذابح البشرية الجماعية بسبب الحقد والحسد

والبغي، ولم تتوقف حتى يومنا هذا، بل ازدادت في عصرنا الحاضر حدةً وشدةً وبربريةً وهمجيةً ووحشيةً، وكل يوم نسمع عن مذابح يصل ضحاياها إلى الآلاف، كما نسمع عن اكتشاف مقابر جماعية تضم رفات المئات من بني البشر، دفنتهم الجرافات، ودفعتهم إلى باطن الأرض المجنزرات.

وعقب الله تبارك وتعالى على هذه القصة بتهديدٍ شديدٍ لأولئك الذين يعتدون على حق الحياة للإنسان، وخصَّ بالذكر بني إسرائيل، لأنهم أكثر الناس جرأةً على القتل ومسبباته بإثارة الفتن والحروب بين الناس، ويكفي أنهم قتلوا كثيراً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وحاولوا أن يقتلوا خاتمهم وإمامهم سيدنا رسول الله ﷺ حسداً وحقداً، ولكن الله سبحانه عصمه من كيدهم ومكرهم كما سيأتي معنا في قوله الكريم: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ﴾ (٣٢).

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ إن قتل الإنسان الواحد جريمة كبرى، ومسؤولية عظمى، إنه عدوان على حق الحياة لجميع الناس.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ بإنقاذها من أسباب الهلاك، أو منع القاتل من ارتكاب

جريمته.

﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

ورغم كل هذا الوعيد الشديد وما فيه من بيان واضح لم يرتدع المجرمون

عن جرائمهم:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ

لَمُسْرِفُونَ ﴿ وَمَعْنَى الْإِسْرَافِ فِي الْقَتْلِ: قَتْلُ الْإِنْسَانِ الْبَرِيِّ، الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿ [الإسراء: ٣٣].

إذاً لا بد من العقاب الرادع، والجزاء الزاجر للمجرمين، حتى يأمن الناس على أنفسهم وأموالهم، ولهذا شرع الله تعالى العليم بأحوال النفوس البشرية والحكيم بما يصلحهم، العقوبات الزاجرة التي تحمي المجتمع الإنساني من المجرمين، وتستأصل منه القتلة المفسدين.

• العقوبات الزاجرة لقطاع الطرق والمفسدين في الأرض:

وعندما أشرقت شمس الإسلام على العالم من أرض العرب كانت الجزيرة العربية مليئة بقطاع الطرق والمجرمين، وما كان الإنسان آمناً على نفسه وماله وعرضه في أي مكان سوى مَنْ كان يعيش في أرض الحرم في مكة المكرمة، يؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿ [العنكبوت: ٦٧].

وكلمة (يُخَطَّفُ) تذكّرنا بالواقع الأليم الذي تردّى إليه الناس في عصرنا الحاضر بعد أن ملأت جرائم الخطف والاعتداء على الإنسان جنبات الأرض، وأصبح الإنسان مهدّداً بالخطف والقتل سواءً كان مقيماً أو مسافراً، طائراً في الجو، أو سائراً في البر والبحر.

والعجيب أن نسبة الجرائم والمجرمين وعصابات القتل والخطف منتشرة انتشاراً كبيراً في المجتمعات الغنية والمترفة والمتقدمة في مجال العلوم، وأصبحت مواجهة عصابات الإجرام وقمعها وحماية المجتمع منها من أكبر المشكلات التي تواجه حكومات الدول في العصر الحاضر.

لقد فقد الإنسان في ظل الحضارة المادية الحديثة الشعور بالأمن والاطمئنان، وفشلت القوانين الوضعية في حماية الإنسان من خطر المجرمين، كما فشلت السجون الكثيرة التي كدّسوا فيها آلاف المجرمين في معالجتهم،

وتقويم انحرافهم، ودفعهم إلى الحياة الكريمة المستقيمة، بل أصبحت السجون ملتقى المجرمين، يتعارفون فيها، ويتشاورون، ويتبادلون الخبرات، ويعقدون الاتفاقات، وقد ثبت أن كثيراً من عصابات المجرمين نشأت من داخل السجون.

ولا خلاص للإنسانية من خطر اتساع الجريمة والمجرمين، والقضاء على عصاباتهم، إلا بتطبيق ما شرعه الله تعالى في القرآن الكريم وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

لقد نجح الإسلام نجاحاً كبيراً وباهراً في تأمين الناس - الذين كانوا قبل الإسلام يُتخطفون في أنحاء الجزيرة العربية المترامية الأطراف - خلال وقت قصير بالنسبة لأعمار الأمم والشعوب، وعالج الإسلام نزعاً الإجرام في نفوس المجرمين، فقلعها من نفوسهم، وغرس في قلوبهم معاني الخير والصلاح، وحوّل الأعراب الذين كان ينهب بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، إلى مجاهدين وعلماء رفعوا لواء الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

• وثيقة تاريخية:

وفي «صحيح البخاري» - وهو أصح وأوثق كتاب حفظ السنة النبوية - شهادة رجل عاش في الجاهلية والإسلام، ورأى التحول الكبير الذي أحدثه الإسلام في مجتمعات الجزيرة العربية، هذا الرجل هو عدي بن حاتم الطائي، الذي كان في الجاهلية يتزعم عصابات الأعراب من قبيلة طيء، ويأخذ منهم ريع الأموال والأسلاب التي يحصلون عليها من القوافل المسافرة بين الشام والعراق والحجاز.

قال ﷺ: «بيننا أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال ﷺ: «يا عدي هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أنبتت عنها، فقال: «فإن طال بك حياة لترين الظعينة (المرأة المسافرة) ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله» قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعار طيء، الذين سعروا البلاد؟! قال: «ولئن طال بك حياة لتفتحن كنوز كسرى» قلت: كسرى ابن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز،

ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخرجُ ملءَ كفه من ذهبٍ أو فضةً يطلبُ مَنْ يقبلُهُ، فلا يجدُ أحداً يقبلُهُ مِنْهُ»، قال عديُّ رضي الله عنه: فرأيتُ الظعينةَ ترتحلُ من الحيرةِ حتى تطوفَ بالبيتِ لا تخافُ إلا اللهَ، وكنتُ فيمن افتتحَ كنوزَ كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياةً لترونَّ ما قال أبو القاسم رضي الله عنه: «يُخرجُ الرجلُ ملءَ كفه ذهباً أو فضةً فلا يجدُ مَنْ يقبلُهُ مِنْهُ» [رواه البخاري (٣٥٥٩)].

• آية الحرابة:

شرع الإسلامُ العقوباتِ الزاجرةَ لقمع المجرمين المعتدين على الأنفسِ والأموالِ في آيتين كريمتين من آياتِ سورة المائدة، وهما آيةُ الحرابةِ وآيةُ السرقةِ، جمع الله في هاتين الآيتين كلَّ ما تحتاجه المجتمعاتُ البشريةُ من العقوباتِ الرادعةِ والكفيلةِ بتأمين الناسِ وحمايتهم من عصابات المجرمين.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا
أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي
الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الحربُ في الأصل: معناها السلبُ والأخذُ، والمراد من الذين يحاربون الله ورسوله في الآية قُطَاعُ الطريقِ، ومن يعتدي على الناسِ جهرةً، ولو في داخلِ المدنِ، وسمَّتهم الآيةُ محاربين لله ورسوله استعظماً لجرمهم وأذاهم. وقوله تعالى:

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يدل على أن إشاعة الخوفِ والذعرِ بين الناسِ،

وتهديدهم من أكبر أسبابِ الفسادِ في المجتمع.

﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ إن قتلوا إنساناً معصوماً الدم.

﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ أي: ترفعُ أجسادهم على خشبةٍ بعد قتلهم، ليراهم الناسُ

زَجْراً وردعاً لغيرهم عن مثل جريمتهم إذا أخذوا المالَ وقتلوا.

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ أي: تقطَّعَ مختلفةً، بأن تقطَّعَ

أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن اقتصروا في جريمتهم على أخذ المال، ولم يقتلوا.

﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي يُبعدوا من الأرض بسجنهم مدة يراها الحاكم كافية لتأديبهم، وهذا إذا لم يقتلوا أحداً، ولم يأخذوا مالاً، جزاءً ترويعهم الناس، وقطعهم الطريق.

و(أو) للتنويع، وقال مالك: بل هي للتخيير، فيتخير الإمام في المحارب المسلم بين الأمور الثلاثة^(١).

﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ وهذا الذي شرعه الله يجعل لهؤلاء المجرمين العار والذل والفضيحة في الدنيا، ولهذا قال فقهاؤنا: لا يُصلى على مَنْ قُتِلَ من قَطَاعِ الطريقِ أثناء قطعهم للطريق قبل إلقاء القبض عليهم، أما لو قُتِلوا في غير المحاربة أو ماتوا يُصَلَّى عليهم^(٢).

﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذا لم يتوبوا عن جرائمهم حتى ماتوا فلهم في الآخرة عذاب عظيم^(٣).

• شريعة الرحمة والإحسان:

وإلى جانب هذه العقوبات الشديدة الزاجرة للذين يهددون أمن المجتمعات البشرية، وينشرون فيها الخوف والفرع، فتح الله الحكيم العليم باب التوبة والإنابة لأولئك المجرمين ليعودوا إلى الحياة المستقيمة الشريفة من جديد، فقال جلَّ وعلا بعد آية الحرابة:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقَدُّوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

فمن تاب من هؤلاء المجرمين، وانتهى عن جرائمه قبل أن تصل إليه يد

(١) فتح الباري: ١٢/١١٠.

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين: ١/٥٨٤.

(٣) وانظر: فتح الباري: ١١/١٢ ما روى عن سبب نزول الآية من حديث أنس رضي الله عنه.

ولي الأمر، ويقع في أيدي رجال الأمن، وأتى تائباً نادماً، عُفِيَ عنه، وقُبلت توبته، واستأنف حياته في المجتمع بأمنٍ واطمئنانٍ، وهذا يدلُّ على سموِّ التشريع الإسلامي، وملاءمته لجميع الناس، مهما اختلفت نزعاتهم، وتنوّعت ظروفهم، فثمة مجرمون كثيرون سلكوا طريقَ الجريمة بسبب ظروفٍ صعبةٍ مرّت بهم، أو تورّطوا في الجريمة بسبب طوارئ وأحداثٍ واجهتهم، فلا ينبغي لمثل هؤلاء أن يُجبروا على الاستمرار في طريق الجريمة، فَمِنَ الحكمة أن ييسّر لهم سبيلُ العودة إلى الحياة المستقيمة الشريفة، فمن تاب منهم، ورجع عن جرائمه، تاب الله عليه، وقبله المجتمع الإسلامي عضواً نافعاً فيه.

أما الذين يصرون على الجريمة، ويحترفون الإجرام، ويصمّون آذانهم عن سماع داعي التوبة، ويستمرّون في طريق الإجرام، وتخويف الناس، وزعزعة أمنهم، فلا سبيل إلى إصلاحهم إلا باستئصالهم، وبترهم من المجتمع، ولن ينفخ مع هؤلاء علاجٌ إلا علاجُ المَبْضَعِ والمِشْرَطِ، الذي يلجأ إليه الطبيبُ الجراحُ عندما يضطرُّ إلى بتر العضو الفاسد من جسم الإنسان حتى لا يسري فساده إلى بقية الجسم.

إنَّ التشريع الإسلامي قائم على الرحمة والإحسان والعفو والمغفرة، والدليل على ذلك أن الله سبحانه فتح باب التوبة والإنابة لأكبر المجرمين إذا تابوا وجاؤوا مستسلمين: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ (٢٤).

وفي هذا ردٌّ على أولئك المتخرّصين الذين يتهمون التشريع الإسلامي بالقسوة والشدة، وينتقدون تلك العقوبات التي شرعها الله العليم الحكيم والخبير الرحيم لحماية المجتمعات البشرية من الخوف والفرع وجرائم الخطف والقتل والغصب.

إنني على يقينٍ لو أن هؤلاء المنتقدين للشريعة الإسلامية وقعوا يوماً ما ضحية جريمةٍ من جرائم المفسدين في الأرض، وذاقوا مرارة الخوف والقلق،

وعاشوا ساعاتِ الاضطرابِ التي يعيشُها ضحايا هؤلاء المجرمين، لعرفوا حينئذٍ
حكمة الله سبحانه في تشريع هذه العقوبات ورحمته بعباده.

• أسلوب التربية في الإسلام:

وتدل هذه الآية أيضاً على أنَّ الإسلام لا يعتمد في تربية النفوس البشرية
وتهذيبها وإصلاحها على العقوبات الزاجرة فقط، فالعقابُ في الإسلام ليس هو
الأسلوب الرئيس المعتمد في التربية والإصلاح، لقد شرع الله العقاب في
الإسلام للشاذين من البشر، الذين لا ينفعُ معهم إصلاحٌ ولا تهذيب، أما
الأسلوب المعتمد في الإسلام لإصلاح النفوس وتهذيبها وتربيتها، فهو غرسُ
الإيمان بالله تعالى فيها، وجعلها تستشعرُ خشية الله تعالى بعبادته وطاعته
والجهاد في سبيله، ولهذا قال تعالى بعد آية الحرابة وقبل آية السرقة وهو ينادي
المؤمنين النداء السادس في سورة المائدة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا
إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].



النداء السادس

الأمر بالتقوى والتحذير من اتباع الهوى

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَابَتَعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ آتٍ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْتَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِأَنْتُكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِدَّتُهُمُ التَّوْرَةَ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ ءَاسَلُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيْسِيُّونَ وَالْأَحْسَارُ بِمَا اسْتُحِفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِنَابَتِي نَسْمًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ

وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَاللِّسَنُ بِاللِّسَانِ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَفَقِينَا عَلَىٰ ءَأَنفَرِهِمْ يَعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَيَحْكُمُ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ فَاسْتَجِيبُوا لِحُكْمِ اللَّهِ الْخَيْرَاتُ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُا يَرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

* * *

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٣٥﴾

هذا هو الأسلوب المعتمد في الإسلام في تربية النفوس الإنسانية وإصلاحها، وهو يشمل بعد الإيمان بالله ثلاثة أمور:

أولها: تقوى الله تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله تعالى

وقاية، وذلك باتقاء المعاصي والآثام.

ولا يتم هذا إلا بتربية وجدان الإنسان وضميره، وتعويدته على الشعور بالخوف من الله تعالى ومراقبته، وإن أي إصلاح لا يبدأ من إصلاح وجدان الإنسان وضميره، إصلاح فاشل لن يؤدي إلى فلاح أو نجاح.

ثانيها: التقرب إلى الله بالعمل الصالح:

﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: اطلبوا وابتحثوا عن كل عمل صالح يقربكم

إلى الله تعالى.

وثالثها: الجهاد:

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: جاهدوا أنفسكم أولاً

لإصلاحها وتصفيتها، ثم جاهدوا أعداءكم في سبيل مرضاة ربكم.

ثم بين الله تعالى استحالة توسل الكفار يوم القيامة بما كانوا يرونه أقوى

الأسباب والوسائل للنجاة من عذاب النار، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نُقِلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦).

لأنه سبحانه كتب عليهم الخلود في النار، فلن يخرجوا منها أبداً:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾ (٣٧).

• آية السرقة:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨).

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ شرع الله تعالى قطع يد السارق

والسارقة حمايةً لأموال الناس.

والسرقة: أخذ مال الغير خفيةً، ويشترط لقطع يد السارق شروط:

١ - أن يكون المسروق مالاً متقوماً: تبلغ قيمته عشرة دراهم فأكثر.

٢ - أن يأخذه السارق من حرزه: كأن يخرجهُ من الدار أو الحانوت أو

الخزانة. فالحرز: كلُّ بقعة معدة للإحراز، ممنوع الدخول إليها إلا بإذن.

٣ - أن لا يكون للسارق شبهة ملك في المال: كما لو سرق من دار أبيه، أو من مال زوجته.

٤ - أن لا يكون السارق قد سرق عن ضرورة: ولهذا قال الفقهاء: لا قطع بسرقة طعام مطلقاً، أي: ولو كان غير مهياً للأكل، لأنه عن ضرورة ظاهرة، وهي - أي: الضرورة - تبيح التناول^(١).

٥ - أن لا يكون المسروق سريع الفساد: كلبن ولحم غير محفوظين بما يمنع تسارع الفساد إليهما.

وقطع يد السارق والسارقة شرعه الله تعالى:

﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا﴾ أي: مجازاةً على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهما.

﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك، ليكونا عبرة لغيرهما من الناس.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يشرع ما يشاء، فلا ينبغي لأحد أن يعترض على شرعه.

﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما يشرع.

وقد أثبتت الوقائع - كما سبق بيانه - نجاح الشريعة الإسلامية في نشر الأمن بين الناس، في حين فشلت القوانين الوضعيَّة في حماية أموال الناس وأنفسهم فشلاً واضحاً.

ثم فتح الله تبارك وتعالى باب التوبة لمن ابتلي بالسرقه، لأن طريق الإصلاح وتهذيب النفوس في الإسلام ليس قاصراً على الجزاء والعقاب، كما سبق بيانه، فقال ﷻ:

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٩)

(١) انظر: حاشية ابن عابدين: ٣/١٩٨؛ والفقهاء الحنفي في ثوبه الجديد، للمؤلف: ٣/٢٨٦.

• المسارعون في الكفر:

ثم شرعت الآيات الكريمة في بيان مواقف اليهود من سيدنا رسول الله ﷺ، وقدمت لذلك بتوجيه الخطاب للنبي ﷺ:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بهذا الأسلوب الاستفهامي التقريري، وواضح ما فيه من حزم وجزم، فهو ﷺ المالك يتصرف في ملكه كما يشاء.

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقدم سبحانه العذاب على المغفرة مع أن رحمته سبحانه سبقت غضبه، لأن سياق الآيات يتحدث عن تعلق إرادة الله تعالى بتعذيبهم بسبب حقدهم على رسول الله ﷺ وحسد لهم وإعراضهم عن دينه.

ثم وجه الله ﷺ إلى رسوله ﷺ النداء يواسيه ويسليه مما كان يلقاه من كيد ومكر المنافقين واليهود:

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُوْتُوهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّر قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ هذه الكلمة تدل على شدة تهافتهم على الكفر، ورغبتهم فيه، والمسارعون في الكفر فريقان:

أولهما: المنافقون:

﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ .

وثاني الفريقين: اليهود:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ .

• السَّمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ:

ومن قبائحهم أنهم:

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ وجاءت هذه الصفة بصيغة المبالغة، لأنهم كانوا

يسمعون الكذب، ويصدقون به، ويقبلونه، وإن أقبح ما يعيب الإنسان أن يعطل ما وهبه الله تعالى من عقل وتمييز، فيسمع كل ما يلقى إليه من الأكاذيب دون أدنى تفكير، فيتخلى بهذا عن كرامته الإنسانية، وينتكس إلى الحيوانية.

ثم ذكر الله مرة ثانية هذه الصفة القبيحة مع الكشف عن مصادر الكذب

الذي كانوا يسمعون ويصدقونه فقال:

﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكُمْ﴾ وهم أحبارهم الذين كانوا لشدة بغضهم

لسيدنا رسول الله ﷺ وفرط عداوتهم له لا يأتون إليه.

والذين حرّفوا كلام الله تعالى في التوراة:

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ ويقولون لعامة اليهود السَّمَّاعين لهم:

اذهبوا إلى محمد واسألوه عن حكم الله تعالى في هذه المسألة، ثم يوصونهم:

﴿يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيئْتُمْ هَذَا﴾ الموافق لافتراءهم وكذبهم.

﴿فَحَدُّوهُ﴾ فاقبلوه منه.

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ وإن ذكر لكم ما يخالفه.

﴿فَأَحْذَرُوا﴾ أي: لا تقبلوه منه.

وقد ورد في الأحاديث الشريفة الصحيحة ما يبيّن سبب نزول هذه الآيات،

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن

الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويُجلّدون، فقال عبدُ الله بنُ سلام: كذبتُم، إنّ فيها الرّجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدُهم يده على آية الرّجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبدُ الله بنُ سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرّجم، فقالوا: صدق يا محمّدُ فيها آية الرّجم، فأمر بهما رسولُ الله ﷺ فرُجما، فرأيتُ الرجلَ يحني على المرأة يقيها الحجارة. [رواه البخاري (٣٦٣٥) ومسلم (١٦٩٩)].

وعن البراء رضي الله عنه قال: مرّ على النبي ﷺ يهوديٌّ محمّم (مسوّد الوجه) مجلودٍ، فدعاهم فقال: «هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟» فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟» قال: لا، ولولا أنّك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرّجم، ولكنّه كثير في أشرفنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ، فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيءٍ نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرّجم، فقال النبي ﷺ: «اللهم إني أوّل من أحيا أمرك إذ أماتوه»، فأمر به فرُجم، وأنزل الله تعالى هذه الآيات. [رواه مسلم (١٧٠٠)].

وهكذا فضح الله تعالى أبحار اليهود، وكشف كذبهم، وقال فيهم:

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ خزيه وفضيحته.

﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلن تستطيع دفع تلك الفتنة عنه، لأنّه

سبحانه أراد ألا يطهر قلوبهم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ من رجس الكفر، وخبث

الضلال والكذب، بسبب سوء اختيارهم، وقبح عزمهم وكسبهم.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ ذلة ومهانة وفضيحة.

﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

• الأكالون للشح:

ثم ذكر الله تعالى قبيحةً أخرى من قبائح اليهود الكبرى، وهي أكلهم للمال

الحرام فقال:

﴿سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ .

﴿سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسُّحْتِ﴾ والمال كان ولا يزال مبعودهم من دون الله تعالى، يسعون لجمعه بأي وسيلة كانت، ولقد ابتدعوا أفذر وأحط أنواع التعامل والاحتيايل كالربا والقمار وعقود التأمين والرشوة؛ من أجل جمع المال والسيطرة على الموارد الاقتصادية للأمم والشعوب.

وخير الله تعالى نبيه ﷺ إذا جاء إليه اليهود متحاكمين أن يحكم بينهم بما أنزل الله عليه في القرآن الكريم أو أن يعرض عنهم:

﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ .

ثم بين له سبحانه أنه يحفظه من مكرهم وكيدهم:

﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ .

وأوصاه أن يحكم بينهم بالعدل:

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ .

والعجيب من حالهم أنهم كانوا يأتون إلى النبي ﷺ يحتكمون إليه، وهم

لا يؤمنون به عليه الصلاة والسلام مع أن عندهم التوراة التي يؤمنون بها .

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ تَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾!؟ .

ثم يعرضون عن حكم رسول الله ﷺ وعن حكم التوراة أيضاً:

﴿ثُمَّ تَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ثم أننى الله تعالى على التوراة التي أنزلها على نبيه موسى ﷺ فقال:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا
النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ وكان أنبياء بني إسرائيل وعلماءهم
وعبادهم جميعاً يحكمون بها:

﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾.

وهي أعظم الأمانات التي استودعها الله أحبارهم، وجعلهم شهداء عليها:
﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ فأمانة حفظ التوراة موكولة
إليهم، بينما تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولهذا حدث في التوراة ما حدث من تغيير وتبديل،
وحفظ القرآن الكريم بحفظ الله من أيّ تغيير أو تبديل.

وختمت الآية الكريمة بتوجيه الخطاب إليهم:

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا﴾ فلا تخافوا من الناس فتغيروا وتبدّلوا كلام
الله من أجلهم، بل عليكم أن تخافوا من الله تعالى، فتحفظوا أمانته التي ائتمنكم
عليها.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فَإِنَّ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا قَلِيلٌ وَحَقِيرٌ وَزَائِلٌ.

ثم قرر الله تبارك وتعالى هذا الحكم الرهيب المخيف على المعرضين عن
تحكيم دينه وشرعه فقال ﷻ:

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

• الأحكام الثلاثة:

هذا هو الحكم الأول الصادر على المعرضين عن تحكيم شرع الله تبارك
وتعالى، والحكم الثاني جاء أيضاً في ختام الآية الكريمة التي أخبر الله تعالى

بها أنه شرع لليهود حكم القصاص في جرائم القتل العمد، والجرح العمد، وقد أنزله الله تعالى في القرآن الكريم تقريراً له:

﴿وَكَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذُنَ بِالْأَذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ. وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ .

وجاء الحكم الثالث بعد الثناء على الإنجيل الذي أنزله الله تعالى على عيسى ابن مريم عليه السلام، وبعد أمره جلّ وعلا أتباع عيسى عليه السلام أن يحكموا الإنجيل، وينفذوا ما أمرهم الله فيه، وفيه بشارة عيسى ببعثة محمد عليه السلام والأمر باتباعه وتصديقه عليه الصلاة والسلام:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ .
وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُم
الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

هذه هي الأحكام الثلاثة التي حكم الله بها على المعرضين عن تحكيم شرعه ودينه، وهي: الكفر، والظلم، والفسق.

ولا شك أن كل من يحكم بشرع يخالف شرع الله تبارك وتعالى يكون ظالماً، فلا عدل إلا في ظلّ شريعة الله تبارك وتعالى، فهو وحده الحكم العدل، كما يكون فاسقاً خارجاً عن حكم الله وشرعه، ويكون أيضاً كافراً إذا فضل على شريعة الله شريعة أخرى، أو رأى أن ما يتدعه الناس من شرائع وقوانين تناسب العصر أكثر من شريعة الله تبارك وتعالى.

فالحذر الحذر من الوقوع في مثل هذه الأفكار، والأدب الأدب مع ما شرعه لنا العليم الحكيم، فالأمر جدّ خطير.

• القرآن الكريم والكتب السماوية:

ومما يؤكد على خطورة هذا الأمر توجيه الخطاب بعد ذلك لسيدنا رسول الله

ﷺ:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ (٥٨).

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ فإن اسم المهيمن يتضمن معنى الأمين والشاهد والحاكم على كل كتاب قبله، وهذا يدل على أن شريعة الإسلام ناسخة لكل الشرائع الإلهية التي أنزلها الله تبارك وتعالى.

قال ابن كثير رحمته الله: «جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها»^(١).

وأمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يحكم بين الناس بما في القرآن الكريم:

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تتبع

آراءهم الفاسدة، وتترك من أجلها ما أنزل الله عليك من الحق.

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وهذا يدل على اختلاف الشرائع التي أنزلها

الله على رسله الكرام ببعض الأحكام، مع اتفاقها على عبادة الله الواحد الأحد،

قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد» [رواه البخاري (٣٤٤٢)].

(١) تفسير ابن كثير: ٦٥/٢.

فشأنهم شأنُ الإخوةِ أبناءِ الأبِ الواحدِ، وإن اختلفت أمهاتهم، فالتوحيدُ أساسُ دعوةِ جميعِ الأنبياءِ والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ثم قال تعالى مبيناً كمال قدرته وتمام حكمته:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فهو سبحانه قادرٌ على أن يجعلَ جميعَ

الأمم على شريعة واحدة في جميع الأزمان.

ولكنه تعالى جعل لكل أمة شريعة ليختبر عباده فيما شرع لهم:

﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾.

ثم حضهم سبحانه على فعل الخيرات، والمبادرة إلى الطاعات فقال:

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

فالتنافس في العبادات والطاعات محمودٌ ومطلوبٌ، بينما التنافس والتسابق

في شؤون الدنيا مذمومٌ ومكروهٌ، لأنَّ المرجعَ والمصيرَ إلى الله تعالى:

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾.

• التحذير من اتباع الأهواء:

ثم أكد الله تعالى على الأمر بتحكيم شرعه، وحذر من اتباع الأهواء فقال:

﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْنَا أَنبَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (٤٩).

﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهذا يعني أن أي انحرافٍ عن

شريعة الله تعالى معناه اتباع الأهواء، فالإنسان مهما كان عالماً وحكيماً وملتزماً

بالمثل العليا والفضائل، لا ينفك عن التأثر بأهوائه ونزواته، فهو معرض

لضغوط شديدة من أهوائه ومصالحه، مع ضعفه ومحدوديته وقصوره، وكل هذا

يؤدي إلى النقص والخلل في كل ما يضع لنفسه من قوانين ويشرع من شرائع.

وللهوى تأثيرٌ كبيرٌ على الإنسان، ولهذا حذر الله ﷻ النبي ﷺ من خداع

الكافرين واحتيالهم، فينصرف عن شيءٍ مما شرعه الله تعالى له فيما أنزله عليه:

﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ولا شك أن النبي ﷺ محفوظٌ ومعصومٌ بحفظ الله وعصمته - كما سيأتي معنا في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] - فالخطابُ وإن كان للنبي ﷺ فالمراد منه أمته عليه الصلاة والسلام، فالتحذيرُ لنا معشرَ المسلمين حتى لا يتمكن أعداؤنا من فتننا عن ديننا وصرفنا عن شريعة ربنا، لنحکم قوانینهم وشرائعهم.

وقد نجحوا بهذا مع الأسف الشديد، وفُتنَ كثيرٌ من المسلمين بقوانين أعدائهم وشرائعهم، واتبَعوا أهواءهم، وانصرفوا عن شريعة الإسلام إلى القوانين والشرائع المستوردة من أعدائهم، وهو السببُ الرئيس لتفرُّقهم وتخاذلهم وذلتهم.

وشريعة الله تبارك وتعالى لا تتجزأ، فلا ينبغي التهاونُ بشيء منها، ولهذا جاء التحذيرُ بهذه الصيغة: ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ والبعضُ يطلقُ على الجزء الصغير والكبير.

ولنا أن نقول أيضاً: إن التحذير للنبي ﷺ يدلُّ دلالةً واضحةً على خطورة خداع واحتيال أعداء المسلمين، فالقوم قد أتقنوا صناعة الكذب والتزوير، وأدمنوا مهنة الاحتيال والخداع، فالحذرُ الحذرُ من الوقوع في شركِ خداعهم واحتيالهم، فالشريعةُ الإسلامية هُدًى لهم ومقصدُهم.

وإنَّ أيَّ انحرافٍ عن دين الله وشريعته يعودُ شؤمُه وجزاؤه على المسلمين في الدنيا قبلَ عذابِ الآخرة:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ وهو ذنبُ التولِّي والإعراض عن قبول شرع الله وحكمه.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

ثم وبَّختِ الآياتُ الكريمةُ أولئك الفاسقين المعرضين عن شريعة الله سبحانه، وأنكرت عليهم ذلك مع التعجُّب من حالهم، وهم يريدون الاحتكام إلى الشرائع الجاهلية، ومن المعلوم أن كلَّ شريعةٍ خالفت شريعة الله تعالى هي

شريعة جاهلية، وكل قانون أو نظام خالف شرع الله تعالى وحكمه هو قانونٌ ونظامٌ جاهليٌّ، فالجاهلية ليست فترةً تاريخيةً، إنما هي حالةٌ توجدُ عندما ينصرفُ الناسُ عن شريعة الله ودينه إلى اتباع أهوائهم:

﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، ثم تساءلت:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فلا أحد حكمه أحسن من حكم الله

تعالى أو مساوٍ له، لأنَّ حكمَ الله تعالى هو حكمُ العليم الحكيم.



النداء السابع

التحذير من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصِيبَهُمْ أَوْ يَأسُرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَدِيمِكُمْ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حِطَّتْ أَعْنَؤُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ .

حرم الله تعالى في هذا النداء موالة اليهود والنصارى، فقال:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنَّهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: أنصاراً وأصحاباً وأحباباً.

ثم بين السبب فقال:

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فولاية اليهود لبعضهم، ولا تكون لغيرهم، وكذلك النصارى ولايتهم ونصرتهم لبعضهم، ولا تكون لغيرهم.

وقد يكون المعنى المراد بيان أن اليهود يوالون النصارى على عداوة المسلمين، وكذلك النصارى يوالون اليهود على عداوة المسلمين، رغم ما بين اليهود والنصارى من خلافٍ وشقاقٍ، فالكفر ملءٌ واحداً، والكفار يجتمعون على عداوة المسلمين ومحاربتهم، ويؤيد هذا المعنى الواقع المشاهد من وقوف الأمم

الكافرة عامةً والنصرانية خاصةً إلى جانب اليهود الصهاينة ومساعدتهم في اغتصاب فلسطين وعدوانهم على العرب والمسلمين .

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وهو وعيدٌ شديد يدل على شناعة وقبح موالاتهم،

فإن المعصية الموجبة لكفر فاعلها هي التي بلغت غاية القبح والشناعة .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بتعريضها لغضب الله وسخطه .

ومع هذا التحريم لموالاة اليهود والنصارى كان المنافقون في المدينة

المنورة يسرعون إلى موالاته اليهود ومناصرتهم، فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيرًا﴾ .

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: مسارعين في موالاته اليهود .

﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ من دوائر الدهر، ودولةٍ من دُوله، بأن ينتصر

الكفار على المسلمين، فالمنافقون لا يتوكلون على الله سبحانه، ولا يثقون

بتأييده ونصره، ولهذا ردَّ الله ﷻ عليهم بقوله:

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ وهو نصر المسلمين، وإعزاز دينهم، وظهورهم

على أعدائهم .

﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ وهو إجلاء اليهود عن المدينة المنورة أو قتلهم .

﴿فَيُصْبِحُوا﴾ أي: المنافقون .

﴿عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيرًا﴾ .

وأعزَّ الله تعالى دينه، ونصر نبيه ﷺ، فأجلى يهود بني النضير وقينقاع عن

المدينة، وقتل يهود بني قريظة، وغنم المسلمون أموالهم ومزارعهم وحصونهم،

وأظهر سبحانه أيضاً نفاق أولئك الذين كانوا يوالونهم، ويُقسِمُونَ الأيمان

المغلظة للمؤمنين ليستروا نفاقهم:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتُوا لِمَا أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ اٰيْمٰنِهِمْ اِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ اَعْمَالُهُمْ
فَاَصْبَحُوا خٰسِرِيْنَ ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتُوا لِمَا أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ اٰيْمٰنِهِمْ اِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: يا معشر

يهود.

﴿حَبِطَتْ اَعْمَالُهُمْ فَاَصْبَحُوا خٰسِرِيْنَ﴾ .

فهو كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّهُمْ لَكٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ
الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ﴾ [الحشر].



النداء التام

التحذير من الردة وعاقبتها

﴿يَتَّابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَدَّعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ .

ولما كانت موالاته اليهود والنصارى تستدعي الارتداد عن الدين، فقد وجّه الله تعالى النداء التام إلى المؤمنين، محذراً لهم من الارتداد عن دين الإسلام، ومبيناً قدرته سبحانه على نصر دينه، وإعلاء كلمته، فإن من يتولى عن نصر دين الله وإقامة شريعته، فإن الله سيستبدله بمن هو خير منه، وأشد قوة، وأكثر نصراً لدين الله تعالى، وقياماً على شريعته:

﴿يَتَّابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ .

﴿يَتَّابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: متواضعين فيما بينهم.

﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: متعززين على أعدائهم من الكفار، وهذا كقول الله تعالى فيهم: ﴿ثُمَّ حَمَدَ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ لا يردُّهم عن نصر دين الله تعالى رادًّا، ولا يصدِّهم عنه صادًّا.

وهذه الصفات التي اتصفوا بها من فضل الله تعالى عليهم وتوفيقه:

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولا شك أن هذه الآية الكريمة دلت على فضل خليفة رسول الله ﷺ الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفضل الصفوة الممتازة من الصحابة رضي الله عنهم الذين واجهوا فتنة الردة بعد وفاة الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فنصر الله تعالى بهم دينه، وأقام بهم معالم شريعته قوية خفاقة في جنبات الأرض. فولاية المؤمنين ومحبتهم ونصرتهم لا ينبغي أن تكون إلا لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، ولهذا قال سبحانه على سبيل الحصر:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٥٥).

أي: منقادون وخاضعون لحكم الله وشريعته. ونتيجة موالاته الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين، هي العزة والنصر والغلبة:

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٥٦).

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» وابن عساكر: عن ابن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبَّت بأمرهم عبد الله بن أبي ابن سلول، وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وقال: أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم.

وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت هذه الآيات^(١).

(١) انظر: سيرة النبي ﷺ، للمؤلف، ص ٢٨٨.

وما أخرجه الطبراني في «الأوسط»: أنها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأنه تصدق بخاتمه وهو راکع. في سنده مجاهيل^(١).
ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره، لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء^(٢).



(١) انظر: فتح القدير: ٥٣/٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٢٨/١.

النِّجَاتِ التَّاسِعِ

التَّحذِيرُ مِنْ قَبَائِحِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْكَفَّارِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِمَّنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ
 أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
 لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مَنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ
 قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ
 وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ
 قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ
 يُسِرُّونَ فِي الْأَثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْثُهُمُ السُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ
 وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْثُهُمُ السُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ
 غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُجُوعًا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفْقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ
 رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقِيَامَةَ بَيْنَهُمُ الْعُدَّةُ وَالْبَعْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ
 وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا
 لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ
 إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا
 يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ
 يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى
 تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
 طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَرِيُّونَ
 مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ

أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالًا جَاءَهُمْ رَسُولًا بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيضًا كَذَبُوا وَفَرِيضًا يَقُولُونَ ﴿٧٦﴾ وَحَسِبُوا أَنَّا لَنَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ابْنَ اللَّهِ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٨﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ابْنَ اللَّهِ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْهَوْهُ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَبَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٠﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبِّئْتِ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨١﴾ قُلْ أَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٨٢﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٨٣﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٨٤﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٥﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٧﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّكَ ذَلِكَ يَأَن مِّنْهُمْ قَسِيْرِيْرٍ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٨﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَّا فَالْكُتُبَا مَعَ السَّاهِدِينَ ﴿٨٩﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٩٠﴾ فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٩٢﴾

وحرّم الله تعالى على المؤمنين في النداء التاسع موالة جميع الكفار: اليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب الملل والنحل، ففي هذا النداء تعميم بعد تخصيص، كما أن فيه بيان سبب الحكم، وهو أن الكفار ينظرون إلى شريعة الإسلام المطهّرة المُحكّمة نظرة المستهزئ بها فقال تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ
وَالْكَفَّارَ ءَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

أي: اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم حقاً مؤمنين بشرع الله ودينه.

ثم ذكر سبحانه مثلاً يدل على استهزائهم بدين الله تعالى، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ والصلاة أعظم العبادات في الإسلام، والنداء إليها - وهو الأذان - من شعائر الإسلام الكبرى التي أمر الله تعالى المؤمنين بتعظيمها واحترامها - كما مرّ معنا في أول سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾.

والذي يحملهم على هذا أنهم لا يعقلون معاني الصلاة ولا يدركون ما فيها من حِكْمٍ وأسرار:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

• قبائح وفضائح:

ثم أمرت الآيات الكريمة النبي ﷺ أن يواجه أهل الكتاب ببعض قبائحهم وفضائحهم بأسلوب التحدي لهم:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَسِيقُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ أي: هل تنكرون وتعيون وتكروهون منا .
 ﴿إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد .
 ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: وآمنا بالقرآن الكريم الذي أنزل إلينا .
 ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل نزول القرآن الكريم كالطورا والإنجيل .
 ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَسِيقُونَ﴾ أي: وآمنا بأن أكثركم فاسقون، خارجون عن طاعة الله تعالى وعن دائرة الإيمان الصحيح .

فأهل الكتاب من اليهود والنصارى يعادون المسلمين لأنهم مسلمون مستسلمون لله الواحد الأحد، ومؤمنون بكل الرسالات التي أنزلها سبحانه على الناس: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] .
 إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء، التي لم تضع أوزارها قط منذ فجر الإسلام حتى العصر الحاضر، ليردوا المسلمين عن دينهم، فيصبحوا مثلهم فاسقين، وكما قرّر الله تعالى هذه الحقيقة في هذا الموضع من سورة المائدة قرره أيضاً في سورة البقرة وهو يخاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

وهذه الحقيقة يريد أهل الكتاب في العصر الحاضر طمسها وتميعها - كما يقول سيد قطب رحمه الله - فلم يكن لهم بدّ بعد فشلهم في الحروب الصليبية السافرة، وفي حرب التبشير السافرة أيضاً، أن يسلكوا طريق الخداع والتزوير، فيتظاهروا ويشيعوا بين المسلمين أنّ قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت، وأنّها كانت مجرد فترة تاريخية مظلمة عاشتها الأمم جميعاً، ثم تنور العالم وتقدم، فلم يعد من الجائز ولا اللائق ولا المستساغ أن يقوم الصراع على أساس العقيدة... . إنّما الصراع اليوم على المادة وعلى الموارد والأسواق

والاستغلالات فحسب، فلا ينبغي التفكير في الدين اليوم وفي الصراع من أجل الدين^(١).

لكنّ الواقع المشاهد يكذب دعواهم، ويظهر مدى تأثير الدوافع الدينية على سياستهم ومواقفهم السياسية، وخاصة في القارة الإفريقية وأمريكا الجنوبية، وأخيراً مواقفهم من مسلمي البوسنة والهرسك.

كما أمر ﷺ أن يقول لهم تبكيتاً وتعريضاً بقبائحهم وما أنزل الله عليهم من العقوبات:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: جزاءً ثابتاً لهم عنده تعالى.

﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي: ومسح بعضهم قردة، ومسح بعضهم خنازير، وهم أصحاب السبب الذين ذكرهم الله تعالى في قوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: ومنهم أيضاً من عبد الطاغوت، وهو إما العجل الذهبي الذي عبده اليهود، وإما الشيطان الذي أطاعوه، وإما الكهنة والأحبار الذين أطاعوهم بعد أن غيروا كلام الله تعالى في التوراة والإنجيل.

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات القبيحة.

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٩٦٤/٢. قلت: لكن بعد أحداث (١١ أيلول ٢٠٠١م) عادت الحرب الصليبية سافرة شرسة، لا تبقى ولا تذر، نسأل الله أن يرد كيد أعدائه في نحورهم، ويحفظ المسلمين من شرورهم.

﴿شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: أكثر ضلالاً وبعداً عن طريق الحق المستقيم.

وكان بعض اليهود يأتون إلى رسول الله ﷺ، ويعلمون الإيمان بألستهم:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَ﴾ أي: دخلوا كافرين، وخرجوا كما دخلوا كافرين.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ﴾ أي: يبادرون إلى تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس، وأكل المال الحرام.

ولهذا ذمهم، وذم أعمالهم تلك فقال:

﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وكان الواجب على علمائهم وعبّادهم أن ينهوهم عن تعاطي هذه المحرّمات، فلم يفعلوا ذلك، بل شاركوهم في فعل هذه المحارم والآثام بعد أن جالسوهم وأكلوهم:

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّوتُ وَالْأَجْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

• جُرأتهم على الله تعالى:

ومن قبائح اليهود الكبرى جُرأتهم على الله ﷻ، ووصفهم له جلّ وعلا بأوصافٍ لا تليقُ بجلاله وكماله، وهو سبحانه المنزه عن كل نقص، والمتصف بكل صفات الكمال والجلال:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ وَالَّذِينَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ .

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي: بخيلة.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ ولهذا ترى فيهم البخل والحسد، والجبن والذلة.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فهو سبحانه الجواد الكريم، ينفق كما يشاء، لا كما نشاء، وهو واسع الجود والعطاء، الذي عنده خزائن كل شيء، والذي خلق لنا كل شيء نحتاجه، وصدق رسول الله ﷺ القائل: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا (أي: لا ينقصها) نفقة، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّهُ لَمْ يُغْضِ مَا فِي يَمِينِهِ» [رواه البخاري (٤٦٨٤) ومسلم (٩٩٣)].

﴿وَلَيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فَإِنَّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ سَيَكُونُ نَقْمَةً عَلَى أَعْدَائِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَأَشْبَاهِهِمْ، فَكَمَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ إِيمَانًا سَيَزِيدُ الْحَاقِدُونَ الْحَاسِدُونَ لَهُ طُغْيَانًا وَكُفْرًا.

﴿وَالَّذِينَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا تجتمع قلوبهم، ولا تتفق كلمتهم، ولا يغرّنك اجتماعهم في فلسطين، وظهورهم فيها على العرب المسلمين، فهي فترةٌ وجيزةٌ من تاريخ تمزّقهم واختلافهم وتشتّتهم الطويل، وأعمار الأمم والشعوب لا تقاس بأعمار الأفراد.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ كلما كادوا الرسول ﷺ وكادوا أمته كيداً

أبطله الله تعالى، وردّ كيدهم عليهم، وحق مكرهم السيئ بهم.

﴿وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ وهذا من قبائحهم الملازمة لهم أنهم يجتهدون

في الكيد والمكر وإثارة الشرور والفتن بين الناس في الأرض:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

● سبيل السعادة:

وبعد أن بيّنت الآيات الكريمة ما بيّنت من فضائحهم وقبائحهم فتحت لهم باب التوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى، كما تعودنا من أساليب القرآن الكريم التربوية، التي سبق الحديث عنها، فبيّنت لهم سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، فأطمعتهم بفضل الله ورحمته وبرغد العيش، وسعة الرزق، وكثرة المال في الدنيا، ووجنات النعيم في الآخرة:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا﴾ برسالة نبينا محمد ﷺ.

﴿وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: في القرآن الكريم.

﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لكثرة ما ينزل عليهم من السماء من

فضل الله ورحمته، وما ينبت لهم من الأرض.

فلا سعادة للناس ولا خلاص لهم من مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية إلا

في ظلال شرائع الله تعالى، ولكنهم مع الأسف بعيدون عن شرائع الله تعالى إلا

قلة قليلة.

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ معتدلة متوسطة.

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

● تبليغ الرسالة:

ولا يعود الناس إلى دين الله تعالى وشريعته إلا إذا بلغناهم دعوة الله

سبحانه، وبيّنا لهم مزاياها ومحاسنها، ولهذا جاء التعقيب على الآيات الكريمة

السابقة بخطابِ الله تعالى الموجَّه إلى نبيه ﷺ، أمراً له أن يبلغ رسالة الله سبحانه، ومحماً له عليه الصلاة والسلام مسؤولية التبليغ:

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ وقد امتثل عليه الصلاة والسلام هذا الأمر، وقام به خير قيام، حتى توفاه الله تعالى .
قال الإمام البخاري رحمه الله: قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفاً، كما ثبت عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: «أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها إليهم، ويقول: «اللهم هل بلغت؟» [رواه مسلم (١٢١٨)]^(١).

وقد مر معنا أن الله ﷻ أنزل على النبي ﷺ في هذا الموقف العظيم قوله الكريم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].
وتكفل الله ﷻ بعصمة نبيه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم من الناس فقال سبحانه له:

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ووجوه عصمة الله تعالى للنبي ﷺ كثيرة، وقد ذكرت بعضها في هذا الكتاب.

فلم يتمكن أصحاب المكر والخداع من أحبار اليهود ومن المنافقين أن يجعلوا رسول الله ﷺ ينصرف عن شيءٍ قليلٍ من شرع الله تعالى.

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٧٧/٢.

كما أَنَّ الله ﷻ حفظ النبي ﷺ من عدوان المشركين وبغْي اليهود ومكرهم ومؤامراتهم، وكان الصحابة ﷺ يعلمون شدة المخاطر التي تهدد النبي ﷺ فيقومون على حراسته، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «يا أيُّها الناسُ انصرفوا فقد عصمني الله ﷻ» [رواه الترمذي (٣٠٤٦)].

وإن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رَسُولَهُ﴾ يدل على أَنَّ الإسلام كلُّه لا يتجزأ، وأنَّ بعضه ليس أولى بالأداء والتبليغ من بعض، فإذا أغفلت جزءاً من دين الله، فكأنك أغفلته كله.

كما تدلُّ الآية الكريمة على أَنَّهُ عليه الصلاة والسلام لم يكتفِ شيئاً من وحي الله تعالى؛ فتبليغ الرسالة منوطٌ به عليه الصلاة والسلام، أمَّا الهداية فلله سبحانه وحده:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

• ضرورة التبليغ في العصر الحاضر:

إنَّ تبليغ رسالة الإسلام للناس في العصر الحاضر أوجب الواجبات علينا معشر المسلمين، فالناس في أمس الحاجة إلى دين الله تعالى وشريعته، فقد فشلت القوانين الوضعية التي ابتدعتها الطواغيت، ويجب على المسلمين أن يبلِّغوا الناس دعوة الله تعالى، ويبينوا لهم محاسنها ومزاياها، إنَّ التبليغ مهمة النبي ﷺ، ومهمة من سار على طريقه، وتمسك بسنته عليه الصلاة والسلام.

وتأكيداً لأهمية التبليغ في حياة الناس قال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: على شرع ودين يُعتدُّ به لظهور بطلان

وفساد ما أنتم عليه .

﴿حَتَّىٰ تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ﴾ في القرآن الكريم، وهو المقصود من هذه الدعوة، فالإيمان برسالة القرآن الكريم وتطبيق شريعته المطلب الأساس من هذا الخطاب لأهل الكتاب، وما ذكر الله سبحانه التوراة والإنجيل إلا تأليفاً وتهديئةً لخواطِرهم، وتقريباً لهم من القرآن الكريم، ففي التوراة والإنجيل ما يلزمهم بالقرآن الكريم وتطبيق شريعته .

وبقي أكثر القوم على عنادهم ومكابرتهم وغلوّهم رغم كل هذه النداءات الموجهة من الله تعالى إليهم، بل ازدادوا بما أنزل الله سبحانه على رسول الله ﷺ طغياناً وكفراً :

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تأسف ولا تحزن عليهم بسبب زيادة طغيانهم وكفرهم، والزم طريق التبليغ، وأقم عليهم الحجّة، ولا تئس من إيمانهم وإصلاحهم فباب الهداية مفتوح للجميع .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَىٰ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٩) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: دخلوا في اليهودية .

﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ وهم الذين لم تبلغهم دعوة نبي، وظلوا على أصل الفطرة، فلا دين لهم يتبعونه، ولهذا كان المشركون من قريش يصفون من أسلم بالصابئ، لأنه في نظرهم خرج على سائر الأديان .

﴿وَالنَّصَارَىٰ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: فكل من آمن من هؤلاء بالله الواحد الأحد، وآمن باليوم الآخر، وعمل العمل الصالح الموافق لشريعة الله سبحانه .

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأنهم يوم القيامة من الناجين، الذين لا يخافون ولا يحزنون.

• عبّاد الهوى والشهوة:

وبيّن الله تعالى السبب الرئيس الذي جعل بني إسرائيل ينقضون الميثاق الذي أخذه الله عليهم، ويكذبون الرسل، ويقتلون بعضهم، فقال تعالى:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرَسُولًا إِيَّاهُمْ رَسُولًا إِذْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٧٠).

فالسبب الرئيس لكل هذه الجرائم هو اتباعهم لأهواء أنفسهم، وضعفهم أمام شهواتهم، فهم عبّاد الهوى والشهوة.

وظنّ القوم بسبب غرورهم وإعجابهم بأنفسهم، وشعورهم بامتيازهم على الناس، وأنهم أبناء الله وأحبّاءه، أنّ الله ﷻ لن يعذبهم، ولن يتبليهم:

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٧١).

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ عن استماع الحق الذي أنزل عليهم في التوراة.

﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ حين تابوا، ورجعوا إلى تطبيق دين الله وشرعه.

﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ عن دين الله وشرعه، الذي أنزله عليهم في الإنجيل.

﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ لأن بعضهم ظلّ متمسكاً بالحق والعقيدة الصحيحة.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

• بطلان عقائد النصارى:

ولا بدّ للآيات الكريمة أن تقف مع النصارى، وهم السواد الأعظم في أهل الكتاب، لتبيّن بطلان عقائدهم وفسادها.

لقد كفر فريقٌ منهم، لأنهم رفعوا عيسى ابن مريم عليه السلام من مقام عبوديته لله إلى مرتبة الألوهية:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۗ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ ۖ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۗ إِنَّهُ مَنِ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ .

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۗ﴾ .

ورد الله سبحانه عليهم بلسان عيسى عليه السلام الذي قال لهم:

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۗ إِنَّهُ مَنِ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ۗ﴾ في عبادته

أو في ما يختص من صفاته سبحانه وأفعاله .

﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ۗ﴾ لأنها دار الموحدين .

﴿وَمَأْوَهُ النَّارُ ۗ﴾ فإنها دار المشركين .

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۗ﴾ .

ومن النصارى طائفةٌ كفرت لأنها قالت بعبادة التثليث:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ .

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ ۗ﴾ فالإلهية بزعمهم مشتركة بين

ثلاثة: الباربي عز اسمه، وعيسى، وأمه عليها السلام .

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ۗ﴾ والحال أنه ليس في الموجودات مستحقٌ

للعادة إلا إلهٌ واحدٌ، منزّه عن الصاحبة والولد بأيٍّ وجهٍ من الوجوه .

﴿وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ ۗ﴾ من هذه العقائد الباطلة والأقوال الفاسدة .

﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۗ﴾ .

ثم حَصَّتْهُمُ الْآيَاتُ وَحَثَّتْهُمُ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، وَالْعُودَةَ إِلَى عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ، كَمَا عَوَّدْنَا بِأَسْلُوبِهَا التَّرْبَوِي:

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٤).

• حقيقة عيسى عليه السلام في القرآن الكريم:

ثم بَيَّنَّتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةَ بِصِرَاحَةٍ تَامَةٍ حَقِيقَةَ الْمَسِيحِ عَيْسَى عليه السلام وَحَقِيقَةَ أُمَّهُ بِقَوْلِهِ ﷺ:

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَّانِ الطَّعَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥).

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فهو عبدُ الله، شأنه في هذا كشأن جميع الرسل الذين سبقوه.

﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ فهي امرأةٌ كسائر النساءِ، إلا أنها بالغت بالصدق والتصديق بالكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله، ولهذا قال سبحانه في شأنها: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا وَكَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [التحریم: ١٢].

وتأكيداً لعبودية عيسى وأمه لله تعالى وصفهما الحق جلَّ شأنه بقوله:

﴿كَأَنَّا بِكُلَّانِ الطَّعَامِ﴾ فهما يحتاجان إلى الطعام، ويأكلانه، كما يحتاجان إلى طرح فضلاته، وهذا يتنافى تماماً مع كمال الألوهية، وعزتها وغناها.

وبهذا تظهر حقيقة عيسى ابن مريم، وحقيقة أمه واضحة جلية، لا لبس فيها ولا غموض، والذين يقولون: إن حقيقة عيسى في القرآن الكريم غامضة جاهلون بالقرآن الكريم، لم يقرؤوا آياته، ولم يتدبروا كلماته، كأنهم لم يقرؤوا هذه الآية الكريمة في سورة المائدة، ولم يقرؤوا معها أيضاً قوله ﷺ: ﴿لَنْ يَسْتَكْفَأَ الْمَسِيحُ

أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسَتَكِبْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿[النساء: ١٧٢].

وسياتي معنا إن شاء الله في آخر سورة المائدة من الآيات الكريمة ما يؤكد عبودية عيسى ﷺ لله تعالى .

ومع كل هذا البيان والوضوح تراهم ينصرفون عن الحق :

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ نُبِّئْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنْ يُؤْفَكُونَ﴾ .

أليس عجيباً أن يعبد الإنسان ما لا يستطيع منع ضرر عنه، أو إيصال نفع إليه، وينصرف عن عبادة الله الواحد الأحد السميع العليم :

﴿قُلْ أَنْعَبُدُوكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾

• الغلو في الدين:

وكشفت الآيات الكريمة سبب تمسكهم بهذه العقائد الباطلة رغم ظهور بطلانها، وبروز فسادها :

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ إنَّ الغلو في الدين هو الذي

جعلهم يرفعون عيسى ابن مريم من مقام العبودية لله تعالى إلى مقام الألوهية .

والغلو: مجاوزة حد الاعتدال، بحيث يؤدي إلى الخروج عن الدين، ودين

الله بين الغلو والتقصير، وغلو النصارى في محبة عيسى وتقديسه أوصلهم إلى

ما مرَّ معنا من العقائد الباطلة الفاسدة، وكذلك غلو بعض الفرق في محبة

علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه ومحبة أهل البيت أوصلهم

إلى الزيف عن الإيمان والوقوع في الخسران .

وقد حذَّرَ النبي ﷺ من الوقوع فيما وقع به النصارى فقال: « لا تُظروني كما

أَظَرَّتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» [رواه البخاري (٣٤٤٥)].

وكان ﷺ يحبُّ أن يُدعى بصفة العبودية لله، ولهذا لما سمع رجلاً يقول له: يا سَيِّدَنَا وابنَ سَيِّدِنَا، وخَيْرِنَا وابنَ خَيْرِنَا، قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس قولوا بقولِكُمْ، ولا يستهوينكُمُ الشيطانُ، أنا مُحَمَّدٌ بنُ عبدِ اللَّهِ، ورسولُ اللَّهِ، والله ما أحبُّ أن ترفعوني فوقَ ما رفعني اللهُ ﷻ» [رواه أحمد في مسنده (١٣٥٢٩) عن أنس].

وغالَى النَّصَارَى أيضاً في أتباع عيسى ﷺ وعلماء دينهم من الأحرار والرهبان، فزعموا لهم صفة العصمة، وهي لا تكونُ إلا للأنبياء ﷺ، واتبعواهم في كلِّ ما قالوه، فاستحلُّوا ما أحلَّوه لهم، وحرَّموا على أنفسهم ما حرَّموه عليهم، ولهذا قال الله تعالى فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ولهذا حذَّره اللهُ تعالى من تقليد أحرارهم ورهبانهم تقليداً أعمى، واتباعهم في ضلالاتهم، ممَّا أدى إلى انتشار الضلال في أجيالهم المتعاقبة: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ فاستحقوا بذلك لعنة الله تعالى على لسان أنبيائه:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿٧٨﴾

أي: يتجاوزون حدود ما شرع الله تعالى لهم.

● الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ومبدأ ضلالهم نشأ عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا

قال تعالى بعد ذلك:

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ .

قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾»، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً» [رواه أحمد (٣٩١/١) وأبو داود (٤٣٣٦) والترمذي (٣٠٤٧) وابن ماجه (٤٠٠٦)].

وأدى بهم الإدمان على المعاصي إلى موالة الكافرين فكفروا مثلهم، ولهذا قال ﷺ:

﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ .

فلا يجتمع في قلب امرئ إيمان بالله تعالى وموالة للكافرين .

• تحديد المواقف:

ختم الله تبارك وتعالى هذه الجولة التي بين فيها فضائح وقبائح أهل الكتاب وبطلان عقائدهم وفسادها بآياتٍ تحدّد مواقفهم من المسلمين فقال تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ بِنَانٍ مِّنْهُمْ قِيسِيَّةٍ وَرُهْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ .

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فعداوة اليهود

والمشركين على العموم واضحةً للمؤمنين بسبب شدتهم بالكفر، واجترائهم على الأنبياء ﷺ بالتكذيب والقتل، وإفسادهم في الأرض، ونشر الفتن بين الناس.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّكُمْ﴾ ولا يعني هذا أنَّ النصارى لا يُعادون المسلمين، إنّما عداوة النصارى للمسلمين أقل من عداوة اليهود والمشركين للمسلمين، وسبب تباين عداوة اليهود والنصارى للمسلمين مع أنهم جميعاً متصفون بصفة الكفر - كما مرّ معنا - بيّنه الله تعالى بقوله:

﴿ذَٰلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قَتِيلِينَ﴾ وهم علماء النصارى ورؤساء دينهم.

﴿وَرَهْبَانًا﴾ جمع راهب من الترهّب، وهو التعبّد بالتخلّي عن أشغال الدنيا، واعتزال أهلها، والانقطاع إلى العبادة، وتعمّد مشاقها، حتى إنّ منهم من كان يخصي نفسه، ويضع السلسلة في عنقه وغير ذلك من أنواع تعذيب النفس.

﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباع الحق والانقياد له إذا فهموه، أو أنهم يتواضعون ولا يتكبرون.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٣)

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وظاهر الآية العموم، ويتعيّن إرادة البعض، وهم الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ من الحبشة ومن بلاد الشام، وآمنوا به عليه الصلاة والسلام، لأنّ النصارى ليسوا جميعاً كذلك.

﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ الذي عندهم من البشارة ببعثة سيدنا محمد ﷺ.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع محمد ﷺ وأُمَّته، وهم الشاهدون لأنهم يشهدون يوم القيامة على الأمم، وأنّ الرسل قد بلغتهم دعوة الله تعالى.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٤).

وهذا دليلٌ يدلُّ على أنَّ الآياتِ أَرادَتْ الذينَ أسلموا من النصارى، واستجابوا لدعوة النبي ﷺ. ولهذا قال تعالى مبيِّناً حسن ثوابهم يوم القيامة:

﴿فَأَنْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٥).

أما الذين ظلُّوا متمسِّكين بالكفر من عامَّة النصارى، ولم يؤمنوا برسالة الإسلام، وكذبوا بآيات القرآن الكريم، فجزاؤهم بيَّنه الله تعالى بقوله:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٨٦).



النداء العاشر

النهي عن تحريم الطيبات

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرْتُمْ أَتَيْتُكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

خَصَّصَ اللهُ ﷻ النداء العاشر لبيان رحمته تعالى بالأمة المسلمة بما أحلَّ لهم من الطيبات، وحرّم عليهم من الخبائث، وجعل شريعة الإسلام سمحةً سهلةً قائمةً على التوسط والاعتدال، فلا غلوّ فيها ولا تفريط.

وجاء هذا النداء بعدما سبقه من ذكر الرهبان ليبيّن أنّ لا رهبانية في الإسلام كما هو الشأن عند النصارى، فقد يكون ذكر الرهبان على سبيل المدح كما مرّ معنا، داعياً إلى الترهّب والتشدد في الدين وزيادة الاجتهاد في العبادات والإعراض عن كثير من المباحات، ولهذا جاء التعقيب على ذلك بالنهي عن تحريم الطيبات التي أحلّها الله تعالى، فالإسلام دينٌ قائمٌ على التوسط والاعتدال رحمةً بالمسلمين ولطفاً بهم^(١).

قال تعالى:

(١) انظر: الدرر في تناسب الآيات والسور.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض، كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني» [رواه ابن أبي حاتم].

وفي «الصحيحين»: عن أنس رضي الله عنه: أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا! لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [البخاري ٥٠٦٣] ومسلم (١٤٠١)^(١).

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾ معناه: كما أن عليكم أن لا تحرموا الحلال، فلا تعتدوا في تناوله، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، وهو كقوله تعالى: ﴿يَبْنِي ءَادَمَ حُدُودَ زِينَتِكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

ثم قال تعالى:

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَأَنْفُوا إِلَيْهِ أُنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ .

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا﴾ أي: بشرط أن يكون المأكول حلالاً طيباً.

(١) تفسير ابن كثير: ٨٧/٢.

﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ بفعلٍ ما أحلَّ لكم، وترك ما حرمَ عليكم .
 ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ .

• أحكام الأيمان:

ولمّا كان تحريم الحلال يُعدُّ في الشريعة الإسلامية يميناً، بيّن الله تعالى أحكام الأيمان^(١) وكفارتها فقال ﷺ:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ؛ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٨٩).

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ واليمين اللغو: هو أن يحلف على أمر في الماضي أو الحال وهو يظن نفسه صادقاً، ثم يتبين له أن الأمر على خلاف ما كان يظن، ولا مؤاخذه على هذا اليمين، على العكس من اليمين الغموس، الذي سُمِّي بهذا الاسم لأنه يغمس صاحبه في جهنم، فهو من كبائر الذنوب لما فيه من تعمّد الكذب.

فاليمين الغموس: هو الحلف بالله تعالى وهو يعلم أنه كاذب، وقد عدّه النبي ﷺ من كبائر الذنوب، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله» قال: ثم ماذا؟ قال: «عقوق الوالدين» قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس» قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «التي يُقْتَضَعُ بها مالٌ امرئٍ مسلمٍ هو فيها كاذبٌ» [رواه البخاري (٦٩٢٠)].

(١) انظر: أحكام الأيمان في كتابنا: الفقه الحنفي في ثوبه الجديد: ٢/ ٢٩٩ - ٣٤٢، ط. دار القلم بدمشق.

وعن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال: «وإن كان قضييًّا من أَرَائِكِ» [رواه مسلم (١٣٧)].

وذكروا معني آخر لليمين اللغو، فقد ذهب بعضهم إلى أن اليمين اللغو هو ما يجري على اللسان بلا قصد، مثل: لا والله، وبلى والله.

ثم ذكر الله النوع الثالث من أنواع اليمين فقال:

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ وهي اليمين المنعقدة، التي يُحْلَفُ بها على أمرٍ مستقبل، وفي هذه اليمين الكفارة إن حنث الحالف فلم يبرِّ يمينه.

وبيّن الله تعالى مقدار الكفارة فقال:

﴿فَكَفَّرْتَهُمْ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ والمراد بتحرير الرقبة إعتاق العبد.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ شيئاً من هذه الأمور المذكورة كأن كان الحالف فقيراً.

﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ فعلية ليكفّر عن يمينه أن يصوم ثلاثة أيام، وشرط بعضهم أن تكون ثلاثة أيام متتابعة.

﴿ذَلِكَ كَفَّرةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي: إذا لم تبرؤا بها.

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بعدم المسارعة إليها أو إلى الحنث فيها، أو لا تركوا أيمانكم بغير تكفير.

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.



النداء الحادي عشر

الأمر باجتنب الخمر والميسر نهائياً

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

وجاء النداء الحادي عشر يبيِّن بعض الخبائث التي حرّمها الله تبارك وتعالى في الشريعة الإسلامية، فلا تُعدُّ من الطيبات التي أحلّها الآيات السابقة:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ الخمر: كلُّ مسكرٍ يخامرُ العقلَ، ويغطّيه من الأُشربة.

﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ هو القمار، ويلحقُ به كل ما يشبهه من الكسبِ الذي يُعتمد فيه على مجرد الحظ والمصادفة.

﴿وَالْأَنْصَابُ﴾ هي الأصنام المنصوبة للعبادة.

﴿وَالْأَزْلَامُ﴾ هي التي كانوا يستقسمون بها كما مرَّ معنا في أول السورة [الآية: ٣].

﴿رِجْسٌ﴾ أي: قدر تعاف منه العقول.

﴿مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ﴾ أي: من تزيينه وتسويله.

﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي: اجتنبوا تعاطي جميع ما ذكر، وهذا يقتضي الاجتناب المطلق، الذي لا يُنتفع معه بشيء من الوجوه، لا بشرب ولا بيع ولا تخليل ولا مداواة ولا غير ذلك.

وعلى هذا تدلُّ الأحاديث الواردة في الباب:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم راوية خمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل علمت أن الله حرّمها؟» قال: لا، قال: فسار رجلاً (أي: حدّثه سرّاً) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بِمَ سَارَرْتَهُ؟» قال: أمرته ببيعها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الذي حرّم شربها حرّم بيعها» قال: ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها. [رواه مسلم (١٥٧٩)]^(١).

واستثنى بعض العلماء تخليل الخمر، قال في «الدر المختار»: «وحرّم الانتفاع بها، ولو لسقي دواب أو لطين أو نظراً للتلهي أو في دواء أو دهن أو طعام إلا لتخليل»^(٢).

﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي: لكي تفلحوا بهذا الاجتناب.

وهذا يدلُّ على أن فعل مثل هذه الأمور الخبيثة كشرب الخمر أو تعاطي القمار خبيّة وخسران لما فيها من المفساد في الدين والدنيا. وقد بين الله سبحانه هذه المفساد بقوله:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾^(٩١).

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ وما أكثر

الخلافات والخصومات التي تحدث بين الناس بسبب الخمر والميسر!

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢٨٩/٦.

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين: ٢٨٩/٥.

﴿وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ مما يؤدي إلى فساد دينكم أيضاً .
 ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾؟ . . وهذا يدلُّ على أنَّ تحريمَ هذه الخبائث قد بلغ الغاية،
 فقد انقطعت الأعدارُ بالكلية، وعليكم أن تتهوا وتتركوا هذه الخبائث .

• نجاح الإسلام في محاربة الخمر والميسر:

لقد نجح الإسلامُ نجاحاً كبيراً في قلع هذه الآفات التي كانت راسخة في
 جسم المجتمع العربي الجاهلي، وقد حفظت لنا كتبُ السُّنة النبوية الشريفة
 وثائق تاريخية هامة، تبين مدى نجاح الإسلام في محاربة هذه الآفات والقضاء
 عليها، منها:

ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنتُ ساقِي القومِ يومَ حُرِّمَتِ الخمرُ
 في بيتِ أبي طلحةَ، وما شرابُهُم إلا الفضيخُ - البُسْر والتَّمْر - فإذا منادٍ ينادي،
 فقال: اخرجْ فانظُرْ، فخرجتُ فإذا منادٍ ينادي: إنَّ الخمرَ قد حُرِّمَتْ، قال:
 فَجَرَّتْ في سَكِّ المدينة، فقال أبو طلحة: اخرجْ فأهرِقها، فهرقْتُها. [رواه
 البخاري (٢٤٦٤) ومسلم (١٩٨٠)].

وفي رواية: فسمعتُ منادياً ينادي: ألا إنَّ الخمرَ قد حُرِّمَتْ، قال: فما دخلَ
 علينا داخلٌ، ولا خرجَ منَّا خارجٌ حتى أهرقنا الشرابَ، وكسرنا القلال، وتوضأً
 بعضُنا واغتسلَ بعضنا، وأصبنا من طيبٍ أمَّ سُلَيْمٍ، ثم خرجنا إلى المسجدِ، فإذا
 رسولُ الله صلى الله عليه وآله يقرأ: ﴿بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ﴾ الآية .

وهكذا جعل الإسلامُ الخمرَ تجري في سَكِّ المدينة، وتُكسر آيتها بأيدي
 سقاتها وعُشاقها، مما يدلُّ على نجاح الإسلام، بينما فشلت أمريكا بكل
 ما عندها من الوسائل الحضارية الحديثة في محاربة الخمر، ففي عام (١٩١٩م)
 منعت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية الخمرَ، وأصرت على المنع أربعة
 عشر عاماً، وحدث خلال هذه السنوات شيءٌ عجيب، صدرت بليون نشرة لبيان
 أضرار الخمر، وشرعت عقوبات كثيرة للمخالفين حتى بلغ عدد الذين أُعدموا
 (٣٠٠) شخص، والذين سجنوا (٥٣٣٣٥) شخصاً، ومقدار الغرامات النقدية

(١٦) مليون دولار، وقيمة المصادرات (٤٠٤) مليون دولار، ورغم كل هذه الإجراءات زاد عدد مصانع الخمر إلى عشرة أضعاف، ولكن بشكل سري، وفشل المنع، واضطرت الحكومة إلى رفع الحظر^(١).

فلماذا نجح الإسلام ولم يبين للناس أضرار الخمر الصحية، ولم يعرض عليهم بالكتب والنشرات والصور والمحاضرات ما يترتب على شرب الخمر من أضرار في الدم والكبد والمعدة... إلخ، بينما فشلت في العصر الحاضر كل هذه الجهود المبذولة لصرف الناس عن شرب الخمر؟!.

وسر نجاح الإسلام يكمن في آية تحريم الخمر التي صُدّرت بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خاطبهم بصفة الإيمان بعد أن عمل على ترسيخه في قلوبهم ونفوسهم، ولذلك لم يحرم الإسلام الخمر في أول الأمر، إنما عمل أولاً على تنفيرهم منها بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم قلل من فترات تناولها عندما أنزل الله قوله الكريم: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، ثم أنزل تحريمها القطعي في سورة المائدة بعد أن رسخ الإيمان في قلوبهم.

الإنسان فكرة وعقيدة قبل أن يكون جسداً، وإصلاح الإنسان لا يكون إلا بإصلاح فكرته وعقيدته، ورحم الله سيد قطب عندما قال: «لقد كانت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من معالم الحياة الجاهلية، ومن التقاليد المتغلغلة في المجتمع الجاهلي... ولم يبدأ المنهج الإسلامي في علاج هذه التقاليد في أول الأمر، لأنها تقوم على جذور اعتقادية فاسدة، فعلاجها من السطح قبل علاج جذورها جهدٌ ضائع، إنما بدأ من العقيدة، بدأ من شهادة أن لا إله إلا الله، وطالت فترة إنشاء (لا إله إلا الله) في الزمن، حتى بلغت نحواً من ثلاثة عشر عاماً، حتى خلصت نفوسهم لله، وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيراً إلا ما يختاره الله، عندئذ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية

(١) انظر كتاب: حياتنا والموعود المجهول، للمؤلف.

والاقتصادية والنفسية والأخلاقية، بدأت في الوقت الذي يأمر الله فيطيعُ العبادُ بلا خلافٍ، انحلت العقدة الكبرى عقدة الكفر والشرك، فانحلت العقد كلها، نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحتهم، فحال أمر الله بينها وبين الشفاء المتلمّطة، والأكباد المتقدمة، وكُسرت دنان الخمر فسارت في سكك المدينة»^(١).

• حكم اللعب بالنرد والشطرنج والكرة:

وبدل قوله تعالى في الخمر والميسر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ على تحريم كثير من أنواع اللعب واللهو كاللعب بالنرد (الزهر أو الطاولة) والورق والشطرنج، بسبب ما فيها من الأسباب التي حرم الله الخمر والميسر من أجلها.

قال القرطبي رحمته الله في تفسيره:

«فكلُّ لهوٍ دعا قليله إلى كثيره، وأوقع العداوة والبغضاء بين العاكفين عليه، وصدَّ عن ذكر الله وعن الصلاة، فهو كشرب الخمر، وأوجب أن يكون حراماً مثله. فإن قيل: إنَّ شرب الخمر يورث السكرَ، فلا يقدرُ معه على الصلاة، وليس في اللعب بالنرد والشطرنج هذا المعنى؟! .»

قيل له: قد جمع الله تعالى بين الخمر والميسر في التحريم، ووصفهما جميعاً بأنهما يوقعان العداوة والبغضاء بين الناس، ويصدان عن ذكر الله وعن الصلاة، ومعلوم أنَّ الخمرَ إذا أسكرت فالميسر لا يسكرُ، وأيضاً فإنَّ قليل الخمر لا يسكرُ، كما أنَّ اللعبَ بالنرد والشطرنج لا يسكر، ثم كان حراماً مثل الكثير، وأيضاً فإنَّ ابتداء اللعب يورث الغفلة، فتقوم تلك الغفلة المستولية على القلب مكان السكر»^(٢).

وقد جاء في الأحاديث النبوية الشريفة ما يؤكِّد تحريمَ اللعب بالنرد، وهو

(١) من كتاب: في ظلال القرآن: ٩٧٤/٢ بتصرف.

(٢) تفسير القرطبي: ٢٩١/٦ باختصار.

ما يسمّى عند العوام (بالزهر والطاولة)؛ فعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ شَيْراً فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ» [أخرجه مسلم (٢٢٦٠) وأبو داود (٤٩٣٩)].

قال العلامة ابن عابدين: «النردُ اسمٌ معرَّبٌ، ويقال له: النردشير، وهو حرامٌ مسقطٌ للعدالة بالإجماع» وقال في الشطرنج: «هو حرامٌ وكبيرةٌ عندنا، وفي إباحته إعانةُ الشيطانِ على الإسلامِ والمسلمينَ، واستثنى بعضُ الفقهاء اللعبَ بالشطرنج؛ فقالوا بجوازه إذا لم يصاحبه قمارٌ، ولم يداوم عليه، ولم يخلّ بواجب، وإلا فحرامٌ بالإجماع»^(١).

وروى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [رواه مالك في «الموطأ» (٩٥٨/٢) والبخاري في «الأدب المفرد» (ص٣٦٨) وأبو داود (٤٩٣٨) وابن ماجه (٣٧٦٢) والحاكم (٥٠/١) وأحمد في المسند (١٩٤١٤)].

وعنه أيضاً: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ ضَرَبَ بِالْكَعَابِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [رواه أحمد في «المسند» (١٩٣٩٣) وعبد الرزاق في «المصنف» (١٩٧٣٠) قال الشيخ أحمد محمد شاكر رحمته الله محقق المسند: وإسناده ضعيف، وقد رواه الحاكم موصولاً وصححه ووافقه الذهبي] والكعابُ: فصوصُ النردِ.

وهذه الأحاديثُ صريحةٌ عامّةٌ في كلِّ لاعبٍ قامراً أو لم يقامر، والجدير بالذكر أنَّ الشيخَ أبا بكر محمد بن الحسين الأجرّي المتوفى سنة (٣٦٠هـ) قد ألّف كتاباً سماه «كتاب تحريم النرد والشطرنج والملاهي»، ذكر فيه أدلة كثيرة تدلُّ على تحريم النرد والشطرنج^(٢).

وابتلي الناسُ في العصر الحاضر بحمى اللعب بالكرة، فضيّعوا من أجلها الصلوات، وقامت بينهم بسببها الخصومات، حتى وصل الأمرُ إلى حدِّ الاقتتالِ

(١) انظر: حاشية ابن عابدين: ٢٥٣/٥.

(٢) حققه وخرّج أحاديثه: عمر غرامة العمروي، ونشر في الرياض.

وسفك الدماء وإزهاق الأرواح كما حدث في بعض ملاعب الكرة في أوروبا، فقد قتل في حادث واحد سبعة عشر إنساناً بسبب خصومة وقعت بين المتعصبين للفريقين المتباريين، فلا يبعد أن ينسحب عليها حكم الخمر والميسر، لأنها كما هو الواقع المشاهد تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وتوقع العداوة والبغضاء حتى بين الأهل والأقارب والأصحاب، فضلاً عن الخسائر المادية الفادحة التي تنفق على بناء الملاعب الكبيرة وتدريب اللاعبين، والعجيب أن بعض المجتمعات الفقيرة تنفق النفقات الكثيرة على الكرة، بينما يتصور كثير من أبنائها جوعاً وحرماناً يصل بهم في بعض الأحيان إلى حدِّ الموت.

ثم أمرهم الله جلَّ وعلا بطاعته سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، فقال:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في جميع الأوامر والنواهي، ويدخل في ذلك النهي عن الخمر والميسر.

ثم حذَّروهم من المخالفة والعصيان فقال:

﴿وَأَحْذَرُوا﴾، وختم الله الآية بتحذير المعرضين عن طاعة الله ورسوله عليه

الصلاة والسلام فقال:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾.

ولم يأل النبي ﷺ جهداً في تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، فقامت على الناس الحجة، وانتهت الأعذار، وانقطعت العلل، ففي الآية من التهديد وشدة الوعيد ما لا يخفى.

• التقوى والإحسان:

وتساءل الناس بعد نزول التحريم القطعي للخمر عن حال الصحابة الذين ماتوا والخمر في بطونهم قبل نزول تحريمها، وبعضهم قتلوا شهداء في غزوة

أحد، وسأل بعضهم رسول الله ﷺ قائلين: قُتل فلان وفلان وهي في بطونهم؟
فأنزل الله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ .

وقال رسول الله ﷺ: «لو حُرِّم عليهم لتركوه كما تركتم» [رواه أحمد (١)/

. (٢٩٥)].

وقوله سبحانه:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ أي: إثم وحرَج .

﴿فِيمَا طَعَمُوا﴾ أي: تناولوه من المأكول والمشروب كائناً ما كان .

﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إذا اتقوا أن يكون فيه شيء من

المحرم، واستمروا على الإيمان والعمل الصالح، ولهذا قال بعدها:

﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا﴾ أي: اتقوا ما حَرَّمَ الله عليهم بعد ذلك مع كونه مباحاً فيما

سبق، فإذا اتقوا المحرمات، واستمروا على ما هم عليه من الإيمان والأعمال
الصالحة، وكانوا في طاعة الله تعالى بحيث كَلَّمَا حَرَّمَ عليهم شيئاً من المباحات
أطاعوا واتقوا، ثم، وثم، فلا جناح عليهم فيما طعموه في كلِّ مرّة من المآكل
والمشارب، إذ ليس فيها شيءٌ محرّم عند تناوله^(١).

والآية تدلُّ على أن التحليل والتحريم في المآكل والمشارب يدورُ مع

النصوص، فالمهم الثبات على الإيمان مع التقوى والعمل الصالح حتى يصل
المؤمن إلى مرتبة الاستقامة الكاملة والإحسان، وينال محبة الله تعالى، ولهذا
ختم الآية بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

(١) انظر: روح المعاني: ١٨/٧ .

ومرتبةُ الإحسان هي التي قال عنها رسول الله ﷺ عندما سُئِلَ عن الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].



النداء الثاني عشر

الأمر بالانقياد لأمر الله في شرعه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ. بِالْغَيْبِ
فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

وعادت بنا آية النداء الثاني عشر إلى الآية الأولى في السورة التي جعلها الله الموضوع الأساس الأول للسورة كلها، وفيها ذكر الله تحريم الصيد في الحرم وحال الإحرام فقال: ﴿غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ١].

وحتى يظهر لنا موقع النداء الثاني عشر وما بعده من آيات السورة وموضوعها علينا أن نتذكر النقاط الثلاث التالية التي سبق تقريرها؛ وهي:

- ١ - التحليل والتحریم لله سبحانه وحده.
- ٢ - الأصل في اللحم الحظر والتحریم، حتى يقوم الدليل على حله.
- ٣ - التشريع عامةً والتحليل والتحریم خاصةً منوط بمدى استسلام الأمة وإذعانها لله تعالى.

ومن المعلوم أن الصيد كان ولا يزال مصدرًا رئيساً من مصادر الطعام للناس، وقد ازداد أهمية في العصر الحاضر كثيراً، حتى أصبحت الدول تتنافس على الصيد، وتتقاتل أحياناً على موارده، كما تحشد الجيوش والأساطيل لحماية موارد الصيد والسيطرة عليها.

وقد أحلَّ الله تعالى صيد البحر مطلقاً، كما أحلَّ صيد البر إلا في أرض الحرم، أو في حال الإحرام.

وحتى يبينَّ الله سبحانه ارتباط تحليل الصيد بمدى استسلام الأمة وإذعانها

لأوامره تعالى، قدّم له بقوله الكريم مخاطباً الصحابة الذين عاشوا عصر التنزيل والتشريع في الإسلام، والذين كان لخضوعهم واستسلامهم لأوامر الله تعالى تأثير كبير في يسر الشريعة الإسلامية وسماحة أحكامها، فقال ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بَشَىءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بَشَىءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ اختبر الله تعالى أصحاب رسول الله ﷺ كما اختبر بني إسرائيل من قبل عندما حرم الله على بني إسرائيل العمل والصيد يوم السبت، وساق لهم سبحانه بحكمته وقدرته السمك الكثير يوم السبت، فكانت تأتيهم أسراب السمك واضحة قريبة في يوم السبت، بينما تختفي وتبتعد في أعماق البحار بعد ذلك، قصّ الله علينا خبرهم في قوله الكريم: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْفَرِيكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

فخالف أكثرهم أمر ربهم، وسقطوا في الاختبار، وأنزل الله عليهم العذاب: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

واختبر الله سبحانه أيضاً أصحاب رسول الله ﷺ وابتلاهم كما مرّ معنا بالصيد وهم محرّمون، قال الشوكاني رحمه الله: «كان الصيد أحد معاش العرب، فابتلاهم الله بتحريمه مع الإحرام وفي الحرم، كما ابتلى بني إسرائيل ألا يعتدوا في السبت»^(١).

وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، فكانت الوحش

(١) فتح القدير: ٧٧/٢.

والطيرُ والصيدُ تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون^(١).

ويبين سبحانه الحكمة من هذا الاختبار فقال:

﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: لتظهر طاعة من يطيع الله منهم في سرّه

وغيبته عن الناس.

﴿فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد هذا الإعلام والبيان.

﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لمخالفته أمر الله وشرعه.

ونجح الصحابة رضي الله عنهم في الاختبار، وامثلوا أمر الله تعالى وشرعه، فلم تمتدّ

أيديهم إلى ما حرّم الله تعالى عليهم، ونتيجة لهذا أحلّ الله تعالى لهذه الأمة

صيد البحر مطلقاً، وأحلّ صيد البر أيضاً، إلا في حال الإحرام، أو داخل أرض

الحرم، كما شرع الله الجزاء والعقاب لمن يصطاد وهو محرم أو في أرض

الحرم في النداء الثالث عشر.



النداء الثالث عشر

التحذير من قتل الصيد
عند الإحرام وفي الحرم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ
يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ
أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقُصِمْ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ
وَطَعَامُهُمْ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْمَدْيَةَ وَالْفَلَيْدَةَ
ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنْ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا
تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ بَتَّائُلِي
الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قال جلّ وعلا في النداء الثالث عشر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ
يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ
وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقُصِمْ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ وهذا تأكيد لما سبق، وتمهيد لما
يترتب عليه من أحكام.

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ أي: فعلى قاتل الصيد أن يذبح من النعم - وهي الإبل والبقر والغنم - ما يساوي الصيد ويمثله .
 ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ يحكم ببيان مقدار الجزاء حكمان عدلان مسلمان .
 ﴿هَدِيًّا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أي: يجعل هذا الجزاء هدياً يُهدى في أرض الحرم .
 ﴿أَوْ كَفَّرَهُ طَعَامًا مَسْكِينٍ﴾ أو يعطي بقيمة الهدى طعاماً للفقراء لكل مسكين مقدار ما يجب في زكاة الفطر .

﴿أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أو عليه أن يصوم أياماً بعدد المساكين .
 وهذا الجزاء شرعه الله تعالى ليدوق المخالف جزاء مخالفته، ولهذا قال:
 ﴿يَذُوقُ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ قبل نزول هذه الآيات .
 ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ فقتل الصيد وهو محرم .
 ﴿فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ .
 ثم قال تعالى في شأن الصيد:

﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَلَعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا
 وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ أي: ما صيد من سمك البحر أو من حيوان البحر .
 ﴿وَطَعَامُهُ﴾ أي: وأحل لكم ما قذفه البحر ميتاً، إذا لم يكن مُتَنَبِّئاً .
 ﴿مَتَلَعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَارَةِ﴾ يتمتع به ويستفيد منه المقيمون والمسافرون .
 ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: محرمين أو في أرض الحرم .
 ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

والجدير بالذكر أن حيوان البحر يحلُّ أكله من غير ذبح، لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أحللت لنا ميتان ودمان، فأما الميتان فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال. [رواه ابن ماجه (٣٣١٤) وأحمد (٥٦٩٠) والدارقطني (٤/ ٢٧٢) والبيهقي (١١٢٨)].

وقال ﷺ في البحر: «هو الظَّهُورُ ماؤه، الجِلُّ مَيْتُهُ» [رواه أبو داود (٨٣) والنسائي (٥٠/١) والترمذي (٦٩) وابن ماجه (٣٨٦)].

وعلى هذا فدمُ السمك وما في جوفه طاهر حياً كان أو ميتاً، إلا إذا حصل تغييرٌ في رائحته، وفساد في لحمه، فلا يحلُّ أكله لما يترتب عليه من الضرر. والحكمة من تحريم الصيد في أرض الحرم تعظيمُ بيتِ الله الحرام وتكريمه، ولهذا قال الله ﷻ:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبِدَ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ أي: سبباً لإصلاح أمور الناس في معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويجتمع فيه التِّجَارُ، ويتوجه إليه الحجاج والعمار.

﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبِدَ﴾ وقد سبق الكلام عن ذلك في أول السورة [الآية: ٢].

﴿ذَلِكَ﴾ أي: شرع ذلك.

﴿لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فهو سبحانه العليم بكل ما يحتاج إليه الناس في مصالحهم، ولهذا شرع لهم هذه الشرائع، فأحلَّ لهم ما أحلَّ، وحرَّم عليهم ما حرَّم، من أجل سعادتهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾.

فعليكم أيها الناس أن تنقادوا لشرع الله وأحكام دينه، وتطبقوها على أنفسكم:

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

واعلموا أيضاً أن رسول الله ﷺ أدى ما كلفه الله تعالى به، فبلغكم رسالته، وأقام عليكم حجته، فلا عذرَ لكم بعدَ اليوم:

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ .

فما أحلّ الله تعالى لكم إلا كلّ طيب نافع، وما حرّم عليكم إلا كلّ خبيث ضار بدينكم أو ببدنكم، فلا تغتروا بكثرة الخبيث، فالقليل الطيب أفضل من الخبيث الكثير:

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِيهِ الْآلَبَابُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ .

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فلا تنظروا إلى الكم، بل انظروا إلى الكيف، إلى المفيد النافع مما أحلّ الله تعالى لكم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِيهِ الْآلَبَابُ﴾ يا أصحاب العقول في البحث عن الطيب النافع

بين ركام الخبائث الضارة.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

وفي العصر الحاضر أصبحت التنمية الهدف الأساس للإنسان في ظل الحضارة المادية التي يعيشها، وهي لا تعني سوى الزيادة في كمية الإنتاج بأيّ وسيلة من الوسائل، حتى أصبحت تنميةً انتحاريةً، يمكن أن تمحو وتدمر كل آثار الحياة، فما أحوج المتنافسين في مضمار التنمية والراكضين وراء زيادة الإنتاج إلى محطة استراحة، يريحون فيها أجسامهم وأعصابهم في ظلال هذه الآية الكريمة، فيفصلون بين الوسائل والأهداف، ويضعون جهدهم وتعبهم في مكانه الصحيح من الحياة، ليعرفوا معنى الحياة الإنسانية الحقّة، ويميزوا بين الخبيث ولو كان كثيراً، وبين النافع الطيب ولو كان قليلاً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِيهِ الْآلَبَابُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ .



النداء الرابع عشر

التحذير من كثرة السؤال

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْءَانُ تُبَدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْحُوا بِهَا كُفْرِيكَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَأَكْذَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ءَأُولُو كَانٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

اقبلوا شرع الله تعالى فيما أحلَّ لكم وحرَّم عليكم ، وأذعنوا له منقادين مستسلمين ، وإيَّاكم أن تسألوا عنه معترضين ، وهذا التحذير هو ما تضمَّنه النداء الرابع عشر :

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْءَانُ تُبَدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ فالمبادرة إلى تنفيذ أمر الله تعالى دون أيِّ اعتراضٍ أو سؤالٍ يخلِّصكم من المشقة والعنت الذي أصاب مَنْ قبلكم من الأمم .

انظروا مثلاً إلى ما أصاب بني إسرائيل بسبب كثرة أسئلتهم واعتراضهم على أوامر ربهم سبحانه في قصة البقرة ، لم يبادروا إلى تنفيذ أمر الله تعالى ، فسألوا نبيهم موسى ﷺ معترضين على أمر الله سبحانه ، فشدَّد الله عليهم .

وما أكثر ما حذّر رسولُ الله ﷺ أُمَّته أن يفعلوا مثل ما فعل بنو إسرائيل، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ! قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا» فقال رجلٌ: أكلَّ عامٍ يا رسولَ الله؟ فسكتَ عليه الصلاةُ والسلامُ حتى قالها ثلاثاً، فقال رضي الله عنه: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ؛ لَوَجِبَتْ وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ» ثم قال عليه الصلاة والسلام: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سَوْأَلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ» [رواه مسلم (١٣٣٧)].

﴿وَإِن سَأَلُوا عَنَّا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدِلْكُمْ﴾ أي: تظهر لكم بما يجيبُ عليكم به النبي ﷺ أو ينزل به الوحي، فيكون ذلك سبباً للتكاليفِ الشاقَّةِ، وإيجابِ ما لم يكن واجباً، وتحريمِ ما لم يكن محرماً، بخلاف السؤال عنها بعد انقطاع الوحي بموت رسولِ الله ﷺ؛ فإنه لا إيجاب ولا تحريم يتسبَّب عن السؤال^(١).

وقد ورد في الحديث الشريف: «أَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ جُرْماً مَنْ سَأَلَ عَن شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ، فَحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» [رواه البخاري (٧٢٨٩) ومسلم (٢٣٥٨)].

ولهذا قال تعالى بعدها:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: تركها الله تعالى ولم يذكرها في القرآن الكريم كما جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تَضِيعُوهَا، وَحَدَّ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُونَهَا، وَسَكَتَ عَنِ أَشْيَاءَ رَحِمَةً بِكُمْ غَيْرَ نَسْيَانٍ، فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا» [أخرجه الحاكم (٣٧٥/٢) وصححه، والطبراني في الكبير (٥٨٩/٢٢) والبيهقي (١٢/١٠) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه].

ولا بدّ من تقييدِ النهي عن السؤال في هذه الآية بما لا تدعو إليه الحاجةُ، أما ما تدعو إليه الحاجة في أمور الدين والدنيا، فقد أذن الله تعالى بالسؤال عنه فقال: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

(١) انظر: فتح القدير: ٨١/٢.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ ﴿١٠٢﴾ .

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي: سألوا مثل هذه المسائل.

﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي: تاركين العمل بها، فإن بني إسرائيل كانوا

يستفتون أنبياءهم في أشياء فإذا أمروا بها تركوها^(١).

ثم بيّن سبحانه أن ما ابتدعه أهل الجاهلية في تحريم بعض أنعام باطل،

لأن التحريم والتحليل لله سبحانه وحده، فقال:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠٣﴾ .

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾:

والبحيرة: هي الحلوبة من الأنعام، لا يسمحون لأحد أن يحلبها،

ويزعمون أنهم يتركون لبنها لأصنامهم.

والسائبة: كانوا يسيّبونها لآلهتهم المزعومة، ولا يحملون عليها شيئاً.

والوصيلة: الناقة التي تبكر بولادة أنثى، ثم تلد بعدها أنثى أخرى،

ويسمونها وصيلة، لأنها وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر، فلا

يذبحونها.

والحامي: فحل الإبل إذا تمكّن من تلقيح عددٍ معيّن من الإبل تركوه بعد

ذلك لآلهتهم، ولم يحملوا عليه شيئاً.

ثم بيّن سبحانه كذبهم وافتراءهم في هذه الأمور فقال:

﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ .

وإذا لم يشرع الله تعالى هذه الأمور فمن الذي شرعها لهم؟! إن تقليدهم

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٩٧/٢.

لآبائهم هو الذي شرعها لهم، ولهذا ذمَّ الله تعالى تقليدَهم الأعمى لآبائهم الذي جعلهم ينصرفون عن دين الله وشرعه وسُنَّة رسوله ﷺ فقال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ .

وهذا يدلُّ على أنَّ الاقتداء والتقليد يجبُ أن يكون للعالم المهتدي الذي يبني قوله على الحجَّة والبرهان، فلا خيرَ في علمٍ لا هدايةَ معه، ولا تكونُ الهدايةُ من دون نظرٍ وتفكيرٍ واستبصارٍ.



النداء الخامس عشر

الأمر بإصلاح النفس والتحذير من المفسدين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنْبِتِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

حذر الله تعالى المؤمنين في النداء الخامس عشر من التأثر بالمفسدين الخارجين على دين الله وشرعه مهما كثروا، وعمّ فسادهم، وانتشر فسقهم، فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنْبِتِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وهذا كما جاء في الحديث الشريف: «لا تكونوا إمعةً تقولون: إن أحسن الناس أحسناً، وإن أسوأوا ظلمنا، ولكن وطمّوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أسأؤوا فلا تظلموا» [رواه الترمذي (٢٠٠٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه].

قال ابن كثير رحمته الله: «يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقاتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً.

قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: يقول تعالى: إذا

ما العبدُ أطاعني فيما أمرتُه به من الحلالِ، ونهيتهُ عنه من الحرامِ، فلا يضرُّه مَنْ ضلَّ بَعْدَهُ إذا عملَ بما أمرتُه به»^(١).

فالأيةُ تحضُّ المسلمين على التمسك بدينهم ومبادئ شريعتهم، مهما كثر الفساد والمفسدون، فالحرامُ إذا شاع وانتشر لا يحلُّ، والحلال إذا ترك الناس العمل به لا يحرمُ، ولهذا قال تعالى:

﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي: لا يضرركم ضلالُ من ضلَّ من الناس إذا اهتديتم أنتم إلى الحق وتمسكتم به.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وليس في الآية دليلٌ على جواز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعله ممكناً، قال العلامة أبو السعود: «أي: لا يضرُّكم ضلالُ من ضلَّ إذا كنتم مهتدين، ولا يُتَوَهَّمَنَّ أن فيه رخصةً في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع استطاعتهما»^(٢).

وروي: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنَّكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ الناسَ إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمَّهُم الله بعقابٍ من عنده» [رواه أحمد (٣٠) وأبو داود (٤٣٣٨) والترمذي (٣٠٥٧) وابن ماجه (٤٠٥)].

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وذهب بعضهم إلى أن العمل بهذه الآية يكون عند غلبة المفسدين وأهل

(١) تفسير ابن كثير: ١٠٩/٢.

(٢) تفسير أبي السعود: ٩٨/٢.

الشرِّ، بحيث لا يستطيع المسلم أن يأمرَ بالمعروف، وينهى عن المنكر، فحينئذٍ عليه أن يهتمَّ بإصلاح نفسه فقط.

واحتجوا بما رُوي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيتُ أبا ثعلبة الخشني فقلتُ له: كيف تصنعُ في هذه الآية؟ قال: آيَةُ آيَةٍ؟ قلتُ: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسولَ الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروفِ، وتناهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حتى إذا رأيتَ شُحاً مُطَاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كلِّ ذي رأيٍ برأيه، فعليك بخاصةِ نفسك ودعِ العوامَّ، فإنَّ مِنْ ورائكم أياماً الصابِرُ فيهنَّ مثلُ القابِضِ على الجَمْرِ، للعاملِ فيهنَّ أجرُ خمسينَ رجلاً يعملونَ كعملِكُمْ» وفي روايةٍ: قيل: يا رسولَ الله! أجرُ خمسينَ رجلاً منا أو منهم؟ قال: «بل أجرُ خمسينَ منكم» [رواه أبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٣٠٥٨) وابن ماجه (٤٠١٤)].

قال العلامة القرطبي رحمه الله: «الأمرُ بالمعروفِ والنهيُّ عن المنكر متعيّن متى رُجِيَ القبولُ أو رُجِيَ ردُّ الظالم ولو بعنف، ما لم يخف ضرراً يلحقه في خاصّته، أو فتنة يدخلها على المسلمين، إما بشقِّ عصا، وإما بضرر يلحق طائفةً من الناس، فإذا خيفَ هذا فعليكم أنفسكم»^(١).

وهذا كلام سديدٌ ومفيدٌ، يتفق تماماً مع القواعد الفقهية في الشريعة الإسلامية، فلا يُزالُ ضررٌ بمثله، ويُحمَلُ أخفُ الضررين لدفع أكبرهما.



النداء السادس عشر

الأمر بصيانة مال المسلم وتنفيذ وصيته

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ
 آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مُمْسِكِيَّةَ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ
 فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ
 الْأَشْيَاءِ ﴿١٦٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ
 الْأَوْلَىٰ نَ يَفْقِهُمَا بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦٧﴾
 ذَلِكَ أَدَّىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ آيْمَانِهِمْ ۗ وَأَتَقُوا اللَّهَ ۗ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا
 يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

وجاء النداء السادس عشر - وهو النداء الأخير في سورة المائدة - يبيّن بعض أحكام المعاملات المالية في المجتمع الإسلامي، فالمال أحد الضرورات الخمس، التي قررها الإسلام للإنسان، وشرع ما يؤمّنها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال.

ولم يقتصر الإسلام على تشريع العقوبات لحماية هذه الضرورات، بل شرع للناس الشرائع المختلفة التي تنظّم العلاقات المالية والاجتماعية فيما بينهم، وتكفل صيانة هذه الضرورات لكل فرد في المجتمع.

شرع الله تبارك وتعالى في النداء السادس عشر الضمانات التي تصون مال الإنسان عندما يكون مسافراً بعيداً عن أهله، وينزل به نازل الموت، فحتى تُنفذ وصيته بإيصال المال إلى ورثته قال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي: من أهل دينكم .

﴿أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أو شهادة آخريين من غير أهل دينكم إذا كنتم على سفر، ولم يكن ثمة شاهدان من أهل دينكم .

فعلى هذا تكون شهادة غير المسلمين على المسلمين جائزة في هذه الحالة، وهي حالة الوصية في السفر، إذا لم يوجد شاهدان من المسلمين، وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين، إلا أن جمهور الفقهاء قالوا: لا تجوز شهادة الكافر على المسلم، وتأولوا قوله تعالى: ﴿أَتْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي: من عشيرتكم وقرابتكم ﴿أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير القرابة والعشيرة، والله سبحانه أعلم .

﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذا يدل على أن الإشهاد على وصية الإنسان قبل الموت .

ثم بين سبحانه كيفية أداء الشاهدين للشهادة فقال:

﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أي: صلاة العصر .

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آرَبْتُمْ﴾ وهو شرط لتحليف الشاهدين، فإذا لم تقع ريبه ولا اختلاف فلا حاجة إلى تحليفهما .

﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: لا نشترى بقسمنا عوضاً نأخذه ولا ندفعه إلى أحد، ولو كان قريباً لنا .

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ﴾ أي: الشهادة التي أعلمنا الله تعالى بها عندما تحمّلناها .

﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَئِمِينَ﴾ إذا غيرنا شهادة الله أو أخذنا لأنفسنا أو لأحدٍ من أقاربنا شيئاً من مال الموصي .

﴿فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّاءَ إِئْمًا فَاخْرَانِ يَفُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّاءَ إِئْمًا﴾ أي : فإن ظهرَ وتحققَ أن الشاهدين ارتكبا خيانةً في الشهادة، واستحقا بذلك إئماً .

﴿فَاخْرَانِ يَفُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ﴾ أي : فليقم اثنان من الورثة المستحقين للمال .

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا﴾ أي : أحق وأصحُّ وأثبتُّ من شهادة الشاهدين السابقين .

﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ فيما قلنا في الشاهدين من الخيانة .

﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن كنا قد كذبنا عليهما .

ويرجع بعد هذا إلى قول الورثة، ولا تقبل شهادة الشاهدين اللذين استشهدهما الموصي قبل موته :

﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُهُمْ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ .

﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا﴾ أي : على الوجه المرضي .

﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُهُمْ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي : يكون الحاملُ لهما على الإتيان بالشهادة على وجهها الصحيح هو تعظيمُ الله سبحانه والخوف من الفضيحة بين الناس في حال عدم قبول شهادتهما، وردَّ اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقُّون ما يدعون .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا﴾ أي: وأطيعوا.
 ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١).



(١) انظر: تفسير القرطبي، وتفسير وابن كثير.

خاتمة السورة

المشهد العظيم

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١٦﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقْوَأُ اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٩﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ ﴿١٢١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ ءَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٢٢﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ءَعِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٣﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢٤﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٥﴾

عَوَّدَنَا اللهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنْ يَخْتَمَ آيَاتِ التَّشْرِيعِ وَالْأَحْكَامِ بِذِكْرِ بَعْضِ الْمَشَاهِدِ الْمَخِيفَةِ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُؤَكِّدُ بِذَلِكَ أَهْمِيَّةَ هَذِهِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَعَمَقَ وَشِدَّةَ الْمَسْئُولِيَّةِ عَنْهَا، فَلَا يَكُونُ تَفْرِيطٌ وَتَقْصِيرٌ فِيهَا.

قال الإمام الفخر الرازي رحمته الله: «اعلم أنَّ عادةَ الله تعالى جاريةٌ في هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكَّرَ أنواعاً كثيرةً من الشرائع والتكاليف والأحكام أتبعها إمَّا بالإلهيات، وإمَّا بشرح أحوال الأنبياء، أو بشرح أحوال القيامة، ليصيرَ ذلك مؤكِّداً لما تقدَّم ذكره من التكاليف والشرائع»^(١).

وبدأ سبحانه عرضَ بعضِ المشاهد من يوم القيامة بهذا المشهد العظيم فقال
جلَّ وعلا:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ﴾ فاسمعوا خبرَ هذا اليوم وما فيه من الأحوال والأهوال. وخصَّ سبحانه الرسلَ بالذكر لإظهار شرفهم ورفع مكانتهم، وإلا فيوم القيامة يومٌ مجموعٌ له الناسُ، وهو يومٌ مشهودٌ.

كما خصَّ الرسلَ بالسؤال في هذا المشهد تقریباً ولوماً للمكلفين الذين أرسل الرسلُ إليهم، فأعرضوا عن رسالتهم، ولم يستجيبوا لدعوتهم، وهو كسؤال الموءودة في يوم القيامة تقریباً وتبكيئاً لوأئدها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير] وإلا فالسؤال يوم القيامة عامٌّ وشاملٌ للرسل والمرسل إليهم، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي: ما الذي أجابتم به أممكم حين دعوتموهم إلى توحيدى وعبادتي وطاعتي.

﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ وإنما قالوا ذلك من هول يوم القيامة، ومن شدة الخوف والفرع في ذلك الموقف.

ولا يُعْتَرَضُ على هذا القول بأنَّ الرسلَ عليهم الصلاة والسلام من الذين لا خَوْفَ عليهم ولا هُمْ يحزنون في يوم القيامة، فهذا حالهم وشأنهم في أكثر مواطن يوم القيامة، وقد جاء عن بعض مواقف يوم القيامة في الحديث الشريف: «إِنَّ جَهَنَّمَ إِذَا جِيءَ بِهَا زَفَرْتُ زَفْرَةً، فلا يبقى نبيٌّ ولا صديقٌ إلا جثا لركبتيه» [رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤١٢٨)]^(١) وذلك من شدة الهول الذي يصيبهم.

أو قال الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ من باب الأدب مع الله سبحانه، أي: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، أو لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، أو لا علم لنا إلا بالظواهر، أما ما غاب عنا من البواطن فلا علم لنا به، ولهذا ختموا كلامهم بقولهم:

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾.

• التذكير بالنعمة:

ثم وجَّه الله تعالى الخطاب إلى عيسى ابن مريم عليه السلام على الخصوص توبيخاً للنصارى، الذين فُتِنُوا بعيسى عليه السلام، وتجروا على الله تعالى، فوصفوه باتخاذ صاحبة والولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فلا يليق بعاقلي أن يصف الله تعالى بهذه الصفة، وهو الواحد الأحد والفرْدُ الصمدُ، المنزَّه عن صاحبة والولد، قال الحقُّ تعالى يبيِّن قُبْحَ هذه المقولة وغلظتها وشدة شناعتها: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ [مريم] أي: عظيماً، ثم بيَّن خطورته فقال: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۗ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۗ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ﴾ [٩٢] إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عِني الرَّحْمَنِ عَبْدًا [مريم].

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٦١/٦.

فلا جرم أن يخصَّ الحقُّ سبحانه عيسى ﷺ بهذا الخطاب بحضرة جميع الرسل في هذا الموقف العصيب من مواقف يوم القيامة، فيعدُّ أنواع النعم التي أنعم بها عليه وعلى والدته بقصد توبيخ النصارى، وتقريعهم على سوء مقاتلتهم وشناعة فريتهم، فكلُّ نعمةٍ من هذه النعم التي أنعم الله تعالى بها على عيسى ﷺ وعلى أمه تدلُّ على أنه عبدُ الله تعالى، كما تدلُّ على وحدانية الحقِّ سبحانه، وتفردَه بالغنى الكامل، والقدرة التامة، وتنزهه عن الصاحبة والشريك والولد.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكَرٌ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطَّلِينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكَرٌ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل ﷺ.

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ قبل موعد الكلام.

﴿وَكَهْلًا﴾ أي: وتكلّمهم في سنِّ الكهولة، وأنت تدعوهم إلى عبادة الله

الواحد الأحد.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الكتاب والخط وحُسن تصريف

الأمر.

﴿وَالتَّوْرَةَ﴾ أي: وعلمتكم التوراة التي أنزلت على موسى قبله.

﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ الذي أنزله الله تعالى عليك.

﴿وَإِذْ تَخَلَّقُ﴾ أي: تصوّر.

﴿مِنَ الطَّلِينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: مثل هيئة الطير.

﴿يَاذِنِي﴾ أي بقدرتي ومشيتي .

﴿فَتَنَفَّخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ وكرره تأكيداً لكون ذلك وقع بقدره الله تعالى

ومشيئته ، لا بقدره عيسى ومشيتته .

﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ وهو من وُلد أعمى .

﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ وهو المصابُ بمرض البرص .

﴿يَاذِنِي﴾ بإذن الله من غير استعانة بدواء أو طبيب .

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ أي : تخرج الموتى من قبورهم أحياءً بقدره الله

تعالى ومشيتته ، وذكر الإذن مع كل هذه الأفعال ليؤكد أنها أفعال الله تعالى على

الحقيقة ، قال سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران : ١٤٥]

أي : إلا بخلق الله الموت فيها^(١) .

ومن نعم الله تعالى على عبده ونبيه عيسى ابن مريم أيضاً أنه حفظه وحماه

من مكر بني إسرائيل وكيدهم وشرهم ، ولهذا قال في معرض التذكير بالنعم :

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا

إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

ومن فضله سبحانه على عبده ونبيه عيسى ﷺ أنه ألهم الحواريين وهدهم

للإيمان بالله وحده استجابة لدعوة عيسى ﷺ :

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَأَمِنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

● مائدة من السماء:

كان الحواريون خيرة من آمن بعيسى ﷺ واستجاب لدعوته ، فقد كانوا أنصاره

وخلصاءه ، هكذا وصفهم الله تعالى في قوله الكريم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف : ١٤] .

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٢٧/١٢ .

ورغم كل المعجزات التي أعطاها الله تعالى لعيسى ﷺ، وأجراها على يديه، والتي سبق ذكر بعضها في الآيات السابقة، طلب الحواريون من عيسى ﷺ معجزةً أخرى، وهي أن يسأل الله تعالى أن ينزل عليهم مائدة من السماء.

إنَّ طلبَ الحواريين هذه المعجزة يذكّرنا بما سبق الحديث عنه في أول السورة عندما تحدّثنا عن ارتباط التشريع بالانقياد لله سبحانه والتسليم له^(١).

كما يذكّرنا بفضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم الذين لم يسألوا رسول الله ﷺ أية معجزة بعد أن أسلموا، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وامتزجت بأرواحهم^(٢)، إنَّ ذلك يدلُّ على الفرق الكبير بين حواريي عيسى ﷺ وبين حواريي محمد ﷺ وأصحابه.

﴿إِذْ قَالَ الْهَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۗ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

﴿إِذْ قَالَ الْهَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۗ﴾ وقولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ليس بشك في الاستطاعة، إنّما هو تلطف في السؤال، وأدب مع الله تعالى، وهو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي، وقد علمت أنه يستطيع، فالمعنى: هل يفعل ذلك؟^(٣).

أو: هل يرضى ربك ويقبل دعائك؟.

﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: اتقوا معصية الله بكثرة السؤال، فإنكم

(١) فارجع إليه في الصفحات الأولى من تفسير هذه السورة، لتقف على سر ارتباط هذه الآيات بموضوع سورة المائدة.

(٢) انظر تفصيل هذا الموضوع في تفسير سورة النمل (المعجزة والإعجاز في سورة النمل) وهو جزء من هذا التفسير.

(٣) تفسير القرطبي: ٣٦٥/٦.

لا تدرون ما يحل بكم عند طلب الآيات والمعجزات، فقد جاءكم منها ما يكفي ويغني عن غيرها.

ولكنَّ الحواريين أصروا على طلبهم رغم موعظة عيسى ﷺ لهم، وما في هذه الموعظة من عتاب لهم، وأكدوا طلبهم للمائدة ببيان حاجتهم لها، وأنَّ لهم فيها منافع دنيوية ودينية:

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١١٣).

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ قدّموا ذكر المنفعة الدنيوية وهي منفعة الأكل منها. ﴿وَتَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ فنزداد إيماناً بصحة رسالتك، وصدق نبوتك، ونجمع بين الخبر والنظر.

وهذا كما قال إبراهيم ﷺ عندما سأل الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمِئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فيجتمع له الإيمان القائم على الخبر بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى، مع الإيمان القائم على المعاينة والنظر. ولهذا قال الحواريون بعد ذلك:

﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: نعلم علماً قائماً على المشاهدة والمعاينة أنك صادق فيما دعوتنا إليه.

﴿وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: نشهد عليها عند الذين لم يحضروها.

﴿قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١١٤).

﴿قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي: نفرح ونسرُّ بها لأنها من الله تعالى، فنجعل وقت نزولها عيداً للفرح والسرور بفضل الله ونعمته، فهو فرح بالمنعم لا بالنعمة.

﴿وَأَيَّةٌ مِنْكَ﴾ أي: وتكونُ دليلاً وبرهاناً من الله سبحانه على كمال قدرته ووحدانيته وصدق عيسى ﷺ في نبوته ورسالته.

﴿وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾.

واستجاب الله تعالى دعاء عيسى ﷺ، وأوحى إليه أنه سبحانه مُنزِلُ المائدة عليهم، وأخبره سبحانه أيضاً بما يترتب على اقتراح الآيات والمعجزات من مسؤولية خطيرة وجسيمة:

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرِّئُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٥).

ونظراً لشدة هذا التهديد والوعيد ذهب بعضُ المفسرين إلى أن الحواريين لما سمعوه استغفروا الله تعالى وقالوا: لا نريدُها، فلم تنزل المائدة عليهم.

إلا أن جمهور المفسرين قالوا: إنها نزلت، لأن الله سبحانه قال: ﴿إِنِّي مُرِّئُهَا عَلَيْكُمْ﴾ والله سبحانه أعلم.

• المواجهة الكبرى:

ثم ختم الله ﷻ عرضَ مشاهد من يوم القيامة بمشهدِ المواجهةِ الكبرى، مواجهة عيسى ابن مريم ﷺ وجهاً لوجهٍ مع الذين غلّوا فيه، فعبدوه من دون الله تعالى، ورفعوه بزعمهم الباطل عن مقام عبوديته لله سبحانه إلى مقام الألوهية واستحقاق العبادة، تعالى الله عما قالوا علواً كبيراً:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦).

وتبدأ المواجهةُ باستجوابِ الله تبارك وتعالى عيسى ﷺ:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

وبادر عيسى ﷺ في جوابه إلى تنزيه الحق سبحانه، وإلى إعلان براءته المطلقة من هذا القول، لأنه ليس من شأنه أصلاً، فكيف يكون العبد إلهاً؟!:

﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ .

ثم استشهد عيسى ﷺ الله العليم الخبير على براءته، مع إظهار التذلل والخضوع لجلاله وعظمته:

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ .

ثم بين أنه كان يدعوهم إلى الدعوة التي كلفه الله تعالى بها، وهي عبادة الله تعالى، مع إقراره الصريح بعبوديته وعبوديتهم جميعاً لله الواحد الأحد:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ .

وأنه يشهد على ذلك مدة وجوده بينهم:

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ .

ولما رفعه الله تعالى من بينهم إلى السماء أصبح الله وحده شاهداً عليهم:

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ لا يعني أمتي، فعيسى ﷺ لم يمُت بعد، وهو

لا يزال حياً يعيش في السماء التي رفعه الله تعالى إليها كما أخبرنا بذلك الحق

ﷺ في قوله الكريم في معرض الرد على اليهود الذين زعموا أنهم قتلوا عيسى

ﷺ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَبِئْسَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا آيَاتُ الْظُنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بل رفعه الله

إليه وكان الله عزيزاً حكيمًا﴾ [النساء].

ومعنى قوله تعالى: ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾ رفعتني إلى السماء، فإن التوفي أخذ الشيء

وافيةً، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسَلِهَا الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

قال الإمام القرطبي رحمته الله: «قيل: هذا يدلُّ على أن الله تعالى توفاه قبل أن يرفعه، وليس بشيء، لأن الأخبار تظاهرت برفعه، وأنه في السماء حيٌّ، وأنه ينزلُ ويقتل الدجال، وإنما المعنى: فلما رفعتني إلى السماء»^(١).

وقال ابن كثير رحمته الله: وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا النوم كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا قام من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا»^(٢).

وقد بلغت الأحاديث النبوية الشريفة، التي أخبرت عن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان إلى الأرض، وقتله المسيح الدجال والخنزير، وكسره الصليب، مبلغ التواتر، الذي يفيد العلم القطعي، بأن ذلك سيحدث، وهو من علامات الساعة الكبرى، التي يجب الإيمان بها، ولا يجوز جحودها وإنكارها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية» الحديث. [رواه البخاري (٣٤٤٨) ومسلم (١٥٥)]^(٣).

ولم يوفق سيد قطب رحمته الله في محاولته التوفيق بين قوله بموت عيسى عليه السلام والقول الصحيح المؤيد بالأحاديث الشريفة القطعية بأنه لا يزال حياً لم ينته أجله بعد ولم يمت، فقال: «وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله سبحانه قد توفى

(١) تفسير القرطبي: ٣٧٧/٦.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٦٦/١.

(٣) وقد جمعها المحدث الهندي المشهور محمد أنور الكشميري رحمته الله في كتاب مستقل فزادت على خمسين حديثاً، وسبعين أثراً عن الصحابة، وسمى الكتاب: «التصريح بما تواتر في نزول المسيح».

عيسى ابن مريم، ثم رفعه إليه، وبعض الآثار تفيد أنه حي عند الله، وليس هنالك فيما أرى أيّ تعارض يثير أيّ استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حياً عنده، فالشهداء كذلك يموتون في الأرض، وهم أحياء عند الله، أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفاً، وكذلك صورة حياة عيسى عليه السلام ^(١).

لكنّ التوفي الذي أفاده ظاهرُ الآيات بالنسبة لعيسى عليه السلام لا يعني الموت كما قدمنا، فلا حاجة إلى القول بأنّ حياته في السماء كحياة الشهداء، الذين أثبت الله لهم حياة برزخية خاصة بهم بعد موتهم، أما عيسى عليه السلام فقد أثبتت الأحاديث النبوية الشريفة المتواترة نزوله قبل قيام الساعة إلى الأرض ليعيش بقية حياته الدنيا التي قدرها الله تعالى له في الأجل الذي قدره الله تعالى له تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

ولقد رفع الله عيسى بجسده وروحه إلى السماء، بينما الشهداء ترتفع أرواحهم فقط بعد أن تنفصل بالموت عن أجسادهم التي تبقى في الأرض فلا يصحّ القياسُ عليهم.

• براءة وتفويض:

ثم يرد عيسى عليه السلام أمر الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله تعالى إلى الله الواحد الأحد العزيز الحكيم فيقول:

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١١٨).

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكَ﴾ فعذابهم عدلٌ من الله سبحانه، لأنهم عبدوا غيره، ووصفوه بصفات لا تليقُ بكماله ووحدانيته.

﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: القوي الذي لا يُغلبُ، والحكيم الذي لا يريدُ ولا يفعلُ إلا ما فيه حكمةٌ، فعذابه عدل، ومغفرته فضل، إلا أنه

(١) في ظلال القرآن: ١٠٠١/٢.

سبحانه لا يغفر للكافرين والمشركين لمقتضى الوعيد الذي تعلقت به مشيئته وحكمته .

قال ابن كثير رحمته: «هذا الكلام يتضمن ردَّ المشيئة إلى الله تعالى، فإنه الفَعَال لما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، ويتضمن التبري من النصارى، الذين كذبوا على الله وعلى رسوله، وجعلوا لله نداً وصاحبةً وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذه الآية لها شأن عظيم، ونباً عجيباً، وقد ورد في الحديث: أن النبي صلى الله عليه وآله قام بها ليلة حتى الصباح يرددُها، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلى النبي صلى الله عليه وآله ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركعُ بها، ويسجدُ بها ﴿إِنْ تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١١٨)، فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركعُ بها وتسجدُ بها؟ قال: «سألت ربي تعالى الشفاعةَ لأمتي فأعطينيها، وهي نائلةٌ إن شاء الله لِمَنْ لا يشركُ بالله شيئاً» [رواه أحمد (١٤٩/٥)] (١).

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١٩).

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي: يقول الله تعالى ذلك مجيباً عبده ورسوله عيسى عليه السلام، واليوم هو يوم القيامة.

والمعنى: إنَّ صدقَ الصادقين في الدنيا ينفعهم الله تعالى به يوم القيامة، وتوحيدُ الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد أعظمُ الحقائق صدقاً،

(١) راجع تفسير ابن كثير: ١٢١/٢، والحديث رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٢٢٥) قال الشيخ أحمد محمد شاكر محقق المسند: إسناده حسن.

قلت: وقد روى النسائي الحديث برقم (١٠١١)، وابن ماجه برقم (١٣٥٠)، كلاهما بهذا اللفظ: قام النبي صلى الله عليه وآله حتى أصبح بآية يرددُها، والآية: ﴿إِنْ تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. الناشر.

ولهذا ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾^(١) ينفع الموحدون توحيدهم، وهي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ثم بين الله تعالى ذلك النفع فقال:

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

فلا أعظم من هذا الفوز.

أسأل الله العزيز الرحيم أن يثبتنا على دين التوحيد، وأن يجعلنا من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه بمنه وفضله وكرمه.

• الخاتمة:

وتأتي أخيراً آية الختام لسورة المائدة بتقرير الحقيقة الكبرى:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١٢١)

فالله سبحانه هو خالق كل الأشياء ومالكها والمتصرف فيها، فله وحده سبحانه أن يشرع فيها ما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لمشيئته.

وبهذا يظهر لك اتساق واتفاق خاتمة السورة مع موضوعها الأساس الأول

المقرر في أول آياتها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

والحمد لله أولاً وآخراً.



(١) المرجع السابق نفسه.

تفسير سورة الأنعام

بصائر الحق في سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَاتِلِينَ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيتميز العصر الحاضر بكثرة الاتصالات بين الناس وسهولتها، وقد قربت وسائل الاتصال والنقل الحديثة الناس بعضهم من بعض، وأصبح العالم بسببها صغيراً، واختلط الناس بعضهم ببعض رغم اختلاف أفكارهم وثقافتهم، وتعدّد مللهم ونحلهم، وتولّد من ذلك احتكاك بين الأفكار المتباينة والعقائد المختلفة، أدّى إلى قيام حوار وخصام ومناظرات ومجادلات.

ولا بدّ في النهاية أن تصل هذه المناظرات والمواجهات إلى ظهور الحق وثباته، بسبب قوة براهينه ودلائله، وإلى اضمحلال الباطل وهزيمته، بسبب ضعفه وتهافته وتناقضه: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

والعقيدة الإسلامية أقوى العقائد وأثبتها، ولا زالت في الساحة شامخة ثابتة تتحدّى المخالفين، وتجادلهم، وتناظرهم، وتبدّد أوهامهم، وتحقق الفلج

عليهم ، فهي أقرب العقائد إلى قلب الإنسان وعقله وفطرته ، وتقوم على أساس متين ، تسنده أقوى الأدلة وأوضح البراهين .

ولا يحتاج الإنسان المسلم لإثبات قوة عقيدته إلا أن يتزود بزاد القرآن الكريم ، ويتسلح بأدلتها القاطعة ، وبراهينه الواضحة ، وحججه البالغة .

وقد خصَّص الله تعالى سورة الأنعام لتكون زاداً للمؤمن ، الذي يبني إيمانه على بصيرة ، ويدعو إلى الله تعالى على بصيرة ، فهي بحق سورة بصائر الحق .

وقد رأيتُ أن أبرزَ موضوعها هذا في هذا التفسير ، الذي نتحدث فيه عن الموضوعات الأساس الكبرى لسور القرآن العظيم ؛ لأنَّ كل مسلم في هذا العصر في أشد الحاجة إلى معاني هذه السورة وموضوعها وأسلوبها في التعامل مع المخالفين له والمعارضين لدعوته .

وقد جاء هذا التفسير في أربعة فصول :

الفصل الأول : الحمد لله : ركزت الآيات فيه على إبراز اتصاف الله تعالى بصفات الكمال والغنى والوحدانية ، ولهذا فهو وحده المستحق للحمد بذاته ، وأبرزت الآيات في الوقت نفسه ضعف الإنسان وفقره وشدة حاجته لله تعالى .

وأما الفصل الثاني : إرشاد وتوجيه : فقد غلب على آياته أسلوب التوجيه والإرشاد ، إذ اتجه الخطابُ في أكثر آياته للمؤمنين .

وأما الفصل الثالث : مناظرة وردود : ففيه عرضت الآيات مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه ، وفيه أيضاً ردودٌ على كثير من أصحاب الملل الفاسدة والنحل الباطلة ، قديمها وحديثها .

وأما الفصل الرابع : سفة وضلال : فقد ذكر الله تعالى فيه كثيراً من المفسد والضلالات التي كانت فاشية في المجتمع العربي الجاهلي ، وبعد أن بين سبحانه فساده وتناقضها ختم آيات السورة الكريمة بدعوة الناس إلى الوصايا العشر الخالدة .

ولا بدّ أن يستشعر القارئ الاتّساق والاتّفاق بين آيات السورة، وهو الهدف الأساس لهذا التفسير.

أسأل الله تعالى أن يوفّقنا ويسدّد خطانا، وأن يبصّرنا ببصائر الحق، ويثبّتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.



تَهْيِيد

مَوْضُوعُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ

البصائر لعقل الإنسان وقلبه كالإبصار لعينه، فهي تجلو الحقائق، وتظهرها كما يجلو النور المحسوسات ويظهرها، والإسلام دين العقل والقلب والفتوة، وأكثر ما يخاطب عقل الإنسان وفكره، يدعو إلى الإيمان والإسلام عن طريق عقله وتفكيره؛ ولهذا نرى القرآن الكريم يثني كثيراً على الإنسان الذي يُعْمَلُ عقله وتفكيره، ليتعرف على الحقيقة، ويميزها عن ركام الباطل والضلال، فلا أصحاب العقول أولي الأبواب والنهي والبصائر مكانة كبيرة، ومنزلة رفيعة في القرآن الكريم.

وحُصِّصَت سورة الأنعام - التي نزلت في مكة - لمحاورة جميع المعرضين عن الإسلام والمعاندين لدعوته من أصحاب الملل والنحل المختلفة، فلم تترك أصحاب ملة ضالة وعقيدة فاسدة قديمة أو حديثة إلا وحاورتهم في آياتها وجادلتهم، وبيّنت فساد ملتهم، وضلال نحلتهم، كما سيظهر لنا من خلال تأملنا، وتدبرنا لآياتها.

فهي بحق سورة الحجاج والبراهين، تميّزت عن أخواتها من طوال السور بخلوها عن القصص القرآني، سوى بضع آيات تحدّثت فيها عن مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه، وهذه المناظرة من صميم الموضوع الأساس للسورة الكريمة.

وقد برز موضوع السورة في أول آياتها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

هكذا بدأت السورة بهذا الهجوم الكاسح على المخالفين والمعاندين، كأنها تدعوهم إلى ساحة الجدال والمناظرة لتكشف زيفهم، وتظهر ضعفهم.

ثم بعد ذلك شرعت في إيراد الأدلة وحشد البراهين حتى وصلت إلى قوله

تعالى في تقرير الحق: ﴿فَدَجَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وإلى قوله أيضاً: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:

١٤٩].

ولا عجب إذاً أن تنزل سورة الأنعام بآياتها التي بلغت مئة وأربعاً وستين آية على النبي ﷺ دفعةً واحدةً، ومعها موكبٌ كبيرٌ من الملائكة لهم زَجَلٌ^(١) بالتسيح والتقديس والتحميد، كما دلَّ على ذلك عدد من الآثار.

قال القرطبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هذه السورة أصلٌ في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي إنزالها جملةً واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة، وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين»^(٢).



(١) أي: صوت رفيع عال. كما في: النهاية، لابن الأثير: ٢/٢٩٧.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٧/٩٧.

الْفَضِيحَاتُ

الحمد لله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُنَمِكَنَّ لَكَ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ لَوَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْزِيََكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٣﴾ قُلْ أَعْبَدُوا اللَّهَ وَحْدًا وَلَا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلَهُ وَلَا تَكُونَتْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْعَوْرُ الْمُنِيبُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بِحَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْفَاہِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْتُكُمْ

لَتَشْهَدُونَ آتٍ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةٌ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾
 الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ
 لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا
 مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
 وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُفْلًا ءَايَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ
 يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَبْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوِي عَنهُ وَإِنْ
 يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا
 وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأ لَّهُمْ مَا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ
 لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ
 أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ ﴿٣٠﴾ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بِقَوْلِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَعْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا بِهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ
 ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
 أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٣﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ
 يَجْحَدُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ
 لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٥﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ
 تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا
 تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٨﴾
 وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ ءَايَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ مِمَّا لَكُمْ مَّا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ
 مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُفًّا وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ
 يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنزَلْنَا عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنزَلْنَا
 السَّاعَةَ أَعْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٢﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ

وَتَسْبُحُونَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَاحْزَنَهُمُ بِالْبَاسِ وَأَضْرَبْنَا لَعْنَهُمْ
بِضُرْعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسًا تَصَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا
أُوتُوا أَحَدْتَهُمْ بَغْتَةً إِذْ هُمْ يُمْسُونَ ﴿٤٤﴾ فَفُطِعَ دَائِرُ الْقَوْرِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَحَمَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ
كَيْفَ نَصَرَفُ الْأَيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْكَمَ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً
هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۗ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾
قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۗ إِنَّا نَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ
إِلَىٰ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۗ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ .

بدأ الله تعالى سورة الأنعام بالثناء على ذاته المقدسة، فقال ﷻ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۗ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١﴾ .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يدل قوله سبحانه: (الحمد لله) على وجوب اتصافه تعالى
بجميع صفات الكمال والجلال والجمال، فهو المستحق للحمد بذاته؛ لأنه
سبحانه وحده المتصف بجميع صفات الكمال، وهو ثابت له سبحانه بطريق
البرهان والاستدلال، كما سيظهر معنا في آيات سورة الأنعام.

وبعضهم فسّر الحمد بالإحاطة بأوصاف الكمال^(١)، ولما كانت كمالته
سبحانه غير متناهية، ولا يحيط بها أحدٌ من المخلوقات، حمد الله تعالى نفسه
بنفسه فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ .

وقد وردَ في بعضِ أدعيةِ النبي ﷺ: «اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبمَعَاذِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَي نَفْسِكَ» [رواه مسلم (٤٨٦)].

ولما سُئِلَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه عن معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: الحمدُ لله، كلمةٌ رضيها لنفسه^(١).

فما عَرَفَ اللهُ حَقَّ المَعْرِفَةِ أَحَدٌ، وما أَحَاطَ بِكَمالاتِهِ غيرُهُ تَعَالَى، تَقَدَّسَتْ ذَاتُهُ، وتَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ، وتَسَامَتِ صِفَاتُهُ، وسيَأْتِي مَعْنَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

واستحقاقُهُ سُبْحانَهُ لِلْحَمْدِ ثابتٌ دائِمٌ قَبْلَ إيجاده لِلخَلْقِ وبعده، وسواءَ حَمْدِهِ العِبَادُ أَوْ كَفَرُوهُ؛ لِأَنَّ صِفَاتِ كَمالِهِ وَجَمالِهِ وَجَلالِهِ أَزليَّةٌ أَبديةٌ غيرُ حادِثَةٍ، ولا يَطْرَأُ عَلَيْها تَغْيِيرٌ أَوْ تَبديلٌ، فهو سُبْحانَهُ خالِقٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ، لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الخَلْقِ أَزلاً، ورازِقٌ قَبْلَ أَنْ يَرْزُقَ، لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ أَزلاً.

والألف واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ لاستغراق جميع المحامد، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «اللهمَّ لَكَ الحمدُ كُلُّهُ، وَلَكَ المَلِكُ كُلُّهُ، وَلَكَ الخَلْقُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ، أَسأَلُكَ مِنَ الخَيْرِ كُلِّهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ» [رواه البيهقي (٥/١) برقم (٩)].

وأمر اللهُ عِبادَهُ أَنْ يثنوا عَلَيْهِ به في ضَمْنِ هذا الثناء الذي أَثْنَى به على نَفْسِهِ، فعن أَنسِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ ليرضى عن العَبْدِ بِأَكْلِ الأَكْلَةِ فيحَمدُهُ عَلَيْها، وَيَشربُ الشَّرْبَةَ فيحَمدُهُ عَلَيْها» [رواه مسلم (٢٧٣٤)].

قال ابن كثير رضي الله عنه: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناءٌ أَثْنَى به على نَفْسِهِ، وفي ضَمْنِهِ أَمْرَ عِبادِهِ أَنْ يثنوا عَلَيْهِ، فَكَانَتْه قال: قولوا: الحمدُ لله . . . وهو ثناءٌ على المَحْمودِ

(١) فتح القدير، للشوكاني: ٢٠/١.

بصفاته اللازمة والمتعدّية، والشكرُ لا يكونُ إلا على المتعدّية، وهو نقيضُ الذمِّ، وأعمُّ من الشكرِ، والشكر الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف»^(١).

ثم بيّن سبحانه موجب استحقاقه للحمد بقوله تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فيجأه تعالى للموجوداتِ كافٍ في استحقاقه للحمد، فكيف بما يتفرّع عليها من فنون النعم المنوط بها مصالح العباد في المعاش والمعاد؟!^(٢)، فهو كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

فهو سبحانه يستحقُّ الحمدَ لأنّه خالق السماوات والأرض، ويستحقه أيضاً لأنه مالكُ للسموات والأرض ومدبّر ما فيهما من الأمر، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١].

ويستحقُّ سبحانه الحمدَ أيضاً على إرساله الرسل لهداية عباده، وإنزاله الكتب كما قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

والحمد لا يكونُ إلا للفاعل المختار، فخلقه سبحانه للسموات والأرض كان بمحض مشيئته وإرادته، فكأنَّ قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تصريحٌ بأنَّ المؤثّر في وجود العالم فاعلٌ مختار، خلقه بالقدرة والمشيئة^(٣).

ومعنى الخلق: الإيجادُ والإنشاءُ والصنعُ والاختراعُ، فالله سبحانه خلق السماوات والأرض، أي: أوجدهما وأنشأهما.

ويأتي الخلق أيضاً بمعنى التقدير والقياس، يقال: خلق الثوب، أي: قدره

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢٠/١.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ١٠٤/٢.

(٣) انظر: التفسير الكبير: ١٤٣/١٢.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وأورد الله تعالى كلمة الظلمات بصيغة الجمع لكثرة أسبابها وطرقها، فللشر والكفر أسباب كثيرة، أو لكثرة ملل الكفر والضلال. وفي الآية ردٌّ على الثنوية من المجوس، القائلين بأنَّ النور والظلمة يقومان بذاتهما^(١)، ولذلك فهم يؤلّهون النور والظلمة، وينسبون إليهما ما يقع من الحوادث.

كما أنَّ الآية تردُّ على الفلاسفة القائلين بقدم العالم، والقائلين بقدم الأنواع، والقائلين بقدم المادة من ملاحظة هذا العصر، فكلُّ ما سوى الله تعالى مخلوقٌ محدثٌ مسبوقٌ بالعدم، والله سبحانه هو القديمُ الأوَّلُ الخالقُ المبدعُ ﷻ.

﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يجعلون له سبحانه نظيراً في العبادة، كقوله تعالى عن الكفار الذين عدلوا به غيره: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لِنَافِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [٩٧] إِذْ سُوِّبَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء].

وأشار سبحانه في آيات كثيرة إلى أنَّ الكفار ساووا بين المخلوق والخالق كقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ﴾ [الرعد: ١٦]^(٢).

و ﴿ثُمَّ﴾ في الآية لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون، فهو سبحانه المتفردُ بصفات الكمال، والخالقُ للسموات والأرض والظلمات والنور وحده، لم يشاركه في ذلك أحدٌ كما قال تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدُتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخَذِينَ الْمُضِلِينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

وهكذا تضمَّنت هذه الآية الكريمة الأصل الكبير الذي يقوم عليه اعتقاد

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٣٨١/٢.

(٢) انظر: أضواء البيان: ١٨١/٢.

المسلم المُوَحَّد، وهو التمييز بين صفات الخالق وصفات المخلوق، كما تضمّنت الردّ على جميع الملل والنحل الضالة التي كان منشؤها عدم تمييز أصحابها بين صفات الخالق جلّ وعلا وصفات المخلوق، وهو ما تتجه إليه معظم آيات السورة، كما سيأتي معنا إن شاء الله.

• بين أجلين:

ثم توجهت الآيات الكريمة بالخطاب إلى الإنسان، لتبيّن موقعه في هذا الكون، والحكمة من وجوده، وتمييزه عن غيره بالمسؤولية أمام الله تعالى بعد هذه الحياة، وبدأت تذكر الإنسان ببدايته:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أي: الله تعالى الذي ابتداء خلقكم من طين بخلق أبيكم آدم منه، أو ابتداء خلق كل واحد منكم من نطفة مستخلصة من طين الأرض، كما قال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون].

﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ أي: قدر وكتب أجلاً لموت كل واحد منكم، فبدايتك أيها الإنسان بمشيئة الله تعالى وقدرته، ونهاية حياتك على هذه الأرض بمشيئته سبحانه أيضاً وقدرته.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ﴾ أي: وهناك أجل معين مثبت عنده جلّ وعلا، ولا يعلمه غيره، لبعثكم جميعاً يوم القيامة، وحسابكم على ما أسلفتم في حياتكم الدنيا.

وجاء الإخبار عن الأجل الثاني بالجملة الاسمية تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لحاله، ولكونه ممّا استأثر الله تعالى بعلمه، فلا يعلمه أحد سواه، بخلاف أجل الموت، فقد يُعَلِّمُ على وجه الإجمال والتقريب، على ما هو المعتاد من أعمار الناس، أو لظهور أماراته من الضعف والمرض والشيخوخة.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَضَى لِكُلِّ أَحَدٍ أَجَلِينَ: أَجَلًا مِنْ مَوْلَاهُ إِلَى مَوْتِهِ، وَأَجَلًا مِنْ مَوْتِهِ إِلَى مَبْعَثِهِ ^(١).

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي: ثم مع كل هذا تشكون في قدرة الله تعالى على بعثكم يوم القيامة، فمن أفاض الحياة وما فيها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدة لها أصلاً، وهي الطين، كان أقدر على إفاضتها عليها مرة ثانية بعد أن استعدت لها وقارنتها مدة من الزمن ^(٢).

وهكذا جعل الله تعالى لحياة الإنسان في الدنيا أجلاً تنتهي به، ولحياته في الآخرة أجلاً بمشيئته تعالى تبدأ به ولا تنتهي، والأجل الأول للابتلاء، وأما الثاني فللجزاء.

• خالق كل شيء:

ثم بين سبحانه كمال علمه وإحاطته بجميع أحوال الإنسان فقال:

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ ^(٣).

أي: وهو الإله المعبود في السماوات وفي الأرض، فلا معبود بحق سواه جلّ وعلا، وقد أحاط علماً بسائر مخلوقاته، فهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

ويمكن أن يكون المعنى أيضاً: وهو الله الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض من سرٍّ وجهر، ويشهد له قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

وليس في الآية أيُّ دليلٍ لبعض الفرق الضالة كالجهمية القائلين بأنه سبحانه في كل مكان، لأن جميع الأمكنة الموجودة أحقر وأصغر من أن يحل في شيء منها رب السماوات والأرض، الذي هو أعظم من كل شيء، وأعلى من كل

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ١٠٧/٢١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

شيء، ومحيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء^(١)، وهو سبحانه الموجود قبل كل سماء وفضاء، وظلام وضياء، وشمس وقمر، وعين وأثر، والباقي أزلاً بعد فناء كل المخلوقات: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

يتنزه سبحانه أن يحويه مكان، وهو خالق المكان والزمان: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقد جاء في بعض الأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله ﷺ: «اللهم رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعود بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر» [رواه أحمد (٨٩٤٧) ومسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

• سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْمَكْذِبِينَ:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أنزلها على رسوله ﷺ، أو التي بثها في المخلوقات، وأظهرها في الموجودات.
﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركين لها، وغير منتفعين بها.
والسبب مسارعتهم إلى ردّها وتكذيبها:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾﴾

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ من غير تدبيرٍ لمعانيه، ووقوفهم على ما فيه من الدلائل والبراهين التي تدلُّ على صدقه .

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهذا وعيدٌ شديد لهم بسبب إعراضهم عن الحقِّ، واستهزائهم به، فعن قريب سيدوقون وبال أمرهم وعاقبة جحودهم واستهزائهم .

وتأكيداً لهذا الوعيد طلبت الآياتُ منهم أن ينظروا نظرَ الاعتبار في مصير الأمم قبلهم، ليعرفوا سنَّة الله تعالى في الانتقام من المكذِّبين المعاندين :

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ .

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: من أهل كلِّ عصرٍ، سمُّوا بذلك لاقرانهم .

﴿مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أي: جعلنا لهم قوةً وسلطاناً في الأرض أكثر ممَّا جعلنا لكم، وأعطيناهم مع القوَّة والسلطان، الغنى والسعة في العيش والرزق .

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ أي: أنزلنا عليهم من السماء المطر الغزير المتتابع الذي يؤدي إلى كثرة الخيرات والأنهار الجارية .

﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ .

ومع كلِّ هذا التمكين والغنى الذي أنعم الله به عليهم كذبوا رسله، وخالفوا نهجه وشرعه، فانقم الله تعالى منهم .

﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، ولم تغنِ عنهم أموالهم شيئاً .

﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، وأن ينزل بكم مثل ما نزل بهم، فما أنتم بأعزَّ على الله منهم، والرسولُ الذي كذبتموه أكرم بكم مثل ما نزل بهم،

على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعالجة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه^(١).

لقد بلغ القوم الغاية في العناد والمكابرة، حتى طلب بعضهم من النبي ﷺ أن ينزل الله تعالى عليه القرآن مكتوباً في أوراق، كما نزل التوراة على موسى في ألواح، وأن ينزل الله تعالى عليه ملكاً يرؤونه بأعينهم، ليشهد أن هذا الكتاب من عند الله تعالى، فردّ سبحانه عليهم بقوله:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ بعدما شاهدوه بأعينهم، بحيث لم يبق لهم أي اشتباه.

﴿لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هذا إلا سحر ظاهر واضح، وهذا شأن المُفحّم المحجوج، وديدنُ المكابِر اللجوج^(٢).

• الباحثون عن حقتهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾.

ثم بعد أن حكى الله اقتراحهم إنزال الملك:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ بين ما فيه من خطر عليهم:

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: لانتهى الأمر بهلاكهم، لأن قواهم البشرية

لا تتحمّل رؤية الملك.

ولهذا كان الملائكة ينزلون على الأنبياء ﷺ في صورٍ بشرية، مع أن الأنبياء مؤيّدون بإمداد الله تعالى وتثبيتته، ولم ير نبينا ﷺ جبريل ﷺ بهيئته الملائكية إلا مرتين: أولاهما: في الأرض عند غار حراء، وثانيتها: عند

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٦٩/١.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ١١٢/٢.

سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى فِي السَّمَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [النجم].

أو: لو أنزلنا الملائكة عليهم لأنزلناهم بالعذاب والهلاك، كما قال الله تعالى: ﴿مَا نُنزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨].
ويؤيد هذا المعنى قوله هنا:

﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُمهلون ولا يؤخرون بل يعاجلون بالعذاب والهلاك، فحاله في هذا الاقتراح كحال الباحث عن حفته بظلفه.
ومن رحمته سبحانه وحكمته أن يرسل الرسول إلى الناس من جنسهم ليتمكن مخاطبته والتلقي منه، ولو أرسل إليهم ملكاً لأرسله على هيئة الرجل ليتمكنوا من رؤيته، ولهذا قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ ﴿٦﴾﴾.

أي: ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر، كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة الرسول البشري، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَان فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُوتُ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَمَاءٍ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]^(١).

وتجاه هذه المكابرة والعناد الشديد، لا بد من تأنيس قلب النبي ﷺ، وتسليته عما يلقاه منهم، وتثبيتته في مواجهتهم، ولهذا قال الله تعالى مخاطباً النبي ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالذَّيْبِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ أي: أحاط أو نزل أو حل.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٥٦٩/١.

﴿يَالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به عندما كانت الرسل تتوعدهم به .
ولا تزال في الأرض آثارُ عذابهم باقيةً، فسيروا إليها، وانظروا فيها نظرَ المعتر والمتمعن:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ .

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى بلادِ صالح في الحجر، وإلى بحيرة لوط، الذين تمرُّون عليهم في أسفاركم إلى بلاد الشام .
﴿ثُمَّ أَنْظِرُوا﴾ نظرَ الاستبصار والاعتبار .
﴿كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أي: للأنبياء والمرسلين .

• الرحمة أولاً:

ولما كانت سورة الأنعام سورة البراهين القاطعة والملزمة، نجدُ فيها كثيراً من الآيات التي تأمرُ النبي ﷺ أن يواجه أهل الكفر والعناد بما فيها من الأسئلة التقريرية الملزمة والمفحمة، ومنها:

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً ومُلْكاً وتديباً؟ .
ولما كان القومُ في غاية العنادُ أمر ﷺ أن يتولى الإجابة عنهم:
﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ فهو الجوابُ المتعيَّنُ بالاتفاق، ولا يستطيع أحد أن يجيب بغيره .

﴿كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: إنه تعالى قضاها وأوجبها على ذاته المقدسة تفضلاً وإحساناً .

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لما خلق

الله الخلق كتب في كتابٍ فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» وفي رواية: «سبقت رحمتي غضبي» [رواه البخاري (٧٤٠٤) ومسلم (٢٧٥١)].

ومعنى سبق الرحمة وغلبتها: أنها أقدم تعلقاً بالخلق، وأكثر وصولاً إليهم^(١).

فرحمته سبحانه أولاً لخلقه، وأثار إحسانه وفضله الواصلة إلى خلقه جلّ وعلا أكثر من آثار غضبه، ويتمتع الخلق بآثار الرحمة قبل أن تصيبهم آثار الغضب بسبب تماديهم في الكفر والعناد، كما هو مشاهد من أحوال العباد، وصدق الحق تعالى بقوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

فالله ﷻ رحيمٌ بعباده، وما خلقهم ليعذبهم، ومن رحمته سبحانه أنه لا يعاجل المعاندين والعصاة من عباده بالعقوبة، بل يمهلهم، ويقبل توبة التائب منهم، مهما كانت ذنوبه كبيرة وكثيرة، وما سبق ذكره في الآيات من الإخبار عن هلاك الأمم المكذبة لرسولها ليس من مقتضيات ذاته المقدسة، بل من جهة الخلق بسبب تكذيبهم وعنادهم، وإصرارهم على كفرهم، كيف لا ومن رحمته أنه خلقهم على الفطرة السليمة، وهداهم إلى معرفته بما أرسل إليهم من رسل، وأنزل عليهم من كتب، وكلفهم بالسير على نهجه وشريعته، ليسعدوا به في الدنيا والآخرة.

• الحياة والمسؤولية:

وهذه أسباب التكليف والمسؤولية، ولهذا أخبر الله عن يوم القيامة في الآية الكريمة بعدما أخبر عن رحمته والتزامه لها بفضله وإحسانه فقال:

﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أي: والله ليجمعنكم إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه، فيوم القيامة رحمة كبيرة من الله تعالى لعباده، ولا يدرك

(١) تفسير أبي السعود: ١١٥/٢.

الإنسان قيمةً حياته في الدنيا إذا لم يستشعر مسؤوليته عنها أمام الله تعالى يوم القيامة .

إن الإيمان بيوم القيامة يعطي حياتنا في الدنيا معناها، ويعرّفنا على جوهرها وحقيقتها، ومن دونه تصبح حياتنا لهواً وعبثاً، لا طعم لها ولا قيمة، بل تصبح فارغة تافهة مسئمة .

إن الذين يعانون مشكلة الفراغ في حياتهم لا يستشعرون مدى مسؤولياتهم عن هذه الحياة، ولو علموا مدى هذه المسؤولية وشمولها؛ لَمَّا وجدوا في حياتهم وقتاً فارغاً يسعون جاهدين لشغله بشتى وسائل التسلية واللهو، وإنّ ملء الوقت الفارغ في حياة الإنسان المعاصر أصبح مشكلةً كبيرةً، ونظرةً واحدةً إلى الألهي والملاهي المطروحة بين أيدي الناس تبين لنا مدى الجهد الكبير الذي يُبذل لإنتاج هذه الوسائل التي لا تعود على الإنسان بأيّ فائدة حقيقية، ومع ذلك لم يستطع كل هذا أن يمتصّ الفراغ الذي يعاني منه الكثيرون، حتى لجأ بعضهم ليطرد السآمة والملل من حياته إلى سلوك طريق المغامرة والجريمة، لا حُبّاً بالجريمة، وإنما حُبّاً بالمغامرة لتغيير سير حياته التي ملّها وسئمها، والوقت إن لم تملأه بالخير امتلأ بالشر^(١).

وهذا يبيّن لنا فضله سبحانه علينا، ورحمته بنا، عندما شرّفنا بالتكليف والمسؤولية، فضلاً عن أنّ التكليف ينظّم حياتنا، ويهدّب سلوكنا، ويقوّم المعوجّ من أخلاقنا، فإنّه أيضاً يجعلنا نتذوّق طعم الحياة الحقيقي، ونعرف قيمتها وجوهرها .

وتتجلّى يوم القيامة رحمته سبحانه بعباده أكثر مما هي عليه في الدنيا، ولقد بيّن رسول الله ﷺ هذا المعنى في قوله: «إنّ لله مئةَ رحمةٍ، أنزلَ منها رحمةً واحدةً بين الجنِّ والإنسِ والبهائمِ والهوامِ، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون،

(١) انظر: حياتنا والموعود المجهول، للمؤلف .

وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمةً يرحمُ بها عباده يوم القيامة» [رواه البخاري (٦٠٠٠) ومسلم (٢٧٥٢)].

وهذه الرحماتُ الكثيرةُ الكبيرةُ التي أخرها سبحانه ليوم القيامة محجوبون عن ربهم وعن رحمته كما قال تعالى فيهم: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب]، فما أعظم خسارتهم، وما أشدَّ حسرتهم:

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾!

وكما دلَّ قوله سبحانه السابق: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢] على شمول ملكه سبحانه لكل مكان، دلَّ قوله اللاحق بعد ذلك على شمول ملكه لكل زمان:

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣).

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ والمراد ما سكن فيهما أو تحرك، فاكتمى بأحد الضدين عن الآخر^(١)، فهو كقوله تعالى: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد، ولا تنفك المخلوقات عن إحدى هاتين الصفتين، السكون أو الحركة، وهما من لوازم الحدوث.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع لكل الأصوات، والعليم بكل المخلوقات، في أي مكان وزمان.

• كمال العبودية:

وبعد أن بيّنت الآيات الكريمة السابقة أنه تعالى متفردٌ وحده بصفات الكمال، وأنه تعالى وحده الخالقُ والمالكُ لجميع المكوّنات، أمرت النبي ﷺ

(١) تفسير أبي السعود: ١١٦/٢.

أن يبين للناس شدة احتياجهم وافتقارهم إليه سبحانه، فلا ينبغي لهم التذلل والخضوع إلا له تعالى، وعليهم الاستسلام والانقياد لأمره جلّ وعلا .
ولما كان كمال العبد في كمال خضوعه واستسلامه لرّبّه ﷻ، وكان النبي ﷺ أكمل الناس؛ لأنه أكثرهم خضوعاً واستسلاماً لله تعالى، أبرزت الآيات هذا المعنى وهي تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلُ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُ وَلِيًّا﴾ والولي في اللغة: المُعين والناصرُ والصاحبُ، ومن يتولّى الأمر أي: يقوم به، والمعنى: لا أتخذُ وليّاً غيرَ الله سبحانه.
﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق^(١).
فهو تعالى الغني الذي لا يحتاج إلى أحد، والكلُّ محتاجون إليه.
﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: هو الذي يرزق، ولا يحتاج إلى رزق أحد، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ [الذاريات].

وهو سبحانه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوق من طعام وغذاء، وبهذا ردّ جلّ وعلا على الذين وصفوا عيسى ﷺ وأمه بصفة الألوهية، بيان حاجتهما إلى الطعام فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

فكيف يتولّى المخلوق غير خالقه ورازقه؟! وكيف يقابلُ فضلَه عليه وإحسانه فيتولّى غيره؟! وهو جلّ وعلا غني عن ولايته وطاعته وعبادته.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٥٧٠/١.

• المسلم الأول:

المسلم الأول هو نبينا محمد ﷺ، أول هذه الأمة إسلاماً، وهو أيضاً أول الناس إسلاماً، لأنه أعظمهم خضوعاً لله تعالى واستسلاماً لأمره ومشيتته، وقد أمر ﷺ أن يعلن هذه الحقيقة للناس، وهو يدعوهم إلى الإيمان بالله، والاستسلام له وحده، ليكون قدوتهم وإمامهم.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ فهو أول من أسلم لله تعالى على الإطلاق في الرتبة، وأول من أسلم في الزمان بالنسبة إلى أمته عليه الصلاة والسلام^(١).

وكما أمر ﷺ أن يكون القدوة الكاملة في الخضوع والاستسلام لله تعالى، نهي عليه الصلاة والسلام في الوقت نفسه عن كل مظهر من مظاهر الشرك، ليكون أيضاً في التنزه عن الشرك قدوة وأسوة لكل الموحدين:

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام أيضاً أن يبين للناس شدة خشيته لله تعالى، وعظيم خوفه منه، ومن المعلوم أنه كلما ازداد الإنسان قرباً من الله تعالى بطاعته وعبادته، ازداد تعظيمه لله تعالى، وخوفه منه؛ ولهذا كان ﷺ يقول: «أما والله إنني لأخشاكم لله، وأتقاكم له» وفي رواية: «فوالله إنني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» [رواه مسلم (١١٠٨)].

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وإذا كان هذا حاله ﷺ مع ربه ﷻ، فكيف ينبغي أن يكون حالنا معه جلّ وعلا؟!.

فما أحوج المؤمن أن يتذكر دائماً هذا المعنى، وأن يواجه نفسه بهذه

(١) انظر: نظم الدرر: ٣٧/٧.

الحقيقة كلما غفلت عن الله تعالى، وشردت عن باب فضله ورحمته، أو همت بمعصيته، ففي الآية تحذيرٌ شديد من مقاربة المعاصي ومقارفتها، «وَمَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يوشِكُ أَنْ يرتع فيه» كما جاء في الحديث الشريف. [رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)].

﴿مَنْ يُصْرَفَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿مَنْ يُصْرَفَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: من يُصْرَفَ عنه العذاب يوم القيامة.

﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ فلا نجاة لأحدٍ من عذاب الله تعالى إلا برحمته سبحانه وفضله، كما قال ﷺ: «قَارِبُوا، وَسَدِّدُوا، وَاَعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إِلَّا أَنْ يَتَمَنَّيَ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» [رواه مسلم (٢٨١٦)].

والمقاربة: القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير. والسداد: الاستقامة والإصابة.

﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ يعني أنّ صرف العذاب وحصول الرحمة هو النجاة والفلاح المبين.

• مالك النفع والضر:

وتابعت الآيات الكريمة بيان شدة افتقار الإنسان إلى خالقه جلّ وعلا، فبيّنت أنه تعالى بيده النفع والضر، فهو المتصرف في خلقه كما يشاء، لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، وسلكت الآيات أسلوب التقرير، الذي يتناسب تماماً مع ما سبقه من إعلان الإذعان والاستسلام لله تعالى مع الاستمرار بتوجيه الخطاب للنبي ﷺ:

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ فلا يزيله عنك إلا هو سبحانه،

فألجأ إليه إذا أصابك شيءٌ من الضر، وأنت تعتقد أنه وحده الذي يكشفه عنك،
وعليك أن تأخذ بالأسباب التي توصلك بتقديره سبحانه ورحمته إلى السلامة
والنجاة^(١).

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ بَحِيرٌ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هكذا على الإطلاق، فقدرتَه سبحانه
طليقة وسعت كل شيء، ولا يقدرُ أحدٌ أن يردَّ فضله سبحانه، ولهذا قال
سبحانه: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُرَدُّكَ بِحَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ
يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].
وكيف يستطيع أحدٌ أن يردَّ فضله جلَّ وعلا؟!:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له
الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، واستكانت
وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه^(٢).

والقهر: الغلبة، والقاهر: الغالب، ومعنى ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾: فوقية الاستعلاء
بالقهر والغلبة عليهم، لا فوقية المكان، كما نقول: السلطان فوق رعيته؛ أي:
بالمنزلة والرفعة^(٣).

ويمكن أن نقول: المراد فوقية تليقُ بجلاله وكمال صفاته.

والقاهر الذي يعملُ مراده كلَّه، ويمنع غيره مراده إن شاء؛ ولما كان في
القهر ما يكونُ مذموماً نفاه سبحانه بقوله:

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فلا يوصلُ أثرَ القهرِ بإيقاع المكروه إلا لمستحقه.

(١) انظر تفصيل الموضوع في: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة
يونس)، وهو قسم من هذا التفسير.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٥٧١/١.

(٣) فتح القدير: ١٠٤/٢.

﴿الْحَبِيرُ﴾ بمن يستحق كل شيء^(١)، فهو سبحانه حكيمٌ في جميع أفعاله، وخبيرٌ بمواضع الأشياء، فلا يعطي ولا يمنع إلا بمشيئته وحكمته ﷻ.

• أعظم شاهد وأكبر شهادة:

ولا بدّ لدعوة النبي ﷺ من شهادة تؤيّدُها، فأكرمهُ الله تعالى بأعظم شاهدٍ وأكرم شهادةً، قال ﷻ:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَيْتُكُمْ لَنْتَشْهَدُونَ أَنْتَ مَعَ اللَّهِ عَالِمُ الْغُيُوبِ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾؟ بدأت الآية بهذا الاستفهام لتنبية الأسماع والقلوب لما يأتي.

﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فشهادته سبحانه أكبر شهادة وأكرمها، لأنّه العليم الخبير، وهي شهادة باقية خالدة، لا تنتهي بموت النبي ﷺ، بل تستمرُّ على مرّ الزمان، وكرّ الأعوام؛ لبقاء الشاهد ودوامه جلّ وعلا، وهي في التنزيل الحكيم، الذي أوحاه إلى نبيّه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: لأنذركم به يا أهل مكة، وسائر من بلغه من الأسود والأحمر، أو من الثقلين الإنس والجن.

أو: لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة^(٢).

وهذا يدتُّ على عموم رسالة الإسلام، وشمول دعوة القرآن للإنس والجن في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى قيام الساعة، وأنّ على المسلمين أن يعملوا على نشر القرآن الكريم بين الناس، وإيصال معانيه إليهم بلغاتهم.

(١) انظر: نظم الدرر: ٣٩/٧.

(٢) تفسير أبي السعود: ١١٨/٢.

قال ابن جرير الطبري رحمته الله: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم (١). فالقرآن هو حجته سبحانه على عباده بعد موت نبيه خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم الذي لا نبي بعده.

ثم بينت الآيات بطلان ما هم عليه من الشرك والكفر بأسلوب التقرير والتحدي:

﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ فما قيمة شهادتكم بجانب شهادة الله تعالى؟! فشهادتكم ظاهرة البطلان والفساد، لا يليق بأحد أن يشهد عليها.

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ على ذلك أشهد.

﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

• الكاذبون والمكذِّبون:

وهناك شهود من البشر يعرفون صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة دعوته ورسالته، ولكنهم كتموا الشهادة بغياً وحسداً، وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠).

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي: يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليته ونعوته المذكورة في كتبهم معرفة تامة لا شك فيها، ومع ذلك كَفَرُوا أكثرهم به عليه الصلاة والسلام، وخانوا الأمانة التي أوثموا عليها، وكانت النتيجة:

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ لأن كفرهم وجحودهم عائد على أنفسهم.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) روح المعاني: ١١٩/٧.

فلا ظلم أشد من هذا الظلم، ظلم الشهود الذين أوْتُمِنُوا على الشهادة فكتموها، ثم شهدوا بما يخالفها:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ كهؤلاء الذين حرّفوا كتابهم، وغيروا وبدّلوا كلام الله تعالى فيه .

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: كذب بالدلائل والبراهين المؤيِّدة للنبي ﷺ كما فعل مشركو مكة .

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ من الكاذبين والمكذِّبين .

• أين شركاؤكم؟:

وعقبت الآيات على تكذيبهم وشركهم بعرض موقف لهم يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعَاتِمُ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

أي: أين الشركاء الذين كنتم تدعون أنهم شركاء الله تعالى في استحقاق العبادة، وكنتم تتوجهون إليهم بالعبادة والطاعة؟! ولا يخفى ما في هذا السؤال من تهكّم مرّ بهم، واستخفاف بهؤلاء الشركاء .

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: لم يكن لهم حجة يحتجّون بها، أو لم يكن لهم عذرٌ يقدمونه .

﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وهذا يدلُّ على شدة عنادهم وكثرة كذبهم، فهم يكذبون في الدنيا وفي الآخرة .

ولهذا قال تعالى يُعَجِّبُ القارئ والسامع من شدة كذبهم:

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ مع علمهم أنه لا ينفعهم .

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: غاب عنهم كذبهم الذي كانوا عليه في الدنيا

عندما عبدوا الأصنام، وقالوا عنهم: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

ودلّ قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على أن القوم لما عاينوا هول

الموقف دُهِشوا وتحيروا حتى إنهم كذبوا، ولو لم يكونوا حيارى مدهوشين لما

قالوا ما قالوه من الكذب؛ لأن جميع الحقائق تنكشف يوم القيامة^(١)، فلا تزوير

ولا كذب ولا تدليس في هذا اليوم.

• المهلكون لأنفسهم:

وتتابعت الآيات بهذا الأسلوب، وهو عرضٌ موقفٍ من مواقف المعرضين

عن الحق في الدنيا، ثم التعقيب عليه بموقفٍ من مواقفهم يوم القيامة، فعادت

بنا الآيات إلى الدنيا مرة ثانية؛ لنشهد موقفاً من مواقف الإعراض والعناد،

إعراضهم عن آيات القرآن الكريم، وهم يسمعونها من النبي ﷺ مباشرة:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ۖ أَنْ يَفْقَهُوهُ ۖ وَفِي ۖ آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا ۖ آيَةً ۖ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ولكنهم لا يسمعون سماع إجابة، فلا ينتفعون بما

سمعوا، لأن قلوبهم وأسماعهم محجوبة عن أنوار الهداية.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ۖ أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: جعلنا على قلوبهم أغطيةً وحجباً

تحجبهم عن فهم كلام الله تعالى وتعقله، بسبب عنادهم وفجورهم، كما قال

تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

﴿وَفِي ۖ آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: وجعلنا في آذانهم صمماً عن السماع النافع لهم.

(١) روح المعاني: ١٢٤/٧.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآئَةً لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ فقد بلغ القومُ الغايةَ في العناد والإعراض، فمهما رأوا من الآياتِ والدلالاتِ والحُججِ والبيِّناتِ والبراهين لا يؤمنوا بها، فلا فهم عندهم ولا إنصاف^(١).

ومع كلِّ هذا يأتون إلى النبيِّ ﷺ بكلِّ وقاحةٍ وتبجحٍ مجادلين:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ولا يقولون مثل هذا القول الواضح الفساد والبطلان إلا تخديراً لمشاعرهم وأحاسيسهم وليبعدوا الناس عن الاستماع للقرآن الكريم.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦).

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول ﷺ.

﴿وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يبتعدون عنه، فلا هم ينتفعون به، ولا يدعون غيرهم

ينتفع به.

﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يهلكون إلا أنفسهم بموقفهم هذا

من القرآن الكريم، ودعوة الرسول ﷺ؛ لأنَّ وباله يعود عليهم؛ وهم لا يشعرون.

• وقفة على النار:

وجاء تعقيب الآيات الكريمة على هذا الموقف للمشركين في الدنيا بعرض

موقفٍ لهم يوم القيامة:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكُنَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ﴾ وشاهدوا بأُمَّ أعينهم ما فيها من الأهوال

والأنكال، فحينئذٍ يكون حالهم حسرةً وندامةً على ما فرطوا في الدنيا.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٧٢/١.

﴿فَقَالُوا يَلْبَسْنَا نَرُدُّهُ إِلَى الدُّنْيَا .

﴿وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿بَلْ بَدَأْتُم مَّا كَانُوا يَخْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

﴿بَلْ بَدَأْتُم مَّا كَانُوا يَخْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ظهر لهم عذاب جهنم الذي كانوا ينكرون تحقُّقه ويكذبون به في الدنيا، أو ظهرت لهم القبائح والفضائح التي كانوا يسترونها عن الناس في الدنيا^(١).

ويحتمل أنه ظهر لهم ما كانوا يعلمونه في قرارة أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا كما قال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]^(٢).

وحاصل هذه الأقوال: أنَّهم عندما يقفون على جهنم، ويرون ما فيها من أنواع النكال والعذاب تتكشَّف لهم الحقائق، وتظهر الخفايا والسرائر، كما قال تعالى عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

ولهذا ينكشف يوم القيامة أهل الرياء والنفاق، وأهل الزور والخداع، يظهرون جميعاً على حقيقتهم التي كانوا يسترُونَ عليها في الدنيا.

لقد أحاط الله تعالى علماً بكلِّ أحوالهم، ما أظهره وما أسروه، بل إنَّه سبحانه علم من أحوالهم التي لن تكونَ أنها لو كانت كيف تكون؛ ولهذا قال:

﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ﴾ أي: لو رُدَّهم الله تعالى إلى الدنيا، وحقَّق لهم

أمانيتهم بالعودة إليها ليستأنفوا حياتهم فيها من جديد، وليعملوا فيها العمل الصالح، لعادوا إلى كفرهم وجحودهم وفسادهم وإفسادهم.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في تمنيتهم الرجعة إلى الدنيا رغبةً بالإيمان والعمل

الصالح.

(١) انظر: روح المعاني: ١٢٩/٧.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٥٧٣/١.

● وقفة بين يدي الله تعالى:

وتعود بنا الآيات مرةً ثالثةً إلى الدنيا، لتعرض لنا موقفاً آخر من مواقف الكفار:

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾

لقد رأى أكثر المفسرين أن هذه الآية معطوفة على ما سبقها من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ٢٨].

ولكنني أرى أن الواو في أول هذه الآية للاستئناف، وأن الآية تحكي موقفاً جديداً لنوع من أنواع الكفار، وهم الكفار الدهريون، المنكرون لوجود الخالق ﷻ، ويستتبع إنكارهم وجودَ الله تعالى إنكار يوم القيامة أيضاً، وقد ذكرهم الله تعالى في قوله الكريم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهذا الذي أراه يتفق مع ما سبق تقريره في موضوع السورة من أنها جاءت تردُّ أقوال الكفار، وتدحض مزاعمهم في شتى ألوان كفرهم، ويتفق أيضاً مع قوله تعالى بعد ذلك في سياق الآيات:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ؑ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ؑ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ؑ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ؑ﴾ أي: وقف هؤلاء المنكرون لوجود الصانع بين يدي ربهم.

وتأمل الفرق بين قوله تعالى السابق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وبين قوله اللاحق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ؑ﴾؛ فالقول السابق في الكافرين المشركين الذين يقرون بوجود الخالق جلّ وعلا، ولكنهم يعبدون غيره، ويشركون به سبحانه، ويكذبون رسله، وينكرون يوم القيامة، وعذاب النار، وهو

العذاب الذي هدّدهم به الرسل عليهم الصلاة والسلام، فناسبهم أن يقول تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [المائدة: ٢٧].

والقول الثاني اللاحق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ في المنكرين لوجود ربهم الذي خلقهم وربّاهم، وأمدهم بكل أسباب الحياة، فناسبهم أن يقول فيهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ فالآية الثانية تحكي إذاً موقفاً آخر مغايراً للأول لنوع آخر من الكفار، وليست تكراراً وتأكيداً للموقف السابق كما رأى كثير من المفسرين، فالقول بالتأسيس أولى من القول بالتأكيد؛ لأنه يتفق أكثر مع بلاغة القرآن الكريم وفصاحته.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿وَقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ تمثيل لحبسهم للسؤال والتوبيخ، أو بمعنى الاطلاع، أي: عرفوه ﷻ حقّ التعريف^(١)، فأيقنوا بوجوده وكماله ووحدانيته جلّ وعلا.

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ الثابت.

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ اعترفوا بالحق، وأكدوا اعترافهم بالقسم به سبحانه.

﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: فذوقوا العذاب بسبب كفركم وجحودكم.

• حَمَلَةُ الْأَوْزَارِ:

ثم بيّن سبحانه الخسارة الكبيرة التي تحلّ بالمنكرين ليوم القيامة عندما يأتيهم هذا اليوم فجأةً على غير انتظار واستعداد:

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَرِزُونَ﴾ ﴿٣١﴾

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ خسروا حياتهم، وضيعوا أعمارهم دون فائدة

(١) روح المعاني: ١٣١/٧.

تُرْجَى؛ بسبب إنكارهم ليوم القيامة، فلا قيمة للحياة الدنيا ولا معنى لها من دون الحياة الثانية، فهي كما سبق بيانه تعطي الحياة الدنيا قيمتها، وتبين حقيقتها وحكمها.

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: جاءتهم فجأة عندئذٍ تغشاهم الحشرات، وتملاً نفوسهم الزفرات.

﴿قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ أي: على عدم استعدادنا لها، وتقصيرنا في العمل من أجلها، ومع الحسرة التي تذيب قلوبهم، وتحرق نفوسهم، يحاسبون على أعمالهم التي عملوها، فيحشرون يوم القيامة وهم يحملونها على ظهورهم: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ والأوزار: الذنوب والمعاصي، وأصل الوزر الحمل الثقيل، سُمِّيَ به الإثم والذنب لثقله الشديد، وُجِسِدَ اللهُ تعالى بقدرة الأوزار ليحملها أصحابها على ظهورهم مجسدة؛ زيادةً في عذابهم ومعاناتهم يوم القيامة.

ورأى بعضُ المفسرين أن قوله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ تمثيلٌ لحملهم مسؤولية معاصيهم وخطاياهم، وبيان سوء حالهم، وشدة ما يجدون من المشقة والعقوبة، وذكر الظهور في الآية كذكر الأيدي في قوله: ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]^(١).

أو يكون المراد تحقيرهم وتشبيهم بالدواب المسخرة لحمل أثقال الإنسان في الدنيا. قال سيد قطب رحمته الله: «ثم مشهدهم كالدواب الموقرة بالأحمال ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ بل الدواب أحسن حالاً، فهي تحمل أوزاراً من الأثقال، ولكن هؤلاء يحملون أوزاراً من الآثام، والدواب تُحطُّ عنها أوزارها فتذهب لتستريح، وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم، مشيعين بالتأثيم»^(٢).

والأولى أن نحمل الحمل على الحقيقة، فالله تعالى قادرٌ على تجسيد

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ١٢٤/٢.

(٢) في ظلال القرآن: ١٠٧٢/٢.

الأعراض والمعاني، وقد وردت عِدَّةُ آثار تدلُّ على ذلك، منها ما ورد في تجسيد ثواب قراءة سورتَي البقرة وآل عمران يوم القيامة، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يومَ القيامةِ شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين - البقرة وآل عمران - فإنهما يأتيان يومَ القيامةِ كأنهما غمامتان أو كأنهما غيابتان، أو كأنهما فرقان من طير صوافٍ تحاجان عن أصحابهما يومَ القيامةِ» [رواه مسلم (٨٠٤)].

والغياية: ما أظلك من فوقك. والفرق: القطعة من الشيء.

﴿الأساء ما يزرون﴾ أي: ما يحملون.

• الحياة الدنيا والآخرة:

وماذا يبقى من الدنيا إذا انسلخت عن الآخرة؟ إنها تصبح تافهة لا قيمة لها، لا يبقى فيها إلا العبثُ واللعبُ واللهو، ولهذا وصفها الله تبارك وتعالى بهذه الصفات فقال:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لأنها دون الشعور بالمسؤولية عنها أمام الله تعالى تصبح حياة الفارغين والفارغات، والتافهين والتافهات، الذين قصرُوا كلَّ همِّهم فيها على اللعب واللهو والعبث، والذين سبق حكاية قولهم: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

وجلت حكمته تعالى أن يخلقهم للعبث واللهو: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٩﴾﴾ فتعلَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿المؤمنون﴾.

فلا بدّ إذاً بعد هذه الحياة الدنيا من حياة ثانية، وهي خير لأهل الإيمان والتقوى، الذين يستشعرون مسؤوليتهم أمام الله تعالى، فيملؤونها بطاعته ويعمرونها بعبادته:

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ﴾ أي: يتقون الله تعالى ويخافون من حسابه وعذابه يوم القيامة.

وقد أفادهم هذا التقويم الرباني للحياة الدنيا والآخرة أنهم لم يصبحوا عبداً للدنيا، لقد ركبوها ولم تركبهم، وعبدوها، فذللوها لله ولسلطانه، ولم تستعبدهم، وهم يتبعون وجه الله، ويرجون الآخرة، فسبقوا أهل الدنيا في الدنيا، ثم سبقوهم كذلك في الآخرة^(١).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه الحقيقة، وتدركون الحكمة من وجودكم في هذه الحياة الدنيا، وتشعرون بمسؤوليتكم عن أعمالكم أمام خالقكم سبحانه.

• حقيقتان هامتان:

وتعود الآيات مرة ثانية إلى مواساة النبي ﷺ عما يجده من حُزنٍ ومعاناة بسبب ما يلقي من جحودهم وعنادهم، وتبرز في عودتها إلى مواساته حقيقتان هامتان:

أولاهما: مكانته عليه الصلاة والسلام الكبيرة عند ربه ﷻ، التي دلت عليها كثرة اهتمام الآيات بمشاعره عليه الصلاة والسلام، وحرصها على مواساته المرة تلو المرة، كلما عرضت موقفاً جديداً من مواقف العناد والاستكبار عند المشركين.

وثانيتها: شدة عنادهم وجحودهم، وكثرة الأذى الذي كانوا يوجهونه إلى النبي ﷺ، حتى قال تعالى مواسياً له عليه الصلاة والسلام:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ بِمَجْحَدُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ عندما كانوا يكذبونه عليه الصلاة والسلام، ويصفونه بأوصافٍ لا تليقُ به عليه الصلاة والسلام.

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٠٧٢/٢.

﴿فَاتِهِمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ أي: إنهم في الحقيقة لا يكذبونك، إذ كنتَ ولا تزال فيهم الصادق الأمين، فما أصابك منهم ما أصابك إلا من أجلنا وبسببنا.

﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنهم بآيات الله تعالى يكذبون.

فما أعظم مكانته عليه الصلاة والسلام عند ربه ﷻ! فقد جعل سبحانه ما فعله المشركون به عليه الصلاة والسلام من التكذيب راجعاً إليه تعالى، فبلغ عليه الصلاة والسلام في هذا الغاية في جلاله القدر، ورفعة المحل، والزلفى من الله ﷻ، إلى حيث لا غاية وراءه، حيث لم يقتصر على جعل تكذبيهم إياه عليه الصلاة والسلام تكذيباً لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

بل نفى تكذبيهم له ﷻ، وأثبتته لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

• النصر القريب:

وتابعت الآيات تسليّة النبي ﷻ وتثبيتته، وهي تحمّل له البشارة بالنصر والظفر:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ

اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٤﴾ .

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾ فغاية الصبرِ النصر، وانتظارُ الفرج من الله تعالى عبادةً، وموعداً مع نصر الله تعالى قريباً، وهو النصر الذي يأتي إليك من الله تعالى، كما أتى من قبلك من الرسل.

﴿وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ التي كتبها سبحانه بالنصر والظفر لرسوله، كما في قوله عز شأنه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات].

وكما قال أيضاً: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]. وهذا يبين لنا بعض الحِكمِ والعبرِ من قصص الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم، وهي ما أشار إليها سبحانه بقوله:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الرُّسُلِ فَلَكَ فِيهِمْ أُسُوءٌ وَقُدُوءٌ﴾.

وكان رسول الله ﷺ شديد الحرصِ على إيمان المشركين، ومع ذلك فلا حيلة له معهم إلا الصبر، ولهذا قال سبحانه له:

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: عَظُمَ عليك إعراضهم عما يأتيهم من الآيات كما مرَّ معنا في قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤].

﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا﴾ منفذاً.

﴿فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي: بمعجزة من المعجزات التي اقترحوها، وطلبوها منك، فافعل لتشهد أنهم لا يزدادون عند إتيانك بها إلا إعراضاً وعناداً.

فالمرادُ بيانُ شدَّةِ حرصه عليه الصلاة والسلام على هدايتهم، بأنه لو قدر أن يتكلَّفَ النزول إلى أعماق الأرض، أو الصعود فوق السماء، لفعله عليه الصلاة والسلام من أجل هدايتهم وإيمانهم، وبيان شدَّةِ عنادهم وإعراضهم.

ثم بيَّن تعالى قدرته على هدايتهم رغم شدة عنادهم، فقال:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ ولكنه سبحانه شاء أن يجعل لهم إرادةً وكسباً واختياراً، فإعراضهم عن الإيمان بسبب كسبهم واختيارهم، والإيمانُ

لا يكون بالإجبار والإكراه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] (١).

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين يظنون أنَّ هدايتهم متوقفة على جلب آية مقترحة لهم، إنه الجد الصارم والحسم الجازم، كما قال سيد قطب رحمته الله، إلى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية (٢)، وإنه أيضاً يدلُّ على أنَّ هذا الكلام الذي يظهر فيه عزُّ الربوبية، كلام الله تعالى، أنزله على نبيه محمد صلوات الله عليه. ثم أكد سبحانه كمال قدرته، وأنه قادرٌ على جمعهم على الهدى، فقال:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: الذين فيهم قابلية السمع؛ لأنَّ عقولهم وقلوبهم منفتحة على الخير، متوجهة له، فيتدبرون ما يلقي إليهم من آيات الله تعالى، ويتنفعون بدلائلها وبراهينها.

وأما هؤلاء المعاندون فهم كالأموات في عدم قابليتهم لسماع الخير وفي تبدُّد مشاعرهم عن إدراك أنوار الهداية، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا إِلَيْهِ لَا يُؤْمِنُوهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

ولهذا شبههم الله تعالى بالأموات الذين لا حسَّ فيهم ولا حياة، ومع ذلك فإنه سبحانه قادر على هدايتهم، كما هو قادر على بعث الأموات من قبورهم، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

وهو سبحانه قادر أيضاً على كلِّ الآيات والمعجزات التي اقترحوها:

(١) انظر: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، في تفسيرنا هذا.

(٢) في ظلال القرآن: ١٠٧٨/٢.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ .

أي: لا يعلمون أن عدم تنزيل الآيات المقترحة رحمة من الله تعالى بهم، فلو أنزل الله تعالى آية مقترحة، وأعرضوا عنها، ولم يؤمنوا بها، لأهلكهم سبحانه، واستأصلهم بالعذاب، كما أهلك المكذبين من الأمم قبلهم^(١).

• لسنا وحدنا في الكون:

والمخلوقات كلها محتاجة إلى الخالق العظيم سبحانه، شأنها في هذا شأن الإنسان، وهي تستوي معه في صفة الحدوث والاحتياج والافتقار:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ تُعْرَىٰ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ .

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تدبُّ على الأرض وتنتقل فيها.

﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي: ولا طائر يطير ويتحرك مستعملاً جناحيه.

ولم يكتشف الإنسان حتى الآن طائراً من المخلوقات الأرضية يطير بأكثر من جناحين.

﴿إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ﴾ لأن الله تعالى خلقهم كما خلقكم، وقدّر لكل جنسٍ ونوعٍ وفردٍ منهم رزقه وأجله كما قدّر لكم، وكل ذلك معلوم لله تعالى ومكتوب في لوح القدر.

﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فجميع المخلوقات متساوون ومتماثلون في حاجتهم إلى الخالق البارئ، في حال الحدوث والابتداء، وفي حال الدوام

(١) انظر تفصيل الموضوع في تفسير سورة الإسراء (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء)، وهو جزء من هذا التفسير.

والبقاء، ويمتاز الإنسان عنهم جميعاً بالتكريم والتكليف والمسؤولية؛ لأن الله تعالى زوّده بأهلية التكليف والمسؤولية.

وتدلُّ كثرة أنواع المخلوقات وأجناسها على وحدانية خالقها سبحانه، كما أنها تشهد على عظيم قدرته وكمال مشيئته وحكمته وسعة علمه ﷻ.

وكأن وصف المخلوقات في هذه الآية بالحركة من دبيب وطيّران، جاء يقابل ما سبق تقريره في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْآلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣].

وسبق القول ثمة أنّ المخلوقات كلها لا تنفك عن إحدى هاتين الصفتين: السكون والحركة، وهما دليلٌ على حدوثها وخلقها، وكما صرّح تعالى هناك بشمول ملكه للساكنات، صرّح هنا ﷻ بشمول ملكه وقهره للمتحرّكات، فلا يسكن ساكن، ولا يتحرك متحرّك إلا بمشيئته سبحانه وعلمه وقدرته.

ثم ماذا بعد خلقهم وإمدادهم بأسباب الحياة والبقاء، مع كثرة أجناسهم وأنواعهم وكثرة أشكالهم وصفاتهم وخصائصهم؟! ماذا بعد كلّ هذا الخلق المحكم المتكامل؟!.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فالبداية منه سبحانه، والنهاية إليه ﷻ، ليقضي بينهم بعدله، قال عليه الصلاة والسلام: «لَتَوْدُنَّ الْحَقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يَقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ (التي لا قرن لها) مِنَ الشَّاةِ الْقُرْنَاءِ» [رواه مسلم (٢٥٨٢)].

فخلقهم وإيجادهم لم يكن عبثاً ولا لعباً، والناس ليسوا وحدهم في هذا الكون حتى يكون وجودهم مصادفةً، وحتى تكون حياتهم سدىً، إنّ حولهم أحياء أخرى، كلها ذات أمرٍ منتظم يوحى بالتدبير والحكمة، ويوحى ذلك بوحدة الخالق، ووحدة التدبير، الذي يأخذ خلقه كله^(١).

ووحدة التدبير تظهر في التسخير، فلقد سخر الله تعالى هذه المخلوقات بعضها لبعض، وسخرها كلها للإنسان وفائدته وحياته تكريماً له وتشريفاً، كما

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٠٨٠/٢.

قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيُنْفِقُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية].

• في الظلمات:

إنَّ حال هؤلاء المكذِّبين المعرضين عن كلِّ هذه الدلائل والبراهين، كما وصفهم الله تعالى في قوله الكريم:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُوا فِي الْأُظْلُمَاتِ مَن يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَن يَشَاءِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ .

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُوا فِي الْأُظْلُمَاتِ﴾ فلا يسمعون الآيات سماعاً تتأثر به نفوسهم، وتتقبله عقولهم، ولا ينطقون بالحق المجلجل من حولهم، لأنهم غارقون في الظلمات.

﴿فِي الْأُظْلُمَاتِ﴾ ظلمات العناد والاستكبار، وظلمات الأهواء والشهوات، وظلمات الجهل والتقليد الأعمى، ظلمات متراكبة بعضها فوق بعض، غشيتهم من كلِّ مكان، واشتدت عليهم مع مرور الأزمان، ولا سبيلَ لهم إلى الخلاص منها إلا بنور الهداية والإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّرَ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فإرادته سبحانه لا تُعَارَضُ، ومشيبته نافذة لا تُغَالَبُ:

﴿مَن يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَن يَشَاءِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

ومع اتصافه جلَّ وعلا بكمال المشيئة فهو متصف أيضاً بكمال العلم

والحكمة، يدبّر سبحانه أمرَ مخلوقاته بمشيئته وعلمه وحكمته، يهدي مَنْ يشاء، ويضلُّ من يشاء، ويجعلُ الظلمات والنور.

إذاً علينا أن نلجأ إلى الله تعالى ليكشفَ عنّا الظلمات، وينيرَ لنا الطريق، علينا أن نتعرّفَ عليه سبحانه في الرخاء بعبادته وحده وطاعته، ليستجيبَ دعاءنا في المحن والبلاء، فالإنسان مفتقرٌ إلى فضلِ ربِّه وإحسانه ورحمته في جميع أحواله وأوقاته.

• الإنسان والدعاء:

الافتقار والاحتياج يلابسُ الإنسان دائماً، لأنه جزءٌ من خلقه وتكوينه، فحاجته إلى الطعام والشراب متولّدة من تركيبه العضوي وبنيته المادية المخلوقة من الطين، وحاجته إلى المعرفة والعلم نابعةٌ من تكوينه العقلي، وحاجته إلى الجنس والتكاثر والتوالد، أساسها حياته المحدودة الفانية . . .

وكثيراً ما ينسى الإنسان حقيقةَ ضعفه وفقره، ويظنُّ نفسه قوياً غنياً، فيتكبر ويتجبر، ويعرض عن الحق معانداً جاحداً، ولهذا أمر الله سبحانه النبي ﷺ أن يذكرَّ المُعرضين المعاندين بحقيقة ضعفهم وافتقارهم إلى رحمة ربهم وفضله، فقال:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني.

﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ كما أتى الأمم من قبلكم.

﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أي: أهوال يوم القيامة.

﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أي: هل تدعون غير الله وتلجؤون إلى سواه؟.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن كنتم حقاً صادقين في اعتقادكم أن هذه الأصنام

التي تعبدونها نافعةٌ لكم، ودافعةٌ عنكم الضرر والخطر.

ولما كان معنى هذا الاستفهام النفي، أي: لا تدعون في حالِ الخطر غير

الله تعالى، استغنى به عن جوابِ الشرطِ المتقدم، ثم أكده سبحانه وأثبتته بقوله:

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (٤١)

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ وقدم المفعول على الفعل ليفيد الحصر والتخصيص، أي: بل تدعونه وحده، ولا تدعون غيره، فهو كقوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، لأنكم في قرارة قلوبكم وفي أصل الفطرة التي فطرتم عليها، تعلمون أنه هو وحده الذي يكشف عنكم الضرر، ويخلصكم من الخطر.

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ كشفه عنكم، فاستجابته سبحانه للدعاء منوطة بمشيئته وحده، فهو الفعال لما يريد، إن شاء أزال العسر، وأتاح اليسر، وإن شاء ترك الحال على ما قبل السؤال والابتهاال لحكمة يعلمها سبحانه.

فهذه الآية تُقَيِّدُ الإِطْلَاقَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَدْعُوهُ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقوله أيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فثمة موانع تمنع الإجابة أو تؤخرها قائمة في الداعي نفسه، يعلمها سبحانه؛ فهو الذي يعلم السر وأخفى، فقد لا يكون الداعي مخلصاً في دعائه، وقد يستبطئ الإجابة، ويسيء الظن بالله تعالى، كما قال ﷺ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فيقول: قد دعوت ربِّي فلم يَسْتَجِبْ لي» [رواه مسلم (٢٧٣٥)].

﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: تتركون ما تشركون به سبحانه من عبادة الأصنام والأوثان.

وقد يكون النسيان على حقيقته، نظراً لشدة الهول والخطر، إذ ينسى الإنسان في مثل هذه الأحوال كل ما سواه سبحانه، ويرجع إلى أصل فطرته الأولى التي فطره الله تعالى عليها، وهذا يكون في حال مواجهة الإنسان لأخطار كبيرة محدقة به لا سبيل له إلى النجاة منها، كعذاب الاستئصال، الذي أنزله الله تعالى بالأمم المكذبة للرسول، أو أهوال الساعة التي يستيقن الإنسان عجزه عن دفعها، ويصل إلى حد اليأس من النجاة منها، ويكون دعاؤه ربه سبحانه يشبه

إيمان اليأس الذي يصدر عنه في مثل هذه الأحوال كإيمان فرعون عندما أدركه الغرق، ويئس من النجاة، وأيقن بالهلاك: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩] (١).

• قسوة القلب:

فعلى الإنسان أن يلجأ إلى الله تعالى في كلِّ أحواله، لأنَّ احتياجه وافتقاره إلى الله تعالى صفة لازمة له، لا تنفك عنه أبداً، فهو مخلوق من خلقه سبحانه، ومملوك له ﷻ، وعبد من عبيده، وفي قبضة قدرته ومشئته.

ومن رحمته سبحانه بعباده أنه أرسل إليهم الرسل ليذكروا الناس بحقيقة فقرهم، واحتياجهم إليه ﷻ، فيقبلوا عليه داعين مطيعين، فهو سبحانه الرحيم الكريم، يحب أن يرى عباده على أبواب رحمته وكرمه، وفي ساحات جوده وعطائه. ولكنَّ أكثر الناس يعرضون عن دعوة الرسل مكذِّبين معاندين، فيسلط الله تعالى عليهم البلايا والمحن لعلها تخفف من عنادهم، وتكسر شوكة تكبرهم، فتلين قلوبهم، وتخشع نفوسهم، ويقبلوا على ربهم سائلين ضارعين:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٤٢).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: بالشدائد والمصائب في أموالهم وأنفسهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ أي: يتذللون إليه تعالى، ويقبلون عليه ضارعين، ولكنهم بسبب قسوة قلوبهم يصرون على عنادهم، ويبالغون في استكبارهم.

(١) انظر: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، وهو جزء من هذا التفسير.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقسوة القلب من أخطر أمراض النفس البشرية وأعصاها على كلِّ دواء، وموالاتهم للشيطان تزيد من قسوة قلوبهم وعنادهم .

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي والكفر، والقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله قلبٌ متحجراً لا خير فيه .

• الاستدراج:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام وأعرضوا عنها، ولم يتعظوا بها، أو أنهم انهمكوا في معاصيهم، ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء، استدرجهم الله تعالى بالرخاء .

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأرزاق والخيرات وأسباب الملذات المادية، استدرجاً لهم ومكراً بهم، ومدد الله تعالى لهم في زمن العطاء .

﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أي: حتى إذا اعتادوا على رغد العيش، واطمأنوا إليه، واغتروا به، وانشغلوا بالنعمة عن المنعم، فلم يذكروه، ولم يشكروه، بل استغرقوا في المتاع، واستسلموا للشهوات، فأدى ذلك إلى فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، وأدى هذا وذلك إلى نتائج الطبيعية من فساد الحياة كلها، عندئذ جاء موعد السنة الإلهية التي لا تبدل:

﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة على غير توقع منهم وانتظار .

﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون قانطون .

قال الحسن البصري رحمته الله: مُكِرَ بالقوم وربّ الكعبة، أُعْطُوا حاجتهم، ثم أُخِذُوا.

وقال قتادة: ما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغيبتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، فإنه لا يغترُّ بالله إلا القوم الفاسقون^(١).

وفي الحديث الشريف: عن عقبه بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحبُّ، فإنما هو استدراجٌ» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾. [رواه أحمد (١٧٢٤٤)].

هذه سنة الله تعالى التي لا تتبدل في استدراج الأمم الكافرة المعاندة، فلا ينبغي لنا أن نغترَّ بما عندهم من متاع الدنيا وزخارفها، وبما لديهم من أسباب الرخاء، فهو والله عينُ البلاء.

ولو تدبَّر المسلمون هذه الآيات الكريمة، وتأملوا معانيها لما وُجِدَ فيهم مَنْ ينظر إلى حضارة الغرب المادية نظرة الانبهار والإعجاب، فتراهم يندفعون إلى تقليد الغربيين تقليداً أعمى، منسلخين عن مبادئ دينهم، ومنهج كتابهم، وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وهم يظنون أنهم إذا لحقوا بهم وصلوا إلى مراتب الكمال، وحققوا لأنفسهم السعادة، مع أنهم لو تأملوا حقيقة حياتهم لوجدوهم أشقياء بما هم فيه لا سعداء، إنَّ العذابَ النفسيَّ والشقاءَ الروحي والشذوذَ الجنسي والانحلالَ الخلقي التي تقاسي منه هذه الأمم، ليكادُ يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع، وليكاد يصبغُ الحياةَ كلها بالنكد والقلق والشقاء^(٢).

وإنَّ انتشارَ الآفات الاجتماعية كالخمر والمخدرات وعصابات المجرمين، وانتشار الأمراض الجنسية والشذوذ كالعقم وضعف المناعة، وانتشار التلقيح

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٧٨/١.

(٢) في ظلال القرآن: ١٠٩١/٢.

الصناعي الذي نقل عن الحيوان إلى الإنسان، ومخازن النطف البشرية والمتاجرة بها، كل ذلك مؤشرات على العواقب الوخيمة لهذه المجتمعات.

﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: آخرهم، فلم يبقَ منهم أحد؛ لأنه سبحانه استأصلهم عن آخرهم .

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي طهر الأرض من ظلمهم وفسادهم وإفسادهم، فهو من النعم الجليلة التي يُحْمَدُ عليها، والكمال له سبحانه في كلِّ الأحوال، لا يزيده وجودٌ موجودٍ، كما مرَّ في أول السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، ولا ينقصه فقد مفقود كما قال هنا: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (١) .

• ما أضعف الإنسان!

وتابعت الآياتُ كشفَ الحقيقةِ للإنسان، الحقيقة الماثلة في ذاته، والقائمة في نفسه، فهي تعرّف الإنسان بالإنسان، تبيّن له حقيقة ضعفه، وشدة حاجته وفقره، حتى لا يغترّ ولا يتكبر، ولا يعرض عن دعوة الحقّ ولا يتجبر:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ فلا سلطان لكم حتى على أجزاءكم وحواسكم؛ لأنكم لستم أصحابها الحقيقيين، فمالكها الحقيقي بارئها وخالقها الذي قال: ﴿أَمِنْ يَمَانِكَ السَّمْعُ وَالْأَبْصَرُ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تُنْفِقُونَ﴾ [يونس: ٣١] .

﴿وَحَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بأن غطى عليها، وحجبها عن الإدراك والتعقل. والقلوب بيد الله سبحانه يقبلها كيف يشاء، ولا سلطان لأصحابها عليها كما قال سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فما أضعف الإنسان الذي لا سلطان له حتى على قلبه، ولا يملك سمعه وبصره! وهي أهم وسائل التمكين التي تمكنه من الاتصال بالعالم المحيط به، وإدراك الأشياء من حوله، كما لا يستطيع أن يضمن بقاءها له لحظة واحدة. ﴿مَنْ لِلَّهِ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أي: مَنْ غير الله يردُّ عليكم ما أخذ الله تعالى منكم.

﴿أَنْظَرَ كَيْفَ نَصَرَفُ الْأَيَاتِ﴾ أي: انظر نظر المتعجب كيف بيّن الله تعالى لهم حقيقة ضعفهم وعجزهم وافتقارهم إلى رحمة ربهم، ومع كلّ هذا البيان والتبيين:

﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: يعرضون عن كلّ ذلك.

وتأمل وحدة الأسلوب في السورة الكريمة، بين قوله هنا: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، وبين قوله في أول السورة: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. فما أظلمهم لأنفسهم! وما أشقاهم بعنادهم وإعراضهم!

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ (٤٧).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ﴾ كما أتى الأمم من قبلكم فجأة.

﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بعد ظهور أماراته وعلاماته (١).

فقد يرسل الله تعالى بين يدي العذاب أمارات وعلامات تدلُّ على اقترابه، كما فعل سبحانه عندما عذب عاداً قوم هود، بأن أرسل إليهم عارضاً في جوِّ

(١) تفسير أبي السعود: ١٣٥/٢.

السماء كمقدمة لعذابهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يهلك بهذا العذاب إلا المشركون الكافرون، والمعاندون المعرضون؛ لأنه سبحانه ينجي عباده المؤمنين الصالحين، كما أخبر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَتَجَّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

هكذا قدر الله تعالى بمشيئته وحكمته أن يكون الإنذار والتخويف للمعرضين المكذبين، وأن تكون البشارة للمؤمنين الصالحين:

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٨).

هذه بشارة عظيمة من الله تعالى للمؤمنين الصالحين.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٤٩).

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة ربهم سبحانه.

• لا يستوي الأعمى والبصير:

والرسالة التي أكرم الله تعالى بها الرسل لم ترفعهم فوق مقام عبوديتهم له سبحانه، ولهذا أمر النبي ﷺ - وهو أشرف المرسلين، وخاتم النبيين - أن يقول للناس:

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۚ إِن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۗ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٠).

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي: لا أقدر على ما يقدر عليه الله، فكأن

مقدوراتِه مخزونة حاضرة عنده^(١) لكمال قدرته جلّ وعلا .

﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: ولا أقول لكم: إنّي أعلم الغيب، فلا يعلم النبي ﷺ من الغيب إلا ما أعلمه الله تعالى به، فعلم الغيب مما استأثر الله تعالى به: ﴿عَلِمَ الْغَيْبَ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٣٦) إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن].

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: ولا أدعي أنني ملك، إنما أنا بشرٌ مثلكم، شرفني الله تعالى بالوحي، وأنعم علي به .

﴿إِن آتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: ما أتبع إلا ما يوحى إلي، فأنا عبدٌ لله، لا أتخطى حظي، ولا أتعدى حدّي، ولا أثبت من ذات نفسي شيئاً، وقد أوحى إليّ هذا القرآن لأندركم به خصوصاً، وأنذر به كلّ من بلغه عموماً .
والقرآن الكريم واضح الدلائل، قاطع البراهين، ثابت الحجج، فلا يُعرض عنه إلا مَنْ كان أعمى البصيرة، ولا يُقبل عليه إلا من نور الله تعالى قلبه وبصيرته .

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فكما لا يستوي الأعمى والبصير، لا يستوي الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والنور والظلمات، وعلى العاقل أن يميّز بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فالتفكر مطلوب، والحض عليه منهج قرآني مضبوط بضوابط الوحي المنزّل .





الفصل الثاني

توجيه وإرشاد

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتبين سبيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِي أِهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْفَاہِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُجْعِلُكُم مِّن ظِلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لِّئِن أَجَبْنَا مِّنْ هَدْوِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُجْعِلُكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ

أَوْ يَلِسْكُمْ شَيْعًا وَيَذِقَ بَعْضُكُم بِأَسِّ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ
قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْسُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ
يُخَوِّضُونَ فِي آءِ بَيْنِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يُخَوِّضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ
الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا
لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿١٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ
بِهِمْ أَنْ يُبْسَلَ نَفْسًا بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَأَ
يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ
﴿٢٠﴾ قُلْ أُنذِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرُدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي
اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى آتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ
الْهُدَىٰ وَأَمْرًا يُسَلِّمُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ
﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ
الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّمُورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَمِيدُ ﴿٢٣﴾

• تَمْهِيد:

لما وصلت الآيات الكريمة في سورة الأنعام إلى القول الفصل المميز بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، والنور والظلمات، وطوّقت الكافرين بالبراهين القاطعة، والحجج البالغة، وكشفت لهم حقيقتهم، وبيّنت لهم حدهم، وعرفتهم قدرهم، وقرّبت إليهم بصائر الحق، بصيرةً بعد بصيرة، أمرت النبي ﷺ أن يلتفت إلى الجانب الآخر، إلى المؤمنين الذين نور الله تعالى قلوبهم وأحيا نفوسهم، فقبلوا دعوته، وصدّقوا برسالته، فلهم حقوق المسلمين، ورحم المؤمنين، وهم محتاجون إلى هدى النبي ﷺ وتوجيهه وإرشاده.

وبهذا تبدأ الآيات الكريمة في السورة فصلاً جديداً، تبتُّ فيه الخطاب للمؤمنين: ترشدكم، وتبشّرهم، وتؤدّبهم، وتبيّن مكانتهم عند الله تعالى، وعند رسوله ﷺ.

• كرامة المؤمنين:

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ بالقرآن الكريم .

﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم مؤمنون بالله تعالى وبيوم القيامة، فالؤمن محتاج إلى القرآن الكريم تلاوة أو استماعاً يتدبر آياته، فيزداد خشيةً لله تعالى، وتعظيماً له ﷺ؛ ولهذا كان النبي ﷺ يحث المؤمنين على تلاوة القرآن الكريم، وحضور مجالسه، كقوله عليه الصلاة والسلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» [رواه البخاري (٥٠٢٧)].

وقوله ﷺ أيضاً: «ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكّرتهم الله في من عنده» [رواه مسلم (٢٦٩٩)].

﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: ليس لهم غير الله تعالى ناصرًا ينصرهم، ولا شفيعاً يشفع لهم، حتى يأذن الله تعالى بالشفاعة لمن يشاء من عباده ويرضى، فهو القائل ﷺ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتقون الله تعالى بتعظيم أمره، واجتناب محارمه.

فللقرآن الكريم سلطانٌ كبيرٌ على قلوب المؤمنين وأرواحهم، يصفّي أرواحهم، ويهدّب قلوبهم، ويصقل نفوسهم، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. فالقرآن الكريم يزود المؤمنين بالخشية التي تحجزهم عن المعاصي، وتدفعهم إلى الاستزادة من الطاعات والقربات.

ثم تابعت الآيات خطاب النبي ﷺ، تأمره أن يهتم بالمؤمنين، ويُقبل

عليهم، فلا ينبغي أن ينشغل بدعوة المشركين عنهم، فللمؤمنين كرامة عالية عند الله تعالى، وينبغي أن يُقدّموا في مجالس النبي ﷺ.

ولما طلب بعض المشركين من رسول الله ﷺ أن يخصّص لهم مجلساً خاصاً لا يشاركون فيه أحدٌ من ضعفاء المؤمنين وفقرائهم، كبلال وعمار وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم، وأن يطردهم من مجلسه عندما يأتي إليه المشركون، أنزل الله تعالى ردّاً على طلبهم هذا قوله الكريم:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدْتَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أي: لا تُبعد المؤمنين الذين يواظبون على عبادة ربهم من أول النهار إلى آخره.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: مخلصين في عبادتهم، لا يريدون غير رضوان الله وثوابه، واجعلهم جلساءك وأخصاءك، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطْعَمَنَ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ شهادة رقيقة من الله لهؤلاء الضعفاء من أصحاب النبي ﷺ، ردّ الله تعالى بها على المستكبرين من المشركين الذين اتهموا المسلمين بأنهم لم يسلموا إلا بسبب حاجتهم وفقرهم.

ثم أكّد الله رده على المشركين بقوله:

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: إن كان لهم قصد غير الإيمان والإسلام فأنت لا تحاسبُ عنهم، كما أنهم لا يحاسبون عنك، فكلُّ إنسانٍ مسؤول عن عمله، والله سبحانه هو الذي يسألهم ويحاسبهم.

﴿فَطَرَدْتَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فتكون بسبب طردهم من الظالمين الذين يضعون الأمور في غير مواضعها، وحاشاه ﷺ أن يكون كذلك، وإنما

نزلت الآيات بهذا النهي الصريح الجازم ردّاً على اقتراح المشركين الفاسد، والاتهام الظالم لضعفاء المؤمنين، فتولّى سبحانه بنفسه الدفاع عنهم؛ إظهاراً لشرفهم وكرامتهم عنده سبحانه، فللمؤمن كرامته وفضله عند الله تعالى.

وفي «صحيح مسلم»: عن سعدٍ: في نزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ...﴾ نزلت في ستة: أنا وابن مسعودٍ منهم، وكان المشركون قالوا له: تُدني هؤلاء. وزاد في رواية ثانية: اطرُد هؤلاء لا يجترئون علينا. [رواه مسلم (٢٤١٣)].

• التفضيل بالإيمان والتقوى:

ثم بيّن سبحانه أنه جعل التفاوت في العطاء والرزق سبباً من أسباب الابتلاء والاختبار في الحياة الدنيا، ولا علاقة له بالفضل والكرامة، فهما منوطان بالإيمان والتقوى، كما هو مقرر في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالتكريم والتفضيل من القيم المرتبطة بالإيمان والتقوى، لا بمتاع الدنيا وزخرفها الزائل الحائل، والرزق والغنى متاح في الدنيا لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، تقيهم وفاجرهم، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّدْ هُنَّ وَأَنَّا نَمُزُّهُنَّ مِنَ الْعَالَمِينَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْفَاسِقِينَ﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ

بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: جعلنا التفاوت بين الناس بالرزق والعطاء اختباراً وامتحاناً، فاختر الله تعالى بحكمته الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء، فسقط المستكبرون من أغنياء المشركين في الاختبار، وكان برهان سقوطهم قولهم:

﴿لَيَقُولُوا أَهْتُولَاءَ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: أنعم الله عليهم بالإيمان، ونحن المقدمون والرؤساء، وهم الفقراء؟! ففي قولهم إنكار لأن يكون أمثال هؤلاء الضعفاء ممنوناً عليهم من بينهم^(١)، كما حكى الله عنهم في آية أخرى قولهم عن المؤمنين: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ الآية [الأحقاف: ١١].

وردَّ سبحانه على إنكارهم هذا واعتراضهم على ما منَّ به من هداية الضعفاء الفقراء بقوله:

﴿الَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فهو سبحانه عليهم بأحوال عباده، حكيمٌ في أفعاله، يجعل هدايته وتوقيفه لمن علم أنهم أهلُّ لها، وأنهم يشكرونه على نعمته وفضله، ولا يجحدونها.

• رحمته سبحانه بالمؤمنين:

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يكرم المؤمنين كلما جاؤوا إليه، فهم أهلُّ التقوى والكرامة:

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ابدأهم بالسلام تكريمًا لهم، أو بلغهم سلام الله عليهم، وبشّرهم برحمته تعالى لهم.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجب ربكم على نفسه الرحمة فضلاً منه وكرماً؛ لأنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين^(٢).

وهي المرة الثانية في سورة الأنعام التي أخبر بها سبحانه أنه كتب على نفسه الرحمة، والظاهر من سباق الآية وسياقها أن هذه الرحمة التي أوجبها الله

(١) تفسير النسفي: ٤٦٤/٢.

(٢) تفسير الخازن: ٤١٥/٢.

ﷻ على نفسه في هذه المرة خاصةً بالمؤمنين؛ تكريماً لهم وتشريعاً، وإظهاراً لعنايته سبحانه بهم وفضله عليهم.

ومن آثار رحمته سبحانه بالمؤمنين ما بيَّنه في قوله الكريم:

﴿أَنْتُمْ مَنَ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءٌ أَوْ بِجَهْلَةٍ﴾ أي: وهو في حال فعله للمعصية ومقارفته للسيئة متلبس بصفة الجهالة، وهي السَّفَه والطَيْشُ وسوء التدبير، وعدمُ النظر في العواقب، فأثر المعصية على الطاعة، وجَهْل ما يترتَّب على فعله من المضارِّ والمفاسد.

﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ارتكابه للسوء، برجوعه عنه.

﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله بعد توبته، وندمه على معصيته.

﴿فَأَنَّهُ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنوب عباده المؤمنين ويرحمهم، فما أعظم فضله سبحانه عليهم!

وهكذا أظهرت لنا الآياتُ الكريمةُ طريقَ الإيمان، وميزته عن طريق الكفر بحيث لا يكون بينهما التباسٌ واشتباهُ أبداً:

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْأَيَّاتِ﴾ لبيان صفات المؤمنين وصفات الكافرين.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولتستوضح يا محمد ﷺ سبيلهم، فتعاملهم

بما يجب أن يُعاملوا به^(١). وهذا المعنى على قراءة (سبيل) بالنصب.

وأما على القراءة بالرفع فالمعنى: لتتضح سبيلُ المجرمين، وإذا استبان

سبيلُ المجرمين فقد استبان سبيلُ المؤمنين^(٢).

(١) انظر: تفسير النسفي وتفسير البيضاوي: ٤١٦/٢.

(٢) فتح القدير: ١٢٠/٢.

• عِزَّةُ الْإِيمَانِ:

وبعد أن بيّنت الآيات كيف ينبغي أن يعاملَ النبي ﷺ المؤمنون، بيّنت له بالمقابل كيف ينبغي له أن يعاملَ الكافرين المعاندين:

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيحُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كائناً ما كان، لأنَّ عبادتكم لغير الله تعالى قائمة على اتباع الأهواء، ومجردة عن أيِّ دليل وبرهان.

﴿قُلْ لَا آتِيحُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ التي هي سبب ضلالكم، فما أنتم عليه هوى لا هدى، أربأ بنفسي عنه.

﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إن اتبعتُ أهواءكم؛ لأنَّ الهدى والضلال نقيضان لا يلتقيان.

ولا بدَّ لكلِّ من يقرأ هذه الآيات الكريمة ويتدبرها أن يستشعر عِزَّةَ الْإِيمَانِ، والثقة الكبيرة التي تملأ قلب المؤمن، وعلينا أن نتذكَّر أنَّ النبي ﷺ أمر أن يواجه المشركين بكلِّ هذه العزة والثقة وهو في مكة المكرمة، حيث المشركون لا يزالون في قوتهم وَمَنْعَتِهِمْ، وكأنَّ الله تعالى أراد أن يبيِّن لهؤلاء المشركين المستكبرين المتعاليين على فقراء المسلمين وضعفائهم، عِزَّةَ الْإِيمَانِ وقوته في قلوب المؤمنين، وضعف الشُّرك والكفر وتخلُّخه في قلوب الكافرين، الذين غلبت عليهم أهواؤهم وأعمَّتْهم شهواتهم.

ثم بيّنت الآيات بعد ذلك مصدر هذه العزة ومنيع هذه الثقة بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ أَلْحَمُّ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ وهو القرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى عليَّ .

﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ والذي أعرضتم عنه مكذِّبين، فهو مصدر عزَّتي، ومنبع ثقتي، ومؤيِّد دعوتي، هو معجزتي الكبرى التي أتحداكم بها.

﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: ما عندي غير القرآن الكريم من المعجزات التي تستعجلون إنزالها، أو: ما عندي من العذاب الذي تستعجلون إنزاله، أو الساعة التي تستعجلون قيامها تكديباً بها واستبعاداً لها.

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فهو وحده الحاكم سبحانه الذي يقضي بيني وبينكم.

﴿يَقْضُ الْحَقَّ﴾ أي: يقضي القضاء الحقَّ.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ بين الحق والباطل.

• آية وحديث:

﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨).

﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لانتقطع وانتهى ما بيني وبينكم بإنزال العذاب عليكم، لكنَّ الأمر بيد الله تعالى الرحيم الحليم، والعليم الحكيم.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ المصرِّين على الكفر والشرك.

والجدير بالذكر هنا أنه عليه الصلاة والسلام لم يغلب عليه ضعفُ البشر وتسرعهم، الذي جُبلَ عليه عامَّةُ البشر، وذلك عندما جعل الله تعالى بيده عليه الصلاة والسلام أمرَ هلاكهم واستئصالهم، وبشريته عليه الصلاة والسلام حقيقةً لا شكَّ فيها، وقد أمرَ أن يواجه المشركين بها في آيات كثيرة، منها هذه الآيات التي نحن بصددِها، ولكنه عليه الصلاة والسلام ارتفع عن مقام بشريته، واستعلى على طبيعة البشر، عندما حكَّمه الله تعالى بهم، فحكَّم عليهم ورحمهم، في الوقت الذي كان يعاني من شدَّة أذاهم وكيدهم.

ففي «الصحيحين»: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ مِنْ أُحُدٍ؟ فقال: «لقد لقيتُ مِنْ قومِك، وكانَ أشدُّ ما لقيتُ منهم

يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ^(١)، فَلَمْ يَجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَاَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ ظَلَّلْتَنِي، فَنظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرَيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، وَسَلَّمْ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَطْبَقْتُ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ^(٢)»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مَنْ أَصْلَابَهُمْ مِنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥)].

فلا معارضة بين الحديث الشريف وبين ما ورد في الآية الكريمة، ففي الآية إقرار بحقيقة بشرية عليه الصلاة والسلام، وأما فعله عليه الصلاة والسلام الذي دلَّ عليه الحديث الشريف فهو ارتفاعٌ وسموٌ فوق مستوى بشرية عليه الصلاة والسلام، بسبب الأخلاق الكريمة الرحمة التي أدبه الله تعالى بها، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقد ذهب ابن كثير في تفسيره للتوفيق بين الآية والحديث مذهباً آخر فقال: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ إِلَيْهِ وَقُوعُ الْعَذَابِ الَّذِي يَطْلُبُونَهُ حَالِ طَلِبِهِمْ لَهُ لِأَوْقَعِهِ بِهِمْ، وَأَمَّا الْحَدِيثُ فَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ وَقُوعَ الْعَذَابِ بِهِمْ، بَلْ عَرَضَ عَلَيْهِ مَلِكُ الْجِبَالِ أَنَّهُ إِنْ شَاءَ أَطْبَقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ، وَهُمَا جِبَلَا مَكَّةَ اللَّذَانِ يَكْتَتِفَانَهَا جَنُوبًا وَشَمَالًا، فَلِهَذَا اسْتَأْنَى بِهِمْ، وَسَأَلَ الرَّفُقَ لَهُمْ^(٣).

(١) من رؤوس الشرك في ثقيف.

(٢) والأخشبان: الجبلان، وهما: جبل أبي قبيس، وجبل قعيقعان، وهما من جبال مكة.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٥٨٣.

• مفاتيح الغيب:

وبعد هذا شرعت الآيات الكريمة تؤكد اتصافه جلّ وعلا بصفات الكمال والغنى، وتذكر بعض المظاهر التي تدل على كمال علمه وقدرته ﷻ:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ رِزْقِهِ إِلَّا لَا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ ومفاتيح: جمع مفتاح، ويقال: مفتاح، والمفتاح: عبارة عن كل ما يحل غلقاً محسوساً، كالقفل على البيت، أو معقولاً كالنظر، وهو في الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب، كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان.

فالله تعالى عنده علم الغيب، وبيده الطرق الموصلة إليه، لا يملكها إلا هو، فمن شاء إطلاعاً عليها أطلعها، ومن شاء حجبها عنها حجبها^(١).

ويمكن أن يكون معنى ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائنه، جمع مفتاح وهو المخزن، ويكون المعنى: وعنده خزائن الغيب، والمراد منه: القدرة الكاملة على كل الممكنات^(٢).

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى» ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الرِّيحَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]. [رواه البخاري (١٠٣٩)].

ولا شك أن هذه الخمس هي الأصول الكبرى التي تتفرع عنها أكثر المغيبات:

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢/٧.

(٢) انظر: تفسير الخازن وتفسير البيضاوي: ٤١٨/٢.

١ - فعلمُ الساعة معناه: الإحاطةُ بعمر الدنيا وزمانها من بدايتها إلى نهايتها .

٢ - وتنزيل الغيث يعني: الإحاطةُ التامةُ بأرزاق المخلوقات ومقاديرها وكيفية توزيعها .

٣ - وعلمُ ما في الأرحام يعني: الإحاطةُ بكلِّ المخلوقات حالاً ومالاً، ما هو كائن منها وما سيكون وكيف يكون، وما يتصل بكلِّ فردٍ منها من خصائص وأطوار ومميزات، مما يجعل الفكر البشري عاجزاً عن تصويره. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ [الرعد].

أضف إلى ذلك ما قررته العلوم الحديثة بأن كلَّ مخلوق يحمل معه خصائص وموروثات كلِّ المخلوقات التي تتفرَّع عنه وتتناسل منه، فعلمُ ما في الأرحام علمٌ يمتدُّ عبر الزمان، مع تسلسل المخلوقات وتوالدها إلى نهاية عمر الدنيا، حيث يتوقف التوالد والتكاثر.

وتمكن الإنسان المعاصر من معرفة جنس الجنين وكونه ذكراً أو أنثى بواسطة التحاليل المخبرية وآلات التصوير، معرفة جزئية صغيرة جداً بالنسبة لما في الأرحام من أسرار وعلوم غيبية لا يحيط بها إلا خالقها وبارئها سبحانه .

٤ - ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أنه سبحانه وحده الذي أحاط علماً بأعمال وأقوال وحركات كلِّ نفس حية على الإطلاق من بداية وجودها إلى نهايته .

٥ - كما أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ يدل على إحاطة علمه تعالى بالوقت المقدر لموت كل نفس ومكانه .

ومع ذلك فهذه الخمسُ مفاتيحُ خزائن الغيب المغيبِ عنَّا، والذي هو معلوم لله تعالى أولاً وأبداً، وليستْ كُلُّ الغيبِ، فعلم الله تعالى لا يحدهُ حدٌّ، ولا يحصره عدٌّ، وما في الحديث الشريف يُحْمَلُ على بيانِ بعضِ المهم لا على

دعوى الحصر. قال العلامة المفسر الآلوسي رحمته الله: «ولا شبهة في أن ما عدا الخمس من المغيبات لا يعلمه أيضاً إلا الله تعالى»^(١).

ويؤكد ما ذهب إليه الآلوسي قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هكذا على الإطلاق يتسع علم الله تعالى ويمتدُّ

لكلِّ ما في البرِّ والبحر.

ولا يقتصر علمه تعالى على ذوات المخلوقات، بل هو محيطٌ بكلِّ أحوالها

وحركاتها، دلَّ على ذلك قوله:

﴿وَمَا سَفَّطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ فإحاطة علمه تعالى بحركة الورقة الساقطة

أنموذج لأحوال سائرها؛ لأنَّ الذي لا يغفل عن الورقة الميتة الساقطة لا شك أنَّ علمه محيطٌ بغيرها من الأحوال والحركات.

ويمتدُّ علمه رحمته الله من حركة الورقة الميتة الساقطة إلى حركة البرزوخ والنماء

لكلِّ حبة في بطن الأرض:

﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: إلا يعلمها

سبحانه، سواءً أريد بالكتاب المبين علمه سبحانه أو اللوح المحفوظ، فمعناها واحد في المآل^(٢).

إنَّ في هذه الآية الكريمة جولةً تدير الرؤوسَ، وتذهلُ العقولَ، كما قال

سيد قطب رحمته الله، جولةً في آماذٍ من الزمان، وآفاقٍ من المكان، وأغوارٍ من

المنظور والمحجوب... ألا إنه الإعجاز الناطق بمصدر هذا القرآن^(٣).

• النوم والموت:

ومن العلم الكامل وشموله، إلى القدرة الكاملة وإحاطتها بكلِّ الموجودات

والمخلوقات، وخصَّت الآياتُ الإنسانَ بالذكر على سبيل التحدي للمعاندين

(١) روح المعاني: ١٧١/٢.

(٢) المرجع السابق: ١٧٢/٢.

(٣) في ظلال القرآن: ١٠١٢/٢.

والجاحدين، وليبان شدة افتقار الإنسان وحاجته إلى خالقه، وهو ما لمسنا تركيز السورة عليه في كثير من آياتها، فوجود الإنسان وبقاؤه وسائر أحواله وأطواره وتقلباته كلها منوطة بمشيئته تعالى وعلمه وقدرته.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّىٰ لَهُمْ إِلَيْهِ رَجِيعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ أي: ينيمكم بالليل، استعير التوفي من الموت إلى النوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز، فإنَّ أصل التوفي قبض الشيء بتمامه^(١).

وهو في النوم قبض جزئي في وقت قصير محدد، وأما في الموت فقبض كلي يمتدُّ إلى البعث من القبور يوم القيامة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

فالنوم هو الوفاة الصغرى، بينما الموت الوفاة الكبرى.

فلا سلطان للإنسان على نفسه عند النوم، لا جلباً ولا دفعاً، إذ لا قدرة له على استجلابه، وكم من الناس من ينأى عنه النوم، وهو يسعى إليه ويطلبه، حتى إن بعضهم يطلبه بواسطة العقاقير والمخدرات، وكم فيهم من يحاول دفعه عنه فلا يستطيع رغم ما يتناوله من المنبهات والمنشطات، فللنوم سلطان قاهر على الإنسان، لأنه ليس من تدبيره وصنعه، وتأمل الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ فهو وحده سبحانه الذي يدبر ذلك ويقدره.

ومع أنَّ النوم من الظواهر التي تحدث في كيان الإنسان بشكل متجدد ومستمر، ويحدث فيه تغيراً كبيراً وعميقاً يمتدُّ إلى كلِّ أجزائه المادية والنفسية؛ فهو غيب عن الإنسان، ولا يدري كيف يحدث، يتجرّد الإنسان عندما يأتيه النوم

(١) تفسير البضاوي: ٢/٤٢٠.

من كلِّ حَوْلٍ وَطَوَّلٍ، حتى من الوعي والإدراك، مع استمرار أسباب الحياة وظواهرها فيه بشكلها المعتاد، تبقى أنفاسه تتردد في صدره، وتستمرُّ ضربات قلبه، ودمائه تجري في عروقه، وتتجدد ملايين الخلايا في جسده... فمن يدبر كلَّ هذا للإنسان في خلال نومه؟ وفي يقظته أيضاً، فهي عمليات تجري في داخل الإنسان في صحوه ونومه، ولا تخضع لإرادته، فما أضعف الإنسان!

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أي: ما عملتم وكسبتم في النهار، وأسندت الآية العمل والكسب للإنسان، لأنَّ له إرادةً وكسباً فيه، مع أنَّ الله تعالى أحاط علماً ومشيةً وقدرةً بكلِّ ما يصدر عن الإنسان.

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: ثم يوقظكم في النهار، فكما أنَّ النوم بمشيئته سبحانه وقدرته، فالانتباه واليقظة كذلك بمشيئته سبحانه وقدرته، ولا كسب للإنسان فيه ولا قدرة له عليه.

وخصَّ سبحانه الليلَ بالنوم، والنهارَ بالكسب، جرياً على النواميس الكونية المعتادة التي تعلقت بها مشيئته وحكمته سبحانه، وليس معناه أنه سبحانه لا يعلم ما جرحنا بالليل، وأنه لا يتوفانا بالنهار، فتخصيص الشيء بالذكر لا ينفي ما عداه^(١).

وهكذا يُنمِّنا سبحانه ويوقظنا بقدرته ومشئته حتى تنتهي أعمارنا وتحين آجالنا التي قدرها لنا بسابق علمه وإرادته:

﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ في الدنيا.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ويحاسبكم عليه.

• الطريق المرسوم:

فمن يستطيع الإفلات والتملص من هذا التقدير الإلهي والقهر الرباني؟!.

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٢/٤٢٠.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا
وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ (٦١).

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ومع القهر الربّاني :

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ من الملائكة، تحفظ وتكتب أعمالكم، كما في قوله

تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿٦١﴾ كِرَامًا كُنِينِ ﴿٦٢﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الأنفطار].

ولعلّ الحكمة من توكيل الملائكة الحفظة بالإنسان، إشعاره بوجود الرقيب

عليه، وأن أعماله تكتب عليه، وستعرض يوم القيامة على رؤوس الأشهاد.

وينتهي عمل الحفظة بانتهاء حياة الإنسان :

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: باشر ملك الموت وأعوانه

المرسلون لهذه المهمة قبض روح المتوفّي.

﴿وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ أي: لا يجاوزون الموعد المحدّد لموته بزيادة أو نقصان.

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه يوم القيامة.

وتحوّلت الآية من صيغة الإفراد إلى الجمع لوقوع التوفي على الانفراد،

فلكلّ مخلوق حيّ أجله الخاص به، بينما البعث والحشر يوم القيامة على

الاجتماع.

﴿مَوْلَاهُمْ﴾ مالهم الذي يتولّى تدبير أمورهم.

﴿الْحَقِّ﴾ الذي لا يقضي إلا بالعدل، أو الذي يتولّى تدبير أمورهم في

الحقيقة، فهو المولى الحقيقي لهم، ولا مولى لهم غيره.

﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ لا لغيره.

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب، ولا شأن عن شأن^(١).

(١) تفسير أبي السعود: ١٤٥/٢.

إنَّه طريقٌ مرسومٌ لكم، ممتد من الدنيا إلى الآخرة، لا بدَّ أن تسيروا فيه وتقطعوا مراحلَه دون توقف ولا تردد.

• ظلمات البر والبحر:

وفي الطريق عقبات وشدائد، لا نجاة لكم منها إلا بالله تعالى:

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٣)

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظُلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: من شدائد البر والبحر.

استعيرت الظلمة للشدة لاشتراكهما في الهول وعدم الإبصار، فيقال لليوم الشديد: يوم مظلم^(١).

﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: تدعونه متذلِّلين، تخفون في أنفسكم مثل ما تظهرون.

فالآية تشهد لهم بالإخلاص في دعائهم، بسبب مواجعتهم للشدائد والمخاطر، كما تصوّر الحالة النفسية المضطربة التي يمرُّ بها الإنسان عند مواجعتهم للشدائد والمخاطر، مما يدل على شدة ضعفهم وافتقارهم.

تقولون في دعائكم:

﴿لَّيِّنَ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ﴾ الشدة والظلمة.

﴿لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ المعترفين بفضلك ونعمتك، فهو كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرِّْ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفِكَ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنِ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

إنَّ تذكير الإنسان بحقيقة نفسه، وتعريفه بحقيقة ضعفه، من القضايا الهامة

(١) تفسير البيضاوي: ٤٢١/٢.

التي ذكرها الله تعالى في آيات كثيرة، فعندما يعرف الإنسان نفسه يعرف ربه، ولهذا أبرزت آيات سورة الأنعام هذا المعنى، وركّزت عليه، وهي تجادل المعرضين وتتصدى للمعاندين:

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [٦٤].

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ فلا نجاة لكم إلا بالله تعالى، هو الذي ينجيكم من هذه الشدة والمحنة، ومن كل شدة ومحنة.

فلاية تشير إلى كثرة الشدائد والعقبات التي تعترض طريق حياة الإنسان، ولا غنى له عن معونة الله تعالى للنجاة منها.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ثم أنتم بعد كل هذه النعم تعودون إلى الشرك في عبادته سبحانه، ولا توفون بما صدر عنكم من عهود ومواثيق في أثناء الشدة والمحنة.

وأذكر القارئ الكريم بوحدة أسلوب التعبير في آيات السورة الذي برز في أول آياتها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وما أجمله سبحانه هنا في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ فصله في تعقيبه على نجاتهم من الريح العاصف والبحر الهائج: ﴿فَلَمَّا أَجَذُّهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣] (١).

• التحذير من الفرقة والاختلاف:

فما الذي جعلكم تتغيرون، وعن باب فضله ورحمته تبتعدون؟ إن نجاتكم من هذه الشدة والمحنة لا تعني انفلاتكم من قبضة قدرته وقهره جَلَّالاً، فأنتم تحت قهره ومشيئته في حال الرخاء كما كنتم في حال المحنة والشدة:

(١) انظر: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، في مكانه من هذا التفسير.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا وَّيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ من جهة السماء .

﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالزلازل والخسوف .

فهو كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ﴿١٦﴾ أم

أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعَلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك] .

﴿أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا﴾ أي: يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق،

فيجعلكم فرقا مختلفين يقاتل بعضكم بعضا، وهو معنى قوله:

﴿وَيُذِيقُ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (١) .

والآية وإن كانت تخاطب المعرضين المعاندين من الكفار والمشركين، إلا

أن فيها تحذيرا للمسلمين .

ويبدو لنا أن الله تعالى قدر أن يكون بلاء الأمة المسلمة بهذا النوع الأخير

من العذاب، بلاء الاختلاف والقتال والانقسام إلى فرق وشيع وأحزاب .

ففي الحديث النبوي: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ

الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذُ بالله من ذلك»

﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذُ بالله من ذلك»، ﴿أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا﴾

قال: «هذا أيسر» [رواه البخاري (٤٦٢٨)] .

وما أراد ﷺ تهوين أمر الاختلاف والقتال في الأمة، فأمره شديد وخطير

وعواقبه وخيمة، إنما أراد أنه أهون وأيسر من عذاب يستأصل الأمة المسلمة

ويُفنيها فلا يبقى منها أحد، كما حدث للأمم الكافرة قبلها .

وقد سأل رسول الله ﷺ ربه أن يجنّب أمته هذا البلاء، ويعافئها من داء

الفرقة والاختلاف، لكن قدر الله تعالى هو الغالب، فعن سعد بن أبي وقاص

ﷺ قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلتي ركعتين فصلينا معه، فناجى ربه ﷻ طويلاً، ثم قال: «سألتُ ربي ثلاثاً: سألتُهُ ألا يُهْلِكَ أمتي بالغرَقِ فأعطانيها، وسألتُهُ ألا يُهْلِكَ أمتي بالسَّنةِ (القحط والجذب) فأعطانيها، وسألتُهُ ألا يُجْعَلَ بأسُهُم بينهم فمنعنيها» [رواه مسلم (٢٨٩٠)].

فالفرقة والاختلاف والافتتال من أنواع العذاب يبتلي الله تعالى به الأمة بسبب إعراضها عن طاعته.

وتركها لشريعته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ﴾ أي: انظر نظر المتأمل المتفكّر كيف نوضّح الآيات ونفسرها بذكرها مرّة بعد مرّة بأساليب متنوعة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: لعلهم يفهمون حجج الله تعالى وبصائرّه، فيتعظون بها ويتنفعون.

ومع كلّ هذه البصائر والحجج والتنوع في أساليب عرضها، أعرضوا وكذبوا وكان قوم النبي ﷺ أولَ المعرضين وأشدّ المعاندين:

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١١).

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ الذين تربطك بهم أسرة النسب.

﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ مع أن القرآن هو الحق الثابت المؤيّد بالحجج والبراهين.

وتكذيب قريش للنبي ﷺ، وهم قومه، يبرئ الدعوة الإسلامية عن أي شبهة يمكن أن يتعلّق بها أعداء الإسلام، فقد نزه الله الدعوة الإسلامية عن العصبية القومية والعرقية، فهي دعوة إنسانية شاملة في نشأتها وفي أهدافها.

وفي مقابل المعارضة الصادرة من قومه أمر عليه الصلاة والسلام أن يعلن براءته منهم، وأنه ليس موثقاً بهدايتهم، فمهمته قاصرة على تبليغهم دعوة ربهم سبحانه:

﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.

﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٧).

﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: لكل خبر في القرآن الكريم حقيقة يؤول إليها، ومنتهى ينتهي إليه، إما في الدنيا، وإما في الآخرة. ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ صحة هذا الخبر وتحققه.

• الابتعاد عن مجالس الكفر والفجور:

وعادت الآيات إلى توجيه المؤمنين وإرشادهم بمخاطبة النبي ﷺ لأنه قدوتهم وأسوتهم:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٦٨).

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالتكذيب والاستهزاء بها بغير تأمل ولا بصيرة، بل طوع الهوى؛ كما يفعل خائض الماء في وضع رجله داخل الماء على غير بصيرة^(١).

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تجالسهم وانصرف عنهم.

وقد جاء هذا التوجيه والإرشاد على عكس ما أمر به ﷺ في شأن المؤمنين ومجالستهم فيما مرّ معنا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

ولا تدلُّ الآية الكريمة على المقاطعة الكاملة للكافرين والمشركين، فلا بدَّ من مخالطتهم، والاتصال بهم لتبليغهم دعوة الله تعالى، فهي مقاطعة مؤقتة ما داموا يستهزئون بآيات الله سبحانه؛ ولهذا قال تعالى:

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: غير حديثهم عن القرآن الكريم، وحينئذٍ يحلُّ لك أن تجالسهم.

وفي هذا دليل على تحريم الجلوس في أماكن المنكرات والمعاصي، وتحريم تلبية دعوة وليمة تشتمل على المنكرات والآثام، إلا إذا كنت قادراً على منعها.

﴿وَمَا يُبْسِئُكَ الشَّيْطَانُ﴾ بأن يشغلك بوساوسه، ويجعلك تنسى الأمر بالإعراض عنهم، وترك مجلسهم.

وهذا على سبيل الافتراض، إذ لا سبيل للشيطان إلى إشغال رسول الله ﷺ، ولذا عبّر بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية المزيدة ﴿مَا﴾ بعدها^(١)، فمراد الآية بيان الحكم في هذه الحالة بالنسبة لعامة المؤمنين.

﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ﴾ أي: بعد التذكّر.

﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرٌ لِّعَالِهِمْ يَنْقُونَ﴾.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما على الذين يتجنبون مجالسة الظالمين من حسابهم من شيء، فهم غير مسؤولين عمّا يجري في هذه المجالس معرضين عنها، والإعراض عنها تذكيراً لأهلها لعلهم يتعظون.

﴿وَلَٰكِنْ ذِكْرٌ لِّعَالِهِمْ يَنْقُونَ﴾ أي: لعل تلك الذكرى تمنعهم من

الخوض والاستهزاء.

إنّ مشاركة الظالمين في مجالس ظلمهم وفجورهم تشجيع لهم على الظلم

(١) روح المعاني: ١٨٢/٧.

والفجور، ومن لا قدرة له على منع المنكر ودفع الظلم، فلا يحضر مجالسهم، وإلا كان مثلهم في الإثم والمسؤولية، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكُتُبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤].

• الاستمرار في التبليغ:

ولا ينبغي التوقف عن تبليغ الدعوة مهما كانت العقبات والمعوقات، كما لا ينبغي اليأس من هداية الكافرين، مهما اشتدوا في كفرهم، ولجؤا في عنادهم. والانصراف عن مجالسهم أثناء استهزائهم بالله تعالى لا يعني ترك تبليغهم وإنذارهم، فهو مقاطعة مؤقتة بحالة معينة:

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا سَفِيحٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ لَدَلِيلًا يُوْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠).

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي: اترك الذين اتخذوا دين الإسلام الذي أمروا به ودُعوا إليه لعباً ولهواً^(١).

فالإسلام دينهم شاؤوا أو أبوا، آمنوا به أو كذبوا، فهو الدين الحق الذي لا دين سواه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وما أعرضوا عن الإسلام إلا بسبب اغترارهم بالدنيا:

﴿وَعَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم بزینتها وزخرفها، أو فُتِنوا

بأستمرارها ودوامها.

﴿وَذَكَرَ بِهِمْ﴾ أي: ذكّر بالقرآن الكريم ولا تترك وعظهم به.

(١) تفسير الخازن: ٤٢٦/٢.

﴿أَنْ يُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تُسلم إلى الهلاك، وتُرهن بسوء عملها، وأصل الإبسال والبسل في اللغة: المنع، ومنه أسدٌ باسل، لأن فريسته لا تفلت منه^(١).

فكأن ترك تذكيرهم ووعظهم يؤدي إلى إسلامهم لأعمالهم السيئة التي يُحَسِّسون في العذاب بسببها، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، فتبليغ الدعوة للناس، وتذكيرهم بها إنقاذ لهم من شر أعمالهم، فما أعظم رحمة الله بعباده، بإرساله الرسل لينقذوا الناس من شرور أعمالهم وتبعات كفرهم وفجورهم.

وهذا يبيِّن لنا أهمية تبليغ الدعوة للناس وأهمية وعظهم بآيات القرآن الكريم، إنها عملية إنقاذ للنفوس البشرية من أشراكٍ نصبوها لأنفسهم بسبب سوء كسبهم واختيارهم، فلا غنى للناس عن دعوة الأنبياء ووحى الله تعالى؛ لأنهم بحاجة إلى من يحميهم من شرور أنفسهم، ومن سيئات أعمالهم، إنهم بحاجة إلى منقذٍ ينقذهم من ظلمات كفرهم وفجورهم.

وإن مسؤولية الإنقاذ واقعة على كاهل المسلمين؛ لأنهم وحدهم الذين يملكون وسائل الإنقاذ، وعندهم وحدهم أسباب السلامة والنجاة للبشرية، فالقرآن الكريم لا يزال في أيديهم غصّاً طريّاً كما أنزل، حفظه الله تعالى لهم لينقذوا الناس به، ليدنّوهم به، ويعظوهم به، فدنّروا الناس بالقرآن، ولا تسلموهم إلى شرورهم ومعاصيهم، بلّغوهم القرآن، وعظوهم به، وأنقذوهم به من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: ليس لها من يتولّى دفع العذاب عنها يوم القيامة، أو يشفع ليخلصها من العذاب.

﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤَخِّدَ مِنْهَا﴾ فلا نجاة لها من العذابٍ مهما حاولت أن تفدي نفسها بأيّ فدية.

(١) تفسير البضاوي: ٤٢٦/٢.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: أولئك الذين أسلموا إلى العذاب بسبب كفرهم وفجورهم.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

وكان الآية الكريمة بذكرها لبعض أنواع العذاب في جهنم تستثير همم المسلمين ليقوموا بتبليغ الناس دعوة القرآن الكريم، لعل رحمة الله تعالى تدرك بعضهم قبل أن يُسَلَمُوا إلى العذاب ويشربوا من الحميم، ويعانوا من العذاب الأليم.

• حَيْرَةٌ وَقَلَقٌ:

وإن في ابتعاد المؤمنين عن مجالس الكفر والفجور تحصيناً لهم ووقاية من أن يفتنوا عن دينهم، ويرتدوا عن إسلامهم، فالمعاصي والآثام سريعة الانتشار، تسري إلى النفوس بوسائل شيطانية كثيرة، وهي بريد الكفر، وانطلاقاً من هذه النقطة قرّر الفقهاء القاعدة الشرعية الهامة: دفعُ المفسدة مقدّم على جلب المصلحة. ولعلّ مراد الآية الكريمة التالية توضيح هذه الحقيقة:

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُمَّتِنَا قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦١)

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي: أبعد أن اتضح لنا الأدلة والبراهين وجاءتنا البصائر، وعرفنا أن النفع والضرر بيد الله تعالى المتصف بكمال العلم والقدرة، أبعد كل هذا نرجع إلى ظلمات الكفر والجهل؟!.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ﴾ الذي وفقنا إلى الإيمان، وشرح صدورنا بالإسلام، ونور

قلوبنا ببصائر الحق، فنكون:

﴿كَالَّذِي أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كالذي استغوته الشياطين وزينت له هواه ودعته إليه.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تصوير لحال النزول والهبوط في الأرض، فكأنَّ الإنسان عندما يستجيب لتزيينات الشياطين ويخضع لهواه، ينزل من سماء الإيمان إلى حضيض الكفر، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَطُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].
وقوله تعالى بعد ذلك:

﴿حَيْرَانَ﴾ تصوير للقلق والاضطراب النفسي الذي يصاب به المرتد عن الإيمان، فقد ذاق مرارة الكفر بعد أن عرف حلاوة الإيمان.

إنه تصويرٌ لحالة الإنسان المادي المعاصر الذي غَمَسَ نفسه في شهوات الأرض المادية ولذائذها الجسدية؛ ليستعيض بها عما فقدته من لذة الإيمان وسكينته وبرده وطمأنينته، ولكن هيهات، فلو اجتمعت متعُ الأرض كُلُّها ولذائذها في يد إنسان واحد لن تعوضه عن لحظةٍ واحدة من لحظات السكينة والطمأنينة التي يتذوقها قلب الإنسان المؤمن بالله تعالى.

إنَّ انتشارَ المخدِّراتِ والمُسكِراتِ والمفتِّراتِ بين الناس في العصر الحاضر، مع شيوع اللامبالاة، والشعور بعدم الانتماء، والانسلاخ عن أيِّ قيمة خلقية وبشرية واجتماعية، كلُّ ذلك يدلُّ دلالةً واضحةً على شدة المعاناة والحيرة والقلق التي يعاني منها الإنسان المعاصر، لقد أصبح الإنسانُ في ظلِّ هذه الحضارة المادية البعيدة عن دين الله وشرعه مخلوقاً تعيساً معرضاً لضغوط نفسية كبيرة، ولا سبيل له للخلاص من تعاسته وشقائه وحيرته وقلقه إلا أن يستجيب لدعاة الهدى والإيمان:

﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا﴾ تعالَ إلينا، هلمَّ إلى السكينة والطمأنينة في ظلِّ الإيمان بالله تعالى.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُواهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٢).

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُواهُ﴾ أي: اتقوا الله بطاعته واجتناب محارمه، وتذكروا مسؤوليتكم يوم القيامة:

﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ثم جاءت الآية التالية في ختام هذا الفصل تلخص كل ما أثبتته آيات السورة الماضية لله تعالى من صفات الكمال والجلال:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٧٣).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ فهو **عَلَمٌ** الخالق وحده للخلق بالحق، فلا عبث ولا تعب في خلقه **عَلَمٌ**:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فله **عِلْمٌ** كمال القدرة في الدنيا ويوم القيامة، فلا يمتنع شيء على قدرته سبحانه، ولا يحتاج إلى شيء من الأسباب والآلات، فهو قادر على كل شيء من دون شيء.

﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ الثابت الذي يطابق الحقيقة ولا يخالفها أبداً.

﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ فهو سبحانه المالك يوم القيامة، ولا ملك

لأحد سواه في هذا اليوم.

﴿عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ﴾ وله كمال العلم جلّ وعلا، ومع كمال العلم

والقدرة:

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ إذاً فهو وحده المستحق للحمد، كما جاء في أول

آيات السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].



الْفَصْلُ الثَّلَاثُ

مناظرة وردود

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ أَرَاكَ عَتَقَدُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ فِي سَلَاسِلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾
وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ
رَأَى الْكُوكَبَاتِ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفَلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي
فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا
رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفُورٌ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَافِيًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَدِّثُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ
هَدَيْتَنِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ
نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا
هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ
وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَحُوطًا وَكَافًا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ
وَأَجْنِبِيَّتِهِمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَلَوْ
أَشْرَكُوا لَحِطَ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا
هَؤُلَاءَ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمُ آفْتَدَةٌ فَلَ
لَّا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ

اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْعَلُوهُ قَرَأٰتِسَ
 تَبَدُّوْنَهَا وَيُخْفَوْنَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أُنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ
 ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ
 إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ
 وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ
 عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
 وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ
 نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَمِيَّ مِنَ
 الْعَمِيَّةِ وَيُخْرِجُ الْعَمِيَّةَ مِنَ الْحَمِيَّةِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا
 وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا
 فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ
 فَمُسْتَوْفٍ وَمُسْتَوْفٍ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا
 بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ
 دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ
 إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَفُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ
 لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ
 كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ
 الْبَاصِرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَضَرَّ فَلَئِن سَأَلْتَهُ مَنْ عَمِي
 فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا لَوْلَا يَأْتِينَاهُ الْقَوْمُ
 يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ أُنِيعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ
 شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ

يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ
 مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
 مِنْ رَبِّهِمْ لَنُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ
 وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنُنذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴿١١١﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا
 إِلَيْهِمُ الْمَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي
 بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَلِنَصِّحَكَ
 إِلَيْهِ أَفْعَادَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ
 أَبْتَغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ
 مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٥﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ
 لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٦﴾ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ
 أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٨﴾ .

• إبراهيم عليه السلام :

ولما كان نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام علماً من أكبر أعلام التوحيد ودعاته، وخير
 من دافع وجادل من أجل تقريره، حتى تمكَّن بفضل الله تعالى من إفحام
 خصومه، والفَلَجِ عليهم، ذكرت السورة صوراً من جداله ومناظراته مع خصومه،
 ليكون الأسوة الطيبة والمثال الرفيع لكلِّ المجادلين عن دين الله تعالى، والداعين
 إلى سبيله على بصيرة.

ومن المعلوم أنَّ خصوم إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون الأصنام، ويعظِّمون
 النجوم، وكانوا على درجة عالية من التحضر والتمدُّن، فحضارة ما بين النهرين
 وبلاد الرافدين من أقدم الحضارات البشرية وأشهرها.

وبدأ إبراهيم عليه السلام بدعوة أبيه إلى عقيدة التوحيد وعبادة الله وحده:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ءِإِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾؟ وهو استفهام تعجب واستنكار، وكلمة ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ تدلُّ على أنَّ أباه كان يصنع الأصنام بيده، وقد جاء في الأخبار أنه كان صانع أصنام.

وقد تَلَطَّفَ إبراهيم كثيراً في دعوته لأبيه، مع أنه لقي منه جفوةً وغِلظةً وعناداً، ظهر ذلك فيما ذكره الله عنه مفصلاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كَرَّرْنَا إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ ءِإِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّابِتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَّابِتْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَّابِتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَّابِتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمُ الْبَنَاءُ لِمَ تَنْتَهُ لِأَرْحَمِنَا وَأَهْجُرُنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْنَا سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم].

ويبدو أنَّ إبراهيم عليه السلام أغلظ الخطاب لوالده بعدما رأى إصراره على الكفر وشدة عناده فقال:

﴿إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في حيرة وجهل ظاهر.

وتعكس لنا كلمة إبراهيم عليه السلام هذه قوة ثقته بنفسه، واعتزازه بعقيدته، مع أنه انفرد بهذه العقيدة دون أهله وقومه، فهو يرى أنَّ أباه وقومه في ضلال ظاهر واضح.

• ملكوت السموات والأرض:

ومردُّ هذه الثقة والاعتزاز أنَّ الله تعالى زوَّد إبراهيم بكثير من الأدلة القطعية والبراهين اليقينية، فكانت بصائر الحق قوية واضحة في قلبه وعلى لسانه، دلَّ على ذلك قوله ﷻ:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: نبين لإبراهيم وجه

الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله ﷻ في ملكه وخلقهما، وأنه لا إله غيره ولا ربّ سواه^(١).

والملكوتُ أبلغُ من المُلْك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة، فزيادة المبنى تدل على زيادة في المعنى، فكأنَّ الله ﷻ هدى إبراهيم ﷺ إلى مشاهدة النواميس الدقيقة الماثورة في الكون، التي تدلُّ على وحدة خالقها ومبدعها ﷻ، فهي رؤيةٌ بالبصر والبصيرة، يستطيعُ الإنسان أن يحقق مثلها إذا أحسن استعمال عقله وسمعته وبصره، ولهذا أمرنا الله تعالى بها في عدة آيات كريمة، منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فرؤية الملكوت للاستدلال بما فيه من حِكم ونواميس وبصائر على وحدانية الخالق سبحانه، ليست خاصة بإبراهيم ﷺ.

وليس صحيحاً ما ذكر كثير من المفسرين من أنها رؤيةٌ بصيرة خاصة به ﷺ رآها بعينه عندما وقف على صخرة، فكشف الله له عن السموات والأرض، ورأى ما فيهما من عجائب المخلوقات، ورأى أيضاً العرشَ والجنةَ والنارَ، ومكانه في الجنة، كل ذلك لا دليل عليه.

نعم، نستطيع أن نؤكد أن رؤية إبراهيم ﷺ لملكوت السموات والأرض أكمل من رؤية غيره بسبب المواهب الفكرية العالية التي أكرمها الله تعالى بها، فالأنبياء ﷺ أكملُ الناس عقولاً، وأصحُّهم أجساماً، فما بالك بإبراهيم ﷺ خليل ربِّ العالمين، وإمامِ الموحِّدين، وأفضلِ المرسلين بعد نبينا صلوات الله عليهم أجمعين، وقد أخبرنا ﷻ أنه أكمل له عقله، وآتاه رشده منذ نعومة أظفاره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

ويؤكد ما ذهبنا إليه قوله تعالى في ختام الآية:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٩١/١.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ﴾ أي: ليستدلَّ به وليكون من الموقنين، واليقينُ عبارةٌ عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة^(١).

• المناظرة:

ثم بيّنت الآيات كيف ناظر إبراهيم ﷺ قومه وجادلهم، ليبيّن لهم بطلان ما كانوا عليه من تقديس النجوم وعبادة لها؛ بسبب اعتقادهم أنها آلهة تؤثر في الحوادث الحادثة في الأرض، وعُرف عن إبراهيم ﷺ أنه كان في أثناء مناظرته لخصومه ومجادلته معهم يلجأ إلى الأسلوب الواقعي العملي؛ ليشدّ أنظارهم إلى الحقيقة، ويجعلها قريبة محسوسة منهم؛ ولهذا قام ﷺ بتكسير الأصنام عندما أراد أن يبيّن لقومه عجزها وضعفها، وعدم استحقاتها للعبادة، وأنها لا تضر ولا تنفع.

وقد قصَّ الله علينا ما فعله بالأصنام في قوله الكريم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٨﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٩﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذِكْرٍ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٦١﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٤﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا يَا هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٦﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَوْهَمُوا إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٧﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٩﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٧٠﴾ أَمْ لَكُمْ أَوْلِيَٰمٌ مِّن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء].

وهاهو ﷺ عندما أراد أن يبيّن لقومه عجز النجوم وضعفها، وأنها مخلوقة

(١) تفسير البيضاوي: ٤٣٢/٢.

كسائر المخلوقات لا تستحقُّ أن تعظَّم وتعبد، انتظر حتى أقبَل الليل، وظهرت النجوم تلمع في ظلامه كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَاتِ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: ستره بظلامه.

﴿رَأَى الْكَوْكَبَاتِ﴾ نجماً.

﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي: قال لقومه: هذا ربي، وهو قول مَنْ يُنصِفُ خصمه مع علمه أنه مبطل، فيحكي قوله كما هو، غير متعصّب لمذهبه؛ لأنه أدعى إلى الحق، وأنجى من الشَّعْب، ثم يكرُّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجَّة^(١).

وبدا علّمنا ﷺ الطريقة المثلّية التي ينبغي اتباعها في مناظرة الخصوم ومجادلتهم، ولا شك أنه بهذا استحوذ على انتباه قومه، وتمكّن من جلب أفكارهم وأنظارهم إلى ما سيقوله بعد ذلك ويقرره.

وانتظر ﷺ حتى غاب النجمُ متّبِعاً الأسلوب العلمي، كما سبق بيانه:

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب واحتجب عن الأنظار المشدودة إليه.

فوجئ القوم بصوت إبراهيم ﷺ يدوي في قلوبهم ويملاً أسماعهم:

﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾. ولم يشأ ﷺ أن يصدّمهم بالحقيقة دفعةً واحدة،

بل تدرّج معهم تألفاً لهم فقال: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ ولم يقل لهم: لا أعبد الأفلين، فكلمة ﴿لَا أُحِبُّ﴾ تتضمّن معنى: لا أعبد، وتزيد عليها بالمعنى.

فعلى مَنْ يجادل المخالفين له في شأن العقيدة أن يحسن اختيار الألفاظ ذات

المعنى الدقيق المناسب، والتي يتوصّل بها إلى إفحام خصمه وإلزامه بما يريد.

وكلمة ﴿أَفْلِينَ﴾ لها دلالتها الكبيرة في موضوع المناظرة، فالأفولُ

حركة، وهي من لوازم الحدوث، والأفولُ تغيير، والإله لا يتغير، والأفول

غيابٌ وضعفٌ، والإله حاضر أبداً لا يغيب، قوي لا يعتره ضعف، والأفول

(١) تفسير النسفي: ٤٣٢/٢.

في وقت معيّن ومكان معيّن يدلُّ على أن النجم محكوم بنظام ثابت لا يستطيع الانفكاك منه، والمحكوم لا يكون حاكماً ولا إلهاً.

وبعضهم رأى أنَّ إبراهيم عليه السلام كان في موقفه هذا في مجال النظر لنفسه، لا المناظرة، وقولهم هذا لا يتفق مع عصمة الأنبياء عليهم السلام وتنزههم عن الكفر والشرك منذ بداية حياتهم، ومع قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وقد احتج أصحابُ هذا القول فقالوا: كيف انتظر قومه معه حتى غاب النجم؟.

ويسقط احتجاجهم هذا إذا علمنا أنَّ القوم كانوا يعظمون النجوم ويعبدونها، والمعروف أنَّ عبَاد النجوم ينتظرون ظهورها ليقوموا بمراسم عبادتها، ويمارسوا طقوس تعظيمها، فالقوم كانوا مستغرقين في عبادة النجم، مشدودين إليه.

ثم انتقل عليه السلام بمناظرته مع قومه إلى ما يروونه أكبر وأعظم من الكوكب، إلى القمر:

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (٧٧).

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ يشقُّ بنوره الظلمة في أول طلوعه.

﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ كرَّر الأسلوب نفسه مع المناظرة في الكوكب.

وانتظر أيضاً حتى غاب القمر.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

وبدأ عليه السلام في هذه المرّة يصارحهم بالحقيقة، ويواجههم بها، فأظهر لهم عجزه عن إدراك الحقيقة منفرداً دون معونة من ربّه سبحانه وتوفيقه، فالإنسان محتاجٌ إلى هداية ربّه بالبيان أولاً، وهي مهمّة المرسلين عليهم السلام، وبالمعونة

والتوفيق ثانياً، وهي هداية الله تعالى لمن يشاء من عباده، وتبقى الإنسانية تائهة ضالة دون معونة رب العالمين وبيان المرسلين.

• براءة وتفويض:

وكرر إبراهيم ﷺ الأسلوب نفسه للمرة الثالثة مع الشمس، فلما أشرقت الشمس قال لقومه الذين يعبدونها عند الشروق كما قال في الكوكب والقمر:

﴿فَلَمَّا رَأَ السَّمْسُ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ .

﴿فَلَمَّا رَأَ السَّمْسُ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي: هذا الطالع ربي، أو هذا الجرم ربي، واستعمل الإشارة بالمذكر صيانة للرب تعالى عن شبهة التأنيث، ولهذا قالوا في صفاته تعالى: علام، ولم يقولوا: علامة؛ تفادياً من علامة التأنيث^(١). ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ من الكوكب والقمر، كما يظهر في النظر، قال ذلك كما مرّ معنا إنصافاً لخصومه.

﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾؛ واجههم بالحقيقة كاملة:

﴿قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .

وقوله: ﴿يَنْقُورُ﴾ يؤكد أنه ﷺ كان مناظراً لقومه لا ناظراً لنفسه.

ولم يكتفِ ﷺ بإعلان براءته من كل مظاهر الكفر والشرك التي كان قومه عليها، بل أخذ يعرفهم بالإله الحق، الذي يجب أن يتوجهوا إليه وحده بالعبادة والطاعة، واستعمل ﷺ أسلوب الإخبار عن نفسه، ليكون لهم قدوة ومثلاً، فقال بصيغة الخبر المؤكّد:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ .

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: وجهت عبادتي وطاعتي، لأن من كان مطيعاً لغيره

(١) انظر: تفسير النسفي: ٤٣٥/٢.

متقاداً إليه فإنه يتوجه بوجهه إليه ، فتوجيه الوجه كناية عن الطاعة^(١) .

﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أبداع خلق السموات والأرض وخلقهنَّ

على غير مثالٍ سبق .

﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن كلِّ المِلَل والعقائد المخالفة للتوحيد .

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في عبادته أحداً من خلقه .

وقابل قومُ إبراهيم عليه السلام موقفه هذا بمخاصمته ومجادلته وتهديده بألتهم أن

تصيبه بمكروه :

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحْجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠) .

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ . فردَّ عليهم مستنكراً جدالهم :

﴿قَالَ أَتُحْجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أي: أتجادلونني في وحدانية الله تعالى وهو

الذي دلّني على وحدانيته بالبصائر التي بصّرني بها ، والدلائل التي أرشدني إليها . ولعله عليه السلام أراد ما مرّ معنا من قوله جلّ وعلا : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] .

ثم ردّ على تخويفهم له من ألتهم فقال :

﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي: لا أخافُ من هذه الآلهة التي تعبدونها؛

لأنها لا تضرُّ ولا تنفعُ .

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أن يصيبني بمكروه من جهتها ، فهو سبحانه قادرٌ أن

يجعلَ فيما يشاء نفعاً وفيما يشاء ضرراً ، فالنفع والضرر منوط بمشيئته سبحانه وحده . وهكذا فوَّضَ عليه السلام أمره لله تعالى بعد أن أعلن براءته من الأصنام .

(١) روح المعاني: ٢١٣/٧ .

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه سبحانه بكل شيء، فلا يبعد أن يكون في علمه أن يحق بي مكروه من جهتها^(١).

وبهذا احتاط ﷺ لنفسه ولدينه، فلن يستطيعوا أن ينسبوا إلى آلهتهم شيئاً من التأثير إذا قدر الله تعالى بعض المكروه، كما أظهر عبوديته واستسلامه لله تعالى، ورضاه بقضائه وقدره ﷻ، الذي له كمال العلم وتمام المشيئة، فلا يخرج شيء عن علمه ومشيئته أبداً.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتميزوا بين الإله العالم القادر وبين هذه الأصنام الضعيفة العاجزة، فالأمر واضح ظاهر، لا يحتاج إلى عناء وتفكير، ولا يحتاج إلا إلى شيء من التذكر.

• أَمْنٌ وَخَوْفٌ:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ .

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ من الأصنام والأوثان، وهي مأمونة الخوف بسبب عجزها .

﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ وهو أهل أن يخاف ويخشى وقد أشركتم به .

﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ يعني: ما ليس لكم فيه حجة ولا برهان .

فكانه ﷻ قال لهم: ما لكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف^(٢).

﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ من العذاب؛ الموحدون أم المشركون؟ .

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٤٣٧/٢ .

(٢) تفسير النسفي: ٤٣٧/٢ .

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم فأخبروني عما سألتكم عنه، ولا يخفى ما في كلامه ﷺ من تهكم مُرَّ بهم.

وجاء قوله ﷺ بعد ذلك على سبيل الاستئناف يفصل بين الفريقين المتناظرين، فيشهدُ بصحة قول إبراهيم ﷺ ويؤيده:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْآمِنُونَ لَهُمْ مَهْتَدُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ .

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يشوبوه، ولم يخلطوه بشيء من الشرك، بسبب إخلاصهم لله تعالى، فالشركُ أعظمُ أنواع الظلم، دلَّ عليه ما جاء في الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أيُّنا لا يظلمُ نفسه؟! فقال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبدُ الصالحُ: ﴿يَبْتَئِي لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟! إنما هو الشركُ» [رواه البخاري (٤٦٢٩) ومسلم (١٢٤)].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْآمِنُونَ﴾ يوم القيامة، فلا يصيبهم ما يصيبُ الناسَ من الفزع الأكبر في هذا اليوم، كما قال تعالى فيهم: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

﴿وَهُمْ مَهْتَدُونَ﴾ أي: وهم في الدنيا على هدى وارشاد.

وهكذا خصم إبراهيم عليه السلام قومه، وغلبهم بحجته التي أيده الله تعالى بها، وبصيرته التي شرح الله صدره لها، فقال سبحانه يبيِّن فضله عليه:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتْنَا ءَاتَيْنَاهَا إِذْ هَبْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٨٣﴾ .

﴿وَتِلْكَ حُجَّتْنَا ءَاتَيْنَاهَا إِذْ هَبْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ بما نعطيهم من العلم والحكمة، فالعلم الذي يدلُّ على الله تعالى شرفٌ لصاحبه، وسعادةٌ في

الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في كل أفعاله وأقواله.

﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده.

• شجرة النبوة:

وتابعت الآيات بيان فضل الله العظيم على إبراهيم عليه السلام:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٤).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل

إبراهيم عليه السلام.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: ومن ذرية إبراهيم؛ لأن الآيات تتحدث عنه، وتبين

فضله.

﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فهو

كقوله سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فكما أحسن إبراهيم عليه السلام في طاعة ربه، وأخلص في الدعوة إلى توحيده،

أحسن الله تعالى إليه برفع درجاته، وجعل النبوة والكتاب في أولاده وذريته، فهو

أصل شجرة النبوة، ومنه تفرعت فروعها وأغصانها، فما من نبي أكرمه الله تعالى

بالنبوة والرسالة بعده إلا كان من ذريته عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ

وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَعَائِنْتُهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ

الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٥).

أي: الكاملين في الصلاح. والجدير بالذكر أن عيسى من ذرية إبراهيم من

جهة أمه؛ لأن الله تعالى خلقه من أم دون أب.

﴿وَأَسْمِعِمْ وَأَلْبِسَ وَيُوَسِّسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ .

أي: فضل الله هؤلاء الأنبياء على غيرهم من العالمين .
وهؤلاء المذكورون في هذه الآيات ليسوا كل الأنبياء، فالأنبياء كثيرون،
وقد أشار سبحانه إليهم على وجه العموم بقوله الكريم:

﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبَاتِهِمْ وَهَدَيْنَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ .

﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبَاتِهِمْ﴾ أي: اخترنا للنبوّة من آباء الذين سبق
ذكرهم ومن أبنائهم وإخوانهم .
﴿وَهَدَيْنَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

تلك هي شجرة النبوّة المباركة المتفرّعة عن إبراهيم عليه السلام، والممتدّة امتداد
الأجيال البشرية المتعاقبة، تحمل إليها رسالة الله تعالى .

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ لَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ فالله سبحانه هو المتفضّل بالهداية،
وليس لأحدٍ سابقة استحقاق عليه جل جلاله .

﴿لَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لو أشرك هؤلاء الأنبياء لبطل
وذهب عنهم كل ما أسلفوه من الأعمال الصالحة، فليس لأحدٍ أن يغترّ بعمله،
ويُعجب بنفسه، فالفضل لله تعالى بدءاً وختاماً .

وإذا كان هذا حال الأنبياء عليهم السلام فما بالك بحال غيرهم من الناس؟! نسأل
الله العليّ القدير أن يُثبّتنا على صراطه المستقيم .

• التوكيل بالرسالة:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا

بِكُفْرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ الذي أنزله الله تعالى كالتوراة والإنجيل والقرآن، فالمراد جنس الكتاب.

﴿وَالْحِكْمَ﴾ أي: وآتيناهم الحكمة، وهي حُسن فهم الكتاب والعمل به.

﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ وهي الوحي الذي أنزله الله تعالى عليهم.

﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ أي: فإن يكفر بهذه الثلاثة: الكتاب، والحكم،

والنبوة، هؤلاء المعارضون لدعوة الرسول ﷺ من أهل مكة.

﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا يَكْفِرِينَ﴾ وهم كلُّ من آمن برسالة خاتم الأنبياء

عليه الصلاة والسلام، من الصحابة والتابعين لهم إلى يوم الدين، فالأمة المسلمة هي الأمة الموكَّلة بحمل الرسالة وأداء الأمانة، بعد أن ختم الله النبوة والرسالة بخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ.

ومعنى توكيلهم بها أنهم وُقِّقوا للإيمان بها، والقيام بحقوقها، كما يُوكَّلُ الرجل بالشيء، ليقوم به ويتعهد به ويحافظ عليه^(١).

فالأنبياء آتاهم الله الرسالة بما أنزل عليهم من الوحي، وكَلَّفهم بتبليغها، بينما الأمة المسلمة وُكِّلت بحفظ الرسالة، والقيام عليها، ونشرها بعد أن خُتِمت النبوة.

ففي الآية بِشَارَةٌ كبيرة للنبي ﷺ، وهو في مكة المكرمة، أن الله ﷻ سيظهر

دينه، ويعزُّ رسالته، ويمكِّن له في الأرض، وفيها أيضاً تنويه بفضل الصحابة ﷺ من المهاجرين والأنصار، الذين وكَّلهم الله تعالى على رسالته، وجعلهم الحَمَلَةَ والحَفَظَةَ لأمانته، وتنويه أيضاً بفضل الأمة الإسلامية، وبيان مسؤوليتها الكبيرة في حمل رسالة الإسلام وحفظها ونشرها بين الناس.

كما تدلُّ الآية على كمال الشريعة الإسلامية، فكتابتها القرآن الكريم الذي

تعهد الله تعالى بحفظه، وحكمها سنَّة النبي ﷺ المبيَّنة لأحكام الكتاب الكريم، ونبوتها خاتمة النبوات، فَبِهِ عليه الصلاة والسلام اكتملت شجرة النبوة وخُتِمت،

(١) تفسير النسفي: ٢/٢٤١.

كما قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَرَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٤١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْبُجُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْنَةُ! فَأَنَا اللَّبْنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ» [رواه البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦)].

وبهذا يظهر كذب الدجالين من مُدَّعي النبوة بعده عليه الصلاة والسلام الذين سيأتي ردُّ آيات السورة عليهم، والإشارة إلى بعضهم إن شاء الله تعالى. فهو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وأفضلهم، جمع الله تعالى فيه كل فضائلهم ومحاسنهم بقوله تعالى مخاطباً له عليه الصلاة والسلام:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمُ آفَتَهُمْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٤١).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: أولئك الأنبياء الذين سبق ذكرهم الذين هداهم الله تعالى بالوحي الذي أنزله عليهم.

﴿فَبِهِدْهُمُ آفَتَهُمْ﴾ أي: لا تقتد إلا بهم، ولهذا قدّم المفعول ليفيد الحصر والتخصيص، وهُداهم هو إيمانهم بالله تعالى وحده، واستسلامهم لأمره ومشيتته، وما كانوا عليه من الأخلاق الفاضلة الكريمة.

ثم بعد أن بيّن الله تعالى فضل النبي ﷺ وكمال دعوته ورسالته وصلتها برسالات الأنبياء قبله، أمره الله تعالى أن يتوجّه إلى أهل مكة بالخطاب:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: إن دعوتي منزّهة عن كل الأغراض الدنيوية والمنافع المادية، فلا أطلب أي أجرٍ عليها، كما هو حال الأنبياء ﷺ الذين أمرت بالافتداء بهم.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: ما هذا التبليغ الذي كُلفت به إلا تذكيراً وموعظةً للعالمين.

وهذا يدلُّ على عموم رسالة الإسلام، فهي رسالةٌ كاملةٌ وعامةٌ ومنزهةٌ عن كلِّ الأغراض المادية، فعلى حملة الرسالة ودعاتها أن يعرفوا طبيعة هذه الرسالة، ليرتفعوا إلى مستواها، وينزِّهوا أنفسهم ودعوتهم عن أغراض الدنيا ومتاعها الرخيص.

• الرد على منكري النبوة:

ثم شرعت الآيات تردُّ على المخالفين، وبدأت بالردِّ على منكري النبوة بمناسبة الحديث عن النبوة والأنبياء، قال تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْعَلُوهُنَّ قِرَاطِينَ تُبَدُّونَهَا بُدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما عرفوا الله حقَّ معرفته عندما أنكروا الوحي والنبوة وبعثة الأنبياء والمرسلين، فإنكارهم نابعٌ من جهلهم بالله تعالى وصفاته الكاملة، فهو سبحانه الخالقُ العليمُ، والحكيمُ الرحيمُ، فلا يعقل أن يخلق الخلق ويتركهم دون هداية، وهو سبحانه يعلم شدة حاجتهم إليها، فإذا لم يكلِّفهم بحمل رسالة، ولم ينزل عليهم وحياً، ولا نبوة، فلماذا خلقهم؟! ليتظالموا ويتخاصموا ويفتتلبوا، ثم يموتون وينتهي الأمر؟! فما أجهل أولئك الذين أنكروا وحي الله ورسالاته، وجحدوا نبوة أنبيائه! ما أجهلهم بصفات الله تعالى وكمالاته!.

ويلتحق بهؤلاء أصحاب القول بالعقریات، الذين سيطرت على عقولهم ومشاعرهم المحسوسات والماديات، حتى أنكروا ظاهرة الوحي والنبوة،

فوصفوا الأنبياء بصفة العبقرية والنبوغ، ورأوا أن ما أتوا به نابغ من نبوغهم وعبقريتهم لا منزلاً عليهم من الله تعالى .

لكل هؤلاء أمر رسول الله ﷺ أن يقول لهم على سبيل التحدي :

﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ فَإِنَّ إِنْزَالَ التَّوْرَةِ عَلَى مُوسَى ﷺ مِنْ الْأُمُورِ الذَّائِعَةِ الْمَعْرُوفَةِ حَتَّى عِنْدَ الْعَرَبِ، وَلِهَذَا حَكَى اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ قَوْلَهُمُ الَّذِي سَيَأْتِي مَعْنَا فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ يُدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أَي: تَكْتَبُونَهُ فِي أَوْرَاقٍ، تَظْهَرُونَ بَعْضَهَا، وَتَخْفُونَ كَثِيرًا مِنْهَا. وَالْخَطَابُ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ بَدَّلُوا وَغَيَّرُوا فِي التَّوْرَةِ، وَأَخْفُوا بَعْضَ مَا فِيهَا، وَهَذَا مَا جَعَلَ بَعْضَ الْمَفْسِّرِينَ يَرَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَدْنِيَّةٌ.

لكن يمكن لنا أن نقول: جاء الخطاب في الآية لليهود على سبيل الإخبار عما سيحدث في المستقبل، فقد أخبر القرآن الكريم عن كثير من الوقائع والحوادث قبل حدوثها، من ذلك قوله تعالى في سورة المزمل، وهي من أوائل ما نزل على الرسول ﷺ في مكة: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضِيٌّ وَآخَرُونَ يَصْرَبُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَقُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [٢٠] ولم يكن حينئذ في مكة قتال.

والجدير بالذكر أن لهذه الآية قراءة أخرى بصيغة الغيب (يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً)^(١).

ثم عادت الآية تخاطب المشركين بقوله تعالى :

﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ أَي: وَمَنْ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الَّذِي فِيهِ عِلْمٌ

لَا تَعْلَمُونَهَا وَلَا عِلْمَهَا آبَاؤُكُمْ؟ .

ولمَّا كَانُوا جَاهِدِينَ مَعَانِدِينَ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يَتَوَلَّى الْإِجَابَةَ عَنْهُمْ عَلَى

سبيل التقرير للحقيقة الثابتة :

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أَي: اللهُ سَبْحَانَهُ أَنْزَلَهُ.

(١) انظر: مجموعة التفسير: ٤٤٤/٢ وهي قراءة المكي والبصري.

﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: ثم بعد تقرير الحقيقة لا تأبه بهم، ولا تهتم بعنادهم وإعراضهم، وتركهم في باطلهم يلعبون.

وقد تضمن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ رداً علمياً ومنطقياً قاطعاً على منكري ظاهرة الوحي، ففي القرآن الكريم علوم ما كان أحد من البشر يعلمها، فما كان يعلمها النبي عليه الصلاة والسلام ولا أحد من قومه، بل لقد كشف التقدم العلمي في العصر الحاضر أنه يوجد في القرآن الكريم حقائق علمية كبيرة، ما عرفها أحد من البشر إلا في العصور المتأخرة، فلو أن منكري النبوة والوحي الذين لم يتذوقوا بلاغة القرآن الكريم، ولم يدركوا تميزه على غيره من الكلام، لو أنهم تدبروا آياته وعرفوا بعض ما فيه من العلوم، لما وسعهم إلا التسليم بأنه كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنه تنزيل العزيز الحكيم.

• أم القرى:

فالقرآن الكريم بما فيه من إعجاز أكبر رد على منكري الوحي والنبوة؛ ولهذا التفت الآيات الكريمة إلى الحديث عن القرآن الكريم في سياق الرد على منكري الوحي والنبوة، قال تعالى:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَّارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَّارَكٌ﴾ فهو كتاب منزل بواسطة الوحي على النبي ﷺ،

كثير الفوائد عظيم المنافع.

﴿مُصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المنزلة قبله كالتوراة والإنجيل.

﴿وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: وأنزل الله تعالى القرآن الكريم عليك

يا محمد - ﷺ - لتنذر به أهل أم القرى ومن حولها.

وأم القرى: هي مكة المكرمة البلد الحرام، التي حرّمها الله تعالى يوم خلق

السموات والأرض، قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يُلْتَقَطُ لِقَطْنُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهُ» [رواه البخاري (١٥٨٧) ومسلم (١٣٥٣)].

فهي أفضل البلاد وأعظمها، فيها الكعبة المشرفة بيت الله الحرام، قبله المسلمين، التي جعلها الله تعالى مثابة للناس وأمناً بقوله الكريم: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَبْكَبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الآية [المائدة: ٩٧].

وهي سُرَّةُ الأرض ومركزها، وقد ثبت علمياً أنها تقع وسط الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية^(١).

فقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يشير إلى هذه الحقيقة العلمية الهامة التي اكتشفت مؤخراً، فالأرض اليابسة كلها تقع حول مكة المكرمة، وهي مركزها، وفي هذا تأكيدٌ لعموم رسالة النبي ﷺ، وردٌّ لمزاعم القائلين بأن رسالته عليه الصلاة والسلام هي للعرب فقط؛ لأنَّ بلاد العرب هي البلاد الواقعة حول مكة المكرمة، والحمد لله الذي ردَّ مزاعمهم، وهدى الإنسان إلى هذه الحقيقة العلمية التي ذُكرت في القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة، فمكة المكرمة هي أم القرى حقيقةً وشرعاً.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، فالإيمان باليوم الآخر يستلزم الإيمان بالوحي والنبوة، فهما أمران متلازمان، لا يمكن الفصل بينهما، فكل من يؤمن

(١) انظر: مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس، الإسقاط المكي العام، للدكتور حسين كمال الدين أحمد، ص ٢٤٢. ومما جاء فيها: وعندما تم توقيع حدود القارات الأرضية السبع على خريطة الإسقاط، وجدنا أن الحدود الخارجية لهذه القارات يجمعها محيط دائرة واحدة مركزها عند مدينة مكة المكرمة، أي: إن مكة تعتبر مركزاً وسطاً للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية.

بيوم القيامة لا بد أن يؤمن بالقرآن الكريم، ويدفعه إيمانه بيوم القيامة والقرآن الكريم إلى تطبيق أحكامه، وأهمها إقامة الصلاة والمحافظة عليها.

﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، فالصلاة عَلمُ الإيمانِ وعمادُ الدين، ومن حافظ عليها وأقامها على وجهها الصحيح المشروع لا بد أن يحرص على غيرها من أحكام القرآن وشريعته.

• الردُّ على مُدَّعي النبوة:

وكما رَدَّت الآيات الكريمة على منكري ظاهرة الوحي والنبوة، رَدَّت أيضاً بالمقابل على الدجالين الكذابين أدعياء النبوة من أمثال مسيلمة الكذاب والأسود العنسي اللذين ادَّعيا النبوة في آخر حياة النبي ﷺ، وكلٌّ من أتى بعدهما من الدجالين ومن سيأتي إلى قيام الساعة.

وقد ظهر في العصور المتأخرة بعض الكذابين الدجالين، منهم حسين علي المازندراني^(١) الذي لَقَّب نفسه بالبهاء، وادَّعى النبوة ونسخ القرآن الكريم، وتوحيد الملل والنحل.

ومنهم غلام أحمد القادياني^(٢) الذي ادَّعى النبوة أيضاً، وزعم أن نبوته تبع لنبوة النبي ﷺ كهارون مع موسى ﷺ. قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ كالذين أنكروا الوحي والنبوة وقالوا: ﴿مَا

أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، كما مرَّ معنا.

(١) ولد في مازندران في إيران، وقيل: في طهران عام (١٨١٧م)، وتوفي في عكا عام (١٨٩٠م).

(٢) ولد في قاديان من قرى البنجاب في الهند عام (١٨٣٩م)، ومات فيها عام (١٩٠٨م).

﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أي: ادّعى النبوة كاذباً، وأنَّ الله تعالى أوحى إليه، والحقيقة أنه كذاب، وأن الله لم يوح إليه بشيء.

﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: ومن ادّعى أنه سيعارض وحي الله تعالى بما يفتره من القول، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

فلا أظلم من هؤلاء المكذبين لوحي الله تعالى، والدجالين المدّعين للنبوة كذباً، والمدّعين القدرة على معارضة وحي الله تعالى.

ولا ينفَع مع أمثال هؤلاء دليل ولا برهان، ولا يناسبهم إلا التهديد والوعيد بأشدّ أنواع العقاب، فانظر إليهم عند نزول الموت بهم:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: وهم في سكراته وكرباته التي تغمرهم.

﴿وَالْمَلَكُ يُبَسِّطُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ يضربون وجوههم وأدبارهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَكُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ويقولون لهم:

﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: خلّصوا أنفسكم من العذاب، أو: هاتوا أرواحكم، أخرجوها إلينا من أجسادكم، كأنهم يتقاضون منهم أرواحهم^(١).

﴿الْيَوْمَ نُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: العذاب المشتمل على الهون والشدّة.

﴿يَمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ عَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تعرضون عنها تكبراً بلا رويّة ولا تفكير.

ويقال لهم أيضاً يوم القيامة عندما يحشرون إلى الحساب:

(١) تفسير النسفي وتفسير البيضاوي: ٤٤٨/٢.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَؤُا لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ﴾ أي: منفردين عن الأموال والأولاد والخدم والأعوان.

﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: وأنتم في حال ضعفٍ وذلةٍ مجردين عن كلِّ حولٍ وقوةٍ، كما كنتم عند خروجكم من بطون أمهاتكم، قال تعالى: ﴿وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي: تركتم ما أعطيناكم في الدنيا من الأموال والمتاع، وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابنُ آدم: مالي مالي، وهل لك من مالٍ إلا ما أكلت فأفئيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت، وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس» [رواه مسلم (٢٩٥٩)].

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَؤُا﴾ أي: شركاء الله تعالى في استحقاق عبادتكم.

﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لم يبق اتصالٌ بينكم وبينهم.

﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وضاعت أمانيتكم الكاذبة فيهم.

• الردُّ على الطبيعيين:

ثم ردت الآيات على أصحاب القول بالطبيعة، الذين ينسبون كلَّ ظاهرة من الظواهر التي تجري في هذا الكون إلى الطبيعة، غافلين أو متغافلين عن الأحكام والإبداع والتنسيق بين كل الحوادث التي تجري حولهم، بحيث يلزمهم على وجه القطع أن يقرُّوا بوجود خالق واحد، هو وحده سبحانه الذي يخلق ويدبِّر ويقدر:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۗ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَالِقَ ۗ نُؤْفِكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ .

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ﴾ كالحنطة والشعير والذرة .

﴿وَالنَّوَىٰ﴾ جمع نواة، وهي ما تكون داخل الثمرة .

والفَلَقُ: الشَّقُّ، فهو سبحانه الذي يشقُّ كل حبة ونواة، فيخرج منهما النبات والشجر، يحدثُ هذا الشَّقُّ بقدرَةِ الله تعالى في باطنِ الأرض، وتحت الثرى، فكلُّ حبةٍ أو نواةٍ يشقُّها الله تعالى بقدرته من أعلاها ومن أسفلها، يخرج من الشق الأعلى أصل كلِّ نبات وشجر، يتجه بقدرَةِ الله ومشيئته إلى الأعلى، ويحترق رغم ضعفه ولطفه طبقات التراب والحجارة، ليكون بعد ذلك الزرع والشجر، ويتجه بقدرته سبحانه أيضاً ما يخرج من الشق الثاني إلى الأسفل، فينفذ في طَيَّاتِ الأرض ليكونَ الجذورَ الضاربةَ في الأعماق، فمن كلِّ حبة ونواة يخرج الله تعالى أصليين متضادين، صاعداً ونازلاً، وهذا دليل باهر على كمال قدرته جلّ وعلا، وتمام مشيئته النافذة في كلِّ المخلوقات، فمن الذي يقدر أن يشق الحبة اليابسة ويخرج منها النبات؟! ومن الذي يستطيع أن يشقَّ النواة الصُّلبة ويخرج منها النخل والشجر؟! من غيرهِ ﷻ!؟ .

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر من النطفة

والحبة والنواة .

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ويخرج الحبَّ والنوى والنُّطف من الحيوان والنبات

والشجر .

إنَّ إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، من الظواهر

المتجددة والمبثوثة في كثيرٍ من المخلوقات، وهي تحدث أيضاً في داخل أجسامنا، ففي كلِّ لحظة تتجدد ملايين الخلايا، تنقسم ثم تموت، ويحيي الله غيرها، وفي كلِّ فترة تتخلق ملايين الحيوانات المنوية داخل أجسامنا من الدم الذي تمدّه الأغذية المقطعة والمطبوخة والممضوغة والمهضومة .

ويلاحظ أن قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ عدل به عن صيغة اسم الفاعل إلى الفعل المضارع؛ لأنَّ تصور إخراج الحي من الميت في ذهن القارئ والسامع يتأتى بالفعل المضارع أكثر من اسم الفاعل، ولعلَّ فيه إشارة إلى أنَّ الحيَّ أفضلُ من الميت، وأنه ينبغي الاعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحي^(١).

فكلَّ ما يحدث في هذا الكون يحدث بمشيئته تعالى وعلمه وقدرته، فما من حبة في طيَّات الأرض تنشق إلا بمشيئته تعالى وعلمه وقدرته، فبقدرته تعالى انشقت لا بقوة مودعة فيها، فهذه الظواهر لا تحدث من تلقاء نفسها، بل لا بدَّ لها من خالق عليم حكيم.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ ٱلْخَالِقُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾، فله صفات الكمال وحده.

﴿فَإِنِّي تُوفِّكُونُ﴾ فكيف تُصْرَفُونَ عن عبادته وطاعته، وتنسبون الحوادث إلى غيره جلَّ جلاله؟! . وهو سبحانه:

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾، ففالق الحبِّ والنوى هو أيضاً فالقُ الإصباح، الذي يشقُّ عمودَ الصبح ونوره عن ظلمة الليل وسواده.

﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ ليسكن فيه الخلق للراحة.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي: جعل لهما نظاماً معيناً ثابتاً يدلُّ على قدرته وحكمته، تحسب فيه الأيام والشهور والسنون.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وكلَّ هذه الظواهر تقديرُ الإله الغالب الذي أحاط علماً بكلِّ شيء.

(١) انظر: روح المعاني: ٢٢٧/٧.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٧)

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أي: لتسترشدوا بها إلى الطرق والمسالك في البر والبحر، فهي مخلوقات مقهورة لا تأثير لها في الحوادث الأرضية، فلا تجلب لأحد نفعاً، ولا تدفع عنه ضرراً، ولا تستحق أن تعبد وتعظم.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: قد بينا بصائر الحق التي تدل على توحيد الخالق وكمال علمه وقدرته.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعلمون هذه الحقائق وينتفعون بها، ويعلمون أنها لا تتحرك إلا بمشيئة الله تعالى وقدرته.

• الْمَسْتَقَرُّ وَالْمَسْتَوِدَعُ:

ثم بين الله تعالى كمال قدرته وعلمه في خلق البشر من نفس واحدة فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوِدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (٩٨)

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فكل الناس متفرعون من نفس واحدة على رغم ما بينهم من تفاوت في الصفات والخصائص والملكات والمواهب، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وظلت موروثات الناس تنتقل بقدرة الله تعالى من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات حتى الوقت المحدد لبروزهم وظهورهم على الحياة:

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوِدَعٌ﴾ فالإنسان قبل أن يكون مجسماً بأعضائه وصفاته كان صيغة كروموزومية وموروثية معينة، فهو ست وأربعون كروموزوماً تحتوي على عدد كبير من الموروثات - الجينات - تتوزع عليها بصيغة تختلف من إنسان إلى

إنسان آخر، وهذه الكروموزومات والموروثات وُجِدَتْ كلها في آدم ﷺ، ثم أخذت تتوزع في ذريته.

وتصوّر المسألة بسيط، إن قرص الهاتف يحتوي على عشرة أرقام فقط نستطيع بإدارتها بترتيب مختلف أن نكلّم من نشاء في أرجاء المعمورة، فأرقام هواتف العالم كلّها موجودة في هذا القرص^(١).

فكل إنسان يحمل في خلاياه الجنسية موروثاتٍ كلٌّ من يتفرّع عنه من ذريته، والله سبحانه بكامل علمه ومشيتته وقدرته أحاط بها، وهي تنتقل من مستقرها في الأضلاب إلى مستودعها في الأرحام.

ومن المقرّر الآن في علوم تكوين الجنين أن الخلايا الجنسية الابتدائية تُشَقُّ من جدار الحويصل المُحِّي، ثم تهاجر وتنتقل إلى الغدد الجنسية الآخذة بالتكون في ظهر المخلوق الجديد ثم تتكاثر فيها^(٢).

فكلُّ إنسان تنقّل من أضلاب آبائه إلى أرحام أمهاته من لدن آدم ﷺ حتى الوقت المحدد لبروزه إلى الحياة، إنَّها رحلة طويلة وطويلة جدًّا، ولكنها مقدّرة ومعلومة في كلّ مراحلها وأطوارها وحركاتها؛ إنَّها رحلة مبرمجةٌ بدقّة من قبل الله العليم الحكيم، فماذا يقول الطبيعيون وهم يواجهون هذه الحقائق العلمية الملزمة لكلِّ إنسان عاقل بأن يؤمن بوجود خالق واحد عليم حكيم؟.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ المبيّنة لمراحل خلق البشر بدقّة علمية، وقد برزت في العصر الحاضر على الخصوص بسبب التقدّم العلمي الكبير الذي حققه الإنسان في هذا المجال، وكشفت عن المدى الواسع الكبير للإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون معاني هذه الآيات.

والفقه: الفهم واستعمال الفطنة وتدقيق النظر.

(١) الفرار المكين، ص ٢٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٥.

• الحَبُّ المتراكب:

وتنقلنا الآيات من تكوين الإنسان ورحلته الطويلة في الأصلاب والأرحام، إلى تكوين النبات بقدره الله تبارك وتعالى العليم الحكيم:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مُخْرِجًا مِنْهُ
حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا
وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فهو سبحانه وحده الذي أنزل ماء المطر من السحاب الذي في جهة السماء.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أخرج الله تعالى بماء المطر كل ما ينبت من الأرض، وهي ظاهرة تدلُّ على عظمة الله تعالى، ولهذا جاء التعبير عنها بنون العظمة، فالمُخرج الحقيقي للنبات هو الله تعالى، والماء سبب، وكثيراً ما ينزل الماء ولا يخرج النبات؛ لأنَّ مشيئته تعالى لم تتعلق بخروج النبات.

ثم فصلت الآية الكريمة بعض أطوار خروج بعض النبات:

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي: فأخرجنا من أصله الذي شقَّه الله تعالى في الأرض خضراً، أو نخرج من الماء الذي لا لون له خضراً، والخضِرُ بمعنى الأخضر، وأكثر ما يُستعمل فيما تكون خضرته خلقية^(١).

ومن المعلوم المشاهد أن كلَّ نبات يكون لونه أخضر عند خروجه من سطح الأرض، سواء كان زرعاً أو شجراً أو كلاً، وهو سبب اخضرار الأرض بعد نزول المطر بتقدير الله تعالى، ولهذا قال سبحانه: ﴿الَّذِي تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]. ثم:

(١) روح المعاني: ٢٣٨/٧.

﴿تُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ أي: ثم نخرج من هذا النبات اللطيف الأخضر الزرع الذي نخرج منه حَبًّا متراكباً بعضه فوق بعض.

وكلمة ﴿مُتَرَاكِبًا﴾ لم تأت هكذا اتفاقاً، وإنما تشير إلى مظهر من مظاهر قدرته تعالى وإبداعه في تركيب الحب داخل السنبله تركيباً معجزاً، فلو أخرجنا حبات القمح من داخل سنبلتها، فلا يستطيع أحد أن يعيد تركيبها كما كانت، وإذا كان تركيبها معجزاً؛ فما بالك بأطوار خلقها منذ أن كانت حبة واحدة في ظلمات الأرض، فاعرف أيها الإنسان قدرة الله تعالى وعظمته وعلمه، واعرف فضله عليك وإحسانه إليك، واعرف أيضاً عجزك وافتقارك إليه سبحانه.

ثم تنقلنا الآية من الحَبِّ المتراكب في الزرع إلى ثمر الشجر:

﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنَوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي: ويخرج من طلع النخل الذي أخرجناه من الخضر قنوان دانية.

والطلع: أكمام النخل التي يطلع منها الثمر، يطلع من النخل كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود^(١).

وقنوان: جمع قنو بمعنى العذق، وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب^(٢).

وقوله: ﴿قِنَوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي: تميل بسبب ثقلها وكثرة ثمرها إلى الأرض فيسهل تناولها.

﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: ونخرج من الخضر جناتٍ من أعناب، والعنب والتمر من أشرف الثمار وأنفعها للإنسان، فهما قوت وفاكهة.

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَعَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ ونخرج أيضاً الزيتون والرمان؛ فبعضه مشتبهُ، وبعضه غير متشابه في الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف الدالة على حكمة مبدعها وقدرة صانعها، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِي

(١) تفسير أبي السعود: ١٦٦/٢.

(٢) روح المعاني: ٢٣٨/٧.

الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَّجِرَاتٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَحَيْثُ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفِضِلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ [الرعد: ٤].

فلو لم يكن لها فاعلٌ مختار، وكان وجودها بسبب طبيعتها، لكانت على نسق واحد وشكل واحد، وحتى تعرفوا عظمة خالقها ومبدعها:

﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر ويوعه﴾ أي: انظروا إليه عند أول ظهور ثمره كيف يكون صغيراً ضئيلاً، ثم انظروا إليه مرة ثانية عند نضجه وقطافه كيف يصبح كبيراً ذا نفع عظيم ولذة كاملة، فما الذي طوره وغيره؟! والحادثات لا بد لها من محدث، والمتغيرات لا بد لها من مغير.

﴿إن في ذلكم لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ أي: إنكم تجدون في نظركم إلى النبات؛ وتأمّلكم في مراحل تكوينه وأطواره؛ دلائل كثيرة وعظيمة، تجعلكم تؤمنون بوجود الخالق العظيم سبحانه، وهذا يدلُّ على أن من ينسب هذه الظواهر إلى الطبيعة لا يكون من المؤمنين.

• الرد على القائلين بصفة الولادة والولد لله تعالى:

وهي من أقبح الأكاذيب والافتراءات على الله تعالى الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد:

﴿وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علمٍ سبحانه، وتعالى عما يصفون﴾ (١٠٠).

﴿وجعلوا لله شركاء الجنّ﴾ أي: وجعلوا الجنّ شركاء لله فعبدوهم، وقالوا: إنهم بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وخلقهم﴾ والحال أنه تعالى خلق الجن، فكيف يجعلون المخلوق شريكاً للخالق؟! .

﴿وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علمٍ﴾ أي: اختلقوا لله سبحانه بنين وبناتٍ جهلاً منهم بالله تعالى ووحدانيته وكماله وعظمته، قال تعالى: ﴿وقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ

وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَغَيْرُ الْجِبَالِ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴿مريم﴾ (١).

ففي القرآن الكريم آيات كثيرة ردَّ سبحانه بها على من قال من مشركي العرب: الملائكة بناتُ الله، وردَّ أيضاً على النصارى الذين يقولون: المسيح ابن الله، وعلى اليهود الذين قالوا: عزيزُ ابن الله:

﴿سُبْحٰنَكَ، وَتَعٰلٰى عَمَّا يُصْفُونَ﴾ أي: تقدّس وتنزه وتعاظم عمّا يصفه هؤلاء الجهلة الضالون (٢).

﴿بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ أُنۢىُّ يَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ ۗ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ، صٰحِبَةً ۗ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١).

﴿بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مُبْدِعُ السماواتِ والأرضِ ومُحَدِّثُهُمَا على غير مثال سبق.

﴿أُنۢىُّ يَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ ۗ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ، صٰحِبَةً ۗ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كيف يكون له ولد وهو خالق كلِّ شيء، ومالك كلِّ شيء، والمحيط علماً بكلِّ شيء؟! تقدّست ذاته، وتسامت صفاته جلّاله.

﴿ذٰلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ ۗ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ۗ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۗ فَاعْبُدُوهُ ۗ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١١٧).

﴿ذٰلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ المتّصفُ بكلِّ صفات الكمال، والمنزّه عن كلِّ صفات الحدود والنقصان، ومنها الولادة والولد.

(١) انظر: تفسير سورة مريم (التوحيد والتنزيه في سورة مريم)، وهو جزء من تفسيرنا هذا.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٠٤/١.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو؛ لأنه وحده:
 ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ﴾ وحده.
 ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ حفيظ وراقب.

• الإدراك والرؤية:

وكيف يكون له عَلَّمَهُ صاحبة وولد وشريك وهو:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي: لا تحيط به الأبصار.

فالإدراك: الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته.

والأبصار: جمع بصر، حاسة البصر، وهي مخلوقة محدودة.

ولا يحيط المخلوق الضعيف المحدود بالخالق جلّ وعلا.

وقد استدلت بعض الفرق الضالة كالمعتزلة بهذه الآية على أنه تعالى لا يرى

يوم القيامة، وليس في الآية نفي لرؤيته سبحانه، فرؤيته تعالى ثابتة للمؤمنين يوم

القيامة بصريح قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة].

وبالأحاديث النبوية الصحيحة الكثيرة، منها:

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه : أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم

القيامة؟ فقال رسول الله $\text{صلى الله عليه وسلم}$: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالوا:

لا يا رسول الله، قال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا:

لا، قال: «فإنكم ترونه كذا» [رواه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢)].

ومعنى قوله: «هل تضارون؟» أي: هل يحصل ضرر أو مانع؟.

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله $\text{صلى الله عليه وسلم}$: «إذا دخل أهل الجنة الجنة

يقول الله $\text{صلى الله عليه وسلم}$: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا، ألم تَدْخُلْنَا

الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من

النظرِ إلى ربِّهم» ثم تلا هذه الآية: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].
[رواه مسلم (١٨١)].

ومعنى قوله: «فِيكشَفَ الْحِجَابَ» إزالة الموانع القائمة فينا وهي التي تمنعنا من رؤيته سبحانه في الدنيا، فالحجاب هو النقص البشري الدنيوي، يزيله الله سبحانه عن أهل الجنة تكميلاً لهم وتشريعاً، لئتمكّنوا من رؤيته سبحانه رؤيةً تليق بذاته المقدّسة، ويبقى الكافرون محرومين من رؤيته سبحانه، محجوبين عنه ﷻ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فالأبصار ترى الله سبحانه يوم القيامة رؤيةً تليق بذاته بلا تكييف، ولكنها لا تحيِّط به كما أنّ القلوب تعرفه ولا تحيِّط به، قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لا تحيِّط به الأبصار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كَلَّتْ أَبْصَارُ المخلوقين عن الإحاطة به^(١).

فلا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من عدم الإحاطة بالعلم عدم العلم، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ومرّ معنا في أول السورة الحديث الذي في [صحيح مسلم (٤٨٦)]: «لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فلا يلزم منه عدم الثناء^(٢).

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ﴾ أي: يحيِّط بها ويعلمها ويراها، فهو خالقها سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

والمراد من الأبصار هنا: النور الذي تُدرك به المُبْصِرَات، ولعلّ هذا هو السرُّ في الإظهار في مقام الإضمار^(٣)؛ إذ الأصل أن يقول: (لا تدركه الأبصار وهو يدركها) فدلّ إظهارها مرّة ثانية على أنّ بينهما تغييراً، فالأولى: حواسُّ البصر، والثانية: النور الذي تدرك به المبصرات.

(١) تفسير الخازن: ٤٥٨/٢.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٦٠٥/١.

(٣) روح المعاني: ٢٤٨/٧.

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ الذي لا تحيط به الأبصار.
 ﴿الْخَيْرُ﴾ الذي يحيط بالأبصار وبأصحابها^(١).

• جاءت البصائر:

ولما وصلت الآيات الكريمة في سورة الأنعام إلى هذا الحد في الإثبات والرد: إثبات صفات الكمال والجلال لله تعالى، والرد على أصحاب النحل والملل الفاسدة الضالّة بالحجج البالغة، والبراهين القاطعة، عقبت على ذلك بقوله ﷻ على وجه التقرير والتحقيق:

﴿فَدَّ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾

﴿فَدَّ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ والبصائر للقلب كالإبصار للعين؛ لأنها تجعل القلب يبصر الحقيقة، فهي تجلو الحقائق وتظهرها كما يجلو النور المحسوسات ويظهرها؛ ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: فمن أبصر الحق وآمن به فلنفسه أبصر؛ لأن نفعه لها، والله سبحانه غني عن إيمانه.

﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: ومن أعرض عن الحق وضل عنه فإن وبال إعراضه وضلاله على نفسه، فهو كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَاِزْرَهُ وَزَرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ أعمالكم لأجازيكم عليها، إنما أنا منذر لكم والله سبحانه هو الحفيظ عليكم.

وهكذا بين الله تعالى أدلة الإيمان وبصائر الحق بياناً شافياً كافياً، ورد شبه المعارضين ونقضها، وكشف العلل وفضحها، فقال سبحانه:

(١) انظر: نظم الدرر: ٢٢٠/٧.

﴿وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٥).

﴿وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَاتِ﴾ أي: وكذلك نصرّف الآيات مثل ما تلونا عليك. وأصل التصريف: نقل الشيء من حالٍ إلى حالٍ، والمعنى: أننا نجعل الآيات تنتقل من معنى إلى معنى، حتى تأتي على جميع ما يحتاج إليه من المعاني والحجج والبراهين.

ولكنّ المعاندين المعارضين من المشركين ظلّوا على عنادهم وإعراضهم، وأنّهّموا النبيّ ﷺ بتعلّم ما أتى به من أهل الكتاب: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ أي: وليقول المشركون المعاندون: دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب، وتعلّمت منهم.

وهي شبهة باطلة تمسّكوا بها، وحكاها سبحانه عنهم في عدّة آيات؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَأَسْطَرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّكَ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، مع أنهم يعلمون أنه عليه الصلاة والسلام كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، فأميّته عليه الصلاة والسلام من أدلّة صدقه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا أَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

والعجيب أنه لا يزال حتى الآن كثير من أعداء الإسلام كبعض المستشرقين يردّدون أمثال هذه الشبهة الباطلة التي كان يردّها من قبل المشركون المعاندون، وقد ردّها سبحانه، وبيّن بطلانها وزيفها في عدّة آيات كريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فلقد أعجز القرآن الكريم فصحاء العرب، فكيف يأتي به النبيّ ﷺ من أهل الكتاب ذوي اللسان الأعجمي؟! ولو تأمّل المستشرقون معاني القرآن الكريم على وجه الإنصاف لما قالوا مثل هذه المقولة الكاذبة، فقد صحّح القرآن الكريم ما كان عليه أهل الكتاب من انحرافات في عقائدهم وعباداتهم، كما كشف كثيراً من الحقائق التي أخفوها في كتبهم، فلا يُعقل أن يكون القرآن منقولاً عنهم.

﴿وَلْيُنَبِّئْنَهُمْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وَلْيُنَبِّئْنَهُ لِلْفَرِيقِ الْآخِرِ الَّذِي أَبْصَرَ الْحَقَّ وَآمَنَ بِهِ، حَتَّى يَكُونَ إِيمَانُهُ مَبْنِيًّا عَلَى بَصِيرَةٍ وَبِرْهَانٍ.

إن أمثال هذه الشبهات الواهية الضعيفة لا تؤثر على الحق في مسيرته ولا تعوقه؛ ولهذا أمرت الآيات الكريمة النبي ﷺ أن يتمسك بوحى الله تعالى، ويعرض عن أصحاب هذه الشبهات الواهية:

﴿أَنْبِئْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فلا تبال بهم، فالله سبحانه قادر على هدايتهم:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ تحفظ أعمالهم لتجازيهم عليها.
﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

• من أدب المناظرة:

والتفتت الآيات بعد ذلك إلى المؤمنين لتبين لهم أدباً من أهم آداب المناظرة والمجادلة مع المخالفين لهم:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيْرَ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: نزهوا أنفسكم عن سب المشركين وشتيمهم وسب آلهتهم، عليكم فقط أن تبيينوا لهم الأدلة والبراهين بأسلوب لطيف وموضوعي بعيد عن السباب والشتائم، فأنتم على حق، ومعكم بصائره الواضحة، وحججه البالغة، ولا حاجة بكم أن تلجؤوا إلى السب والشتيم، فإنه يؤدي إلى تنفيرهم وإعراضهم، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ

بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥].

ويؤدّي السبّ والشتم أيضاً إلى مفسدة كبيرة بينها سبحانه بقوله:

﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا وَعُدْوَانًا وَتَجَاوَزُوا مِنَ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: وهم على جهالة بالله تعالى، وما يجب له جَلَالُهُ من

التعظيم.

وهذا يؤكد القاعدة الشرعية التي مرّت معنا وهي: «دفع المفسدة مقدّم على

جلب المصلحة»، إن كان يوجد مصلحة في سبهم وشتيمهم.

ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه»

قيل: وكيف يلعن الرجل والديه؟! قال: «يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ

أمّه فيسبُّ أمه» [رواه البخاري (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠)].

﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ أي: كما زينا لهؤلاء حبّ أصنامهم،

والمحاماة عنها، والانتصار لها، زينا للأمم السابقة عملهم الذي كانوا عليه

بسبب سوء كسبهم واختيارهم.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ليحاسبهم عليه ويجازيهم.

ثم حذرت الآيات المؤمنين من الانخداع ببعض الأساليب الملتوية التي

يلجأ إليها الكفار في أثناء مناظرة المؤمنين لهم ليستروا فشلهم وعنادهم:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا

يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦٩﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ إنهم يكثرون الحلف بالله

تعالى، ويبدلون جهدهم في تأكيدها، فلا تغتروا بها فهي أيمانٌ كاذبة.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فالمعجزات بيد الله تعالى وحده.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهو سبحانه يعلم حقيقة حالهم، فلا

تغتروا بأيمانهم الكاذبة، فقلوبهم وأبصارهم تحت قهره ومشيتته سبحانه، وبقبضة قدرته، يقلبها كيف يشاء:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ .

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰ مَرَّةٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما جحد المشركون ما أنزل الله تعالى لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر (١).

فمجيء الآيات المقترحة لن يغيّر مواقفهم؛ لأن قلوبهم وأبصارهم في قبضة قدرته سبحانه قبل مجيء الآيات وبعدها.

﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: نتركهم في كفرهم وضلالهم يتحيرون ويترددون.

فإيمانهم منوط بمشيتته سبحانه لا بمجيء الآيات والمعجزات:

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقِنَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ .

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقِنَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ معاينة ومقابلة.

﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فهو كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس].

﴿وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أن مشيتته سبحانه هي الغالبة النافذة.

• الإعلام المزخرف:

وقد عودنا الله تعالى في التنزيل الحكيم أنه كلما بين شدة عناد المشركين

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٠٨/١.

وإعراضهم، أنزل آيات تواسي النبي ﷺ وتسلييه عما يلقي من عنادهم وإعراضهم؛ ولهذا قال تعالى في سياق ما تقدم:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي: كما ابتليناك بهؤلاء المعاندين جعلنا لكل نبي أعداء، فلست بدعاً بين الأنبياء.

﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ أي: شياطين من الإنس وشياطين من الجن - والشيطان: كلُّ عاتٍ متمردٍ من الجنِّ والإنس^(١) - يتعاونون فيما بينهم على معارضة الأنبياء ﷺ.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: يوسوس شياطينُ الجنِّ إلى شياطين الإنس، أو بعضُ الجنِّ إلى بعض، وبعضُ الإنس إلى بعض.

﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ الأقوال المزخرفة الخادعة.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ لكنَّه سبحانه قدَّر أن تكون الحياة الدنيا دار اختبار وابتلاء.

﴿فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ﴾ أي: اتركهم ولا تبالِ بخداعهم وأكاذيبهم، فإنَّ الله تعالى ناصرٌ عليهم.

ولا يميل إلى هذا القول المزخرف ولا يتأثر به إلا من كان مثلهم في الكفر والفجور:

﴿وَلِنَصِّغَنَّ إِلَيْهِ أَفْعِدَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِرِضْوَاهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ .

﴿وَلِنَصِّغَنَّ إِلَيْهِ أَفْعِدَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لتميل إليه قلوب الذين

لا يؤمنون بيوم القيامة؛ لأنَّ حبَّ الدنيا أعمى قلوبهم عن بصائر الحق، فمالت إلى هذه الأقوال المزخرفة الباطلة.

وبعد أن تميلَ إلى القول المزخرفِ الكاذبِ، ترضى به وتطمئنُّ إليه:

﴿وَلَيْرِضَوْهُ﴾، ثمَّ بعد ذلك يقترفون ما فيه من إثم وفجور:

﴿وَلِيَقْتَرُوا مَا هُمْ مُقْتَرُونَ﴾، فكانَ كلَّ مرحلةٍ تؤدِّي إلى ما بعدها.

ولا يخفى ما في الآية من تحذير للمؤمنين من الوقوع في شرك الضالِّين المضلِّين، فعليهم أن يتجنبوا استماع كلامهم المزوَّق المزخرف الذي يخفون في طيَّاته السَّمَّ النَّاقِع، فما أكثر ما يخلطون السَّمَّ بالدسم، فالاستماع إلى أقوالهم قد يؤدِّي إلى الرضا بها، ثم الاستجابة الفعلية لما فيها من إثم وفجور.

وكأنِّي بالآية الكريمة قد نزلت لهذا العصر الذي أصبح فيه لوسائل الإعلام سلطانٌ كبير، وتأثيرٌ شديدٌ على الناس، لقد وجَّه شياطينُ الإنس من أعداءِ الإنسانِ بوحىٍ من شياطينِ الجنِّ كثيراً من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة إلى الشعوب الإسلامية، ليفتنوا المسلمين عن دينهم وأخلاقهم، وقد ملؤوها بالبرامج المزخرفة المموَّهة، التي تستهدف في حقيقتها تشكيك المسلمين بدينهم، وإشاعة الفواحش والفجور في مجتمعاتهم.

• تحكيم القرآن الكريم:

فواجبُ المسلمين لحماية أنفسهم وأبنائهم من تأثير وسائل الإعلام الموجهة إليهم، أن يحكِّموا فيها كتاب الله تعالى، الذي فضَّل الله فيه كلَّ ما يحتاج إليه الإنسان لتمييز بين الحق والباطل والحلال والحرام، فما وافقه قبلوه، وما عارضه ردُّوه، وليحذروا من تحكيم غير ما أنزل الله تعالى عليهم استجابةً لمقترحات يقترحها الكفار عليهم، كما فعل مشركو قريش عندما قالوا للنبيِّ ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكماً من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك^(١).

(١) انظر: روح المعاني: ٨/٨.

فلاحتكام في أمر الدين إلى غير القرآن الكريم إعراض عن كتاب الله تعالى، ويعد شكاً فيه، قال ﷻ يحذر من الوقوع في مثل هذا الأمر:

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: كيف أطلب حكماً غير الله تعالى الذي أنزل القرآن الكريم، مبيّناً فيه الحق والباطل والحلال والحرام وغير ذلك من الأحكام، بحيث لم يبق في أمر الدين شيء من التخليط والإبهام؟!.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: واليهود والنصارى الذين طلب المشركون تحكيم بعضهم يعلمون أن القرآن منزل من الله تعالى بالحق.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: المترددين في أنهم يعلمون ذلك.

فالحكم في دين الله للقرآن الكريم لا لغيره؛ لأن تمام الدين وكماله في القرآن الكريم وصدقه وعدله:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ فكل ما أخبر به حق لا مريّة فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة^(١).

والقرآن الكريم أيضاً ثابت لا يستطيع أحد أن يغيّره أو يبدله:

﴿لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ لأنها مصونة عن التغيير والتبديل، محفوظة بحفظ الله

تعالى.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٦١١/١.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقول العباد.

﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

ويؤدّي التأثير بأقوال الناس والاستجابة لمقترحاتهم إلى الضلال والبعد عن دين الله تعالى، ولهذا قال تعالى محذراً ومؤدّباً:

﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ .

﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إن تطع أكثر الناس يبعدوك عن دين الله تعالى، أو يبعدوك عن الطريق الذي يوصل إلى رضوانه سبحانه. ثم بيّن تعالى سبب ذلك فقال:

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون في عقائدهم إلا الظن؛ لأنهم قلّدوا فيها آباءهم دون نظر وتدبّر.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون.

وتدلّ الآية على محدودية الإنسان وقصوره عن معرفة الحقيقة الكاملة؛ بسبب ضعفه ومحدوديته وغلبة أهوائه عليه، وكلُّ ذلك يؤكّد حاجته إلى وحي الله تعالى، الذي أحاط علماً بكلِّ شيء:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١١٧﴾ .





الفصل الرابع

سَفَهٌ وَضَلالٌ

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِنْعَامِ وَبَاطِنَهُ إِنْ أَلْدَيْتَ يَكْسِبُونَ الْإِيمَانَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَخُونُ أَلَيْسَ بِهِمْ لِيُجِدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوْ مَن كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيمًا يَمْعَشَرُ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجْلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَكِّرُونَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَعَرَّثْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ

رَبِّكَ مُهْلِكِ الْقُرَىٰ بُطْمَرٍ وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ ﴿١٣٦﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ
بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٨﴾ إِنْ مَا تُوَعَّدُونَ لِآتٍ وَمَا
أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٩﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ
لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ
نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ
إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٤٦﴾
وكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرِدُوهُمْ
وَلِيَسْلِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴿١٤٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ
أَنْعَامٌ وَحَرِّثُ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِعْمِهِمْ وَأَنْعَمَ حُرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَمَ لَا
يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٤٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي
بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلذَّكُورِ وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ الْأُنثَىٰ وَإِنْ يَكُنْ مِثْنَةً فَهَمْ فِيهِ
شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٤٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٥٠﴾
﴿١٥١﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ
وَالزُّيْتُونَ وَالرُّمَاتُ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَعَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ
حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥٢﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا
مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٥٣﴾ ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ
الضَّانِّ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
الْأُنثَيَيْنِ نَبِغُونِ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ
ءَالذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ
وَصَلَحُكُمْ اللَّهُ يَهْتَدُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٥﴾ قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ

مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْضِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْئَرِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَانِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعِدُّونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْيَمْرَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجَرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضَ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضَ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ نَنْظُرُوا إِنَّا

مُنظَرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهِ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رَبِّيَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزْرُ وَإِزْرَةً وَذَرَّ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴿

• تمهيد:

انتقلت الآيات الكريمة في هذا الفصل من المناقشة والمجادلة حول موضوعات الإيمان الكلية الكبرى إلى بعض الموضوعات الجزئية التي كانت سائدة بين العرب في الجاهلية، لتبين بعض ما كانوا عليه من سفه وضلال، ولتربط أيضاً بين هذه القضايا والموضوعات الجزئية وبين موضوعات الإيمان الكبرى، ولتؤكد أيضاً على حاجة الإنسان إلى شريعة الله تعالى، وإنزال الوحي، وبعثة الأنبياء ﷺ.

واستمرت الآيات الكريمة في هذا الفصل متمسكة بأسلوبها السابق الذي غلب على أكثر آيات سورة الأنعام، أسلوب المجادلة والمناظرة، ودفع الشبهات وردّها، والكشف عن أساسها ومصدرها، وبيان بطلانها وفسادها.

• التحليل والتحریم لله تعالى:

وجّهت الآيات الخطاب للمؤمنين تأمرهم فيه على وجه الإباحة بالأكل من لحوم الذبائح التي تذبح على اسم الله تعالى:

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِعَايَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

فإن من مقتضيات الإيمان استباحة ما أحلّ الله تعالى، واجتناب ما حرّم،

ومفهومه أنه لا يباح الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه العرب في الجاهلية، فكانوا يأكلون الميتات وما ذُبِحَ على النُصْبِ تقريباً للأصنام وغيرها.

﴿وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يوجد سبب يمنعكم من أكل ما ذبح على اسم الله تعالى، إذ كان المشركون يحرمون على أنفسهم بعض ما أحلّ الله تعالى، كما سيأتي قريباً.

﴿وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بين سبحانه على وجه التفصيل كل ما حرم عليكم.

﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلا في حال الاضطرار، فإنه يباح لكم المحرّم، كما سيأتي بيانه أيضاً.

فالحلال ما أحلّه الله تعالى، والحرام ما حرّمه سبحانه وحده، لا ما كان يفعله زعماء الضلال والكفر من تحليل وتحريم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ﴾ الناس بتحليل الحرام وتحريم الحلال.

﴿بِأَهْوَاءِهِمْ﴾ الفاسدة المنحرفة.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بما يناسب الناس وينفعهم، وبما يؤذيهم ويضرهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين حدود ما شرع سبحانه لهم.

إن التحليل والتحريم من الأمور الخطيرة الهامة، لا ينبغي لأحد من الناس أن يدّعيها لنفسه، إنها منوطة بالله تعالى، فهو وحده الخالق الحاكم، فله سبحانه الخلق والأمر، وعلى الناس أن يلتزموا حدود ما شرع الله تعالى لهم.

﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْأَيْمَنِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَيْمَنَ سَيَجْرُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْأَيْمَنِ وَبَاطِنَهُ﴾ والإثم الظاهر: ما كان تحريمه ظاهراً

ومعلوماً، وباطن الإثم: ما فيه شبهة، وقد جعل الله تعالى له في القلب علامة، وهي أن يضطرب القلب عند فعله، ولا يطمئن إليه، فقلب المؤمن لا يطمئن إلى المحرمات؛ قال رسول الله ﷺ: «البرُّ حُسْنُ الخلقِ، والإثمُ ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناسُ» [رواه مسلم (٢٥٥٣)].

ومعنى قوله: «حاك» تحرك وتردد، ولم ينشرح له الصدر، وحصل منه في القلب الشك وخوف كونه ذنباً.

ويمكن أن يكون المراد من ظاهر الإثم: أفعال الجارح، ومن باطنه: أفعال القلب كالحسد والكبر والعجب والرياء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ أي: يتجاوزون الحدود المشروعة، ويفعلون المحرمات.

﴿سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾ أي: سيحاسبهم الله تعالى ويجازيهم على ما فعلوا في الدنيا من معاصٍ وآثام.

• التسمية عند الذبح:

ثم بينت الآيات تحريم الأكل من الذبائح التي لم تذبح على اسم الله تعالى لأن الذبح على غير اسمه تعالى من مظاهر الشرك، وقد حرم الله تعالى كل مظاهر الشرك:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَيْكُمْ أَوْلِيَاءِهِمْ لِيَجْدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ كالميتة وما ذبح لغير الله تعالى.

﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي: إنه خروج عن طاعته سبحانه، أو إن الذبح على غير اسمه تعالى لفسق وخروج عن طاعته.

فلا يدخل فيه ذبيحة المسلم التي ينسى التسمية عليها عند الذبح، لِمَا صحَّ عن عائشة رضي الله عنها: أن ناساً قالوا: يا رسول الله إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري

أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سَمُّوا عليه أنتم وكُلُّوا» قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر. [رواه البخاري (٢٠٥٧)].

ثم رَدَّت الآية شبهة من وحي الشياطين كانوا يتمسكون بها في الجاهلية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُواكُمْ﴾ كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

فقد كان المشركون ينكرون تحريمَ أكل الميتة، ويدَّعون أنها ذبيحة الله، ويقولون للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله تعالى، فما قتل الله فلا تأكلونه، وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟! (١).

وهذا مثلاً للشُّبُهَة والضلالات التي كان الشياطين يوحون بها إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوا المسلمين، حذَّر الله تعالى المسلمين منها فقال:

﴿وَإِن أٰطَعْتُمُوهُمُ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي: إن أطمعتموهم في استحلال ما حرَّم الله تعالى فقد أشركتم، فكلَّ من أحلَّ شيئاً مما حرَّم الله، أو حرَّم شيئاً مما أحلَّ الله فهو مشرك، لأنه أثبت حاكماً - مشرعاً - غير الله ﷻ، ومن كان كذلك فهو مشرك (٢)، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ رُءُوبًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد روى [الترمذي (٣٠٩٥)] في تفسيرها: عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم، فقال: «بلى إنهم أحلُّوا لهم الحرام، وحرَّموا عليهم الحلال، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إيَّاهم».

• الإيمان حياة والكفر موت:

ثم ضربت الآيات مثلاً تبين فيه نعمة الإيمان وآثاره الطيبة الحميدة في قلوب المؤمنين وسلوكهم، وتقارن بينه وبين الكفر وظلماته وآثاره السيئة في

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٦١٤/١.

(٢) تفسير الخازن: ٤٧٧/٢.

نفوس أصحابه وسلوكهم؛ فالمؤمنون مستضيئون بأنوار الوحي الإلهي، بينما المشركون غارقون في ظلمات الجهل والظلم، ووساوس الشيطان، وتقليد رؤساء الضلال والكفر:

﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾

﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ يعني: أو من كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان، فالكفر موت، والإيمان حياة، ولا خير في قلب لا إيمان فيه، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ۚ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقد يكون المعنى: أو من كان ميتاً بالجهل وهوى النفس فأحييناه بالعلم ومحبة الحق.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ أي: نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل^(١).

وقد مر معنا أنه سبحانه سَمَّى ما في السورة من أدلة وبراهين بصائر: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤]؛ فالمؤمن على بينة من ربه وبصيرة، يميز بها بين المحق والمبطل من الناس:

﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ فلا ينخدع بزخرف القول مهما كانت وسائل الخداع والتزوير قوية.

وسبق أن بينت من خلال ما تقدّم من آيات السورة خطورة وسائل الإعلام وشدة تأثيرها على الناس، وأنه لا سبيل لحماية المسلمين من خطرهما إلا بالاعتصام بالقرآن الكريم، وهذه الآية تأكيد لما سبق، فالقرآن الكريم هو النور

(١) تفسير البياضي: ٤٧٧/٢.

الذي يضيء للمسلم طريق حياته، يسير به بين الناس مهما كانت نحلهم ومللهم، دون أن يتأثر بزخرف أقوالهم ووسائل إعلامهم.

وتدلُّ الآية أيضاً على أن المسلم ينبغي أن يكون إيجابياً مع الناس، يمشي بينهم، ويعيش معهم على هدي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما تدلُّ على ضرورة التطبيق العملي لأحكام القرآن الكريم، فالمعرفة النظرية لا تكفي، فلا بد للمسلم أن يمشي بالقرآن الكريم بين الناس، وقد ألزم نفسه بأحكامه عقيدة وعملاً وسلوكاً وحُلماً.

فلا يمكن للمسلم أن يسير بالقرآن بين الناس بمجرد المعرفة النظرية، فالناس لا يرون من المسلم خبيثة نفسه وما عقد عليه قلبه، وعندما يرى الناس من المسلم صدقه وأمانته وعفته واستقامته وتنزهه عن المحرمات، وحرصه على الطاعات والعبادات، عندئذ يرون المسلم الذي يمشي بينهم بالقرآن الكريم، ويعرفون حقيقة الإسلام وجوهر الإيمان.

وبهذا يتميز المسلم الذي يمشي بين الناس بنور القرآن وهدى الإيمان عمّن يتخبط في ظلمات الكفر:

﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وهي ظلمات الكفر والشهوات، وما أكثرها، يتراكم بعضها فوق بعض حتى تحجب صاحبها عن رؤية الحقيقة مهما كانت قريبة وواضحة.

فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ يدلُّ على شدة الظلمات المحيطة به من كلِّ جانب، فقد غلفت قلبه وختمت عليه، فأنى له أن يرى طريق الهداية، ويبصر معالم النور، وهو معرض عن هدي الله تعالى، مقبلٌ على موالاة الشياطين الذين يزينون له المعاصي والفواحش بزخرف القول غوراً:

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

• أكابر المجرمين:

ورؤوس الضلال والكفر الذين يزينون للناس المعاصي والآثام موجودون

في كلِّ المجتمعات، منشأ ضلال الناس من تقليدهم تقليداً أعمى، فتراهم يسيرون وراءهم، وقد خدعتهم أقوالهم المزخرفة:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا
بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ قدر الله تعالى أن تكون الحياة الدنيا دار اختبار وابتلاء، فكما جعل فيها الأنبياء والمرسلين ومن سار على طريقهم من الصالحين المصلحين، جعل بالمقابل في كلِّ بلدٍ ومجتمعٍ أكابر المجرمين، ينشرون الفساد، ويعارضون دعوة الأنبياء والمرسلين، ويصدون الناس عنها بكلِّ ما لديهم من وسائل المكر والخداع.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يعودُ وبالأمرهم وإضلالهم إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].
وأكابر المجرمين هؤلاء شأنهم التكبر والتجبر ومعارضة دعوة الأنبياء ﷺ حسداً وبغياً:

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ .

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ فيها بصيرةٌ من بصائر الحق وبرهان قاطع يلزمهم بتصديق النبي ﷺ.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، وهذا يدلُّ على شدة الكبر والحسد في نفوسهم فكلُّ واحد منهم يريد ألا يختص أحدٌ دونه بشيء: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّثَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢].

وسبق أن مرَّ معنا أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يطرد الفقراء والضعفاء عن

مجلسه، وأنهم استنكروا أن يجعل الله هدايته في هؤلاء الضعفاء الفقراء فقالوا:
﴿أَهْتُولَاءَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣].

وأنه تعالى ردّ عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وهاهو سبحانه يردّ عليهم هنا عندما رفضوا الإيمان، واعترضوا على تخصيص الرسول ﷺ بالرسالة دونهم، بقوله الكريم:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فلا يجعل رسالته إلا عند من يصلح لها من خلقه، وهو سبحانه العليم الحكيم.

وهذه شهادة ربّانية رفيعة بأنه عليه الصلاة والسلام خيرٌ من يصلح لحمل رسالة الله تعالى وتبليغ أمانته، فهدايته جلّ وعلا يجعلها في الشاكرين المعترفين لله تعالى بفضله وإحسانه عليهم، أمّا رسالته سبحانه فشأنها أخطرٌ وأعظمٌ، فلا يجعلها إلا في أكمل عباده خُلُقاً وخُلُقاً، ولهذا جاء قوله سبحانه هنا مطلقاً عن أي قيد بوصف معيّن، فدلّ على أنه ﷺ هو خيرته تعالى وصفوته من عباده على الإطلاق.

قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله ﷻ اصطفى كنانةً من ولدِ إسماعيلَ عليه الصلاة والسلام، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريشِ بني هاشمٍ، واصطفاني من بني هاشمٍ» [رواه مسلم (٢٢٧٦)].

ثم بيّن سبحانه عاقبة هؤلاء المجرمين المتكبرين بقوله:

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ذلّةٌ دائمة يوم القيامة، الجزاء من جنس العمل.

﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أي: بسبب مكرهم وخداعهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى.

• من حقائق القرآن العلمية:

والإسلام هو التسليم الكامل لله تعالى، والرضا بأحكامه الشرعية والقدرية دون أي اعتراض، فالمسلم لا يبغي على أحدٍ، ولا يحسدُ أحداً، وذلك لأنّ الله

تعالى يشرح صدره للإسلام، وينوره بنور القرآن، ويحبب إليه الإيمان، ويزينه في قلبه:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ .

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي: ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامات على الخير، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْفَنَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].
يقال: شرح الله صدره فانشرح، أي: وسَّعه لقبول الإيمان والخير فتوسَّع، فمال إليه وقويت رغبته فيه. وبالمقابل:

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ أي: يخذله ويتركه في ضلاله.

﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ شديد الضيق، فلا يصل إليه شيء من الإيمان والخير.

﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ فإذا ما دُعي إلى الإسلام كأنه قد كُلف أن يصعد إلى السماء، ولا يقدر على ذلك، أو ضاق صدره عن الإسلام، فطلب مصعداً في السماء، أو كأنه يصعد إلى السماء بعداً عن الإسلام وتكبراً^(١).

هكذا فسّر المفسرون السابقون الآية الكريمة، وقد أضاف العلم الحديث معنى آخر للآية، لا يتعارض مع ما تقدم، فقد كَشَفَ العلم الحديث التوازن القائم بين ضغط الغلاف الجوي على جسم الإنسان، وبين ضغط الدم على جدران العروق والشرايين التي يجري فيها، فإذا ما صعد الإنسان في جو السماء اختلَّ هذا التوازن، ونتج عنه شعور الإنسان بضيق في صدره، وصعوبة في التنفس، مع دوار وثقل في رأسه، ويمكن أن يؤدي الاستمرار في الصعود إلى انفجار مجاري الدم في جسده، ولهذا صنعوا للطيارين الذين يصعدون إلى

(١) مجموعة التفاسير: ٤٨١/١.

طبقات عالية في الجو، ولرجال الفضاء، ملابس خاصة بهم، لتحفظ لهم التوازن وتحميهم من مخاطر اختلاله، فكلما ارتفع الإنسان تعرّض لمخاطر انخفاض الضغط الجوي ونقص الأوكسجين أيضاً، ولهذا تزوّد الطائرات بأجهزة خاصة تمدّ المسافرين بالأوكسجين اللازم في حال اضطرارها إلى الطيران المرتفع.

فالآية تشير إلى حقيقة علمية ما عرفها الإنسان إلا في العصر المتأخر، مما يؤكد أن القرآن الكريم من كلام الله تعالى العليم الحكيم.

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ أي: العذاب أو الخذلان:

﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومع أنّ الهداية والضلال بيده سبحانه وبمشيئته، فقد جعل للإنسان كسباً واختياراً، وجعل طريق الهداية أمامه مفتوحاً، وبصائر الحق على أطراف الطريق واضحة ظاهرة:

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۖ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٢٦).

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهو ظاهر لا لبس فيه ولا خفاء.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ الدلائل والبراهين والبصائر التي تبين الطريق وتوضحه.

﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: ينتفعون بالدلائل والبصائر ويتعظون.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٧).

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهؤلاء المنتفعين بالآيات الجنة السالمة عن كل الآفات والمنغصات، أو هي الدار التي يدعو إليها السلام، وهو اسم من أسمائه تعالى الذي قال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

﴿وَهُوَ وَإِيَّاهُمْ﴾ متولّي أمورهم في الدنيا والآخرة.
﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات والعبادات.

• الانتقام من الظالمين بالظالمين:

وأما الذين أعرضوا عن دين الله و تولّوا غيره من شياطين الإنس والجن، فقد بيّن سبحانه حالهم يوم القيامة بقوله:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ شياطين الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويلوذون بهم، ويطيعونهم، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي: يقال لهم: يا معشر الجن قد أضللتكم كثيراً من الإنس.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع بعضنا ببعض، فالمنفعة بين الفريقين متبادلة، فانتفاع الإنس بالجن بأن دلّوهم على الشهوات وأسباب التوصل إليها، وانتفاع الجن بالإنس بطاعة الإنس لهم وموالاتهم واتباعهم.

﴿وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ وكان هذا الاستمتاع إلى أجل معيّن ووقت محدّد، ثم انقضى ومضى وبقيت الحسرة والندامة.

﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ منزلكم ومأواكم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: ماكثين في النار بمشيئته سبحانه، فخلودهم في النار ليس واجباً ولا لازماً، وإنما هو بمشيئته سبحانه وتقديره، وقد أخبر

سبحانه في آيات كثيرة أنه شاء وقدر أن يمكثوا فيها أبداً، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَمُوتُونَ وَلِيَا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب].

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

ومن حكمته سبحانه أن يسلط الظالمين بعضهم على بعضهم، فينتقم من الظالمين بالظالمين:

﴿وَكَذٰلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ﴾ .

أي: كما جعلنا لظالمي الجن وشياطينهم تسلطاً على ظالمي الإنس، نسلط بعض الظالمين على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، ومنتقم من بعضهم ببعض؛ جزاء على ظلمهم وبغيهم.

وقد روي عن ابن مسعود مرفوعاً: «من أعان ظالماً سلطه الله عليه»^(١) [رواه الديلمي في «الفردوس»، وابن عساكر في تاريخه، وفيه ابن زكريا العدوي متهم بالوضع كما في «كشف الخفا»].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: هو أن الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولّى عليهم خيارهم، وإذا أراد بقوم شراً ولّى عليهم شرارهم. فعلى هذا القول: إن الرعية متى كانوا ظالمين سلط الله عليهم ظالماً مثلهم، فمن أراد أن يخلص من ظلم ذلك الظالم فليترك الظلم^(٢).

ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وما جاء في الأثر «أعمالكم عمالكم كما تكونوا يولّ عليكم» [رواه الطبراني من كلام الحسن البصري، والحاكم والقضاعي عن أبي بكر مرفوعاً، وفي سنده مجاهيل كما في «كشف الخفا»].

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٦١٩/١.

(٢) انظر: تفسير الخازن: ٤٨٤/١.

• الاعتراف بالجريمة:

وتابعت الآيات الكريمة حكاية ما يقال للمكذّبين بدعوة الحق من الإنس

والجن يوم القيامة:

﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَعَرَّضْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ أي: من جملتكم؛ فالرسل من

الإنس، وأما رسل الجنّ فهم الذين بلّغوا قومهم ما سمعوا من رسل الإنس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

ويمكن أن يرسل الله تعالى رسلاً من الجنّ كما أرسل من الإنس، كما رأى بعض المفسّرين^(١).

﴿يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ أي: يقرؤون عليكم آياتي التي أنزلتها عليكم.

﴿يُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: ويخوفونكم من الحساب والجزاء في يوم القيامة.

﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ بقيام الحجّة علينا، وتبليغنا آيات الله تعالى، وهو

اعتراف منهم بالجرم والكفر واستحقاق العذاب.

ثم بيّنت الآية الكريمة سبب إعراضهم عن دعوة المرسلين ﷺ:

﴿وَعَرَّضْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم الحياة الدنيا بزخرفها وزينتها وطول

آمالهم فيها.

﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٦/٧.

وقد قدّر سبحانه أنه لن يهلك أمةً من الأمم مهما بلغ عنادها وكفرها، حتى يرسل إليهم رسولاً ينذرهم ويحذرهم عاقبة كفرهم وفجورهم:

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ بَطْلٍ وَأَهْلَاهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ .

أي: وهم غافلون عن عاقبة كفرهم وفجورهم، لم ينذرهم رسول، ولم يحذرهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].
لقد أعذر الله إلى الأمم بإرسال الرسل إليهم، وما ظلمهم سبحانه عندما أنزل بهم ما أنزل من العذاب والهلاك، كما أنه سبحانه لا يظلمهم أيضاً يوم القيامة بل يعاملهم على حسب أعمالهم التي عملوها في الدنيا:

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ .

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: لكل عامل من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله، يبلغه الله إياها، ويثيبه بها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر^(١).

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه سبحانه عمل واحد منهم. فمن يعمل بطاعة الله تعالى فتواب عمله يعود على نفسه، والله غني عنه، لا يحتاج إلى أحدٍ من خلقه، وجميع الخلق محتاجون إليه سبحانه:

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأْ كَمَا أَنشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ .

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ ومن رحمته إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وعدم تعجيل عذاب المعاندين والمعرضين لعلهم يتوبون إلى الله، ويعودون إلى ساحة فضله ومغفرته.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٦٢٠.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ جميعاً بالإهلاك، فلا يظنُّ أحدٌ أنَّ الإهلاك متوقف على شيءٍ غير مشيئته تعالى .

﴿وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أي: وهو سبحانه قادرٌ على أن يخلق بعد إهلاككم ما يشاء من المخلوقات من جنسكم أو من غير جنسكم .

﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ بعد أن أهلكهم .

فموعدُ الهلاك قادمٌ لا شك فيه :

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٣٤) .

فلا يعجز الله تعالى عنكم، ولا مفرٌ لكم من سطوته وقهره جلٌّ وعلا .

• الكلمة الأخيرة:

وبعد هذا التهديد والوعيد الشديد للمعاندين والمعارضين من المشركين، أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يوجه لهم كلمة أخيرة على وجه النصيحة المشوبة بالتهديد الشديد:

﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَنقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٣٥) .

﴿قُلْ يَقَوْمِ﴾ أي: يا أقرب الناس إليّ، فأنتم أهلي وعشيرتي، ولا آلو في نصحكم .

﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على أقصى تمكنكم واستطاعتكم، أو على حالتكم التي أنتم عليها، يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان^(١) . والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم، وهذا على سبيل التحدي لهم .
﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكاني ثابت على الإسلام، لا أبالي بكلِّ ما ألقاه منكم،

(١) تفسير النسفي: ٤٨٨/١ .

فهو كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٣٦﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ [هود].

إنها العزيمة والثقة التي تملأ قلب النبي ﷺ، وهو في أشد حالات المواجهة مع المشركين.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ﴾ أي: أكون لي أم لكم؟ وفي هذا الأسلوب اللطيف للإنذار إنصافاً في المقال، وحسن الأدب، مع إظهار الثقة والعزيمة في وجه المخالفين.

ثم بين أن عاقبة الدار للنبي ﷺ فقال:

﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، وقد أنجز الله مواعده لرسوله ﷺ، فإنه تعالى مكَّنه في البلاد، وحكَّمه في نواصي مخالفيه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذَّبه من قومه وعاداه وناوأه^(١).

• ضلالات جاهلية:

وعادت الآيات الكريمة تعرض نماذج أخرى للضلالات والمفاسد التي كانت فاشية بين العرب في الجاهلية:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ
وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ
يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خلق.

﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ الزرع والثمر.

﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم.

﴿نَصِيبًا﴾ جزءاً وقسماً.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٢١/١.

﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ﴾ أنه لله، والله لم يأمرهم بذلك، ولم يشرع لهم القسمة.

﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ وهذا القسمة الآخر للأصنام والأوثان، وكانوا ينفقون ما جعلوه لله على الضيفان والفقراء، وما جعلوه للأصنام على سدنيتها والقائمين عليها.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: ما كانوا ينفقونه في الوجوه التي ترضي الله تعالى.

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ لأنهم ينفقونه على سدنيتها، فقد كانوا إذا أصابتهم شدة وقحط أو هلك ما جعلوه لشركائهم، أخذوا بدله مما جعلوه لله تعالى.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بس ما يحكمون من هذه الأحكام الفاسدة التي لا يقرها عقل، ولم يرد بها شرع، ولهذا كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمئة من سورة الأنعام^(١).

ومن هذه الضلالات والمفاسد:

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَبُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَبُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ بوأد البنات الصغيرات بدفنهن في التراب أحياء خشية الفقر والعار، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل].

(١) تفسير القرطبي: ٩٠/٧.

وأُخِّرَتِ الْآيَةُ بَيَانُ مَصْدَرِ التَّزْيِينِ وَالتَّحْسِينِ لَجُرِيْمَةِ قَتْلِ الْأَوْلَادِ لِتَشَوُّفِ
النَّفُوسِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ بَعْدَ أَنْ تَشْمَتَزَ مِنْ قَبْحِ الْجُرِيْمَةِ وَشَنَاعَتِهَا، فَقَالَ:

﴿شُرَكَاءُ لَهُمْ﴾ وَالْمُرَادُ بِهِمُ الشَّيَاطِينُ الَّذِينَ كَانُوا يُوسُوسُونَ لَهُمْ زَخْرَفَ
الْقَوْلِ غُرُورًا، كَمَا مَرَّ مَعْنَا، أَوْ سَدَنَةُ الْأَصْنَامِ، وَسُمُّوا شُرَكَاءَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَطِيعُونَهُمْ وَيُعْظَمُونَ أَمْرَهُمْ، فَأَصْبَحَتْ طَاعَتُهُمْ عِبَادَةَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَلَا تَزَالُ الشَّيَاطِينُ تَزِينُ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ
وَهُمْ أَجَنَّةٌ فِي بَطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، بِعَمَلِيَّاتِ الْإِجْهَاضِ وَوَسَائِلِ الْإِسْقَاطِ الْمَخْتَلِفَةِ.

ثُمَّ كَشَفَتِ الْآيَةُ الْغَايَاتِ الْخَبِيْثَةَ لِتَزْيِينِ مِثْلِ هَذِهِ الْجَرَائِمِ بِقَوْلِهِ جَلٌّ وَعَلَا:
﴿لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أَي: لِيَهْلِكُوهُمْ وَلِيُبْعِدُوهُمْ عَنِ الدِّينِ
الْحَقِّ.

وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى عَصْمَتِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْجَرَائِمِ وَالضَّلَالَاتِ، وَلَكِنَّهُ
سَبْحَانَهُ جَعَلَ لَهُمْ كَسْبًا وَاخْتِيَارًا لَهَا:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ﴾ أَي: أَتْرَكَهُمْ وَمَا يَخْتَلِقُونَ مِنْ
الْأَكَاذِبِ وَالْأَضَالِيلِ بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَهُمْ فَسَادُهَا وَتَبْلُغُهُمْ رِسَالَةُ اللَّهِ تَعَالَى.
ثُمَّ بَيَّنَّتِ الْآيَاتُ الْكَرِيْمَةَ جَانِبًا مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْمَفَاسِدِ الَّتِي كَانُوا يَفْعَلُونَهَا
فِي أَمْوَالِهِمْ مِنَ الزَّرْعِ وَالْأَنْعَامِ:

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرَّتْ حَجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا
وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٨).

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرَّتْ حَجْرٌ﴾ أَي: قَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَذِهِ أَنْعَامٌ وَزُرْعٌ
وَتِمَارٌ حَرَامٌ لَا يَنْتَفَعُ بِهَا.

﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ أَي: لَا يَأْكُلُ مِنْهَا إِلَّا مَنْ نَرِيدُ.

﴿بِرِزْقِهِمْ﴾ الْبَاطِلُ مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ وَلَا بَرَهَانٍ.

﴿وَأَنْعَمْتُ حُرْمَتَ طُهُورِهَا﴾ وهذه أنعام منعت ظهورها فلا تُركب ولا يُحمَلُ عليها .

﴿وَأَنْعَمْتُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: وهذه أنعام تذبح للأصنام، ولا يذكرون اسم الله عند ذبحها .

﴿أَفِرَّاءَ عَلَيْهِ﴾ على الله سبحانه .

﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾ أي: بسبب ما كانوا يكذبون على الله تعالى .

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيَّ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ .

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أي: الأجنة التي في بطون هذه الأنعام الحوامل حلالٌ للذكور خاصةً دون الإناث .

﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَيَّ أَزْوَاجِنَا﴾ أي: وهي محرمة على الإناث والزوجات .

﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ أي: وإن تكن الأجنة ميتة فالذكور والإناث فيها سواء .

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ﴾ في التحريم والتحليل والكذب عليه تعالى .

﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ في كلِّ ما يشرع، وتنزَّه شريعته سبحانه عن هذه المفساد والضلالات .

ويدلُّ هذا التهديد المتوالي: ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنعام:

١٣٨]، ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ﴾ على خطورة التحليل والتحريم، فهو منوط بالله تعالى وحده، ولا يجوز لأحد أن يحلل شيئاً أو يحرمه من تلقاء نفسه .

• سفةٌ وجهل:

ولقد دأبت السورة كما مرَّ معنا على الردِّ على كل المخالفين، ولهذا

شرعت الآيات بعد أن بينت بعض ضلالات العرب في الجاهلية ومفاسدهم، شرعت في ردّها وبيان قبحها وفسادها بقوله تعالى :

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفَتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤١﴾﴾ .

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فالأولادُ نعمةٌ من الله تعالى، وقتلهم خسارةٌ كبيرةٌ وجريمةٌ عظيمةٌ، لا يفعلها إلا سفيهٌ طائشٌ جاهل .
 ﴿وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفَتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ أي: وخسر أيضاً الذين حرّموا بعض ما رزقهم الله تعالى من الزروع والثمار والأنعام كذباً عليه سبحانه .
 ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي: جاروا عن الحقّ وابتعدوا عن الهدى .
 ثم بيّن سبحانه أنه هو المالك الحقيقي للزروع والثمار والأنعام، لأنه هو الذي أنشأها وخلقها، فله سبحانه وحده أن يحلّل ويحرّم، فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أي: مرفوعات عن الأرض على ما يحملها .
 ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أي: متروكات على وجه الأرض غير مرتفعت عنها كالعنب والبطيخ والقرع ونحوها .
 ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ﴾ أي: وأنشأ النخل والزرع مختلفاً في الطعم والرائحة واللون .
 ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَكِّبًا﴾ في المنظر والحجم والطعم .
 ﴿وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ﴾ .

وهذه المرة الثانية التي ذكر الله تعالى في سورة الأنعام قدرته على إنشاء

الزروع والأشجار والثمار، إلا أنه في الآية الأولى ذكرها الله في سياق بيان قدرته سبحانه على خلقها وإبداعها، لذلك جاء مع ذكرها التوجيه الكريم من الله تعالى للنظر إليها والتأمل فيها خاصة عند نضجها لمعرفة عظمة خالقها ومبدعها: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

أما في المرّة الثانية هذه فقد ذكرت في سياق بيان ملكه تعالى لها، لأنه هو خالقها ومبدعها، فهو سبحانه الذي يبيّن ويشرّع كيفية التصرف فيها، ولهذا قال سبحانه في ذيل الآية:

﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ أي: إذا ظهر الثمر ولم ينضج بعد، والأمر للإباحة.

وفائدة الإباحة بيان جواز الانتفاع منه قبل أداء حق الله تعالى فيه الذي أوجبه بعد ذلك بقوله:

﴿وَعَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أي: يوم قطعه وقطافه.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: لا تتجاوزوا حد الاعتدال في الأكل منه، قال عليه الصلاة والسلام: «كُلُوا واشربوا والبسوا من غير إسرافٍ ولا مَخِيلَةٍ» [رواه البخاري تعليقاً (٥٢/١٠) والترمذي (٢٨٢٠) والنسائي (٧٩/٥) وابن ماجه (٣٦٠٥)].

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ بل يبغضهم بسبب إسرافهم، ففيه وعيد شديد

للمسرفين

• الأزواج الثمانية:

ثم بيّنت الآيات حكمته سبحانه وفضله في خلق الأنعام وتسخيرها للإنسان، وبطلان ما كان يفعله المشركون فيها:

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٤٦).

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ﴾ أي: وأنشأ سبحانه من الأنعام ما يحمل

الأثقال، ومنها ما يفرشُ للذبح، أو ما يفرش المنسوج من شعره وصوفه ووبره^(١). والمعنى الأول أظهر، لقوله سبحانه بعد ذلك:

﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: كلوا مما أحلَّ لكم منه.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ في التحليل والتحريم، والتي كان المشركون يسيرون عليها.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: عداوته ظاهرة لكم، فلا يريد بكم إلا الشر.

﴿ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ
أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي: أنثى سبحانه من الأنعام ثمانية أصناف، والزواج الفرد من الذكر أو الأنثى، لأن كلاً منهما يقارن الآخر ولا ينفك عنه.

﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: من الغنم ذوات الصوف ذكر وأنثى.

﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ أي: ومن الغنم ذوات الشعر ذكر وأنثى.

﴿قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: قل لهؤلاء الجهلة: هل حرم الله عليكم الذكرين من الضأن والمعز، أم حرم الأنثيين منهما؟ فهو استفهام إنكاري.

﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز؟

﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ أي: نبئوني بأميرٍ معلومٍ يدلُّ على أن الله حرم شيئاً من ذلك:

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

(١) تفسير البيضاوي: ٤٩٦/٢.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِينَ حَرَّمَ آمِرَ الْأَنْثِيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثِيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى.

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى.

﴿قُلْ ءَالَّذِينَ حَرَّمَ آمِرَ الْأَنْثِيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثِيَيْنِ﴾.

والآية تدلُّ على مشروعية المناظرة في العلم، لأن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يُناظرهم، ويُبين لهم فساد قولهم، فإن كان الله تعالى حرم الذكور، فكل ذكرٍ حرام، وإن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فكل مولود حرام ذكراً كان أو أنثى^(١).

وبعد أن بين سبحانه تهافت أقوالهم وتناقضها عقلاً، بين بطلانها نقلاً أيضاً

فقال:

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ التحريم، وفيه تهكم شديد بهم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب إليه سبحانه تحريم ما لم يحرم.

﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فالمسارعة إلى التحريم من غير علم ضلال

وإضلال، فهو أمرٌ كبير وخطير لا ينبغي القول به من دون دليل قطعي يدلُّ عليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يضعون الأحكام الشرعية في غير

مواضعها الصحيحة، قال تعالى محذراً من هذا الأمر: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ

أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

ولهذا نرى كثيراً من الفقهاء لا يطلقون لفظ الحرام على شيءٍ لم يجدوا فيه

نصاً قاطعاً، فإذا وجدوا نصاً قاطعاً بالتحريم والتحليل قالوا به، وإلا قالوا في

(١) تفسير القرطبي: ١١٥/٧.

الحلّ: لا بأس، وفي الحرمة: أكرهه، خوفاً من أن يشملهم هذا الوعيد والتهديد في مثل هذه الآيات الكريمة.

● شريعة الرحمة والتيسير:

التحليل والتحریم لا يكون إلا عن طريق الوحي الإلهي والشرع النبوي، ولهذا أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يقول للمشركين الذين يحللون ويحرمون من عند أنفسهم:

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أي: لا أجد طعاماً محرماً على آكل يأكله.

﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ وهي كل حيوان مات ولم يذبح ذبحاً شرعياً.

﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ أي: مصبواً سائلاً، فخرج منه دم الكبد والطحال، وما

يبقى في العروق بعد الذبح.

﴿أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أي: إن الخنزير قدر، أو إنه خبيث، أو إنه

نجس، وقد أثبت العلم الحديث أن لحم الخنزير يحمل كثيراً من أسباب المرض^(١).

وفي كل فترة يكتشف العلماء آفات كبيرة فيه^(٢) تؤكد رحمته سبحانه

(١) انظر: تفسير سورة المائدة في هذه الموسوعة، المسمى (الحلال والحرام في سورة المائدة).

(٢) من آخر ما اكتشف ما توصل إليه الدكتور بورجن هانوفر من الدانمرك بعد أبحاث عديدة على حوالي (٢٥٥٨٥) مريضاً من بلاده، من اكتشاف الجرثومة المسببة لمرض كثير =

وحكمته في تحريم أكل الخنزير، كما تبين ضرورة أن يكون التحليل والتحريم بيده سبحانه وحده الذي وسع علمه كل شيء.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ يدلُّ على تحريم استعمال جميع أجزاء جسم الخنزير، والجدير بالذكر هنا أن الأمم التي تأكل لحم الخنزير، أدخلت دهنه وشحمه وبقية أجزاء جسمه في كثير من الأطعمة المصنَّعة كالخبز والحلويات والبسكوت والمعلبات واللحوم والحساء والسلطة والجبن وما يسمونه: الجيل، وغير ذلك من الأطعمة، فعلى المسلم أن ينتبه لهذا، ويتأكد من محتوياتها قبل أن يتناول منها شيئاً.

﴿أَوْ فَسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ وهو ما ذُبح على غير اسم الله تعالى.

وسُمِّيَ ﴿فَسْقًا﴾ لتوغُّله في باب الفسق، وهو الخروج عن طاعة الله تعالى.

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ أي: دعت الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرّمات.

﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ غير قاصد التلذذ بالطعام المحرّم، فهو كقوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي

مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا متجاوز فيما يأكل قدر الضرورة.

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فلا مؤاخذه عليه إذا تناول من الطعام المحرّم

ما يحفظ حياته حتى يجد الطعام الحلال، فشريعة الإسلام شريعة الرحمة والتيسير والسماحة.

ودلت الآية على أن التحريم لا يكون إلا بوحى من الله تعالى، وأن الأصل

في الأشياء الحل والإباحة حتى يقوم دليل على تحريمها، وقد جاءت الأدلة بعد ذلك بتحريم غير هذه المحرّمات الأربعة كالخمر، وأكل كل ذي ناب من

⁼ الانتشار في أوربة، يبدأ بالإسهال والأنفلونزا وأعراض الزائدة الدودية، وينتهي بالالتهاب المزمن في المفاصل والكلى والقلب، وقد دعت هيئة الإعجاز العلمي في القرآن إلى جدّة ليتحدث عن أبحاثه العلمية. أخبار العالم الإسلامي، السنة (٢٣)، عدد (١٠٨٥).

السباع، وكلّ ذي مَخْلَبٍ من الطير، فالآيةُ مكيّةٌ، ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرّم غير هذه الأشياء^(١). والقول بأنّه لا يحرم مطعوم غير الأربعة المذكورة في هذه الآية باطلٌ بإجماع المسلمين^(٢).

وما كان أهل الجاهلية يحرمونه من الأنعام والحرث لا يوجد دليل على تحريمه في شريعة الإسلام، ولا في الشرائع الإلهية السابقة، ولهذا بيّن الله تعالى المحرّمات التي حرّمها على اليهود بسبب بغيهم وظلمهم، وعدم انقيادهم لشريعة ربّهم، فقال سبحانه:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَنِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ أي: حرّمنا على اليهود أكل كلّ حيوان ذي ظفر، وهو ما ليس منفرج الأصابع، كالإبل والنعام والأوز والبط^(٣).
 ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَنِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ أي: شحم الجوف والكليتين.
 ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ من الشحم فإنه غير محرّم عليهم.
 ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ وما اشتملت عليه الأمعاء فإنه غير محرّم.
 ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أي: والشحم المختلط بالعظم غير محرّم عليهم أيضاً.

وسبب هذا التحريم الذي خصّ به اليهود بيّنه سبحانه بقوله:

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في كلّ ما نخبر عنه. قال تعالى: ﴿فِي ظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا

(١) تفسير القرطبي: ١٦٥/٧.

(٢) أضواء البيان: ٢١٨/٢.

(٣) روح المعاني: ٤٧/٨.

حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٤٦﴾ وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبِطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿النِّسَاء﴾.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْئِهِ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ أي: المشركون أو اليهود بما أخبرت عن بغيهم وما حرم الله عليهم.

﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ﴾ يمهلكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة، فلا تغتروا بتأخير عقوبة تكذيبهم، فإنها إذا نزلت فلا يردُّها أحدٌ.

﴿وَلَا يُرَدُّ بِأَسْئِهِ﴾ عذابه وانتقامه.

﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ المكذِّبين لآياته والمعرضين عن شريعته.

• الردُّ على المحتجين بالقدر:

ولمَّا كانت آيات سورة الأنعام مهمتة بردُّ كلِّ الشبهات والضلالات التي يتعلق بها المخالفون في أي قضية من القضايا التي تتصدى لها - كما مرَّ معنا - ردت هنا في الآية التالية شبهةً يحتجُّ بها المشركون في قضية التحليل والتحريم:

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ نَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ أي: إنَّ الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه من الشرك حتى لا نفعله، فلولا أنه رضي ما نحن عليه من الشرك، وأراده منا لحال بيننا وبينه.

﴿وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ مما حرمانه من الأنعام والحرث كما مرَّ معنا.

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السابقة، كذبوا أنبياءهم وقالوا

مثل هذا القول.

﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ .

ولا يزال كثيرٌ من الناس بعدهم حتى العصر الحاضر يحتجّون بمثل ما احتجّ به المشركون، فتراهم يقترفون المعاصي والآثام، ثم يحتجّون بالقدر، ويقولون: هكذا قدر الله علينا، وهي كلمة حق وصدق، فكلُّ شيء بإرادته سبحانه وعلمه. والتكذيب ليس في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ فالله سبحانه قادرٌ على هداية جميع الناس إلى الإيمان ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

إنما الكذب في قولهم: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا بِهِ، ورضي ما نحن عليه، والذي يضمونه إلى قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ فقد حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨]. وردّ سبحانه عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَلَا تَقُولُوا لِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

فأمر الله تعالى يغيّر مشيئته وإرادته، فهو سبحانه يريد لجميع ما يحدث في الكون، غير أمرٍ بجميع ما يريد، وعلى العبد أن يتبع أمره سبحانه، وليس له أن يتعلق أو يحتج بمشيئته، فإنّ مشيئته لا تكون عُذراً لأحد فيما يفعله بكسبه واختياره، فلا يأمر سبحانه بالكفر والفجور، ولا يرضى به، مع أنه بمشيئته وإرادته جلّ وعلا.

فالذين يتمسكون بمشيئته سبحانه في شركهم وفجورهم مخطئون، وتمسكهم باطلٌ وفسادٌ، وهم مسؤولون ومحاسبون يوم القيامة عمّا أمرهم به سبحانه بواسطة الأنبياء والمرسلين ﷺ^(١).

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي: هل عندكم حجّة وبرهان على صحة دعواكم في الاحتجاج بمشيئته تعالى فتظهِروه لنا وتبيّنوه؟ هل أعلمكم الله تعالى بما قدره عليكم؟ وهل كلّفكم إلا بما أمركم به بواسطة أنبيائه ورسوله؟ .

(١) انظر: تفسير الخازن: ٥٠٤/٢.

﴿إِنْ تَنَّبَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ إلا الوهم والخيال .
 ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ وما أنتم إلا تكذبون على الله تعالى .

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ .

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أي: السلطان، أو البيّنة الواضحة التي بلغت غاية الوضوح والقوة .

فلا حجّة لأحد عصى الله تعالى، ولكن لله الحجّة البالغة على عباده بما أرسل إليهم من رسل، وأنزل عليهم من كتب، ولهذا فإنه سبحانه يذكر المحتجين بمشيئته بما كلّفهم به بواسطة رسله، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ ولقد بعثنا في كلّ أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطّغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عقبة المكذّبين ﴿٣٦﴾﴾ [النحل].

فرسالته سبحانه إلى المكلفين من عباده واضحة لا خفاء فيها: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطّغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقد جعل الله لهم كسبا واختياراً في ذلك، ولهذا فهم مسؤولون أمام الله سبحانه عمّا يعملون بكسبهم واختيارهم .

﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لكنه سبحانه شاء أن يكون للمكلفين كسب واختيار كما سبق معنا من قوله تعالى: ﴿فَدَجَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يزيد في تبكيتهم وتقريعهم؛ بقوله لهم:

﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيْنَيْنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ .

﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ﴾ أي: أحضروهم للشهادة .

﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ الذي حرّمتم من الأنعام والحرث .
 ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: فلا تصدقهم، فشهادتهم كاذبة باطلة .
 ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ
 يَعْدِلُونَ﴾ وهي كما مر معنا في أول آيات السورة: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
 يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] .

• الوصايا العشر:

وجاء دورُ الوصايا بعد كلِّ هذا الحشدِ الهائل من الأدلّة والبراهين،
 والمناظرات والمجادلات، والردود والتمحيصات، فمن أجل هذه الوصايا جمع
 الله تعالى في سورة الأنعام كلَّ هذه الحجج والبصائر، وهي عشر وصايا، بدأها
 سبحانه بقوله الكريم:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا
 تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
 بَطَّنَ وَلَا تَفْسُقُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَنَّمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقصُّ عليكم وأخبركم بما
 حرّم ربكم عليكم وبما أوصاكم به:

- أولها: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ والإشراكُ بالله رأسُ المحرّمات وأكبرها
 وأقبحها، ولا يقبل الله معه شيئاً من الطاعات، ولذلك جعله بداية هذه الوصايا
 وعنوانها .

- وثانيها: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أوصاكم بالإحسان إلى الوالدين،
 وحرّم عليكم عقوقهما .

وقد اقترن الأمرُ بالإحسان إلى الوالدين مع الأمر بعبادته وحده في عدد من
 الآيات الكريمة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبِّيكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾
 [الإسراء: ٢٣] .

ومنها قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان].

- وثالثها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقْتُمْ﴾ أي: من أجل فقر، أو من خشيته، وكان بعض العرب في الجاهلية - كما مر معنا - يقتلون أولادهم بسبب تزيين الشياطين ووساوسهم، وقد حذر الله تعالى منه في عددٍ من الآيات الكريمة، منها قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]. وقال سبحانه هنا:

﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فقد تكفل سبحانه برزق الآباء والأبناء.

- ورابعها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ أي: ما كان ظاهراً منها وما كان خفياً، فهو كما سبق معنا من قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِنْتِهَاءِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

- وخامسها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا تقتلوا النفس البشرية التي حرم الله قتلها، إلا بسبب مشروع يستوجب ذلك، قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» [رواه مسلم (١٦٧٦)].

فالاعتداء على حياة الإنسان بغير حق ذنب كبير، وجرم عظيم، وقد شرع الله تعالى القصاص حقناً لدماء الناس، وحفظاً لحياتهم، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وتوعد سبحانه قاتل النفس دون حق بأشد أنواع العذاب يوم القيامة: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

ثم ختم الله تعالى هذه المجموعة من الوصايا بقوله:

﴿ذَلِكُمْ وَصَنَّمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: وصاكم بهذه الوصايا الكريمة لعلكم

ترشدون، فإن كمال العقل هو الرشد.

ففي هذه الآية أسباب الكمال الإنساني، وأهمها توحيد الله تعالى، وإفراؤه وحده بالعبادة والطاعة، ثم برُّ الوالدين والإحسان إليهما، وتطهير النفس والسلوك من دنس المعاصي الظاهرة والباطنة، واحترام حقوق الآخرين والمحافظة عليها، ومن أهمها حق الحياة.

وبهذه الخصال الرفيعة يتميز الإنسان عن الحيوان، ويسمو في معارج

الكمال، ويكون حقاً منتفعاً بعقله، متفهماً لحقيقة حياته وجوهر وجوده.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكُفُّ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَنَّمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾

- سادسها: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: لا تعتدوا على

حقوق الأيتام، ولا تقتربوا من أموالهم إلا بقصد حفظها لهم.

فقد اهتم الإسلام بالضعفاء في المجتمع، وأمر بالمحافظة على حقوقهم،

قال رسول الله ﷺ يحثُّ على رعاية الأيتام وتربيتهم: «أنا وكافل اليتيم في الجنة

هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما. [رواه البخاري (٦٠٥)].

وتوعّد الله تعالى آكلي أموال اليتامى بأشد أنواع الوعيد فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وينبغي أن تستمر رعاية اليتيم وحفظه:

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: حتى يصير بالغاً راشداً، قادراً على التصرف في

ماله، والمحافظة عليه، كما قال: ﴿وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ

رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعِفْ وَمَنْ كَانَ

فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

- وسابعها: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، وهو مبدأ الإنصاف في المعاملات، والاحتراز والتوقي عن الشبهات.

ولمّا كان الالتزام بهذا المبدأ وتطبيقه في مختلف مجالات التعامل مع الناس أمراً عسيراً، قال سبحانه بعده:

﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، فما وراء الوسع معفو عنه.

- وثامنها: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: إذا تكلمتم بأداء شهادة أو تحكيم فاعدلوا، ولو كان الذي تشهدون عليه من أقاربكم، فلا ينبغي لعلاقات القرابة أن تؤثر على التزام الحق والعدل، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شَهِدَ اللَّهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٠].

- وتاسعها: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي: عهد الفطرة وعهد الإيمان وما عاهدتم الله عليه في النذور والأيمان، والعهود التي بينكم وبين الناس.

وأضيفت إلى الله تعالى لأنه أمر بحفظها والوفاء بها، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وختم الله تعالى هذه الآية بقوله:

﴿ذَٰلِكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لما في هذه المجموعة من الوصايا من التزامات يحتاج الإنسان دائماً أن يذكر بها ليؤدّيها على الوجه الكامل.

• الصراط المستقيم:

- ختم الله تعالى هذه الوصايا بوصيةٍ عاشرة، جمع فيها كلّ ما تقدم من الوصايا السابقة، أمراً بالتزامها والاستقامة عليها، محذراً من أي انحراف عنها، فقال ﷻ:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ
وَصَّوْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ .

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ فهو المنهج القويم والدين المستقيم الذي ارتضاه الله تعالى لعباده المؤمنين، فاتبعوه جملةً وتفصيلاً .

وسبق أن مررنا معنى قوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦] فكأن هذه الوصايا العشر جمع الله تعالى فيها كل التوجيهات والإرشادات التي ذكرت في آيات السورة .

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ أي: لا تتبعوا الشرائع والعقائد والملل والنحل المخالفة لدين الإسلام .

﴿فَنفَرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: تميل بكم عن الصراط المستقيم كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله ^(١) .

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيلُ الله مستقيماً» وخطَّ عن يمينه وشماله ثم قال: «هذه السُّبُلُ، ليس منها سبيلٌ إلا عليه شيطانٌ يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ . [رواه أحمد (١/٤٦٥) والحاكم (٢/٣١٨) وصححه] .

فللحق طريقٌ واحد، وللباطل طرقٌ كثيرة متفرقة متشعبة لكثرة الأهواء واختلافها، ولهذا وحَّد الله تعالى النور، وجمع الظلمات في أول آيات السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] .

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٣٣/١ .

وكان بعض السلف يرى أن هذه الآيات الثلاث رسالة من النبي ﷺ إلى كل إنسان، مختومة بخاتمه عليه الصلاة والسلام، قال ربيع بن خيثم لجلس له: أيسرك أن تُؤتى بصحيفةٍ من النبي ﷺ ولم يُفك خاتمها؟ قال: نعم، قال: فاقراً ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى آخر الآيات الثلاث.

وقد أجمعت كلّ الشرائع الإلهية المنزلة عليها، ولم تنسخ قط في ملة، وقد قيل: إنها العشر كلمات المنزلة على موسى، ونقل عن كعب الأخبار أنها مفتحة التوراة^(١).

﴿ذَلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: تتقون الله تعالى بالتزام الصراط المستقيم، والابتعاد عن السبل، والملل والنحل المخالفة له. ومما يؤكد أهمية هذه الوصايا العشر، وإجماع الشرائع الإلهية عليها قوله تعالى بعد ذلك:

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾^(١٥٤).

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: وآتيناه موسى الكتاب تماماً على الذي أحسنه الله ﷻ إلى موسى ﷺ، فإنزال التوراة عليه من تمام نعمته جلّ وعلا وإحسانه على نبيه موسى ﷺ^(٢).

﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: وفي التوراة تفصيل كل شيء يحتاجون إليه في شريعتهم، وفيها أيضاً:

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لعل بني إسرائيل يصدقون بقاء الله تعالى يوم القيامة.

(١) تفسير القرطبي: ١٣١/٧.

(٢) المرجع السابق: ١٤٣/٧.

وانتقلت الآيات من الحديث عن التوراة وعمّا فيها، ومسؤولية بني إسرائيل عنها إلى الحديث عن القرآن الكريم:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ .

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ فالقرآن الكريم خيرُهُ كثير لا ينتهي، ونفعُهُ كبيرٌ لا ينقطع، وقد سبق وصفه بهذه الصفة في قوله تعالى - الذي مرَّ معنا -: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

ثم أمر سبحانه باتباع أحكامه، وحذر من مخالفتها والخروج عنها فقال: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لعلكم بهذا الاتباع والالتزام تنالون رحمة الله في الدنيا والآخرة.

• القرآن الكريم والعرب:

ولما انتقلت الآيات الكريمة للحديث عن القرآن الكريم انتقلت أيضاً إلى مخاطبة قوم النبي ﷺ وهم العرب، لتبيين لهم مسؤوليتهم الكبيرة على وجه الخصوص في حمل رسالة القرآن الكريم إلى جميع الناس، إذ قامت حجة الله عليهم أكثر من غيرهم من الأمم، لأنَّ القرآن الكريم نزلَ على رجلٍ منهم، ونزلَ بلغتهم وفي أرضهم، فلا عذر لهم:

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ .

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: أنزلنا القرآن الكريم لينقطع عذرهم، فلا تقولوا: أنزل الكتاب على اليهود والنصارى من قبلنا ولم ينزل علينا شيء.

﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ أي: وما كنا نفهم ما يقولون، لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن في غفلة وشغلٍ مع ذلك عمّا هم فيه^(١).

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٣٥/١.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ
وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ
ءَايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ .

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: أكثر هدايةً إلى الحقِّ
ومعرفته منهم، لحدة أذهاننا وغازاة حفظنا .

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: فقد جاءكم في القرآن الكريم حجة
واضحة تعرفونها؛ لظهورها، ولكونها بلسانكم .

﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ وفيه أيضاً هدى ورحمة كما في التوراة .

﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: فلا أظلم ممن كذب بآيات الله بعد أن
عرَفَ صحتها أو تمكَّن من معرفتها .

﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ وأعرض عنها، أو صرف الناس عنها، فجمع بين الضلال
والإضلال^(١) .

﴿سَنَجِرَى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: العذاب السيئ الشديد .

﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ أي بسبب صدِّهم وإعراضهم عن القرآن الكريم وبصائره
وبراهينه .

فالعرب مسؤولون عن رسالة القرآن الكريم أكثر من غيرهم، لأن حجة الله
تعالى قامت عليهم قبل غيرهم وأكثر من غيرهم، فقد بلَّغهم النبي ﷺ رسالة
الإسلام قبل أن يبلِّغ غيرهم، وقد مرَّ معنا قوله تعالى: ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، فبدأ رسول الله ﷺ بأُم القرى مكة المكرمة، ثم ثنى بما
حولها من بقاع الأرض، وظلَّ مشغولاً بتبليغهم معظم سنوات حياته في الدعوة
حتى السنة السادسة من الهجرة، فبعد أن عقد عليه الصلاة والسلام صلح
الحديبية مع قريش، ووضعت الحرب أوزارها، شرع النبي عليه الصلاة والسلام

(١) انظر: روح المعاني: ٦٢/٨ .

في تبليغ الأمم والشعوب الأخرى خارج أرض العرب، وأرسل الرسائل والكتب إلى الملوك والأمراء، يدعوهم إلى الإسلام، ويبلغهم دعوة القرآن.

ويؤكد مسؤولية العرب الخاصة عن حمل رسالة القرآن الكريم إلى الناس كافة أن الله تعالى خصَّص في القرآن الكريم آيات كثيرة تبين ما كان فاشياً في المجتمع العربي الجاهلي من ضلالات ومفاسد، وقد مرَّ معنا كثير منها في سورة الأنعام، كما مرَّ معنا: أن النبي ﷺ أمر أن يناديهم بـ (يا قوم) تذكيراً لهم بروابط القرابة والجنس واللغة والأرض التي تربطه عليه الصلاة والسلام بهم، وما ناداهم عليه الصلاة والسلام بذلك إلا ليدكرهم بمسؤوليتهم الكبيرة الخاصة أمام الله تعالى عن حمل القرآن وتبليغه للناس.

فدعوة الإسلام منزّهة عن كل هذه الروابط، وهي أسمى منها، فهي رسالة عامة شاملة للإنس والجن، وقد قال تعالى يقرر هذه المسؤولية ويؤكدها ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

• أشرط الساعة:

فماذا ينتظر المعاندون والمعرضون من قوم النبي ﷺ بعد كل هذه الحجج والبصائر؟! ولم يبقَ إلا أن يكشف لهم عن المصير الأليم الذي ينتظرهم إن أصروا على عنادهم واستكبارهم:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ (١٥٨).

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لتقبض أرواحهم عندما تحين آجالهم، وقد مرَّ معنا وصف للملائكة وهي تقبض أرواحهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ أَلِيمٍ﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ يوم القيامة ليسألهم ويحاسبهم .

﴿أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ من أمارات الساعة وأشراتها، فقد جعل سبحانه ليوم القيامة علامات وأشراطاً تتقدم عليها، وهي أحداثٌ كبيرةٌ وعظيمةٌ خارقةٌ لعادات الناس ونواميس الكون في الحياة الدنيا، لأنها تأتي مقدمة لأعظم الأحداث الكونية وأشدها هولاً، ألا وهي قيام الساعة، فعندما تقوم الساعةُ تتغير النظم والنواميس الكونية كلها الأرضية والسماوية، فالسماوات تتشقق وتطوى، والنجوم تنكدر وتزول عن مواقعها، والأرض تتغير معالمها، فتنسفُ جبالها، وتمتلئ وديانها ووهادها، والشمس تكور وتذهب أشعتها، ويزول ضوءها، ومبدأ هذا التغير الكلي لجميع النظم الكونية يكون عند حدوث علامات الساعة الكبرى، إن هذه العلامات تغيرٌ جزئيٌّ في النظم والنواميس الكونية، يؤذنُ بقرب حدوث التغير الكلي، وقد أشار الله تعالى إلى أشراط الساعة هذه في عدّة آيات، هنا في هذه الآية، وفي قوله أيضاً: ﴿فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا أَلْسَاءَةً أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَعْتَةٌ فَدَدًا جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائنٌ من أمارات الساعة وأشراتها حين تطلع الشمس من مغربها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تقومُ الساعةُ حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طلعتُ ورآها الناسُ آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفعُ نفساً إيمانها لم تكن آمنَتْ من قبلُ» ثم قرأ هذه الآية. [رواه البخاري (٤٦٣٥)].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إن الله ﻻ يبسطُ يدهُ بالليلِ ليتوبَ مُسيءَ النهارِ، ويبسطُ يدهُ بالنهارِ ليتوبَ مُسيءَ الليلِ، حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها» [رواه مسلم (٢٧٥٩)].

﴿قُلْ أَنْظَرُوا إِنَّا مُنظَرُونَ﴾ وهو تهديدٌ شديدٌ للكافرين، ووعيد أكيد لمن سوفَ

إيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك^(١).

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٣٧/١.

● الدين الحق:

وعندما أشرفت سورة الأنعام على الانتهاء التفتت إلى النبي ﷺ تواسيه، وتخفف من معاناته، وتعلن براءته عليه الصلاة والسلام من جميع المخالفين لدعوته:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ باتباعهم للسبل المخالفة، وإعراضهم عن الصراط المستقيم. وقرئ: (فارقوا دينهم).

وأضيف (الدين) إليهم مع أنهم فارقوه وكفروا به، لأن الإسلام هو الدين الوحيد الحق الذي رضيه الله تعالى للناس جميعاً، ففطرحهم عليه، ودعاهم إليه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: وأصبحوا نتيجة مفارقتهم للدين الحق فرقاً متعددة، وأحزاباً كثيرة مختلفة، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فكثرة السبل يؤدي إلى كثرة الفرق والأحزاب والملل والنحل والضلالة المضلة. ولا شك أن الآية تنسحب أيضاً على أهل الضلالة من الأمة المسلمة من أصحاب البدع والشبهات، قال ابن كثير رحمته الله: «والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحداً لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: فرقاً كأهل الملة والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه»^(١).

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٣٨/١.

﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: أنت بريء منهم .
 ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ في الحساب والجزاء .
 ﴿ثُمَّ يَبْتَلِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: يحاسبهم يوم القيامة عما كانوا يفعلون في الدنيا .

ثم بيّنت الآيات فضل الله تعالى وعدله في الحساب يوم القيامة:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦١).

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وهذا من فضله سبحانه، فهو كقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].
 ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهذا من عدله جلّ وعلا .
 ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص في الثواب أو زيادة في العقاب، فهو كقوله تعالى:
 ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

● إعلان الدعوة:

وكما أعلن إبراهيم ﷺ براءته من قومه ومن كفرهم وشركهم بعد أن ناظرهم وأقام الحجة عليهم - كما مرّ معنا - أمر نبيّنا محمد ﷺ بعد أن واجه قومه والمعارضين لدعوته بكلّ ما تقدّم في السورة من الحجج البالغة والبراهين القاطعة، أن يعلنها دعوة ربانية خالصة عن شوائب الكفر والشرك، ويعلن انقياده لها، واستسلامه الكامل لله تعالى، المتصف بكلّ صفات الجمال والجلال والكمال، ليكون ﷺ القدوة المثلى، والأسوة العظمى:

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦١).

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا﴾ أي: دلّني ربي إلى الصراط المستقيم، وأمرني باتباعه والتزامه، فهو الدين الحق الذي تمتد جذوره في أعماق التاريخ البشري إلى عقيدة التوحيد التي نادى بها إبراهيم ﷺ:

﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

وتستدعي هذه العقيدة توحيد العبادة والسلوك، وتوجيه الحياة كلها بما فيها حسب منهج الله تعالى ودينه وشريعته:

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: قرباني وذبحي .

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ فما أحيأ عليه من الإيمان والإسلام أموت عليه، وأبقى متمسكاً به حتى الموت .

﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالصاً لله تعالى وحده .

﴿لَا شَرِيكَ لَهِ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

﴿لَا شَرِيكَ لَهِ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي: بهذا الإخلاص والتوحيد أمرت .

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهو كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ١٤] .

ولم تترك السورة حتى في هذا الإعلان أسلوب الجدل وإقامة الحجة على المخالفين وهو ظاهر في قوله:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِدُ وَازِرَةً وَذُرَّ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ .

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا﴾ أي: أطلب ربًّا .

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فكل ما سواه سبحانه مربوب لا يصلح للربوبية .

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فكل مكلف له كسبٌ واختيار، وإلى نفسه يعود نتيجة كسبه واختياره .

﴿وَلَا يُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ فالمسؤولية شخصية، فلا يحاسب أحدٌ عن أحد، ولا يتحمل أحدٌ ذنب أحدٍ.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ بسبب انحرافكم عن المنهج القويم والصراط المستقيم.



الْخَاتِمَةُ

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْئَلُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

ثم ختم الله تعالى هذه السورة الكريمة ببيان الحكمة من خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وبيان السبب الذي جعل الكفار يعدلون بالله تعالى غيره من المخلوقات.

وبهذا يظهر الارتباط الوثيق بين أول آيات السورة وآخرها، ففي أولها قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾.

فالله سبحانه خلق السماوات والأرض، وجعل فيهما الظلمات والنور الحسية والمعنوية، وخلق الإنسان، وسخر له ما في السموات والأرض، وأقام له الحجج والبراهين، وأنزل عليه الآيات والبيّنات، وقرب له البصائر، وجعل له وسائل التمكين والتمييز ليصبح أهلاً للمسؤولية، ابتلاءً واختباراً، ليهلك من هلك عن بينة وبصيرة، ويحيا من حي عن بينة وبصيرة.

يَبِّنُ سُبْحَانَهُ كُلَّ ذَلِكَ وَوَضَحَهُ فِي آيَةِ الْخَتَامِ:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْئَلُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً في الأرض.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾ .

أسأله سبحانه أن ينور قلوبنا ببصائر الحق، ويثبتنا على صراطه المستقيم،
والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه
والتابعين.



فهرس الموضوعات

تفسير سورة النساء

حقوق الإنسان في سورة النساء

- المقدمة ٥
- الفصل الأول: حقوق الضعفاء ٨
 - الأصل الإنساني الواحد ١٠
 - مبادئ في التواصل والتعاون ١٣
 - المحافظة على أموال اليتامى ١٤
 - تحريم ظلم البنات اليتامى ١٦
 - تشريع تعدد الزوجات ١٨
 - حق الزوجة في المهر ٢٠
 - الحجر على السفهاء ٢١
 - تسليم الأموال إلى اليتامى ٢٣
 - تقرير المزيد من حقوق الضعفاء ٢٦
 - الجزاء من جنس العمل ٢٧
 - ميراث الآباء والأبناء ٢٩
 - ميراث الزوجين ٣٢
 - ميراث الإخوة من الأم ٣٣
 - سلامة العرّض ٣٦
 - المسارعة إلى التوبة ٣٧
 - تحريم مظالم جاهلية ٣٩
 - تحريم الزواج من زوجات الآباء ٤٢

- ٤٤ - المحرّمات في الزواج
- ٤٨ - تحريم نكاح المتعة
- ٥١ - حقوق الزوجات المملوكات
- ٥٤ - تخفيف العقوبة عن الضعفاء
- ٥٦ - تذكير وتحذير
- ٥٨ - حرمة الأموال والأنفس
- ٦٣ • الفصل الثاني: آفات نفسيّة
- ٦٤ - تربية وتشريع
- ٦٦ - نسخ التوارث بالتحالف
- ٦٧ - تنظيم الأسرة
- ٦٨ - معالجة نشوز المرأة
- ٧١ - أسرة إنسانية واحدة
- ٧٢ - حقوق الجيران
- ٧٣ - حق الضيف والغريب
- ٧٤ - حقوق العبيد
- ٧٥ - التحذير من البخل
- ٧٦ - التحذير من الرياء وحب الظهور
- ٧٨ - عدل وفضل
- ٨٠ - الحرص على الطهارة
- ٨٤ - الضالّون المضلّون
- ٨٧ - طمس الوجوه
- ٨٩ - الذنب الذي لا يُغفر
- ٩٠ - المادحون أنفسهم
- ٩٢ - المؤمنون بالحبب والطاغوت
- ٩٤ - الكافرون برسالات الأنبياء
- ٩٥ - من الحقائق العلمية في القرآن

- الفصل الثالث: الحُكم بشريعةِ الله تعالى ٩٧
- أداء الأمانات وحفظ الحقوق ٩٨
- طاعة أولي الأمر وتحكيم شريعة الله ١٠١
- الإعراض عن تحكيم شريعة الله كُفر ونفاق ١٠٤
- أَعذار واهية وأيمان كاذبة ١٠٥
- طاعة رسول الله ﷺ وشفاعته ١٠٧
- يُسر الشريعة وسماحتها ١٠٩
- الرفيق الأعلى ١١١
- الفصل الرابع: التكليف بالجهادِ والحضّ عليه ١١٣
- تحذير ونفير ١١٥
- المتقاعسون عن الجهاد ١١٧
- وجوب مساعدة المستضعفين ١١٩
- بين غايتين ١٢١
- تَطْيُرٌ ونفاق ١٢٤
- التحدي بمعاني القرآن الكريم ١٢٧
- التحذير من نشر الإشاعات ١٢٨
- التحريض على القتال ١٣١
- الدال على الخير كفاعله ١٣٣
- السلام في الإسلام ١٣٤
- توحيد المواقف من المنافقين ١٣٧
- حكم القتل خطأً ١٤٠
- تحريم العدوان على حق الحياة ١٤٣
- الأمر بالتثبُّت في أثناء الجهاد ١٤٥
- درجات المجاهدين في الجنة ١٤٧
- الهجرة من بلاد الكفر والظلم ١٤٩
- قصر الصلاة في السفر ١٥٤
- صلاة الخوف ١٥٥

- الفصل الخامس: حادثة بني أُبَيْرِق ١٦٠
- الحادثة وحقوق الإنسان ١٦١
- اجتهاد النبي ﷺ ١٦٢
- تحريم الدفاع عن المجرمين ١٦٤
- اتهام البريء بُهتان ١٦٦
- عصمة النبوة ١٦٧
- حجية الإجماع ١٧٠
- حقيقة الشرك ومصدره ١٧٢
- صرعى الأمانى الباطلة ١٧٤
- ميزان العقاب والثواب ١٧٧
- أحسن الناس ديناً ١٧٨
- الفصل السادس: الثبات على الإيمان والتزام التقوى والعدل ١٨١
- تعظيم حقوق الضعفاء ١٨٢
- اختيار أخف الضررين ١٨٤
- العدل بين الزوجات ١٨٦
- الوصية الخالدة ١٨٨
- التزام العدل والثبات عليه ١٩٠
- الدوام على الإيمان والثبات عليه ١٩١
- تحريم الجلوس في مجالس الكفر والمعاصي ١٩٣
- من صفات المنافقين ومواقفهم ١٩٥
- التشهير بالظالمين وفضحهم ١٩٩
- الفصل السابع: عقائد أهل الكتاب ٢٠٢
- كُفر الجاحدين لرسالة الإسلام ٢٠٣
- جحود وعناد ٢٠٥
- كفر متوارث ٢٠٨
- عدوان أهل الكتاب على حقوق الناس ٢١١

- ٢١٣ الوحي والنبوة
- ٢١٥ الشهادة الأزلية الخالدة
- ٢١٧ حقيقة عيسى عليه السلام
- ٢٢٠ اعتزاز عيسى بعبوديته لله تعالى
- ٢٢١ برهان ونور
- ٢٢٢ حقوق الله تعالى وحقوق الإنسان

تفسير سورة المائدة

الحلال والحرام في سورة المائدة

- ٢٢٥ المقدمة
- ٢٣٠ النداء الأول: الأمر بالوفاء بالعقود
- ٢٣١ الوفاء بالعقود
- ٢٣٢ الوفاء بالعقود وتحليل بهيمة الأنعام
- ٢٣٣ الانقياد لله تعالى والتشريع
- ٢٣٥ بهيمة الأنعام
- ٢٣٧ النداء الثاني: الأمر بأكل الطيبات واجتناب الخبائث
- ٢٣٩ أخلاق ومبادئ
- ٢٤٠ التعاون والتكافل
- ٢٤١ التعاون والتأمين
- ٢٤٣ الميتة والخنزير
- ٢٤٥ تنبيه وتحذير
- ٢٤٦ حكم صيد البنادق
- ٢٤٨ التذكية المحلّة
- ٢٤٩ الأصل في أكل اللحوم الحظر
- ٢٤٩ اللحوم المستوردة والمعلّبة
- ٢٥١ الذبح عند الأقدام
- ٢٥١ الاستقسام بالأزلام

- ٢٥١ - سؤال الكهّان والعرّافين
- ٢٥٢ - علم الأرصاد الجوية
- ٢٥٣ - قِداح الميسر
- ٢٥٣ - الاستخارة المشروعة
- ٢٥٤ - السّمة المميّزة للمسلم عن الكافر
- ٢٥٥ - أهمية تشريع الحلال والحرام في الإسلام
- ٢٥٦ - تمام النعمة
- ٢٥٦ - الاضطرار
- ٢٥٧ - الطيّبات
- ٢٥٩ - صيد الجوارح
- ٢٦١ - ما يحرم أكله من الحيوانات
- ٢٦٢ - حكم ذبائح اليهود والنصارى
- ٢٦٣ - آراء شاذة
- ٢٦٤ - أهل الكتاب
- ٢٦٥ - المحصنات الكتابيات
- ٢٦٦ • النداء الثالث: الأمر بالطهارة
- ٢٦٦ - تمهيد
- ٢٦٧ - طيبات الروح
- ٢٦٧ - الوضوء والغسل والتيمم
- ٢٦٩ - التذكير بالميثاق
- ٢٧١ • النداء الرابع: الأمر بالعدل
- ٢٧٣ • النداء الخامس: التحذير من نقض الميثاق، وذكر نعمة الله
- ٢٧٥ - الناقضون الميثاق
- ٢٧٧ - نقض النصارى للميثاق
- ٢٧٨ - حاجة أهل الكتاب إلى رسالة الإسلام
- ٢٧٩ - سبل السلام
- ٢٨٠ - من ضلالات أهل الكتاب

- ٢٨١ - جاء البشير النذير ﷺ
- ٢٨٢ - جحود وخذلان
- ٢٨٤ - رجلان مؤمنان
- ٢٨٦ - عاقبة الحسد (جريمة القتل الأولى)
- ٢٩٠ - العقوبات الزاجرة لقطع الطرق والمفسدين في الأرض
- ٢٩١ - وثيقة تاريخية
- ٢٩٢ - آية الحراية
- ٢٩٣ - شريعة الرحمة والإحسان
- ٢٩٥ - أسلوب التربية في الإسلام
- ٢٩٦ • النداء السادس: الأمر بالتقوى والتحذير من اتباع الهوى
- ٢٩٨ - آية السرقة
- ٣٠٠ - المسارعون في الكفر
- ٣٠١ - السماعون للكذب
- ٣٠٢ - الأكالون للسُّخْتِ
- ٣٠٤ - الأحكام الثلاثة
- ٣٠٦ - القرآن الكريم والكتب السماوية
- ٣٠٧ - التحذير من اتباع الأهواء
- ٣١٠ • النداء السابع: التحذير من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء
- ٣١٣ • النداء الثامن: التحذير من الردة وعاقبتها
- ٣١٦ • النداء التاسع: التحذير من قبائح أهل الكتاب والكفار
- ٣١٨ - قبائح وفضائح
- ٣٢١ - جُرأتهم على الله تعالى
- ٣٢٣ - سبيل السعادة
- ٣٢٣ - تبليغ الرسالة
- ٣٢٥ - ضرورة التبليغ في العصر الحاضر
- ٣٢٧ - عبّاد الهوى والشهوة
- ٣٢٧ - بطلان عقائد النصارى

- ٣٢٩ - حقيقة عيسى ﷺ في القرآن الكريم
- ٣٣٠ - الغلو في الدين
- ٣٣١ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٣٣٢ - تحديد المواقف
- ٣٣٥ ● النداء العاشر: النهي عن تحريم الطيبات
- ٣٣٧ - أحكام الأيمان
- ٣٣٩ ● النداء الحادي عشر: الأمر باجتنب الخمر والميسر نهائياً
- ٣٤١ - نجاح الإسلام في محاربة الخمر والميسر
- ٣٤٣ - حكم اللعب بالنرد والشطرنج والكرة
- ٣٤٥ - التقوى والإحسان
- ٣٤٨ ● النداء الثاني عشر: الأمر بالانقياد لأمر الله في شرعه
- ٣٥١ ● النداء الثالث عشر: التحذير من قتل الصيد عند الإحرام وفي الحرم
- ٣٥٥ ● النداء الرابع عشر: التحذير من كثرة السؤال
- ٣٥٩ ● النداء الخامس عشر: الأمر بإصلاح النفس والتحذير من المفسدين
- ٣٦٢ ● النداء السادس عشر: الأمر بصيانة مال المسلم وتنفيذ وصيته
- ٣٦٦ ● خاتمة السورة: المشهد العظيم
- ٣٦٨ - التذكير بالنعمة
- ٣٧٠ - مائدة من السماء
- ٣٧٣ - المواجهة الكبرى
- ٣٧٦ - براءة وتفويض
- ٣٧٨ - الخاتمة

تفسير سورة الأنعام

بصائر الحق في سورة الأنعام

- ٣٧٩ ● المقدمة
- ٣٨٢ ● تمهيد: موضوع سورة الأنعام
- ٣٨٤ ● الفصل الأول: الحمد لله

- ٣٨٩ - الظلمات والنور
- ٣٩١ - بين أجلين
- ٣٩٢ - خالق كل شيء
- ٣٩٣ - سُنَّة الله في المكذِّبين
- ٣٩٥ - الباحثون عن حتفهم
- ٣٩٧ - الرحمة أولاً
- ٣٩٨ - الحياة والمسؤولية
- ٤٠٠ - كمال العبودية
- ٤٠٢ - المسلم الأول
- ٤٠٣ - مالك النفع والضرر
- ٤٠٥ - أعظم شاهد وأكبر شهادة
- ٤٠٦ - الكاذبون والمكذِّبون
- ٤٠٧ - أين شركاؤكم؟
- ٤٠٨ - المهلكون لأنفسهم
- ٤٠٩ - وقفة على النار
- ٤١١ - وقفة بين يدي الله تعالى
- ٤١٢ - حَمَلَةُ الأوزار
- ٤١٤ - الحياة الدنيا والآخرة
- ٤١٥ - حقيقتان هامتان
- ٤١٦ - النصر القريب
- ٤١٩ - لسنا وحدنا في الكون
- ٤٢١ - في الظلمات
- ٤٢٢ - الإنسان والدعاء
- ٤٢٤ - قسوة القلب
- ٤٢٥ - الاستدراج
- ٤٢٧ - ما أضعف الإنسان!
- ٤٢٩ - لا يستوي الأعمى والبصير

- ٤٣١ الفصل الثاني: تَوْجِيهٌ وَإِرْشَادٌ
- ٤٣٢ - تَمْهيد
- ٤٣٣ - كرامة المؤمنين
- ٤٣٥ - التفضيل بالإيمان والتقوى
- ٤٣٦ - رحمته سبحانه بالمؤمنين
- ٤٣٨ - عِزَّةُ الْإِيمَانِ
- ٤٣٩ - آية وحديث
- ٤٤١ - مفاتيح الغيب
- ٤٤٣ - النوم والموت
- ٤٤٥ - الطريق المرسوم
- ٤٤٧ - ظلمات البر والبحر
- ٤٤٨ - التحذير من الفرقة والاختلاف
- ٤٥١ - الابتعاد عن مجالس الكفر والفجور
- ٤٥٣ - الاستمرار في التبليغ
- ٤٥٥ - حَيْرَةٌ وَقَلَقٌ
- ٤٥٧ - العلاج
- ٤٥٩ الفصل الثالث: مناظرة وردود
- ٤٦١ - إبراهيم عليه السلام
- ٤٦٢ - ملكوت السموات والأرض
- ٤٦٤ - المناظرة
- ٤٦٧ - براءة وتفويض
- ٤٦٩ - أَمْنٌ وَخَوْفٌ
- ٤٧١ - شجرة النبوة
- ٤٧٢ - التوكيل بالرسالة
- ٤٧٥ - الرد على منكري النبوة
- ٤٧٧ - أم القرى
- ٤٧٩ - الردُّ على مُدَّعي النبوة

- ٤٨١ - الردُّ على الطبيعيين
- ٤٨٤ - المستقرُّ والمستودع
- ٤٨٦ - الحبُّ المتراكب
- ٤٨٨ - الرد على القائلين بصفة الولادة والولد لله تعالى
- ٤٩٠ - الإدراك والرؤية
- ٤٩٢ - جاءت البصائر
- ٤٩٤ - من أدب المناظرة
- ٤٩٦ - الإعلام المزخرف
- ٤٩٨ - تحكيم القرآن الكريم
- ٥٠١ • الفصل الرابع: سَفَهٌ وضلال
- ٥٠٤ - تمهيد
- ٥٠٤ - التحليل والتحريم لله تعالى
- ٥٠٦ - التسمية عند الذبح
- ٥٠٧ - الإيمان حياة والكفر موت
- ٥٠٩ - أكابر المجرمين
- ٥١١ - من حقائق القرآن العلمية
- ٥١٤ - الانتقام من الظالمين بالظالمين
- ٥١٦ - الاعتراف بالجريمة
- ٥١٨ - الكلمة الأخيرة
- ٥١٩ - ضلالات جاهلية
- ٥٢٢ - سفهٌ وجهل
- ٥٢٤ - الأزواج الثمانية
- ٥٢٧ - شريعة الرحمة والتيسير
- ٥٣٠ - الردُّ على المحتجين بالقدر
- ٥٣٣ - الوصايا العشر
- ٥٣٦ - الصراط المستقيم
- ٥٣٩ - القرآن الكريم والعرب

- ٥٤١ - أشراف الساعة
- ٥٤٣ - الدين الحق
- ٥٤٤ - إعلان الدعوة
- ٥٤٧ • الخاتمة
- ٥٤٩ • فهرس الموضوعات

